
الأعمال الكاملة
للإمام
الشيخ محمد عبده
تحقيق وتقديم
الدكتور محمد عمارة

دار الشروق


٣
الأعمال الكاملة
للإمام
الشيخ محمد عبده

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
تليفون : 4023399 (202) - فاكس : 4037567 (202)
e-mail: dar@shorouk.com - www. shorouk.com



الأعمال الكاملة



للإمام الشيخ محمد عبده

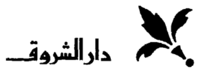
تحقيق وتقديم

الدكتور محمد عمارة

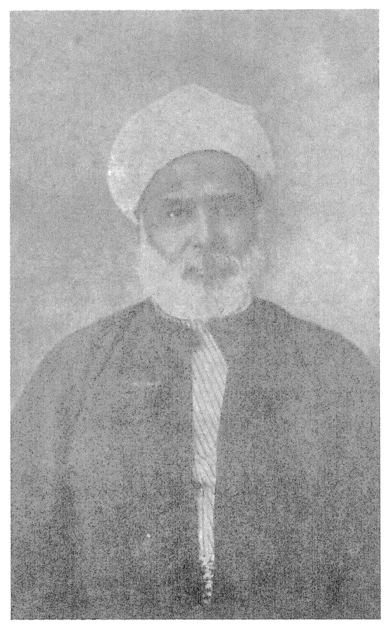
الجزء الثالث

الإصلاح الفكري، والتربوي، والإلهيات





دار الشروق



المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
ولد سنة ١٢٦٦ وتوفى سنة ١٣٢٣ هجرية
(١٨٤٩ـ١٩٠٥)

تقريظ الأهرام[1]

إنه لما نظر لدى كل قاص ودان، واشتهر بين بنى نوع الإنسان، أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان، مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك؛ إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة فى الصنائع، والابتكار فى أنواع البدائع. فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها، ويستجدون جداها. يستمطرون من الغيث قطرا، ويستمدون من المحيط نهرا. فكان التمدن فيها كهلاً، حين كان عند غيرها طفلاً، وما زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب، وأن ملوك الأرض خدام عتبته، وتيجان الكيانين تحت قبضته، فاستكبر واعتلى، ولكئوس الراحة اجتلى، فأقصته إلى ممالك الغرب، ليذوق مرارة الشغب واللغب، ويتربى بذلك ويتأدب، فبدا بتلك الممالك غريبا، ونادى معلما وجد مجيبا، وتناوشته أيدى الجاحدين، ولفحته أقوال المنكرين. وما زال يحتمل أنواع المتاعب، ويقاسى مستعصيات المصاعب، إلى أن بلغ بها أشده، وملك رشده، وسار فيها شرقا وغربا، وخامر ألباب القوم حبا، فعم انتشاره، وبدت آثاره وتلألأت أنواره.

وإذ تحلى بحلل الجمال؛ وتتوج بتاج الكمال، وقضى مدة السياحة، وباء بغاية الراحة، استدار الزمان كهيئته، ورجع الأمر إلى بدايته، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربيته، فورد ديار مصر ورود الأهلى، وتمكن بها تمكن الأصلى، فاستقبلته الديار بغاية المسرة، وأكرمت مثواه، وأعظمت أمره. واستردت ما كانت فقدت، وأدنت ما كانت أنأت. وأحلته محل القرب، و وأنزلته سوداء[2] اللب.

فقام يؤدى حق خدمتها، ويوفى شكر كرامتها. فنظر إلى ما كان أبداه فى تلك الأزمان، من شواهق البنيان، التى كم بلغت الأسباب وحيرت الألباب، وأنبأت بما فيها، عن براعة بانيها، ونطقت بفيها، أن آيات الكمال فيها. فلما أعجب بالمثال، حداه حادى الكمال، لأن ينسج على هذا المنوال، فأنشأ لنا جريدة الأهرام، المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام، الكافلة بإرشاد المسترشدين، وتنبيه الغافلين، بما فيها من المبانى الرقيقة، والمعانى الدقيقة، والأفكار العالية، المؤيدة بالبراهين الشافية، القائمة بنشر العلوم، بين العموم.

فيا لها من جريدة أسست قواعدها فى القلوب، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب، تنادى بمقالها وحالها حيّ على الفَلاَح، وهلموا إلى موارد النجاح. لا تقفوا عند صورة المبنى، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى. تلك أهرام أشباح، وهذه غذاء أرواح. تلك ظواهر صور، وهذه دقائق عبر. تلك مساكن أموات، وهذه لسان سر السماوات. نعم أين ذلك الزمان من هذا الآن، الذى قد سطعت فيه شموس العرفان، ونشأ فيه بنو الإنسان نشأة أخرى، وتقلب فى فنون الحقائق بطنا وظهرا؟! فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم، وأهرامنا غير أهرامهم. وأين الذى تفنيه الرياح والأمطار، من الذى لا توهنه توالى المدد والأعصار؟! فإن مقره العقول العاليات، والنفوس الزكيات التى لا يتناولها الفنا، ولا يبتذلها العنا، فَبَخٍ بَخٍ[٣] بمُنْشِيها، وطوبى لقاريها.

فمن الواجب على ذوى الألباب أن يجتنوا جناها، وأن يستطلعوا سر معناها، فيبوءوا بأنوار الحكمة، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة، فإنه ليس شىء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها، ولا ألذ من حكمة يصادفها. هذا إيجاز فى مزاياها، بسم اللّه مرساها ومجراها.

* * *

الكتابة والقلم[٤]

إن مما انبسطت به أيدى الضرورات، وأنتجته مقدمات الحاجات، إنشاء لسان القلم نائبا عن المتكلم فيما يتكلم. وذلك، أنه لما اقتضى النظام الإلهى أن يخلق الإنسان محتاجا فى أن يقوم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة إلى أن يتخذ مما خلق الله له فى الأرض ما لم يكن حاصلاً، وأن يكون منه ما لم يكن كائنا بحسب الخلقة الأصلية، ركب فيهم القوة النطقية، واللطيفة الفكرية، التى بها يكون ترتيب ما يحتاجون إلى اتخاذه من المطعم والمشرب، والملبس والمسكن. فقادتهم الفكرة إلى اتخاذ الصنائع وآلاتها، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع، بتفصيل لسنا الآن بصدده. وإنه وإن صح أن يقوم كل شخص بعمل من الأعمال، والبراعة فيه بالآلات البدنية، فليس فى قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكرا لما يحتاج إليه أرباب الأعمال فى أعمالهم، من اللوازم الضرورية، أو الأدوات التسهيلية، أو لما به يكون صلاح ذات بينهم فى المعاملات، وفصل الأمر بينهم عند الخصومات، على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعى الإنسانى، بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضا، بل ذلك إنما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة، والفطنة النقادة.

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفى فى ترتب الأثر عليه، بل لابد فى ذلك من إعماله وترتُّبيّته وإعداده لذلك الأمر العظيم، وتخليته عن جميع الأشغال سواه. فإن القوة الواحدة لا تكفى على البراعة لأمور متعددة. فاحتيج إذن إلى اتخاذ أرباب التعاليم؛ ليقوموا لهم بالعلم والإرشاد إلى طريق العمل، ويقوم أرباب الأعمال بإخراج ذلك من القوة[٥] إلى الفعل[٦]. فقام كل بواجبه، واعتاض كل من صاحبه. وكانت نسبة أرباب التعاليم إلى أولياء الأعمال نسبة

الأب الشفيق، والحفى الرفيق، ليس لهم فكر إلا فى ترقيتهم، ولا نظر إلا فيما يكون سببا لإسعادهم، وأساسا لراحتهم. وإذ رأوا ذلك منهم، تحققوا ما لهم من الفضيلة، وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة، فاشتعلت إذ ذاك أفكارهم، وارتفعت أنظارهم، واتسعت دائرة المعرفة، وغدت آيات الحقائق منكشفة. فعسر عليهم حفظ ما أسسوه، وعظم عليهم أن يؤدوه كما أبدوه، لكثرة المقدمات، وتشتت الجزئيات، وصعوبة ما تحتاج إليه القواعد، مما لا يقوم بحفظه الكثير، فضلاً عن الواحد. فاحتاجوا أيضا إلى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون إليه عند النسيان، ويذكرهم لدى البيان، فطفقوا يتخذون صورا من الأحجار، وأخشاب الأشجار، تحكى بالمناسبة عما يريدون، وتنطبق على ما يقولون، لتكون إشارة للعارفين، وحجابا على أعين الجاهلين. وكان ذلك كافيًا لنقطة من الزمان.

ثم لما شيدت مبانى العرفان، وانتشرت المعارف بين بنى الإنسان، وغصت الأرض بالعلوم، وسيّرت فيها سير النجوم، صعب عليهم الحفظ بالتصوير، والتبس الأمر على السميع البصير، فألجئوا بالاضطرار إلى حفظ ذلك بالأرقام العلمية، الحاكية عن الحروف اللفظية. القابلة فى الرسم للتأليفات الغير المتناهية، بدون أدنى التباس بين أشكالها، كما لا يحصل إلا الالتباس بين الألفاظ عند تأديتها. فكان القلم لسانا آخر للمتكلم، إلا أن ما نطق به اللسان الحقيقى عرض سيال، وما نطق به القلم جوهر لا يزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع إليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه. فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم، وبث أفكارهم. وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم. وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل إلى جيل، على نحو ما نال من إجمال وتفصيل، فكانت بذلك أفكار الأزمنة المتتالية، مجتمعة فى نقطة واحدة، وكذلك أفكار أهل زمان واحد، على ما فيها من الشوارد، بدون اشتباه فى ذلك، فحصل لذلك التعاون فى الأفكار، وإيقاد سرج الاستبصار، فإن أفكارا كثيرة تقدمت أو تأخرت، بمنزلة لجنة قد انعقدت للارتقاء فى حقيقة أمر

خفيت، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية، يرجع بين الأقوال، ويرى بنور بصيرته ما إليه أمر كُلٍّ آل.

فكم من وهم فاسد عنه اندفع، وكم من محال جاز وجائز امتنع. وكم من نور له بين تلك الآراء لمع، فكان له مُكْنة أن يمشى فى ضوء مصباحه، وأن يضرب بسلاحه، لطلب صلاحه. فوضع القواعد، وأقام الشواهد، ورمى بالقذى فى عين الجاحد. فارتقت العلوم إلى ذراها، وارتبط أولاها بأخراها، وركض العالم فى ضوئها، واستقوا من هاطل نوئها، وعاد مثل الأول والآخر، فى هذا العمل الفاخر، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك، وكلفوا كلا على حسب ما له من المُكنة والإدراك، أن يأتى بما له بال فى إقامته، وأدخل فى استدامته، أو ما يكون موجبا لحسن الترتيب، أو إتقان التركيب. فمنهم من ميَّز زواياه، ومنهم من فصل جواهره عن خباياه، ومنهم من أسَّس قواعده، ومنهم من أقام شواهده. وهكذا كل يسعى لتشييده، وإقامة حدوده، وإحكام قوائمه، وإظهار علائمه، إلى أن يتم بيت المعارف، الذى هو أمان لكل خائف، وهو حرم الله الذى من دخله كان آمنا، وعرشه الذى من استوى عليه كان بالعزة قمنا[٧]. وكل ذلك بسر سير القلم، الذى به علَّم الإنسان ما لم يعلم، وجمع الكل فى صعيد واحد، ونادى فلباه كل قاصد. فهذا إيجاز فى شأنه، ويسير من بيانه، فى تسيير العلوم وارتقائها، وتسهيل اقتباسها وإبدائها.

ثم لما عظم أمر المعاملات التجئوا إلى التعامل بالنسيئة[٨]، واحتاجوا إلى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب والشعوب، والتجئوا إلى الإصلاح كيلا يبيدهم اللغوب. وكان ذلك لا يستقيم إلا بحفظ معاهدات، تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات، ولا يتم ذلك إلا بأن يحفظ ما وقع اتفاق عليه، على الوجه المرضى بينهم، ليمكن الرجوع عند الاحتياج إليه، فلم يوجد لذلك مستودع أمين، ولا حصن مكين، لإبداع هذه المعانى، إلا ما يشيده القلم من المبانى، فكان القلم هو الشاهد العدل، والحكم الذى عليه المعوّل، ولولاه لم تحفظ حدود، ولم يوثق بعهود، ولم ينل المحق حقه، بل يتسع المجال للمبطل، وتبعد الشقة.

ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض، وبعد ما بينهم في الطول والعرض، مع ما بينهم من المعاملات، ومواثيق المعاقدات، احتاجوا إلى التخاطب في شئونهم، مع تنائي أمكنتهم، وتباعد أوطانهم، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد؛ وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد؟! وإن حَفظَ هل يقدر على تأدية ما يريد، بدون أن ينقص أو يزيد، أو يُبْعد القريب أو يُقرِّبَ البعيد، فكم من رسول أعقبه، سيف مسلول، أو عنق مغلول، أو حرب تخمد الأنفاس، وتعمر الأرماس. ومع ذلك كان خلاف المرام، ورمية من غير رام، ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الأوزار، ولا من نفسه ما يشعل شرور هذه النار. فوقعت الندامة، وضرب الويل خيامه، فالتجئوا إلى استعمال رقْم القلم، ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم، فكان مُبلِّغًا أوعى من سامع، وهاجعًا أسرى من لامع، وقنوعًا أغلب من طامع، وصامتًا أنطق من مانع. فأدى القول كما سمع، وحكى الصنيع كما صنع، وأتى على المراد، من فاسد أو سداد، بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل، وأحفظ للأمانة من المالك الحامل، فهو حينئذ حقيقة اللسان، وغيره مجاز عنه في البيان.

فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه، إن هو أعتب في خطابه، ولكن إن رقم أتى بالرقيق، ونادى نداء الشقيق، فاستبدل الشقيق بالمشاق، ورفع العنا ووضع الوفاق. فهو إن تكلم كَلَم[٩]، وإن رقم شفى الألم. وكم من مؤدب فَهيه[١٠]، لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه، لا يفيد المستفيد، ولا يوافي مرام المستعيد، ولكنه إن أجرى القلم، نطق بالحكم، وحج وأفحم، وحل وأبرم، وأسس وأحكم. فهو وإن لم ينطق بلسانه، قد نطق بيراعه وبنانه، فلم تَعْدُه فضيلة البيان، وإن عضلته عصبة اللسان. وكم من خطيب نجيب، ورقيب حسيب، إن تكلم أقلق، وأطبق[١١] وأغلق. وإن كتب أعجب، ورغب وأرهب، وقرب وأبعد، وجمع وأفرد، وأوقد نيران الأنفة، وعقد روابط الألفة، وأتى برقيق التشبيه، ودقيق التنبيه.

ومن أجل آثار القلم، إذ يعد من أعظم النعم، ومن اللوازم ألزم: «الجرائد» و«الجرنالات»، التي هي أمل عظيم لترقي الملل، وانتظام أمور الدول. أما الأول،

فلأنها توقف الملل على خصائصها، الموجبة لنقائصها، وتوضح لهم أسباب الترقي، وما به يكون التوقي. وتنشر بينهم أخبار غيرهم، من سلفهم وجيرانهم، وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى، وأي الأمور لهم بالتمسك أحرى. وتشوه لهم وجه القبيح إن ارتكبوه، وتعظم لهم أمر الجميل إن تركوه، فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها، كالجهالة والتكاسل عن الصناعة، والرضا بالفقر، مع التردي برداء الكبر، والتمسك بالخرافات، وفاسد الاعتقادات، وجمع كلمة النفاق، وشق عصا الوفاق، وغير ذلك من قبائح الأفعال، ورذائل الأخلاق. وتقدم لديهم مصالح الفضائل، كاتساع دائرة الأفكار، والتنقير على ما في العالم من دقائق الأسرار، والحث على الاشتغال بالصنائع، والاهتمام في ترقي البدائع، وطلب العيشة الراضية، مع اليد العليا والهمة العالية، والنظر فى آراء الأوائل نظر الناقد، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد، كيلا يفوت كثير من الكمالات، ويفقد عظيم من اللذات. وتبث بينهم أفكارا تكون سببا لتنوير البصيرة، وتطهير السريرة. وتحرك فيهم حمية الغيرة، فينتبهون بذلك من غفلاتهم، ويستيقظون من سباتهم، ويلتفتون إلى مصالحهم، ويقلعون عن قبائحهم، فيطلبون الخير، ويتجنبون الضير. ويرتفع من بينهم الجور، ويوضع العدل، وتطلع فيهم شمس المعارف، وينسلخ عنهم ليل الجهل، وينالون من الراحة والرفاهية ما لا يحصر، ويستولون من عظائم الأمور على ما لا يصح أن يذكر، وإن أدركه أرباب النظر.

وأما الثاني، فلأنها لسان سر السياسة، فتنبئ عن نتائجها في الآن، بل في الآتى، وتوازن بين الدول وقواها، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف، وما في أفعالهم من الاعتلال، ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح، ومواد الإصلاح، وحفظ الأرواح، وارتياح الأشباح، وما انثنت عليه صدور السلاطين، من عدل يزين، وظلم يشين. وترشدهم إلى ما يجب أن يسلك فيما استولوا عليه، وما يئول أمرهم إن سلكوا غيره إليه، وتغري وتحذر، وتبشر وتنذر. فإذ ذاك ينتبه الغافلون، ويحترس المستيقظون، ويقوم الضعف المتلافي،

ويطلبون اللحاق بالملاصق والمتجافي، ويهرع المختلون لسد خَلَلهم، وإبراء عللهم، وتخفيف أثقالهم، ويرتدع الظالمون، ويغتبط المقسطون. وذلك كله مع تنائي الأقطار، وتباعد الأسفار؛ فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان، وكأنما القائل والسامع في مكان، فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة، وشفاء الغلة.

وإنما مثل صاحب «الجرنال» مثل خطيب قام على منبر العالم، وأمسك بيده «صُور» إسرافيل، ونادى بالحقير والجليل، فَنَفْخَةٌ تحيي ونفخة تميت، وعظة تصيب وأخرى تفيت. فمن الواجب على كل ذي دراية، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية، ليكون على بصيرة في أمره، ومصيبا في سيره، نائلاً لخيره، حذراً من شره، متحركانحو المعالي، طالبا ما تهتز إليه العوالي. ويقف على خفيات الحقائق، ورقائق الدقائق، ويخرج إلى فضاء المعرفة، ويطلق من غل الجهالة والسفه. إنْ هذا إلا بإمداد القلم وجريانه في ميدان تربية الأمم، وإلا فأين «اللفيانت» من بلاد «**تبت**»؟ وأين «فارس» من بلاد «**هند**» «و**فارس**»؟ إذ يقوم عليهم رقيبا، وفيهم خطيبا، يعظهم بالموعظة الحسنة، ويحذرهم غرَّة السِّنَة، ولقد ينبئنا ما انجر إليه علم أمر العالم في سيره، وليس له مكنة أن يعدلَ عنه إلى غيره، بأن صار القلم محتاجا إليه في أدنى المهمات، وأهون الملمات، وخصما في جميع المنازعات، وحكما لدى المحاكمات، حتى لم يبق للسان إلا محاورات قليلة، وموارد أخطارها غير جليلة. فـ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ٣ ـ ٥).

* * *

العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية[١٢]

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب، ومنينا أنفسنا بأنا صرنا في نشأة أخرى، وتقدمنا إلى الأمام بعد أن كنا إلى القهقرى، واستصبحنا بمصباح الآمال، في ليل الضلالة والاختلال، وهمت أفكارنا بتحصيل ما سبقنا إليه غيرنا، تذكرنا حوادث الأيام بأننا ما زلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الأول، بل كان ذلك على تنزل منه إلى أسفل، وتنثني آمالنا عن تقدم أهالي أوطاننا. فمن أعجب ما رأيناه في هذه الأيام، أن بعض طلبة العلم الكرام، الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل، وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل، وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم، قد تحركت إلى المعالي همته، ودعته إلى التفنن غيرته، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الإسلامية، لما أنه قد علم-كما هو الواقع-أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين، وتمييزا لأفكار غثها من الثمين، وتبيين أن كيف تتركب المقدمات لإنتاج المطلوب، بعد بيان أن أي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان، وأيها يجب أن يقذف ويطرح، فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلما لجميع العلوم، ولا يعدل عن طلبه إلا جهول ظلوم.

والعلوم الكلامية إنما هي أحكام لتأييد القواعد الدينية، بالأدلة العقلية القطعية، حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين، ويقنع بذلك الطالبين، ويردع المنكرين، على وجه لا يكون فيه ثبات الشيء بنفسه، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه. فلما سمع بذلك بعض أحبائه، وأصفيائه وأقربائه، الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره، اهتز لذلك واضطرب، وأعجب كل العجب، وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله

أن يأخذه، وأوسع لذلك الطالب النصيحة، ويا لها من فضيحة أي فضيحة، قائلاً: كيف تدرس علوم الضلالات، حتى تقع في الشبهات؟ ألا فارتدع، وبحالتك اقتنع. وكن كما كان الأب والجَد، وجد فيما كانوا عليه، فمن جد وجد. فأجاب الطالب المسكين سؤاله، وطوى سجلَ علمه، ونشر جهله، ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده، المتألبين على عناده، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام، ورمي سهام الملام، يقولون إلى الآن في ضلاله القديم، لم يميز بين المنتج والعقيم، والمخدوش والسليم.

حتى إن بعض ذوي الجهل من أهل بلاده، المخلصين في وداده، الساعين في إسعاده، وشوا بهذا الطالب إلى والده، وأنصحوا له القول بشأن ولده، قائلين: إن الرجل منا إذا سمع أن ولدك يشتغل بالعلوم، تتناوله أيدي الهموم، يقوم ولا يهنأ له طعام ولا شراب، ويبيت ليله في اضطراب، ويظل نهاره في اكتئاب، أسفا على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا، ولم يعمل على مثالنا. ألم تعلم أن الإنسان كلما قوى في العلم اجتهاده، وبدا له رشاده، يتزلزل اعتقاده؟ فكيف بك وهو ثمرة فؤادك، وأرشد أولادك؟! فتحرك في والده عرق الحمية، وأسرع ذاهبا إلى مصر المحمية، ليرى هل صح الخبر، أو كذب الناقل وفجر. فوصل إلى ولده في الساعة الثالثة من الليل. ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل، إن كان لتلك الأقاويل صحة، فأجابه الطالب: إن ذلك من كذب الناقلين، وبغي الحاسدين. وإنني من يوم سعيت في منعي، وقطع نفعي، لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم، ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم. فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين، وأحلفه باللّه رب العالمين، أن الناقل كذاب، وأنه في أمره غير مرتاب. فحلف وهو الصادق في حلفه، وكيف لا وقد حفَّته المكاره من بين يديه ومن خلفه. فلما أيقن أبوه بكذب ما نقل إليه حمد اللّه وأثنى عليه، وأصبح من غده متوجها إلى بلده.

فانظر إلى هذا الرجل مع كثرة انشغاله، واحتياجه إلى ساعة ينظر فيها إلى أحواله، كيف ترك الأهم، وصرف الدرهم، وانقضَّ انقضاض السهم، وأقدم

إقدام الشهم، وما ذاك إلا لحادث أقلقه، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه، وداهية دهياء قد استفزته من أرضه، وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه. فإن سألت: ما هذا الأمر الفظيع، والحادث البشع الشنيع؟ قال إن ولدي يتعلم المنطق والكلام، ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والأقدام.

وانظر إلى هذه الحماسة والغيرة، التي قد دعتهم إلى التعاضد والتناصر، والنخوة التي قد حركتهم على التكاثر، للتخلص من هذا الحادث الملم، وانقشاع هذا الليل المدلهم، بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية، وخلوص نية.

فتبا لهذه العقول، وبئست عواقبها وما إليه أمرها يئول:

إن دام هذا ولم تحدث له غِيَر لم يُبْكَ ميت ولم يُفرَح بمولود

وإنني لأتعجب من هؤلاء الإخوان في الوطن، وأرباب البصائر والفطن، كيف مالت بهم الحرارة إلى الهبوط، حتى آل أمرهم إلى السقوط. ويا عجبا إذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها، ففي أي شيء نصرفه؟ فإنه إن ضلّ عنا رشادنا، وغاب سدادنا، فهل بشيء سوى الدليل نعرفه؟!

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان، ويكل عن الإفصاح به اللسان، مع أن هذه العلوم ليست إلا ما يُقرأُ في سائر جوامع المسلمين، مشارق الأرض ومغاربها حتى الآن. في نفس «**الآستانة**» يقرأ في مساجدها كثير من كتبها. وقد قال الأكابر من المحققين كالإمام «**الغزالي**» و«**فخر الدين الرازي**» وغيرهما، إن تعلم هذه العلوم من فروض الأعيان. وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية، خصوصا في مثل هذه الأزمان، التي قد وقع فيها اختلاط الناس من سائر الأديان، فإنه من البين أن ما أخذ عن الآباء، وبلغناه ألسنة الأقرباء، إن لم يؤيد بالبراهين، نالته أقوال الملحدين، وأدحضته شبه الجاحدين، فيصبح وقد وهى بنيانه، وانحط شأنه. أولم يطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الإسلام في «إستامبول» إلى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الأيام، إذ يقول له: «نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق، ولا نقبل اعتقادا يناقض العلوم المتعارفة - (كالمبرهنة) - في

فني الحساب والهندسة، من أن الكل أعظم من الجزء، وأن الشيء لا يكون غير نفسه، وأن الشيء الواحد لا يكون واقعا وغير واقع في آن واحد، وأمثالها من العلوم المتعارفة وهي من البديهية الأولية، والأولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديثا أو آية كذلك، أي تُغَايِرُ العلومَ المتعارفة لأولَنَاه». أهـ.

وليت شعري! إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدي الإسلام، وغذيت بلبانه، وتربت في حجره، وتقلدت في إيوانه، من زمن يزيد على ألف سنة، وتناولتها أيدي الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة، فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة، هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان، وكَافَّة عنا أيدي العدوان والهوان، وأساس لسعادتنا، ومعيار لثروتنا وقوتنا؟ لا بد لنا من اكتسابها، وبذل المجهود في طلبها، فبالأوْلى نضع أصابعنا في آذاننا إن ذكرت، ونهاجر من كرة الأرض إذا سماؤها انشقت. وإن مثل هذه النفرة لو كانت في عهد «**المتوكل**» العباسي، عندما كانت الأمة بغرور وسْواسي، وقوة متوهمة، تحصنها من تعدي الأمم المتقدمة، أو في زمن المماليك والتركمان، وغيرهم ممن تملك هذه الأوطان، حين كانوا في ذروة التوحش، لا يهتدون إلى ما به يدبرون أمورهم في التعيش، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والأوهام، وقد أخذ بجميع إحساساتهم جور الحكام، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الأمم اختلاط، إذ كانوا في حفرة الانحطاط، لكان لا يأخذنا العجب، بل نضيف ذلك إلى السبب، ونلتمس لهم العذر في ذلك، إذ قد عميت عنهم.

وكنا نؤمل أن «المبنج» يفيق بشم روح «النوشادر»، وأن هؤلاء يهتدون إذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر، ويقومون من غفلتهم إذا قام من يوقظهم، ويخرجون عَمَّا هم فيه إذا نادى بهم من يعظهم، ولكن تعذر ذلك الأمر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم، حتى عم أنحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الأمم المتمدنة، ورأينا ما هم عليه من الأحوال الحسنة، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا الهجنة، كثروتهم وفاقتنا،

وعزتهم وذلتنا، وقوتهم وضعفنا، وقدرتهم وعجزنا، وصولتهم وانهزامنا، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد، وبها يعتد. بل في زمان خرج فيه العلم من الأذهان إلى الأعيان، وتنزل من مرتبته الروحانية، وتحلى في الصور الجسدانية، وفتح لنا رياضه، وهيأ للغرس غياضه، وأصبح يجول بيننا في علاه، وينادي بأرفع صوت وأعلاه: ألآ من محارب عدوان فنحدد نضاله؟ ألا من حيران في غسق الضلال يَمُنُّ على نفسه بنظرة لسنانا المتعالى؟ ونحن بمسمع من نداه، ومرأى من سناه، لكن صُمَّت الآذان وعميت الأبصار. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧). ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣).

وهل يليق بقوم أن تكون هذه الجهالات أفكارهم، وتلك المستهجنات آثارهم، مع كل ما قد رأوه من صنيع مليكهم، وحامي ذمارهم، جناب الخديو الأعظم؟ لا زال قضاؤه في الكائنات يبرم، حيث قد بذل الهمة في اجتلاب المعارف، وتوسيع دائرة الآداب والعوارف، إذ فتح المدارس والمكاتب، وعني بالأساتذة من الأقارب والأجانب، واجتذب التلامذة من كل جانب، حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب، وخزائن الخيرات مفتحة الأبواب، وترعرع روض المعارف وأزهر زهره، وبدا صلاحه وينع ثمره. (ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتن، ولا عان ولا معتن) . وأطلق الحرية - أيده اللّه في اقتناء هذه الخيرات، واجتناء هذه الثمرات - وافترش بساط العدل، ودعاهم بذلك إلى دار الكرامة والفضل. فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم، وانتكاس آمالهم؟! ولعمري إن ما فعل الخديو في هذه البلاد، من موجبات الإسعاد. لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت إلى غاية الكمال، ووقفت على حد الاعتدال، وأصبحت مفيدة لا مستفيدة، وتقلدت سيوف العز بدل القرعة والجريدة. فإننا لم نسمع أن ملكا من ملوك أوروبا الذين قد خلدت أسماؤهم في الصحف، الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم، قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديو فيه. فيا للّه سعيه، إذ قد أتى بكل ما يمكن أن يؤتى به في سعادة أمته، ولكن ماذا تصنع في همتنا

الكسالى؟! يا خيبة المسعى إذا لم تسعف، لكن على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب. فهلا ساعدوا هذا المليك في إسعاد أنفسهم، وتخلصهم من بؤسهم؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (ص: ٥) لا العواصف تحركهم، ولا العواطف تجذبهم، ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي دواؤه، وأعيا الطبيب شفاؤه، نسأل اللّٰه العافية.

ولعل قائلاً يقول: إن هذه الحادثة لا تثني الأمل، ولا تنذر بخيبة العمل، فإنها جزئية من الجزئيات، لا يحكم بها على الكليات، فإنه في كل زمان وفي كل مكان يوجد الحمقى والأغبياء، وأرباب الجهالات والأشقياء، وذلك لا ينافي حكم الغالب. فأجيبه: بأن هذه ليست أول قارورة كسرت، ولا أبدع واقعة وقعت، ولكن ذلك أكثر من الكثير، وأمره فاش بيننا شهير، خصوصا من الطائفة الشريفة[١٣]، التى تعد بمنزلة روح لهذه الأمة، فإنهم إلى الآن لم ينظروا إلى أنفسهم ولا إلينا بعين الرحمة، ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على أبناء ملتهم بعائدة، ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه، وطويت صحفه وولت ركائبه، غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا فى خَلْق جديد، قد طرحتنا الأيام بديننا وشرفنا فى بادية، قد غصت بآساد ضارية، كُل يطلب منا ثاره، ويطلب شن الغارة. فإن كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا، وإلا فإما نطرح ديننا وننجو بأنفسنا، وإما أن نبيد عن آخرنا، بسوء الجهل وضلال الطريق، مع أن ملاك الأمر بأيدينا. فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل والدول، وما الذى نقلهم عن حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم الأول، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل. فإذا حققنا السبب، وجب علينا أن نسارع إليه حتى نتدارك ما فات، ونستعد لخيرنا فيما هو آت، وها نحن أولاء بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، حتى قادتهم إلى رشادهم، فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها، ومضرتهم فنكبوا عنها وتركوها. فإذن أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا.

أليس من البين أنه لا دين إلا بدولة، ولا دولة إلا بصولة، ولا صولة إلا بقوة، ولا قوة إلا بثروة؟ وليس للدولة تجارة وصناعة، وإنما ثروتها بثروة أهاليها، ولا تمكن ثروة الأهالي إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب. فإن ذلك أمر قد خفى على ذوى الألباب فضلاً عن غيرهم. كيف لا . . وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال، والسهام وخزف الجبال، وما أشبه ذلك مما كان استحصاله بزهيد القيم، وحَضَرنا زمان نضطر فيه إلى المراكب المدرعة، ومدافع «المتراليوز» و«الكروب» وبنادق الإبرة، وغير ذلك من الأسلحة التى تجددت وستجدد فيما بعد. فإن الشر الذى هو أحط عناصر الإنسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع، فإنهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار، وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص. وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عليها؟! وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بدانى الحرف؟! كلا . . بل لا بد من أن تُؤْتى البيوت من أبوابها، وتطلب المسببات من أسبابها، فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب، والاستضاءة بنور المعرفة، والتبرى عن مرافقة السفه.

وليس من يرشدنا إلى ذلك إلا أبناء هذه الطائفة، فإنهم أرواحنا، وقائدو أشباحنا، حيثما توجهوا توجهنا، وفى أى وقت على أى شىء عرجوا عرجنا. وإن من حقهم أن يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم، وبيان فوائدها، وما يترتب عليها من المنافع، وعلى عدمها من المضار، ووجه احتياجنا إليها. ولعمر الله قد كان ذلك خير الأعمال وأحبها عند الله؛ لأن إعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الإسلام مقدمان على جميع الشعائر. فإنه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن إلا الرَّمْس، كما هو بيِّن عندهم، وغير خاف عليهم.

ولا تظنن أنى أقول إن توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه لرقة فى دينهم. حاش لله، بل إنهم لم يلتفتوا إلى لزومه، وإنه أهم ما يهم، وأوجب مما يجب. ولو أنهم التفتوا إليه، وحققوا الأمر على ما هو عليه، لقاموا بإرشاد الناس إليه على قدم وساق، وضاقت المساجد بخطبائهم ووعاظهم وحث الأهالى وتحريضهم، على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم، على ما هو

المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصولته، ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته.

ومن لى بأن يتنبهوا إلى هذه النكتة، وإنه لا بد لهم من الالتفات إلى هذه اللوازم البتة، كى يمنوا علينا بحسن النظر، ويعينوا لنا حد الخير والشر، فإننا لا نسمع إلا مقالهم، ولا نرمق إلا أحوالهم. بل لا نسمع إلا بآذانهم ولا نبصر إلا بأبصارهم، ولا نذوق إلا بذائقهم، ولا نتكلم إلا بألسنتهم. كيف لا وهم الأرواح ونحن الأشباح، وهم النسمات ونحن الأرواح(١٤)، حيثما مالوا ملنا، وما ملوا مللنا.

نعم إننا نحتاج زيادة على هذه المدارس إلى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسألة، وهى أن العلم نافع. والجهل ضار، وإفصاح الفرق بين غسق الليل ورائعة النهار، بل هى ألزم من جميع اللوازم. فإنه ما لم تتوافر الرغبة فى شىء لا يتحقق الإقدام عليه، بل يكون مبتذلاً عند النفوس، مرموقا بعين البؤس، تشمئز منه الطباع، وتنفر منه الأسماع. وإن هذه المسألة، أى أن العلم نافع لنا، والجهل مهلك لأرواحنا، وأبداننا، مسألة صارت عندنا من أدق النظريات، يحتاج فى بيانها إلى كثير من المقدمات، والحجج والبينات، مع ما ينضم إلى ذلك من الاعتبارات، كالترغيب والترهيب، والتمثيل والتقريب، والإجمال والتفصيل، والإيجاز والتطويل، على حسب اختلاف مراتبنا فى القبول، وعلى الله تمام المسئول.

* * *

التحفة الأدبية(١٥)

إنه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة، والفكَر الوقادة من أهل العربية في أوج كمالها وأفلاك سعادتها في منازل إقبالها، كانت الأمة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين، وفلاسفتها المستبصرين، وتختال بينها عجبا بما لها من الثروة والقوة، والعزة والفتوة، وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم. وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم، حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر، على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت.

وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها، وإحاطتها بدقائق المعاني التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها، وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية، كاصطلاحات الطبيعيات والإلهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر الفنون، وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة، وازديادها وانتظامها على حسب مرور الأزمان، إذ فترت تلك الهمم، وتنزلت إلى حضيض الانحطاط، لموانع قد اعترضت سيرهم، وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفتهم عند حد لم يتجاوزوه، بل أرجعتهم إلى مقام كانوا قد تقدموا عنه وتركوه.

تلك الأمة، كان ما كان لها من الشأن، وبدا أمرها بعد التمام في النقصان، وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلي والزينة، وأمست للصغار والابتذال رهينة، وتقدم سائر الأمم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الأمة، وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ونالوا من الثروة والرفاهية، وتحلت ألسنتهم بالعلوم والمعارف،

وديارهم بالبدائع وبَهِىِّ الزخارف، وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا، وباهت رجالهم فى السياسات والأفكار رجالنا.

فلما قرع آذان أبناء الأمة العربية سهام الملام، قام فيهم قائم الغيرة والحمية، وآلوا على أنفسهم ألا يألوا جهدا فى استرجاع ما فقدوه، رغما لتلك الموانع، وقسرا لحركات هاتيك القواطع. فنشأ فيهم من بَذَل الهمة فى استحصال العلوم واللغات وبرعوا فى ذلك، وترجموا إلى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون، كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا، وغير ذلك من الفنون المفيدة. فتجلت لغتنا فى حليتها، وبدت ترفل فى ثياب زينتها، إلا أنه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة، وتاريخ سير التمدن، حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه، ويقلدها لآلئ مبانيه، حتى قام بهذا الأمر العظيم جناب الفاضل الأديب. واللوذعى الأريب، الذى يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره، الخواجا **«حنين نعمة اللّه خورى»**، فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل فى هذا الموضوع، لم يسبق سابق بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله، وهو ما ألفه الوزير الشهير **«كيزو»**. فإنه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسات، ما تحار فيه ألباب أرباب الرياسات، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة، ومادة الحياة، وهو الكتاب المسمّى بـ «التحفة الأدبية». وإننى لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الأستاذ الأكرم، والفيلسوف الأعظم، الذى تشرف بذكر اسمه مسامع القاصى والدانى، جناب السيد **جمال الدين الأفغانى**، وهاك ما قاله: (١٦) . . .

* * *

العدالة والعلم[17]

هذان الأساسان الجليلان (أعنى العدالة والعلم) متلازمان فى عالم الوجود. متى سبق أحدهما إلى بلاد، تبعه الآخر على الأثر. ومتى فارق واحد منهما جهة، تعلق الثانى بغباره، فلا يكاد يرفع قدمه أو يضعها إلا وصاحبه يرافقه. بهذا ينبئنا التاريخ وتحدثنا سير الدول التى ارتفع بها منار العدل أو بزغت فيها شموس العلم، كيف تمتعت بالنورين، وطارت إلى أوج السعادة بهذين الجناحين، حتى إذا أتت حوادث الدهر على أحد الأساسين فهدمته، سقط الآخر بأسرع وقت، وانحطت الدولة المصابة بفقده إلى أسفل الدركات، فأغسق جوها بكثيف من الظلمات، وغشيت أبصارها حجب من الجهالة.

وسر هذا جلى، فإن العلم إذا انتشر فى قوم، أضاءت لهم السبل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع، فرسخ فى عقولهم أن المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة، فيطلبونهما بالنفس والنفيس، وأن الظلم والجور قرينان للخراب والشقاوة. وإذا رسخت قدم العدالة فى أمة تمهدت لها طرق الراحة، وعرف كل ما له وما عليه، فتلهبت فيهم الأفكار، وتلطف الإحساس، وقويت قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، فيدركون لأول وهلة أن لا دوام لما وصلوا إليه، ولا ثبات لما تحصلوا عليه، إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية، وعمت التربية سائر أفرادهم، فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميمها فى سائر الأنحاء.

ومن ذلك ما نراه الآن من الحركة الفكرية فى **أقطارنا المصرية**، وتوجه الهمم إلى افتتاح المدارس والمكاتب فى كل جهة، واجتماع القلوب وتآلف النفوس على

هذا المقصد الجليل. فإن عدالة الحكومة الخديوية ونزاهة رجالها تعاضدانهم على تأييد أمر الإصلاح وتأسيس قواعد العدل. كل ذلك أورث فى الأفكار حركة، وفى النفوس همة، وفى السجايا كرما، وفى القلوب إقداما، لما استقر فى أفئدتهم من الطمأنينة والأمن على أرواحهم وأموالهم وسائر شئونهم، وسرى فيهم روح الحياة، فانبعثوا يتعاونون على الخير، ويبذلون أموالهم لرفع منار العلم. فمنهم من يدعو الناس للاجتماع والائتلاف لينقد كل واحد منهم مبلغا لا يصعب أداؤه ليتكون من المجموع ما يكفى لنفقة مدرسة أو مكتب، ومنهم من قويت فيه الغيرة وارتفعت منه الهمة، فكتب على نفسه القيام بمصاريف مدرسة، وتسارعوا إلى ذلك تسوقهم الرغبة ويقودهم حسن الأمل فى حكومتهم السنية. ثم إن الحكومة لا تألو جهدا فى مساعدتهم وتثبيت أقدامهم وتمهيد الطرق لنجاح أعمالهم.

فهذا حضرة **متولى أفندى محمود**، وحضرة **حسن أفندى عبد الله**، رفعا عريضة إلى الجناب الخديوى يذكران فيها ما عزما عليه من إنشاء مدرسة فى كوم الشقاف بسكندرية تكون فرعا للمدرسة الخيرية الإسلامية من مالهما الخاص. فصادفا لدى جنابه غاية القبول، وامتن من همتهما وغيرتهما على تقدم الوطن وأبنائه، وبعث بالعريضة إلى نظارة الداخلية الجليلة، فصدر رقيمها إلى محافظة الإسكندرية بلزوم مساعدتهما وملاحظتهما وتقديم الوسائل التسهيلية كافة لإقامة تلك المدرسة. فهذا من أجلى البراهين على ما للجناب الخديوى وحضرة دولتلو رئيس النظار من العناية بشأن البلاد والسعى فى رفعة مقامها والميل إلى نشر المعارف فى جميع أرجائها. وهو أكبر شاهد أيضا على ما وصلت إليه البلاد فى مدة لا تزيد على السنة إلا قليلاً من التقدم العقلى والتنور الحقيقى، بعد أن كان لا يسمع فيها باسم ساع فى خير أو طالب لمنفعة أو مساعد على مصلحة. فحق لبلادنا أن تفخر بقوة الاستعداد وحسن القابلية، وأنها أقرب البلاد إلى الخير والتمدن إذا قامت فيها الحكومة على صراط العدل المستقيم. فإن هذا الزمن القليل ليس كافيا فى غيرها لهذا التقدم الكثير.

والمأمول فى سائر أبناء هذه الديار أن يلحقوا بمن سبقهم من إخوانهم، ويبادروا للانتظام فى سلك ذوى النباهة والمروءة، ويعضدوا مقاصد حكومتهم التى لا يهمها إلا إصلاح حالهم وحسن مآبهم.



التربية في المدارس والمكاتب الميرية [١٨]

من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب، والعناية بشأن التعليم فيها، إنما هو تربية العقول والنفوس، وإيصالها إلى حد يُمكِّن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حيا وبعد موته.

ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حَيِّز البساطة الصرفة، والخلو من المعلومات، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر، والضار والنافع، ويكون النظر بذلك سجية لها، أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الأشياء وخبائثها. وهذا هو الركن الأول في المدارس والمكاتب.

ومرادنا من تربية النفوس إيجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس، وترويضها عليها، وإبعادها عن الصفات الرذيلة، حتى يكون المتحلي بها ناشئا على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه، ومتعودا عليه. وهذا هو الركن الثاني.

وإذا فقد أحد الركنين، بطلت الفائدة المطلوبة، وقلت جداً. ولنترك البرهان على ذلك إلى علم كل إنسان به. فإذا اجتمع للشخص هذان الأمران كان إنسانا له أن يطلب ما ينفعه، ويبعد عما يضره، فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة إذا رآه موافقا لاستعداده، وفي قوته النهوض به، فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء، ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة، حتى يصل إلى ما تمكنه القوة منه، ولا يتأتى منه الإهمال فيه، لوجود الباعث من ذاته، وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه. أما إن كان الشخص ضعيف الإدراك أو فاسد الأخلاق-

وإن كان عالما بجميع علوم الدنيا ـ فلا ريب أن يكون شقيا في نفسه، وسياء[١٩] فى الشقاء لغيره، ولا تغني عنه المعلومات شيئا. بل ذهب بعض الحكماء إلى أنه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة إلا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة، التى منها بل أعظمها حب الكمال، الذي هو الداعي الحقيقى إلى طلب العلم والبراعة فيه.

وإن أول مبدإ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة، والنفوس بالصفات الكريمة، هو التعاليم الدينية الصحيحة. أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق، وإذهابها مما يغضبه. ثم يؤتى بالرغيبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع، بحيث لا تخرج عن مكارم الأخلاق التي حصر الشارع علة بحثه فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ويؤتى بالأمر المنفور منه كذلك على وجهه. ثم يقال إن ذاك يرضي اللَّه وهذا يغضبه. وذلك لا يتأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من اللَّه، وتعظيما لجلاله، وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي، بحيث لو ذكر اسم اللَّه عند شيء خفق قلب السامع، واضطربت جوارحه خشية منه ورهبة، فيكون ذلك سببًا لإقدامه على ما يرضيه من الفضائل، ونفرته عما يغضبه من الرذائل. فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب.

فإن الطفل فى صغره، بل والشاب فى أول بلوغه، يعسر عليه ـ لقلة التجربة ـ أن يفهم مضار الأشياء ومنافعها من حيث هى بطريق العقل الصرف، خصوصا مما يتعلق بالصفات النفسانية التى يكثر فيها التضارب، يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس. وإيداع مثل ذلك فى القلوب، إنما يكون بتعويد الأبدان على العبادة، وتذكر جلال اللَّه بالركوع والسجود، ومعرفة العقائد الدينية السليمة، فهى الأساس لكل ذلك. وطالما تشوفت النفوس لأن تكون التربية فى المدارس على هذا النمط المفيد، الذى عوَّلت عليه جميع الأمم المتمدنة فى مبادئ تعاليمهم، فإن من تتبع قوانين التعليم فى الممالك الأوروباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية، والاستمرار عليها إلى ما يزيد على ست سنوات تقريبا،

ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لأسباب نضرب عن ذكرها صفحا.

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك، وطلبت تجويده، والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار، وألا يهملوا فيه كما أهملوا فى سابق الأمر، وشددت عليهم فى ذلك كل التشديد، حتى أوجبت على الأساتذة أن يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة، ويدعوهم لذلك إن كانوا مسلمين. أما المسيحيون وغيرهم من ذوى الأديان الأخر، فلا يكلفون بذلك أصلاً، بل هم على حريتهم. فلها الشكر على هذا المقصد الحسن. غير أنه يلزم ألا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صورا يابسة لا روح فيها، كعبادة الجاهليين، بل يجب أن تكون معنوية حقيقية، تخرق حجاب الغفلة، وتتمكن فى باطن الإدراك، وتبعث فى الأشخاص روحا من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون.

وعلى نظارة المعارف أن تلاحظ التعليمات الدينية التى يلقيها المعلمون، حتى لا تكون محشوة بأنواع من التخريف المضاد لحقيقة الدين، كما جرت عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء، وإن كانوا فى الحقيقة من أردإ الجهلاء، فإن ذلك يخل بالمقصود من التربية، ويضر بتقدم التلميذ فى كثير من الفنون التى يلزمه تحصيلها. (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء).

وهذه هى صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب:

«قد علم من جداول الامتحان العمومى المقدمة إلى ديوان المعارف، وما معها من النتائج، والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه، أن بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الإسلام، المندرجة فى المسامرة الخامسة والعشرين من «كتاب التمرين»، حسب المقرر فى الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية، مع أن معرفة قواعد الإسلام بالنسبة إلى أطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به، ولا يجوز إغفاله فى حال من الأحوال مطلقا. فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة خُوجات القرآن، مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم، بحيث يحفظونها عن ظهر القلب، ويفهمون معناها

فهما جيدا، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه، فى الفرقة المقرر عليها قراءتها فى الترتيب المذكور، وهى الفرقة الثالثة من كل مكتب، ومذاكرتها لهم كل سنة فى كل فرقة يترقون إليها حتى لا ينسوها. وإذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها فى تلك الفرقة، يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر فى الفرقة التى هم بها بمعرفة خوجة النحو، إذ من بعد الآن لا يرخص بترقى التلامذة من فرقة إلى أعلى منها من ابتداء الفرقة الثالثة إلى أعلى فرقة إلا بعد التحقق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما، وعلما وعملا. ويكون من أخل بشىء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسئولية الشديدة. ويشترك معه فى هذه المسئولية ناظر المكتب أو المدرسة، إذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر. ويجعل لذلك خانة مخصوصة فى جداول الامتحان العمومى، والامتحانات التى تحصل فى أثناء السنة، ويعطى فيها «نمرة» كسائر الدروس. وكل هذا بالنسبة إلى أطفال المسلمين خاصة.

وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذى يؤمرون بها فيه شرعًا، مع دوام وعظهم فى ذلك، وترغيبهم فيه، وتحريضهم عليه، ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها. وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك، وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة، مع الحث منه للتلامذة عليها، وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو فى المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة إن كان موجودا، فإن لم يكن موجودا ففى مسجد قريب. فإن لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب، فعلى الناظر المبادرة بالعرض إلى الديوان عن تحديد محل للصلاة، مع إرسال رسمه ومقايسة تكاليفه، ومع أداء الصلاة فى موضع يستحسن لذلك ولو فى حوش المكتب أو المدرسة مؤقتًا إلى أن يتم إنشاء المحل المطلوب. وإذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل، يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم، مع بيان القياس المطلوب. وقد كتب بما ذكر إلى النظار عموما، وهذا لحضرتكم للإجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام، والحذر من التهاون فيه بعد الآن».

المعارف[20]

كثر تحدث الناس فى شأنها فى هذه الأوقات، وكأنهم لما فرغوا من الأفكار المتعلقة بالأمور المالية والإدارية، وما كان فيها من الاضطراب، وتنوع الأحوال، وتقلب الأشكال، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء، أخذوا يلتفتون إلى ما به حياتهم الحقيقية، ونمو هيئتهم الاجتماعية، وظهور شأنهم بين الناس، وحسبانهم فى عداد أهل العلم، وهو العلم النافع، الذى رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم، وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه، والوسائل الموصلة إلى انتشاره فى أقطاره، موجهين آمالهم إلى نظارة المعارف العمومية، لأنها ذات الشأن فيه، فقالوا كلاما كثيرا أذكره كما قيل . . .

قالوا: إن المدارس ينبوع هذا الخير الجليل - (العلم) - وليس له من وسيلة سواها، ولكن تحت شروط لابد من استيفائها - (ولسنا الآن بصدد بيانها) - وقد افتتحت المدارس فى ديارنا من عهد المرحوم **محمد على** باشا، لكن كان اسمها غريبا على الآذان، وحشيا عن القلوب، يساق الناس إليها ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ** ﴾ (الأنفال: ٦)، إذ كانوا يظنون أن الدخول فى المدارس هو الانتظام فى العسكرية، والدخول فى العسكرية هو الشقاء الدائم والبلاء المحتم. وبعض الناس بعد التنبه، كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة فى ديوان أو مصلحة، لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام والتصرف فى الحقوق، فاكتفوا بإرسال أبنائهم إلى الكتبة يعلمونهم، حتى إذا كبروا انتظموا فى سلكهم، وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة إلى مدرسة ولا مكتب منتظم. وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها (ولكننا لا نبديها).

وأما فى أيامنا هذه، فقد تنبهت العقول، ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف، غير أن ذلك يقضى على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعدا على الطريقة المنتظمة. أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم فى تلك الجهالة السابقة، واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش: إما بالتوظف فى الخدمات «الميرية»، أو طلب الكسب من وجوه أخر، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع إلى التعليم فى مكاتب الأطفال، وتعطيل أسباب معاشهم. فيود كثير منهم أن تكون فى البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم فى الأزمنة السابقة، أزمنة جهل آبائهم، لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن. حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية، ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم المقادير على النجاح. وكانوا فى انتظار توفيق إلهى يسوق إليهم ذلك الخير، حتى سمعوا بأن نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية، ففرحوا واستبشروا، وقالوا: نعمة من اللّه سيقَتْ إلينا، نؤدى له مزيد الشكر عليها. ثم انقبضت نفوسهم عندما سمعوا من شرِوط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة، ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادئ الرياضيات والطبيعيات، وله تقدم فى اللغة الفرنساوية، وقالوا:

يا سبحان اللّه! إن المدارس الليلية فى البلاد المتمدنة تُقْرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية، مع التزام التسهيل فى التعبير، والتحاشى عن ذكر الألفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم، وذلك لفائدتين:

الأولى - إن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادئ العلوم بهذه الطريقة، فلا تفتر همة الذين لم ينالوا حظ التعليم فى صغرهم، وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون فى فهمه صعوبة، ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية.

والثانية - إنه إذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية، لقربها إلى الفهم، كأحدوثات تتسلى بها النفس، بل ألذ من ذلك، إذ لا يدخل الرجل محفل العلم إلا ويخرج بنور جديد، فتنجذب نفوس الناس إلى مستملحات العلم. فبدل

صرف أوقات ليلهم الطويل فى مضاجعهم يتقلبون من جانب إلى جانب، أو فى بيوتهم بحادثات لا طائل تحتها، أو فى أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها، يهرعون إلى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم.

ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية. فلم عُدلَ عن هذه الطريقة الجليلة فى بلادنا، واخترعت طريقة جديدة، وهو جعل التدريس فى المدرسة الليلية بلسان أجنبى عن لسان البلد بالكلية، لا يفهمه المتفنن منهم ولا العامى، والعلوم التى تقرأ بها عالية لا ابتدائية؟! حتى يحرم الناس الذين هم أحوج إلى التعليم وأولى به، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون. وهو مما يوجب الأسف، خصوصا وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قُبلوا فيها أجانب. (وإن كان ذلك غير صحيح، فعندى علم اليقين بأن الأكثر وطنيون، لكن من الذين تعلموا فى مدارس «الفرير» ونحوها).

فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك، فترقينا، حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم؟ أو أيقنا بأن العامة منا والكُتّاب لا يستفيدون من ذلك شيئا؟ أو لاحظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل فى زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين فى مدارسها ومكاتبها؟

فإن كان هذا الوجه الأخير قلنا إنها ستجعل مدرسة الخوجات نهارا، فلها أن تزيد فى عدد تلامذتها ما تشاء لهذا الغرض. على أنه لو سلك فى المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة، لتأتى لنا الوصول إلى بعض هذا المقصد؛ فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم فى تلك المدرسة ليتعلم العلوم التى فاته تحصيلها، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية، وكون الدروس فوق البدايات.

وإن كان الثانى قلنا: إن الاستعداد والشوق موجودان فى كثير من الناس، ولهم رغبة تامة فى التعليم، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا إلى هذا الحد؟!

وإن كان الأول قلنا الأولى ألا نتكلم، وإننا وحق الحق لفى حاجة كلية إلى أن

يكون التعليم الليلى عندنا مستديما، آخذا من البداية، سهل الوسائل، ميسر الأسباب، بلغة بلادنا عامة أو خاصة، حتى تنقطع حجة الجاهل، ويبطل برهان الكاسل، وتنبعث الغيرة فى الكل إذا أقبل البعض على التعليم، ويقع التنافس فى الفضائل، ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلاً، وتوبخهم الذمة، وتلعنهم ضمائرهم إذا تركوه، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها إذ ذاك.

نرى أنه لابد أن يكون هذا التعليم الليلى إجباريا عاما لكل مستخدم وقارئ لم يتعلم تمام ما يجب عليه فى وظائفه إلا أن الضرورة تمنعه من مرض ونحوه، خصوصا بعدما أعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين فى الإدارات أو التحصيلات لابد أن يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا، وحل المشكلات بأنفسهم فى مواد الجنايات، والحقوق والحسابات ونحو ذلك. وهذا ـ لا ريب ـ يستدعى أن يكون جميعهم على بصيرة تامة، وذوى عقل وافر. وهذا لا يمكن إلا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التى لا بد منها لكل من يريد الاستقلال فى سيره.

هذا حاصل أقوال الناس فى شأن المدرسة الليلية التى افتتحتها نظارة المعارف قريبا، وربما كانت تلك الأقوال صحيحة. لكن إن صح ما قالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها، ثم يجيبهم إلى مطلوبهم إن رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات، وإلا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن، فحينئذ يعلمون الحق ويريحون أنفسهم من الجدال.

ولهم أقوال فى موضوعات شتى يمنعنا من ذكرها فى هذا العدد ضيق المقام، وربما نذكرها غدا إن شاء اللّه.

* * *

المعارف[21]

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة، ذكرنا بعضها فى عدد سابق، ونذكر بعضا منها فى هذا العدد، حفظا لمتفرقات الأقوال، لعل شيئا منها يقارن صحة فيصادف قبولا ، وليكون ذلك دليلا على تنبيه الأفكار، والتفات أذهان الناس إلى النافع الحقيقى. قالوا:

نشرت نظارة المعارف إلى جميع فروعها منشوراً مبسوط العبارة، مشحونا بالمعاني الرفيعة، قاضيا على نظارة المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم، وقيامهم بواجباتهم، مبينًا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت أن في بعض المدارس قصورا في التعليم، وفي بعضها كمالاً وزيادة؛ فاستوجب موظفو الأولى التوبيخ والإنذار، وموظفو الثانية الشكر والثناء. فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم، وطرق التفهم . وأنذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسئولية الديوان.

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الأكيدة، والتعليمات المفيدة، وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة إلى تربية أبنائهم في مدارسنا، التي يصرف بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة، ليتربى بها على توالي الأزمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة ذمارها. فقد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم، ولذلك كانت مدارس «الفرير» والإنكليز والأمريكان «والبروسيان»[22] وغيرها عامرة بأبناء الأهالي، مسلمين ومسيحيين، ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها. ولم يكن ذلك إلا لما أظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك، وقصوره في هذه، مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان

والأقارب في المدارس الأجنبية، وإغفالها في مدارسنا. لكن - الحمد للّه - تلك أيام قد خلت، فإن التفات سعادة ناظر المعارف إلى كيفية التعليم وتشديده في أن تكون على وجهها الحقيقي، مما يفيد الآمال ويقويها.

إلا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة، منها قولهم: هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين؟ وهي مكافأة الدينار والدرهم، فإن مكافأة الشكر والثناء وإن كانت واجبة - وهي من أجل المكافأة وأجملها، ولها تأثير في جلب الرغبات، وتقوية العزائم - لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية، فإن من ضاق عليه العيش، وكانت حاجاته أكثر من إيراده، لا تنفك عنه الوساوس، ولا يبارح ذهنه الاضطراب، وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عندما سمع كلمة الثناء عليه. ثم ذلك ينقص من اجتهاده، ويحط من همته، بل ربما أورث خللاً في كيفية تأديته لوظائفه، خصوصا إذا رأى غير المجتهد مماثلاً له في الرزق وأوفر راتبا منه. ولقد صدق القائل: «النقص من الرواتب نقص من الأعمال». لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة، مع أن المسموع أن ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك، ونظارة المالية تسمح باستغراقها، بل تود لو يزاد فيها.

وقالوا: هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الإدراك؟ وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لإجرائه والسير بمقتضاه، بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره؟ أو أن الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها، والبعض ربما لا يمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم؟ وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة، وعلم المستعد منهم وغير المستعد، بوجه الدقة والضبط، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها، ورزقه على اللّه؟! ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق، لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً؟.. ونخشى عواقب الجهل والإهمال، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى، ويكون كله خسارا على التلامذة المساكين!! ولا نقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي

يُعَلِّمه، فإذا تبين أنه يمكنه الإحاطة بمسائله، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة، عُدَّ عارفا، ثم طلب الإلقاء والتدريس، وكيفية التفهيم، فرب عالم لا يستطيع البيان.

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء، عارفون فنونهم، قادرون على تأديتها بالوجه اللائق، لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها، وإن كانوا علماء بفنونهم. والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علما، ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عملاً. والبعض يوجد خاليا من الأمرين، يهزأ به التلامذة، ولا يوقرون أستاذيته. كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان. ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لا يحب أن يجهد نفسه في التعليم، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته، ثم ينصرف. فهل تعينت هذه الأوصاف في أربابها؟ واعترف للفاضل بفضله، وعُرِّف الناقص مقدار نفسه، وأُنزل كل منزلته؟ هل اختارت نظارة المعارف لإجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء، كل في فن مخصوص، ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية، ولا يكون لهم عمل سوى هذا؟ ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوما مثلاً، ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة، فإن رأوا نقصا عرفوا سببه، ومن أي الجهات منبعه. فإن كان اعوجاجا في طريق التعليم أرشدوا المعلم بأنفسهم، وبيَّنوا له الطريق مرة بعد أُخرى، فإن اعتدل وإلا اعتزل. ويكون أُولئك الأشخاص تحت مسئولية شديدة، إذا ظهر فيما بعد نقص، ولم يكونوا نبهوا عليه، فإن ذلك يبعث الغيرة، وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل إلى المقصود بأقرب الطرق المؤدية إليه، ويسهل تدارك الخلل إذا ظهر، وإزالة النقص إذا طرأ؟

هل دققت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والأساتذة الذين وضع الأطفال في كفالتهم، يدبرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم، وفصلت بين

صاحب الأخلاق الفاضلة، والأفكار المستقيمة، والعفة والنزاهة، والغيرة على نفع من وكل أمرهم إليه، وأداء ما وجب في ذمته، حتى يكون حاله وكماله درسا آخر يعطى للتلامذة في كل يوم، فتنطبع هذه الكمالات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم، وهو المعنى المقصود من التربية؟ وبين من لا خلاق له، بأن يكون أحمق، أو دنيئا، أو عديم الغيرة والذمة، أو رديء الأفكار، ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد، فتميت أذهانهم، وتكون عاقبة أمرهم إما جهلاً - وقد ضاع الزمان وولى الشباب - وإما علما صناعيا مصحوبًا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء، ويا ليتها تكون قاصرة عليه، ولكن تتعدى إلى غيره بحكم العادة المستمرة. وعند الفصل بين الفريقين، بإرشاد الرقباء النبهاء، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم، والأمانة في الخبر والصدق فيه، يميز الخبيث من الطيب، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد، لتفوض إليهم تربية الأطفال والشبان، ليكونوا رجالاً ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة، أملاً بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة، يؤدون واجباتهابالضبط والأمانة.

يقولون: إنه لا شك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلاً ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس، من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد، وإنه يلزم إيجاد طريقة جديدة في التأليف. وإزالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيرا من الناس عن التعليم. فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب؟ وإن حصلت فبمن أنيط تصنيفها؟ وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات، ودعي إليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة، ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال؟

من المحقق أن سعادة «عبد اللّه باشا فكري» وكيل عموم المدارس في سفره إلى

الجهات البحرية قد رأى أمورا كثيرة تستحق الالتفات، وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لابد من تقريرها، والإسعاف بها، فهل أجيب طلبه؟ وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداها؟ حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها إلى البحث في غيرها من الجهات القِبَلِيَّة؟

هذه جملة من سؤالاتهم، سردناها للإحاطة بها، وإنّا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك، وأنها لا تغفل شيئا مما تعلمه نافعا ومفيدا، ومن اليقين أنها لا تشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة البتة. قد أعدت لمقاصدها وسائل، إذ تعلم أن زماننا هذا لا يرى فيه إلا الأثر الظاهر، ولا يؤثر عن رجاله إلا الأعمال الحقيقية. أما صدور الأوامر والنطق بالألفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقد مضى وقته. وإن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الأجلاء، كسعادة ناظرها الأكرم الحريص على تقدم العلم، والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها **عبد الله باشا فكري**، والبصير الحاذق وكيل المكاتب الأهلية حضرة **علي بك فهمي**. وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الأوهام، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخا جديدا، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها، فعلينا ألاّ نضيعها.

* * *

المعارف[٢٣]

من المحقق أن نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية، تُقْرأ فيها العلوم الابتدائية، لتكون عامة النفع شاملة الفوائد، يذهب إليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهارا عن التعليم، مع رغبتهم فيه، وميلهم إليه، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها - إذا افتتحت مثل هذه المدرسة - إلا في تعلم ما ينفعهم، ويزيدهم نورا وبصيرة. وسيكون التدريس فيها باللغة العربية، التي هي لغة بلادنا، ويقرأ فيها درس باللغة الفرنساوية، يكون قاصرا على تعليم اللغة لا غير، يُبْتَدأ فيه الهجاء الفرنساوي إلى نهاية ما يلزم أن يُتَعَلَّم في تلك اللغة. أما دروس اللغة العربية، فمنها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة، ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة، من آداب، وتاريخ أحوال الأمم، وتاريخ طبيعي، وبعض مبادئ الرياضة فيما سمعت، بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها، المسماة بمدرسة الخوجات الليلية، في جوهر ما يقرأ بها، وإن كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك أجنبية، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين، وتلك لا تتوسم فيها ذلك إلا ببرهان. وهذه الاختلافات وإن كانت عظيمة لكنها لا تضر في المقصود.

ومما ينبغي ذكره، أنه ثبت في أذهان بعض الناس أن مجرد تعلم اللغات الأجنبية يعد فضيلة يسعى إليها ويهتم بشأنها، مع أن اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها، ولا يصح أن تجعل غاية تُقْصَد، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والأفكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في

اللغة الأجنبية. فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلاً إذا لم تكن عنده مبادئ علوم وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا يعد مصيبا في طلبه، إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادئ، حتى إنه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة. فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليليان قاصرين على اللغات فقط، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادئ العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة، التي لا نزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد، وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء.

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون، وتبطل حجة اللائمين، الذين انصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها، وما يعود على البلاد منها، ونشرنا وجوه أنظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة. فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعليا لا جدليا يقنع الناظرين، ويفحم المخاصمين، ويذهب بتعللات المتعللين، ومطالبا لأصحاب تلك الأفكار بالبرهان الفعلي أيضا، وهو توجه الهمم إلى التعلم، وإفراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم، حتى تظهر فوائد هذه الآثار. وأنا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب، الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها، يجيبون نظارة المعارف إلى طلبها، كما أجابتهم إلى طلبهم، ويكون لجريدة «الوقائع المصرية» شرف الإخبار بخير الأخبار، وأجر التنبيه على الأمر وما فيه.

* * *

ما هو الفقر الحقيقي في البلاد؟[٢٤]

إن أرضنا خصبة، طيبة التربة، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة. وهواؤها ونباتها في غاية الجودة، يصلحان لتغذية الحيوانات البرية كافة. وبنوها أصحاب كد ونصب، وذوو صبر على العمل وجلد على التعب. فهي من هذا الوجه عالم برأسه، غنية مثرية، لا تفنى كنوزها، ولا تفرغ خزائنها. وإنها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها، وتقوية شوكتها، بل أن تكون سلطتها مبسوطة إلى أقطار أخر.

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة، والعزة والشوكة، وإن كان من كليات أسبابها، بل لا بد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة، ورشاد الرأي في استخدامها، ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها. فإن ضلت الآراء، وساء الاستعمال، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه. وماذا تصنع الوسائل المُهَيَّأة إذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له؟ وأي شيء تفيد الفرص إذا لم تصادف من ينتهزها؟ وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل؟! كلا.. فما فقر البلاد إلا قلة الراشدين فيها، وما غناها الحقيقي إلا كثرة المهتدين.

فإن سألنا سائل: هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد إذا وجدوا، وهم فقرها إذا فقدوا؟ قلت: للأسف، لا.. إنهم قليل، نخشى إذا انقضى دورهم أو قضى أجلهم ألا يوجد بدلهم. والبرهان على ذلك أن الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد، التي تدوم بدوامها، أو على الأقل أجيالاً وأحقابا، وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا، التي أثمرت ثمرا جناه أبناء الأوطان، وتمتعوا بلذته، مع

الثقة بدوامه، هم قليلون جداً، بل ينحصرون في أوائل مراتب الأعداد. وإن النفوس الطيبة تعرفهم، وهم أيضا يعرفون أنفسهم.

الزراعة على حالها القديم، لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة المحصولات، أو تسهيل العمل، وتخفيف المشقة، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الأنواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة، كالكتان والسمسم وغيرهما، والاقتصار على بعض أصناف قليلة. والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة، وأظن هذا لا يحتاج إلى البيان. والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرا، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائنا قليلة جداً، إن لم نقل مفقودة بالنسبة إلى بلاد أخر. ورجال العلم ومصابيح الفضل لا نراهم إلا قليلاً، إذا أردنا أن نعددهم لا نحتاج إلى زيادة عن عقد الأصابع، بل ربما نقف دونها بكثير. والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية التي هي أساس العمران، وأدائها حق الواجب لها على وجه العدل وطريق الحق، الذي لا يخامره الباطل، اللهم إلا خطأ نادرا، هم أيضا كسابقيهم. نعم.. يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان.

على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والإدارة، إن كانوا في هذا الوقت كثيرا، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم مَنْ بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين، بل إن كانوا وجدوا فبالمصادفة والاتفاق، ثم ينثرهم الزمان، فلا يطول إلا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم، وهيهات أن يأتي هذا التراب بأمثالهم. فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء - إن كانوا - كمثل عاجز نبش في أرض قفر، فوجد فيها كنزا يكفي لنفقته مدة معينة، فإذا مضت تلك المدة فقد المال، واستسلم المسكين لأحكام المصادفات، والغالب على حاله أن يموت جوعا، فيكون فريسة لذئب أو طعمة لكلب.

والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية، التي تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بإضرار وطنه كشعوره بإضرار ذاته، إن لم نقل تجعل الإحساس الأول أقوى من الثاني، وتزيد في

إحساس الإنسان بمنافعه ومضاره. ولا أتكلم فيها الآن، فإن لي في مقالي هذا مقصدا سواها، فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه.

تلك آثار السابقين من الذين وسد إليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم ألعوبة، وتولوا أمرها فصيروها بسيئ تصرفاتهم أعجوبة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إن جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال، أعني فقر البلاد من الرجال. والدليل على ذلك أن غالبهم إذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول إلى ما انتهى إليه من درجات الفضل، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلحقوه. فهذه منهم شهادة على أن الفضل قليل، وبنوه مثله.

فإن سألنا سائل: هل من مانع يحول دون وضع ذاك الأساس، أساس المجد والعزة، أعني به أساس التربية الحقة؟ وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة، وانحطاط همم الأفراد من الناس، الذين يجب عليهم طلبه، والمحافظة عليه؟ قلت: لا. إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في إغفال مصالحنا، وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية، بالخوف من ظلم الحكومة، وكان لنا بعض الحق في ذلك، فإن السلطة في تلك الأزمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجبا من الرعب والخشية، فإن غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء، ونفوذ الكلمة، واستيفاء الأغراض، وقضاء الأوطار الذاتية، لا تمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائهم، حتى لا يعرفوا حقًّا فيطلبوه ولا باطلاً فيدفعوه.

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة، كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر واللوائح وما شاكل ذلك، إلا أنها كانت بدون مسميات، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازا بعيدا. وإنما كانت تجلب على النظر والسمع صورا خيالية، إذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما، فلم تكن في تلك الأيام سعة لفاعل خير أن يفعله، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأنَّ له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيري، أصبح لا

يجد نفسه ولا ماله، فهذه كانت أعذارنا في الأزمان السابقة، ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا، فكيف الاعتذار؟!

لكنا في هذه الأيام ـ والحمد للّه ـ قد أصبحنا في مأمن من هذا، لو تحققت حكومتنا أن لأحدنا كنوز الأرض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله، ولكانت حريصة على ازدياد ثروته. ولئن طلب الإنفاق جهده في الأعمال الخيرية، لجدت هي في مساعدته، وتسهيل الوسائل إلى بلوغ مقصده. ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل، لسارعت إلى تقويته حتى يكون شمسا منيرة، وإن تَنَشَّط أقوام من رعيتها إلى الاجتماع والتآلف والاتحاد لغاية محمودة، كبث علم أو إذاعة فضل، رأيتها تقيم لبيت الألفه أعمدة، وتوطد له أركانا، وتحيط به سورا منيعا، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في **القاهرة** و**الإسكندرية**(٢٥)، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية. وبالجملة، فإن الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق، وقاصد صلاح، وراغب فلاح، فليس من جهة الحكومة هذا المانع، فبطل ذاك التعلل.

فإن سأل سائل: أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه، تحوم عليهم الأفكار، وتتوجه نحوهم القلوب، وتنجذب إليهم النفوس، ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الأعمال الجليلة التي تكون عنوانا لمجدهم، وسياجا حافظا لنَامُوسهم، ورفعة شأنهم، فتحركهم الغيرة، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهمَ إلى بَعَض، وبذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم، على ما هو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا؟!

قلت إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء اللّه، وإن غداً لناظره قريب.

الجواب(٢٦)

نعم.. يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار، وهم المتمتعون بخير البلاد، وهم الذين ينبغي لهم أن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب؛ لأن الأعين الغادرة

محملقة إليهم، طالبة انتزاع ما بأيديهم. وإن تسلط الدخلاء عليها، وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها، يضر بأولئك الأغنياء أولاً وبالذات، ولا يضر غيرهم من الفقراء إلا ثانيا وبالعرض، بل ربما لا يصل الضرر إلى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلاً، فإن الأنظار لا ترمق إلا ذوي الاعتبار، فهم منتهى الأطماع.

فإن سأل سائل: ألا يحب أولئك الأغنياء أن يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم؟ ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم؟ ألا يعلمون أن الزمان قد انقلب وضعه، وتغير طبعه، فصارت السلطة الخشنية[٢٧] لا دوام لها؟ وأن الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ولا لتحصيل ما فقدناه؟ أولم ينظروا إلى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلبا لاختلاس أرواحهم من أبدانهم؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ولن يدفعها إلا حرس الحزم والبصيرة؟ ألا يعقلون أن التغالب في هذه الأوقات أصبح معظمه، إن لم أقل جميعه، تغالب الأفكار والآراء؟ فالأمة ذات البسطة في الأفكار والمهارة في المعارف هي الأقوى سلطانا، والأقوم سياسة، وهي الغالبة على سواها من الأمم. أفلم يبصروا أنه لا معنى لشدة البأس في أيامنا هذه إلا تَدَرُّع الحكمة وتبطن الدهاء؟ ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لنوال أعلى مراقي المجد في أوطانه، ثم اندفع إلينا لا ندري ماذا يريد أن يصنع بنا؟ فإن عقلوا جميع ذلك، أفلا يفقهون أنهم إن لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر؟!

قلنا: بلى. إن اختلاطنا بالأمم الأوروبية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة، وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نتحدث عنهم إلا وقد وقف على الشيء من ذلك. وكثيرا ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم، كأنهم يعلمونها حق العلم.

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك إلى إبراز الآثار، وطلب ما علموه صلاحا بالفعل دون القول، كل واحد منهم يطلب الخير، ولكن لا يحب أن يكون البادئ به، بل يريد أن يبدأ الغير ثم هو يتبعه. فإن كانوا كذلك فلا بادئ ولا تابع، وكأني بهم على إحدى حالتين: إما أن جميع الحوادث التي مرت على رءوسهم لم تكسبهم معرفة، ولم تحرك فيهم غيرة، فذلك غاية الجهل - نعوذ بالله - وإننا ننزههم عنه. وإما أنهم علموا وتفقهوا، ولكن استولى اليأس على نفوسهم، فذلك ليس من شأن العقلاء، فإن القنوط من رحمة الله كفر.

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الأماني صادرا من القادرين على بلوغها، لكنهم يطلبونها من غير وجهها، فيعز عليهم منالها. يروم كثير من الناس - خصوصا من ذوي الاقتدار - أن يكون ميزان العدل منتصبا لا يميل حبة ولا مثقالاً، ولكن على شرط ألا يؤخذ منهم ما يجب عليهم، وألا يكلفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون، يودون أن تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها، لكن على شرط ألا يكون له فيها مدخل، لا ببذل نقد ولا تجشم عمل، ويرغب في أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة، والجد والاجتهاد، ومراعاة المصلحة العامة. لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة، ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية، ولم يجد من نفسه إحساسا بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج، وإن ذلك لمن المحال البين. وبالجملة، فطالب الإصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله، بل يحب أن يأتيه الإصلاح ساعيا إليه، ويحدق نظره نحو الحكومة، يطلب منها أن تخلق خلقا جديدا. مع أن سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا أن يسعى أفراد الأمة ونبلاؤها في جمع الكلمة، وبذل الدينار والدرهم، وتعاضد الأفكار والأعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية، بدون توان في العمل، ولا فتور في الهمم.

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم، وتطاول الأيدي الظالمة إليهم أكثر من الفقراء، أن يتألفوا ويتحدوا، ويبذلوا من أموالهم في

سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم، حتى تعم التربية، وتثبت في البلاد جراثيم العقل والإدراك، وتنمو روح الحق والصلاح، وتتهذب النفوس، ويشتد الإحساس بالمنافع والمضار، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من الأمم، فنكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة، وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين.

أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوروبية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزارعين والصانعين والتجار، كيف يبلغ إيراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات، وبعضها أكثر وبعضها أقل، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم، واتساع دائرة الصنائع والفنون، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى أبناؤها بحلاها؟! أيظنون أنه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الإصلاح بأموالهم وأنفسهم، وأنشئوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف؟!

إن شأن الحكومة ليس إلا أن تطلق للناس عنان العمل، فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيرا لها، فإن أى حكومة قيل إنها عادلة حرة لم يكن لها إلا أنها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع، ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة، فإذا لم يكن في الناس - خصوصًا الكبراء - من يهمه أمر مصلحته وبقاء شرفه وناموسه، فسفه منه أن يطلب من الحكومة ما لا يطلبه هو لنفسه من نفسه.

إني بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الأغنياء الذين يتكلمون كثيرا فيقولون: لو يا ليت لوما، كان، وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني، ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بأنفسهم لهوا وفخارا كاذبا، ولا يبذلون درهما - أو إن بذلوا فشيء يسير جدًا يقدر عليه أفقر الناس - في المطلوب الذي يعدونه عظيما.

وإنهم يعلمون أن عدل الجاهل ظلم، فإن صدر منه بطريق المصادفة لا عن مقصد فلا بد له من الخبط فيظلم. وإن غناه فقر، فإنه أتى من البخت الاتفاقي، ولا بد يوما

أن يختل سيره فيفتقر . وإن كمال الجاهل نقص، فإنه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم ينهدم .

فقر الجهول بلا علم إلى أدب   فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من أنهم يحبون العدل، ويرغبون الإصلاح، ويعرفون خير أنفسهم وبلادهم، بل ولا يصدقهم أحد أبدا، إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل، فحينئذ نعترف لهم بكل ما يدعون، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون. أما الكلام، فقد شبعت منه الآذان، وأفعمت به القلوب، والسلام.



الكتب العلمية وغيرها[٢٨]

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين إلى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين، سواء كانت هذه الأميال غريزية أو مكتسبة من طوارئ التربية وعوارضها. وهذه الأقسام اختلفت في الشهرة والخفاء، وكثرة التداول بين أيدي الكثير من الناس، وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ومحافلهم الخصوصية والعمومية.

فمنها الكتب النقلية الدينية، وهي ما بُيِّنَ فيها مسائل الدين، سواء كانت من الأصول كعلم الكلام، أو الفروع كالعبادات والمعاملات، ومن القبيل كتب التفسير والحديث، وكتب الأخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الإحياء لحجة الإسلام «**الغزالي**». وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عددا كثيرا، نبغ منهم الأفاضل والأماثل، وكثرت فيهم المؤلفات، وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات.

ومنها الكتب العقلية الحكْمية، وهي ما يبحث فيها عن الحقائق الوجودية وأحوالها ولوازمها على قدرَ الطاقة البشرية. وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا، والمشتغلون بكتبه أقل من القليل، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا إلا نزر يسير من فروعه، كبعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات. والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها إما بالنسخ وإما بالطبع الأجنبي، ولا تشترى إلا بالثمن الجسيم.

ومنها الكتب الأدبية وهي ما يبحث فيها عن تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق. ومن هذا القبيل، كتب التاريخ وكتب الأخلاق العقلية وكتب الرومانيات. وهي

المخترعة لمقصد جليل كتعليم الأدب، وبيان أحوال الأمم، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل، ككتاب «كليلة ودمنة» و«فاكهة الخلفاء» و«المرزبان» «والتليماك» والقصة التي تترجم في جريدة «الأهرام» وغيرها من بقية المؤلفات. وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور، ويكثر في أبناء وطننا وجود البارعين فيه، والمشتغلين بدراسته، العاكفين على مطالعته.

ومنها كتب الأكاذيب الصرفة، وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع. وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة، ومن هذا القبيل كتب «**أبو زيد**» «**وعنتر عبس**» «**وإبراهيم بن حسن**» «**والظاهر بيبرس**». والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير. وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات، ونفق سوقها، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل.

ومنها كتب الخرافات، وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت. وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التي لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئًا عنها. وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف. ومن هذا القبيل ما يعرف عند الناس بعلم «الريحاني» وعلم «الكيميا» (الكاذبة)، وكتب «الوفقْ»، وكتب «الحرْف» و«الزايرجات». وذلك ككتاب «**أبو معشر**» و«الكواكب السيارة» و«شمس المعارف الكبرى» و«الصغرى» وكتاب «الحرف» المنسوب إلى الحكيم «**هرمس**» و«البرهتية» وشرحها و«الخلخلوتية» وشرحها و«الجلجلوتية» وشرحها و«دعوة السباب» و«دعوة القمر» بشروحها وكتب «المنادل» واستحضار «الخادم»، والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض، وعقد الرجل عن الجماع، وإرسال الهواتف، والتسليط بالرجم على البيوت، وغير ذلك مما لا يحصيه القلم. وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون، وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان.

وإذا تمهدت هذه المقدمات، فنقول:

قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد، ثم من عهد قريب - على عهد وزارتنا الحاضرة - صدرت الأوامر بألا يطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع. وحُجِزَ في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس إلا، وكان يصرح بطبع غيرِ ذلك من أصناف القسمين الأخيرين - (هما الأكاذيب الصرفة وكتب الخرافات) - على أنهما ليسا مما يخل بالدين ولا مما يناقض السياسة. ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر، واشتغل بمطالعتها كثير من الأهلين. فإذا شب الولد ومالت نفسه إلى المطالعة في الكتب، لم يجد أمامه إلا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية، فيجهد نفسه في قراءتها، فيشيب وهي بين يديه، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل. ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات، وانحطاطهم عن درجات الكمالات، وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد، وبقائها في حفر الهمجية والأخشيشان.

ولهذا، فإن الحكومة السنية قد وجهت عنايتها إلى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجز على طبع الكتب المضرة بالعقول، المخلة بالآداب، وهي كتب القسمين الأخيرين. فمن الآن وصاعدا لا يرخص لأى مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئا، ومن يتَعدى ذلك يجازى بأشد الجزاء. وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن.

فعلى الذين يميلون إلى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر أن يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة. فمن كانت رغبته متجهة إلى كتب «**أبو زيد**» وما معها من الكتب «**كعنتر عبس**» وغيرها أن يستبدل بها كتب التاريخ الصحيحة، كتاريخ «**المسعودى**»، وتاريخ «إظهار أنوار الجليل» لحضرة **رفاعة بك**، وتاريخ «الكامل» **لابن الأثير**، وتاريخ «**الدولة العلية**»، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد «**الأهرام**»، التي طبعت في مطبعة العصر الجديد، وهي المعنونة «بالانتقام» وغيرها من بقية الرومانيات الغربية الأصل. و«ككتاب كليلة ودمنة» وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات. وعلى من كانت فيه

بقية من حب كتب الخرافات، المعبر عنها بالريحاني أو غيرها من كتب الوفق والتنجيم، أن يقلع عنها، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة، وإلا فأي فائدة عادت إلى من صرف نقوده، وأباد بصره، وأراق ماء وجهه، في طلب الكيميا الكاذبة؟! وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضا لهذه المصاريف وتلك المشقات. وأي عائدة رجعت على من حفظ «العزائم»، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين، وأتعب عقله وبدنه في الخلوة لاستخدام العفاريت؟! إنا لم نرَ لكل ذلك من فائدة ولا عائدة، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين، ويعدون مع المحتالين. وإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشار إليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت، ولحقهما غضب اللّه والملائكة والناس أجمعين. وحينئذ، فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية، ويتباعد عنها على قدر الإمكان، وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة، ككتب الديانة المطهرة، وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الأخلاق، وكتب التواريخ الصحيحة، كتب العلوم الحقيقية، فإنها أنفع للنفس، ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن، على أسهل وجه، بدون أن يلحقه جزء من مائة من تلك المشقات، ولا أن يلتجئ إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد.

وفي ظني أن كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان، فإن كل واحد منهم يذهب إلى ما ذهبنا إليه، ويرى ما رأيناه. وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال. ثم نأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات، ونبين تأثيرها في النفوس، ودرجتها عند أهل المدن والأرياف، ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة. وبالجملة، نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد. إن شاء اللّه.

* * *

تأثير التعليم في الدين والعقيدة [٢٩]

من المعلوم الذي لا يشتبه فيه، أن أرباب المذاهب والأديان على العموم - وإن اختلفت عقائدهم وتنوعت مشاربهم - يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها، وينزلونها من العلوم أعلى منزلة، ويدافعون عن حرمتها ببذل الأموال وفناء الأرواح، حتى إن صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعا، وبالنار حرقا، وبالحجر رَضًا ولا يتحول عن عقيدته. وذلك ظاهر، فإن كل دين يرشد متقلديه إلى أن الدنيا فانية، وأن هناك دارا باقية، نعيمها يفوق كل نعيم، وشقاؤها يهون دونه كل شقاء، وكلاهما أبدي لا ينقطع. فالرجاء والخوف يدفعانه إلى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها، والجحيم عقاب العدول عنها.

ثم إن التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها، ودحض كل حجة تخالفها، ويقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الأشقياء الهالكين، حيث إن النجاة مربوطة بعقيدته، والهلاك معقود بمخالفتها. وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته، وتمكينها في القلوب، وتثبيتها في النفوس، لأحد أمرين:

الأول: سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة، وخوفه من أن يسعى في ضرره، لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما، فهو يسعى في ضم جميع الناس إلى نفسه في الاعتقاد، حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون، والانتفاع الذاتي، والأمن من المضار. وإن صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهدا، ولا يؤخر سعيا، ولا يترك وسيلة توصله إلى الإكثار من الموافقين له في الاعتقاد، حتى تتوافر له المنافع، ويكونوا له عونا على دفع الأخطار.

الثاني: الشفقة الإنسانية، فإن الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية، وأن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدي، ويعلم أن بني الإنسان كلهم إخوة، أبناء أب واحد وأم واحدة، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الآخر، كل هذا يحمله على أن يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد، فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة، فيدعوهم إلى أن يكونوا على مثل اعتقاده، لينجوا في الناجين، ويستعمل كل حيلة لإنقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرة بهم، مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم.

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة، ضاربين في الأرض يطلبون انتشار مذاهبهم، وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل. فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف، ومنهم من ينشئ المدارس والمكاتب للتعليم.

وهذا القسم الأخير هو الأكثر عددا، والأنجح سعيا، فإن العقول في سن الصغر ساذجة، والأذهان خالية، وهي مستعدة لقبول ما يرد إليها من الأفكار، قابلة للتأثر والانفعال بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال، خصوصا إذا كان جميع ذلك صادرا من شخص تكبره النفس وتعظم قدره، مثل الأستاذ والمؤدب والمربي. فمتى وجد الولد صغيرا في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله، ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه. فأيا كان آباؤه وأسلافه الأولون، لا يحفظ عقائدهم ولا هيئات أحوالهم. بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه أيا كانوا. فإن خالفت مذاهبهم مذاهب آبائه وأسلافه، فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه إلى مذهبهم، لتأثير أحوالهم فيه.

خصوصا وقد بينا، فيما سبق، أن كل ذي دين يميل بالطبيعة إلى بث دينه، وإعلاء كلمة اعتقاده. فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو رؤساء مذهب بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب، فلا شك فى أن حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه. ويزداد التأثير بطول المدة. وحسن المعاملة.

والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم. لا فرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب. وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب. فالذي دعاه إليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر، وإما الشفقة والرأفة على عباد اللّٰه بحسب اعتقاده الذي يراه يقينا لا ريب فيه. بل إن هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد تحصل بدون قصد من المعلمين. بل بحكم السّريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة.

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في **أقطارنا المصرية** التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية. لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب. وإنما الغرض منها نشر العلوم وبث أنوار التمدن - (على ما يقولون) - كمدارس الفرير والأمريكان والإنكليز وغيرها. فإننا وإن فرضنا أنه لا غرض لهم في إنشائها وصرف المصاريف الزائدة عليها إلا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط، لكن حيث إن رؤساءها ينسب كل واحد منهم إلى مذهب من المذاهب المسيحية، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتبا خاصة، لا يعرفها، وإن عرفها فربما لا يفهمها، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتبا توافق مشربه. ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والإملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني.

فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم، و**الكاثوليك** يقرئونهم ما يوافق مشربهم. وهكذا، فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرءون كتباواحدة توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة.

فإذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة إلى البروتستانت مثلاً، فلا شك فى أن عقائدهم تتحول بالتدريج من **المذهب القبطي** أو الكاثوليكى أو الدين الإسلامي إلى مثل عقائد البروتستانت. ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك، أو في المكاتب الدينية الإسلامية كمكاتب الفقهاء مثلاً، أو مدرسة الأزهر. فإن المتعلم فيها إن كان صغيرا لا شك تحول عقائده أيا كانت إلى الدين الإسلامي، بتأثير

الكتب فيه، فضلاً عن تأثير هيئات العبادة، وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر. وكل هذا لا لوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلاً، فإنهم لم يعملوا شيئا إلا بحسن النية، وصدق القصد، وليس لهم من غرض سوى إفادة العموم على حسب اعتقادهم.

غير أن عزة العقائد على النفس، كما بيناه في صدر مقالنا هذا، تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء. فإذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول، طار عقله، وانبعث إلى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشا في العموم وقلقا في الأفكار. ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات أن أحد أولاد «**مصطفى أفندي المنشاوي**» واسمه «**أحمد فهمي**» كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الأميركان البروتستانتية. وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب **بالمذهب البروتستنتي**، ودعا أباه وإخوته إلى موافقته على عقيدته الجديدة. وكان لهذه المسألة قصة هائلة لم يزل يتحدث بها الناس حتى اليوم، وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أمريكا. وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده، حيث سافر الولد إلى جهة لا يعلمها والده، وهو باق في حسرة فراقه يتقلب على جمر القلق حتى الآن، خصوصا ما يراه في هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالاً.

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع، وقعت في هذه الأيام. وهي أن أحد أولاد «**حسن أفندي الحكيم**»، من رجال الحقانية، كان تلميذا في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة، ثم انتقل منها إلى مدرسة الطب. غير أن المَوَدّة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة. وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين، تغيب من مدة أسابيع، ولم يعلم أين ذهب، ولم يهتد والده إلى السبب، حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا إلى أخيه المتغيب يعينون له فيه يوم السفر، فقط بدون زيادة. وبعد البحث والتدقيق، علم أنه في مدرسة الفرير **بالإسكندرية**. غير أن المسألة لم تتضح حتى الآن كمال الوضوح.

فهذا الأمر أفزع والده وعائلته، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم.

غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة، حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد إلى المدارس التي يتولى التعليم والإدارة فيها معلمون على غير مذهبهم أوغير دينهم، ويقيمون بينهم الأزمنة الطويلة، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع، حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم.

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، وسواء كان **قبطيا** أو **أرثوذكسيا** أو **بروتستانتيا**، أو غير ذلك من المذاهب، ألا يبعث بأولاده وهم صغار، لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى عليهم من المعلم والمؤدب، إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة من ليسوا على مذهبه أو دينه. ومن تساهل في ذلك، ثم تغير اعتقاد أبنائه، وانقلبت مذاهبهم إلى مذاهب أخرى، فلا يلومن إلا نفسه.

أما من لا يلتزم اعتقادا خاصا، ولا يرى لنفسه مذهبا معينا، فله أن يرسل أولاده في أى سن إلى أي مدرسة، إذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها فجميعها لديه سواء.

وبالجملة، فإنا نقول إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه، ويحرص على بقائه، ويحب ذلك لأولاده ونسله، فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده، بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة وهم في سن الصغر، فإذا بلغوا رشدهم، وعقلوا عقائدهم، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم، فلا بأس بإطلاق سراحهم يعاشرون من شاءوا، ويستفيدون العلم ممن يريدون. ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته، العديم الغيرة في حفظها. وسنعود إلى هذا الموضوع عندما يرد إلينا تفصيل الحادثة الأخيرة وما انتهى إليه الأمر فيها.

* * *

بقايا مسألة تأثير التعليم في العقيدة [٣٠]

نوهنا فى أحد أعداد جريدتنا سابقا بتغيب ابن «**حسن أفندي الحكيم**»، بما أغراه بعض رؤساء المدارس الأجنبية واستهواه عن عقيدته. وفيما يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجية عن **القطر المصري**، حسب ما يوجهونه، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة، وجحد إحسانهما إليه بالتربية البدنية، وما أنفقا من كسب الأيدي عليه لتكميل تربيته النفسية، وجرح قلبيهما بفراقه، وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه.

وأشرنا في ذلك إلى أن حضرة والده، الولّه المحزون على ما أصابه، توجه إلى **الإسكندرية** مستقصيا خبره، فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه، فرجع إلى **المحروسة** في حالة اليأس. فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا، يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده، وارتكاب العار الشنيع الذي لا يخصه بل يعم العائلة بتمامها، كما وقع لسابقه. فحرر تقريرا بذلك وذهب إلى الإسكندرية لهذا الغرض. فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة، إلى أن ورد إلينا من أحد أصحابنا بالإسكندرية رقيم يفيد أن الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت إلى مثل هذا العمل - التفريق بين الوالد والولد - ولنورد عبارة هذا الرقيم، ببعض تلخيص، فمنها تتضح حقيقة المسألة. قال صاحبنا، بعد الديباجة:

«إن نجل حضرة «**حسن أفندي الحكيم**»، الذي نوهتم بذكره في أحد أعداد «الوقائع» في الأسبوع الماضي، قد أحضره خاله من الميناء الغربية **بالإسكندرية** - محل وجود الوابورات البحرية. وعلم من كلام الفتى أنه كان متغيبًا جهة الرمل

بالإسكندرية، يدارس مع أحد الأساتذة بعض فصول علمية. وإنه لما علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الإسلامية، وحضر قاصدا خاله، ولم يكن له علم بأن والده بالإسكندرية. ولما قيل له إنه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم، سعى إليه وقابله، وقبل يديه، وأظهر له الخضوع والطاعة، وأبان له أنه حريص على دينه المحمدي، وأنه لا يرغب عنه، ولم يحمله على التغيب إلا حب العلوم، وتشوقه لإتمام علم الطب، لشدة شغفه به. ثم إن والده أخذ يلاطفه ويعده بما يميل إليه، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدها من الجهات الأوروبية، حتى آنس منه الامتثال. وقد حملته الغيرة على أن يكتب إلى الجريدة الرسمية بنفي ما نسب إليه، إلا أن والده رغب إلّي أن أكتب إليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد «الوقائع» أ. هـ.

غير أني كنت أحب أن يكتب إلي هذا الفتى بنفسه، ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره. وأرجو أن يكتب إلينا بشيء من الفصول العلمية، بأي عبارة كانت، لننشرها تحت اسمه، ويكون له الفضل، ونؤدي له على ذلك الشكر.

ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول: إن عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع، وإنه لم يخرج عن حد ما نوهنا به سابقا، إلا أنّا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحا، فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الإلهية بإرضاء والده الحنون الشفوق، والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف، إذ يلم بوالديه ما لا يقدر من الأحزان على فراقه وبعده، ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ فى فكره أو خطر بباله حالة أبويه وما وصل أمرهما إليه، إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره كلما تذكر الإحسان السابق منهما إليه مع إساءته إليهما. وهو قادر على مكافأة الإحسان بالإحسان، فنحن نشكر له هذا الانتباه، ونحمده على تلك الغيرة الدينية، بل الحمية الإنسانية، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها اللّه تعالى في الرتبة تالية للإقرار بربوبيته ووحدانيته إذ قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء: ٣٦) وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

وبأن يعظم قدر الإحسان الذي أسدياه إليه صغيرا، وهو فاقد القدرة والإرادة، ووالياه بالبر حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب، واختيار وإرادة في الخير والشر. فقد قرن الله شكر الوالدين بشكره في أمره، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤).

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها. ولا ريب فى أن هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الإشاعة التي ظهر آخر الأمر على ضدها. وفقه الله تعالى لحسن الطوية، وفقه عقله بنور المعرفة، ليسعى في إرضاء والديه، وتسكين خواطرهما، قياما بأمر الله في جميع كتبه على لسان جميع رسله.

والأمل بعد هذا ألا يتغيب عنهما إلا بإذنهما، سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت، حرصا على برهما. ثم إننا نعيد إنذار الآباء، هداهم الله، بألا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال، وألا يبعثوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن الله تعالى بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه. وهذا ـ خصوصا في مثل أقطارنا ـ أبعد من مجيء الألف على رأس المائة . على أن ما سبق منا نشره في الأعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة، فلا يؤمن على الأطفال من تغيير المذاهب إلا إذا ارتفع استحسان الشخص لمعتقد، واستوى جميع الاعتقادات عنده. وهذا محال ما دام الدين دينا. فليتنبه من يتنبه، وليتنه الآباء إن كانوا يعقلون.

* * *

التمرن والاعتياد[٣١]

حصول صورة الشيء في النفس علم وميلها إلى طلبه أو تركه إرادة، والتصميم على أحد الأمرين عزم، وليس بعده إلا الطلب بالفعل أو الترك. والترك لا يُحَمِّل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الأمور التي تكلف بها النفس تكليفًا ضروريا أو كماليا، كان من الأمور المباحة أو المحظورة. فإذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافا.

أما الطلب، فهو أحد الأمرين الذي يُحَمِّل النفس عناءين: **أحدهما** يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية، و**الثاني**: من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن. والأول مقدمة الثاني وسابق عليه، ونسبته إليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايفين، لا يوجد أحدهما بدون الآخر.

أما الأول، فهو البحث في أصل الطلب، واستقصاء ما يعود منه على الطالب أو غيره من المنافع، والتنقيب عن الوسائل التي توصل إلى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة، وتقدير الأعمال إزاء الفائدة، لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الأعمال البشرية أو زائدة عنها، على أصل التفاضل. وذلك كله، إنما يكون بعد أن تُعْرَف نسبة الطلب إلى غيره من المطالب، ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص، حتى لا يلزم على الشروع فيه الترجيح بلا مرجح. هذا شرح حال العناء الأول، وليس بعده إلا الشروع في العناء الثاني، عناء الأعمال البدنية.

أما فوائد الأعمال، فهي وإن كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار، إذ هي نتيجة أعمال متجددة، وكل متجدد فنتائجه كذلك، ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواما غير مطلق، والطالب لا يستغنى عن هذه الفوائد وقتا من

الأوقات، وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته إلى فوائده، سواء كانت من الضروريات أو الكماليات، فهو محتاج إلى دوام الفوائد، ودوامها يتوقف على دوام الأعمال، وهو أمر موقوف على العامل. وليس إدمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمرا من لوازم وجود ذاته، فيحتاج إلى صفة زائدة تقضي عليه أن يكون دائم العمل بقدر الحاجة. وليس احتياجه كافيا لهذا الاقتضاء، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل، وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والإهمال وما شاكلها، على أن الحاجة متفاوتة، فما كان منها في الدرجة الأولى، درجة الاضطرار البحت، فهو بنفسه كاف لإدمان العمل، بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق، والصفة القاضية بالإدمان أي المتممة لعلته، هي التمرن والاعتياد.

وبعبارة أوفق بالغرض: إن ما لا تدعو إليه الحاجة أصلاً في زمن من الأزمان، قد تدعو إليه في زمن آخر، لا لسد الاضطرار البحت، بل لما زاد عنه من الحاجات الثانوية، كالكماليات والمحسنات، وقد تدعو إليه بعد زمن طويل أو قصير، لسد الاضطرار البحت، فلا يجد الإنسان عنه فرارا، فيتكلفه مقهورا مقسورا، يتصور المنفعة على بُعْد، ولكنه غائب في دهشة آلام الأعمال التي لم يتكلفها يوما من الأيام، لولا حكم الصروف والحادثات، التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور في يدي الطفل، فلا يزال يحس بالألم، ويدمن العمل، حتى يهون عليه شيئا فشيئا، إلى أن يزول الألم بالكلية، ولا يجد إلا عملاً بدون ألم. فإذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل إلى العمل، فكأن الألم الأول استحال إلى ضده -(على حكم تلاقي الطرفين)- ويجد منه باعثا طبيعيا إليه. وهكذا يزداد الميل، ويشتد العشق، حتى لا يميل به الكسل يوما ما إلى إهمال العمل. وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد.

أما كون الشيء ربما يكون ضروريا في وقت دون وقت، فالأمر فيه وإن كان على ما أظن لا يحتاج إلى البيان، غير أني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول: إن الإنسان من حيث هو مفكر لا يقف عند محدود فيما يتعلق بلوازم حياته،

وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك، بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت، ويقيه الحر أو البرد من اللباس، ويكنه وقت الإيواء من البيوت. غير أنه لما تأنق في هذه الضروريات بعض التأنق، ورأى أنها تقبل التحسين شيئا فشيئا، أخذ على نفسه ألا يَقَرّ له قرار، ولا يهدأ له جأش، حتى يستخرج من دائرة الإمكان كل ما تتأدى إليه فكرته. فجد واجتهد، واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها ـ عندما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه ـ أنها لم تخلق إلا له، فتسلط عليها بصفتي التحليل والتركيب، حتى فتح أبوابا للتجارة والزراعة والصناعة، ووصل إلى ما وصل إليه الآن. وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالاً على أثقال، كلما وصل منه إلى درجة ظنها آخر الدرجات، وحسب نفسه فيها غريبا، فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة، شأن كل أمر غريب نادر الوجود، إذ كل نادر عزيز، قال الشاعر:

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه

وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس لمحتاج إلى أنفاسه

فإذا توطنت نفسه إلى هذه الغرائب زمنا استزاد منها، حتى يبلغ بها حد الكثرة، فيستعملها في لوازمه الضرورية، في أحواله كافة، ولا يخص بها وقتا دون وقت، إلى أن تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغني عنها، بحيث يرى كل ما كان أقدم منها، وفي درجة قبلها، من التقاليد، ساقطا من الاعتبار، وغير جائز الاستعمال، ويتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل إليها يزري بمقامه المنيف، ويحط بمقداره الشريف، ولا يتذكر أنه هو هو الإنسان أيام كان يقتات بسائط النبات، ويستتر بأوراق الأشجار ويأوي الكهوف والأغوار. فبان بما ذُكِر أن الشيء قد يكون ضروريا في وقت دون آخر.

ومن وجه آخر نقول: إذا سبرنا أخبار الأمم، نعلم يقينا أن الهيئة الاجتماعية البشرية ما وصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات

دفعة، بل لا بد ـ كما يشهد العيان ـ أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية. فإذا نظرت إلى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها ـ والإنسان ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (عبس: ١٧) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره فتفاخرها بما يدهش العقول، ويبهر النواظر من صناعاتها الغريبة، وأوضاعها الجميلة، فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش، وتتوهم أن ضعفها واقعي، فتنقبض نوعا من الانقباض. فإذا توسمت فيها هذه الانكماش والذعرَ (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد، فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر، إلى أن يرشدها التأمل إلى أن هذه ما وصلت إلى ما وصلت إلا بالعلم والعمل، المتوقفين على الكد والاجتهاد. فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار، حتى تصل إلى ما وصلت إليه أو تكاد.

غير أن تلك أيضا بعد أن تذوق لذة التقدم، وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذى كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى، تعامل الأمة المجاورة لها أيضا بمثل ما كانت تُعَامَلُ به في مبدإ الأمر، حتى تضطرها كذلك إلى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها.

وهكذا، كلما دخلت أمة من باب كلُفَتْ به من يجاورها من الأمم، حتى تنتظم الأمم جميعًا في سلك واحد في هذا الباب. ولكن حيث إن حب التسابق طبيعة في الناس، فلا تراهم يقفون لدى نقطة، بل متى وصلوا إلى حد ما من حدود التقدم، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة، وفتحت بابا من أبواب التقدم، عاد عليها بالنماء في الأموال والأنفس والثمرات، وبأن مجاوريها يخشون بأسها، ويرقبون حركاتها، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى ينساقوا إلى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون. فبان أن الأمم قد يحتاجون في زمن ما لا يحتاجونه في آخر. فصدق القول: إن الشيء قد يكون ضروريا وقد لا يكون.

وما ذكرناه من التنقلات يحكي حال الجمعية الإنسانية من يوم أن تفرقت

شعوبا وقبائل، يتخالفون في العوائد والأخلاق، فيتنافسون ويتحاسدون على النقير[٣٢] والقطمير[٣٣]، ويغلب عليهم حب الذات، والميل إلى الخصوصيات، فيدعون أنهم أجناس شتى. ولا يزال حالهم ذلك يتقلبون على جمر الشحناء، ويعذبون بعوامل البغضاء. فتارة ترمي بهم الأطماع في مخاليب التكلف، ومشاق التنقل من حال إلى حال، فيضطربون لهذا الأمر اضطرابا، وينقبضون منه انقباضا. وآونة يلقي بهم الجَهْد الجهيد - بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا - في بوادي الراحة، عند ما يصلون إلى نقطة التمرن والاعتياد، ولكنها نقطة غير ثابتة، كما أن درجات تقدمهم غير متناهية، فلا يزالون يترددون من التعب إلى الراحة، حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي، فيلتئموا بعد التفرق، ويرفعوا عن أعينهم حجاب هذا التشتت.

ويا ليت شعري! ما هو النازل الذي حل بالإنسان فغيّر معالمه الطبيعية، وبدَّل أخلاقه السلمية، وحل رابطته النوعية؟ وإلا فعهدنا به - إن لم نقل إنه من أم وأب تسليما جدليا - أنه من نوع واحد، يشف مرآه عن الوحدة التامة، الناطقة بأن الإنسان من جرثومة واحدة، نشأت عنها عائلة واحدة، حواها بسيط واحد، ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة. ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة - التي منها، وهو أكبرها، تعميم المواصلات، وتأكيد الروابط بين الممالك، وحركة الاجتماع والتآلف - إلى هذا السر المكنون، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين - حفظا لحقوق الإنسان وصونا لذمة الشرف - بأن الحركة العمومية موجهة إلى النقطة الأولى، وكلما قربت إلى المركز زادت سرعتها، شأن كل حركة طبيعية.

ولقد أثرت هذه الحال تأثيرا خفيا في الجم الغفير من عقلاء الناس، فمالوا إلى خدمة الإنسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب. فإذا رجع الإنسان إلى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد، يرتفقون بمنافعه على السواء، ويجدون من بركات الأرض ما يكفيهم مئونة التعب، ويكفهم عن الشقاق والعناد إذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون

اختصاص، على حكم تبادل الأعمال. وإذا نزل بقبيل نازل توجه الكل إلى إنقاذه مما ألم به، وساروا جميعا على وفق القانون الطبيعي المودَع في فطرة الإنسان، يهديه إليه من علَّم الطير النياحة، ومرنه على السياحة. ثم لا ترى فيهم إذ ذاك ما يحتاج معه الإنسان إلى كُلْفَة وعناء. بل لا ترى إلا أعمالاً جارية على منهج السهولة، منهج التمرن والاعتياد.

* * *

لائحة إصلاح التعليم العثماني

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا اللّٰه[٣٤]، وحده لا شريك له، وبه الحول والقوة، **وصلى اللّٰه وسلم على نبيه** وآله وصحبه، وبعد. . فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة، بما نشر في جريدة «الطريق» من أنه صدرت الإرادة السنية إلى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الإسلام، بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة. أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة «**نوري أفندى**» أمين الفتوى و«**حسني أفندى**» رئيس مجلس المعارف، وصاحب العطوفة «**عبد النافع أفندي**»، وصاحب الفضيلة خوجة «**إسحاق أفندي**»، وأن يناط بهذه اللجنة إصلاح جداول الدروس في المكاتب[٣٥] الإسلامية، وتقويمها، حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين، وتلقينهم ضروريات الدين الإسلامي، وتربيتهم بالآداب والأخلاق الإسلامية على وفق الحق المطلوب.

وإن حضرة مولانا شيخ الإسلام، وحضرات أعضاء اللجنة الكرام، وإن كانوا في غنى بآرائهم القويمة، ومعارفهم الواسعة عن أن يتقدم إليهم أمثالنا بالمشورة، لكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا إلى أولياء أمورنا. مع الاعتراف بالعجز، والإقرار بالقصور، عملا بقول سيدنا علي كرم اللّٰه وجهه: «من واجب حقوق اللّٰه على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته، يفوق أن يعان على ما حَمَّله اللّٰه من حقه، ولا امرؤ وإن صَغَّرته النفوس، واقتحمته العيون، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه».

إن من له قلب من أهل الدين الإسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية

العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها. وإنا والحمد للّه على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت.

إن للخلافة الإسلامية حصونا وأسوارا. وإن أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها، والحمية للدفاع عنها. ولا معقد للثقة، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين إلا ما أتاهم من قبل الدين. ومن ظن أن اسم الوطن، ومصلحة البلاد، وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها فقد ضل سواء السبيل.

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم، وأنحت الأيام على معاقد إيمانهم، ووهت عرى يقينهم، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم. وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق، وانتكاس في الطبائع، وانحطاط في الأنفس، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرُّتَّع؛ غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع آجالهم، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون في اللذات البهيمية، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة للّه ورسوله وخليفته أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم. وهؤلاء الهنديون وسكان ما وراء النهر وقبائل التركمان وأشباههم يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل. ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم، ولكن عمت بها البلية حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث، لولا أن تداركتها قوة مولانا أمير المؤمنين خلد اللّه ظله.

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين، واستمالة أهوائهم إلى الأخذ بدسائسهم، والإصاخة إلى وساوسهم، فخلبوا عقول عدد غير قليل، ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الإسلامية، حتى العثمانية، لتضليل المسلمين، فلا ترى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأميركانيين، أو اليسوعيين، أو العزارية، أو الفرير، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الأوروبية. والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس، طمعا في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم، أو تحصيلهم بعض اللغات

الأوروبية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم. ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الإسلامية.

وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون إلى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة وغرارة الصبا والحداثة، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الإسلامي، ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي، بل لا يطرق أسماعهم إلا ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم، ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم. ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول لأنه من أساتذتهم القوام على تربيتهم بإذن آبائهم. ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة، فذلك أمر أعرف من أن يبين. فلا تنقضي سنو تعليمهم إلا وقد خوت قلوبهم من كل عقد إسلامي، وأصبحوا كفارا تحت حجاب اسم الإسلام. ولا يقف الأمر عند ذلك، بل تعقد قلوبهم على محبة الأجانب، وتُجْذَب أهواؤهم إلى مجاراتهم، ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم. ثم ينفثون ما تدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل، فيصيرون بذلك ويلاً على الأمة، ورزية على الدولة، نعوذ باللّه. ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة، عثمانيين في النزعة.

هذا ما جلبه الجهل على الأمة الإسلامية، وإن غائلته لمن أشد الغوائل، وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو لم تدفعها عزيمة **مولانا** أمير **المؤمنين**.

أما المكاتب والمدارس الإسلامية، فقد كانت إمًّا خالية من التعليم الديني جملة، وإما مشتملة على شيء قليل منه لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات مع الجهل بالمدلولات. ولهذا رأينا كثيرا ممن قرءوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين، وجهالاً بعقائده، منكبين على الشهوات وسفساف الملذات، لا يخشون اللّه في سر ولا جهر، ولا يراعون له حكما في خير ولا شر، وانحط بهم ذلك إلى الكَلَب في الكسب والانصباب على طلب التوسعة في العيش، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراما ولا

طيبا أو خبيثا. فإذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة، ومالوا إلى الخيانة، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأى وسيلة.

وبالجملة، فإن ضعف العقيدة، والجهل بالدين، قد شملا المسلمين على اختلاف طبقاتهم، إلا من عصم اللَّه وهم قليلون. ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أى حيلة، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم، مع أنها غير معروفة في دينهم، بل مضادة لصريح نصوصه. ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة والإنفاق على مصالح الأمة، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم، بعكس ما نرى في سائر الأمم. هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها. ولا يهتدون إلى جامعة يلجئون إليها. وتَقَطَّعَ ما بينهم: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر: ١٤). ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

هذه أحوال نذكر منها القليل، واللَّه يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير، نذكرها مقرونة بأنفاس الأسف وصعداء الحزن لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم وأغلبهم شاذَّة[٣٦]، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادَّة[٣٧]، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة يحس بازديادها كل سنة عما قبلها. وإن عواقب ذلك لتخشى ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

وإذا اسْتَقْرَيْنَا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لا نجد إلا سببا واحدا، وهو القصور في التعليم الديني: إما بإهماله جملة كما هو في بعض البلاد، وإما بالسلوك إليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر. أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني، فجمهور العامة في كل ناحية، لم يبق عندهم من الدين إلا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها، فإن كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد «**الجبرية**[٣٨]» و «**المرجئة**[٣٩]» من نحو أنه لا اختيار للعبد في ما يفعله، وإنما هو مجبور في ما يصدر منه جبرا محضا، فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض، ولا اجترام السيئات. ومثل أن رحمة اللَّه لا تدع ذنبا حتى تشمله بالغفران قطعا لا

احتمال معه للعقاب. فليفعل الإنسان ما يفعل من الموبقات. وليهمل ما يهمل من المفروضات؛ فلا عقاب عليه. وما شاكل ذلك مما أدى إلى هدم أركان الدين من نفوسهم، واستل الحمية من قلوبهم. ولا منشأ له إلا عدم تعليمهم عقائد دينهم. وغفلتهم عما أودع في كتاب اللّٰه وسنة رسوله.

وأما الذين أصابوا شيئا من العلم الديني. فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة وفرائض الصلاة والصيام. وظنوا أن الدين منحصر في ذلك. ومتى أدوا هاتين العبادتين، على ما نص في كتب الفقه، أقاموا الدين، وإن هدموا كل ركن سواهما. ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة(٤٠). ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات، متخذا ذلك آلة للكسب وصنعة من الصنائع العادية. وأولئك الأغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ووظائف التدريس وما شاكل ذلك. لا ينظرون من الدين إلا من وجه ما يجلب إليهم المعيشة. فإن مال بهم طلب العيش إلى مخالفته لم يبالوا بذلك، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا (٤١). وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم، ولكنها تتعدى إلى أخلاق العامة وأطوارهم. فهذا القسم أعظم الأقسام خطرا وأشدها ضررا في العامة والخاصة، وما أفراده بقليل.

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ما حَدَّ الكتاب، واستمسكوا في الدين بالعروة الوثقى، وأضرم الدين في قلوبهم نارالحمية، واستفز اليقينُ هَمَّهم للنصرة الملية، إلا أنهم قليل، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في إرشاد الأمة. وبالجملة، فوجود أمثالهم لم يكن كافيا في دفع الشرور الوافدة من غيرهم، ولولا ما لطف اللّٰه بهذه الأمة، بسر تَوَجُّه مولانا الخليفة الأعظم، لعجل لها من الوبال ما استحقته، لسوء أعمالها، ونبذها أحكام اللّٰه وراء ظهرها، وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين.

وقد نظر مولانا أعزه اللّٰه ونصره إلى عظم هذا الأمر وهول عواقبه، فأصدر إرادته السامية بالنظر في وجوه تداركه. فيا للنعمة العظمى، ويا للمرحمة الكبرى.

هشت لها قلوب المؤمنين، وبشت لورود بشراها وجوه الصادقين، وارتفعت أصوات التضرع إلى اللَّه بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين، وتأييد دولته، وإعلاء كلمته.

وإنه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة، وهي ظاهرة مشهورة، والوقوف على سببها الذي أشرنا إليه، وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الإسلام وأعضاء اللجنة الكرام، نعلم أن أمير المؤمنين لم يرد من إصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الإسلامية بعض الكتب الفقهية، مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء. فإن العلوم العملية إذا لم تبن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لا تلبث أن تضمحل. ولئن ثبتت، فإنما تسوق إلى أعمال خالية عن النيات، وخاوية من سر الإخلاص، فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه. فلا بد أن يكون مولانا الخليفة - أعز اللَّه نصره - قد أراد أن يوجه النظر إلى فَنٍّ تقوى به العقيدة. ويستحكم سلطانها على العقول. ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن، فيكون التذكار مستحفظًا لما يصل إليه منه. ثم إلى فن الفقه الباطني، وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها أو المهلك منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل، والمنجي كالصدق والأمانة والرضا والشجاعة وسائر الفضائل. ويضم إلى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الإسلامية. ثم إلى تربية تحفظ ذلك، وتروض النفس على العمل بما تعلم منه. ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة، والتربية على وفق قواعدها مستندين إلى الشرع الشريف، بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم، كحجة الإسلام «الغزالي» وأمثاله. فالمقصد بالذات علمان، وهما أصلان، ومجموعهما ركن من الإصلاح، والركن الآخر التربية بما يهديان إليه، حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تَعَمُّل. ثم يتبعهما فن آخر يُقوِّى على الغرض منهما، وهوفن التاريخ الديني،

خصوصا سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين.

هذا إجمال ما إليه الحاجة من العلوم الدينية، إلا أن كل واحد منها مقول على المبدإ والتوسط والنهاية، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لاقوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به.

فلهذا نقسم طبقات الناس إلى ثلاث، ونعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون.

فالطبقة الأولى: العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم. والثانية: طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعية، وحماتها من ضباط العسكرية، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم، ومأموري الإدارة على اختلاف مراتبهم. والطبقة الثالثة: طبقة العلماء من أهل الإرشاد والتربية.

ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة، ثم إن اللّه لا يضيع أجر العاملين.

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

الطبقة الأولى: هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقراءة وشيء من الحساب، يُعَلَّمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها. وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية والمكاتب الخيرية الأهلية. فهؤلاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها محتسبين ذلك في سبيل اللّه غير ساخطين ولا

متكرهين، ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ إلى قلوبهم. فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ومعاصم الأنفة الملية كما كان ذلك في نشأة الإسلام وبداءة الخلافة العثمانية، وكما هو معروف الآن عند الأمم الأوروباوية مما تعلموه من أسلافنا. ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا إلا بعقيدة صادقة، واستقامة ثابتة، ومحبة خالصة. ولهذا، ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي:

أولاً: كتاب مختصر في العقائد الإسلامية المتفق عليها عند **أهل السنة**، بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الإسلامية مطلقا، مع الاستدلال عليها بالأدلة الإقناعية القريبة المنال، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، ومع الإلمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى، وبيان شبههم في معتقداتهم، لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الإنجيل المنبثين في كل قطر.

ثانيا: كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال، وبيان الأخلاق الخبيثة، والصفات الطيبة، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ولا في السنة أثرها، وظهر في العامة ضررها، مستدلا فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة، مؤيدا بأعمال الصديقين من سلف الأمة. ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير أن الإنسان إنما خلق ليكون عبد اللّه؛ فكل شيء دون اللّه ورسوله مبذول.

ثالثا: كتاب في التاريخ، مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالأخلاق الكريمة والأعمال العظيمة وفداء الدين بالأرواح والأموال، مع الإلمام بالسبب في تسلط الإسلام على الأمم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم، وإثبات أن ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة. ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول.

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية[٤٢] ومن الترك تركية، ومن

غيرهم بلسانهم إن وجدوا، وما يذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها.

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

الطبقة الثانية: هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها، حفاظا لما استحفظوا عليه من شئونها ـ الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه(٤٣) حتى ينتصر أو يموت، والمحكَّم منهم يفصل المخاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر إلى كفف(٤٤) النظام يرجح ما رجح فيه ويسقط ما سقط منه، فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت. والمولى منهم آمر في إدارة أمور الرعية، آخذ لمنظار الحذق والدراية ليستبين ما يخفى من مصالح وما يدق من مسالك أهوائها، ليضبط الأعمال، ويلزم الحدود، ويوفر وسائل العمران، فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها، إلا أن يحول دون ذلك الموت فيموت. فهذه الطبقة، بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدإ التعليم الديني، يزاد لها ـ بعد ما تقدم ـ كتب أعلى من تلك الفنون نفسها، فتوضع لهم في المدارس العالية والإعدادية على الوجه الآتي:

أولاً ـ كتاب يكون مقدمة للعلوم، يحتوي على المهم في فن المنطق، وأصول النظر، وشيء من آداب الجدل.

ثانيا ـ كتاب في العقائد، يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي، مع التزام التوسط، وإتيان الطريق الأقرب، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الإسلامية أيضا إلا أنه يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لإيضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الإسلامية في تقويم المعيشة المدنية، فضلاً عن غاية السعادة الأخروية.

ثالثا ـ كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرذائل، ببيان أكمل مما

في البداية، وتوضيح لأسباب الأخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس، ثم بيان الحِكَم لبعض الأحكام الدينية وفوائدها في الحياة البشرية، مع الاستناد في هذا وفي سابقه إلى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم. ويكون مدار الكلام في الكتابين ما يضرم الحمية في القلوب، ويرفع النفوس إلى مقام لا تطلب فيه إلا معالي الأمور.

رابعا - كتاب تاريخ ديني، يحتوي على تفصيل سيرة **النبي** - صلى الله عليه وسلم - وسيرة أصحابه، والفتوحات الإسلامية العظيمة في القرون المختلفة، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك، والإتيان على كل هذا من وجه ديني محض. فإن ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط إليه سيادة الإسلام من أقطار الأرض، ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب إلى طلب المفقود، فضلاً عن حفظ الموجود. ثم تبسط فيه أسباب التقدم الإسلامي بأدق مما كان في السابق.

وأبناء هذه الطبقة، كالسابقين من إخوانهم، يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق. ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا اللسان العربي إلا ما يفرض عليهم في العبادات، وما يتلونه من ذلك، فلابد من إيقافهم على حقيقة معناه بالتفسير حتى يكون كل قائل عارفا بمدلول ما ينطق به، ليترك الذِّكر أثرا في الفكر كما هو مطلوب الشارع. وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية إذا وجدت فيهم الأوصاف التي تؤهلهم لذلك، من الحمية والعفة، ومحبة الدولة، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف، مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات، وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه، وإن خالف أوهام العامة.

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

الطبقة الثالثة: هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها، وتخلقهم بالصفات المقصودة

بوضعها، فانتخبوا لذلك، على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل، حتى يكونوا عرفاء الأمة، وهداة الملة، فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والإعدادية، بل والابتدائية إذا كثر عددهم. وبهم يناط التعليم لأهل طبقتهم. فهؤلاء لا يكفي لإبلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم ودراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية، بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة، يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم، ويستوسعون بها القدرة في البيان لإفادة غيرهم. فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما يكفي للمسترشد، ولأجل هذا نقتصر في بيان ما يحتاجون إليه على ذكر الفنون دون التعرض لأعيان الكتب، إلا قليلاً، فلتكن الفنون على الوجه الآتي إن شاء اللَّه:

أولاً: فن تفسير القرآن، وهو أهم ما يحتاج إليه، ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع اللَّه فيه من الأسرار والحكمة. فالقرآن سر نجاح المسلمين، ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا إرجاعهم إليه. وما لم تقرع صيحته أعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم، ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه، على ما ترشد إليه أساليب اللغة العربية، ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الإبل ممن أنزل القرآن بلغتهم. والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه. فإن احتيج إلى وسيلة أخرى، فأولاها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير «الكشاف» وتفسير «**القمي النيسابوري**» ومن أخذ طريقهما.

ثانيا: فنون اللغة العربية، من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث.

ثالثا: فن الحديث، على شرط أن يؤخذ مفسرا للقرآن مبينا له، مع إطراح ما يخالف نصه من الأحاديث الضعيفة، والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة إليه إن كان ظاهرها يوهم المخالفة.

رابعا: فن الأخلاق والآداب الدينية، بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ما

سلك الإمام «**الغزالي**» في «الإحياء»، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الأصول المشهورة.

خامسا: فن أصول الفقه، من وجه ما يُمكِّن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية، ويوقف على كليات الشريعة ليستأنس بها في فهم الأحكام. ونرى أفضل كتاب يفيد لهذاَ المقصد «الموافقات» للشيخ «**الشاطبي**» المطبوع في تونس.

سادسا: فن التاريخ، القديم والحديث، ويدخل في ذلك سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتفصيل وسير أصحابه، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الإسلامية الأولى، وتاريخ **الدولة العثمانية** وما كان منها في إنهاض الإسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية، مع التوفيق في أسباب ما وصلت إليه الملة في هذه الأيام، ليتبين أنه لا سبب لذلك إلا الجهل بالدين، والانحراف عن أحكامه، وانشقاق عصا الأمة بالخلاف الذي لا طائل له.

سابعا: فن الإقناع والخطابة وأصول الجدل، لغرض التمكن من تقرير المعاني في الأذهان، وتثبيت العقائد في النفوس، وإلزامها الأخذ بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الأمور.

ثامنا: فن الكلام، والنظر في العقائد، واختلاف المذاهب، والبحث في أدلة كل، لا لتحصيل العقيدة ولكن لزيادة البسطة في الفكر والسعة في الرأي، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحِكْمِيَّة الإسلامية لتكميل الإحاطة بوجوه المسائل العقلية.

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات؛ لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة، وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي، إذ يضطر إليه كل ساكن في الممالك العثمانية ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه. أما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات وكل ما حددته نظارة

المعارف العثمانية، فهي على رسمها، كل مدرسة تتبع قانونها، لا يضر شيء منها بالدين، بل الدين يقويها كما أنها تقويه.

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الإسلام خاصة، وتكون إدارتها تحت عنايته في سلك مخصوص، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكًا وأذكاهم أخلاقًا، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان، ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها وتأهله للتدريس إلا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين: العلم والعمل.

* * *

التدريس في جميع تلك الدرجات إنما يقصد منه إشراب القلوب حب الدين وتوقيره، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين، وتأييد حافظه الأعظم المدافع عن بيضته حضرة مولانا أمير المؤمنين، فتكون الملة مهيبة يُخْشَى بأسها، وتخاف بوائق غضبها، ويئول بالدولة إلى علو الكلمة في سياستها الخارجية بعدما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الداخلية. وبالجملة فالقصد من إصلاح الجداول إنما هو إلى إحياء الملة، وكانت قد كادت تموت والعياذ بالله.

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة، خصوصًا في الأخلاق والآداب، أشبه شيء بالخطابة، ترسل في المعاني إلى القلوب لتهزها وتستفزها من مقار الخمول والغفلة إلى مقامات التنبه والبصيرة. ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم، ومؤاخذة لهم إذا خالفوا حكمًا من أحكام ما تعلموه، أو قصروا في عمل من لوازم ما اعتقدوه، وتذكيرهم في ذلك، بما يؤثر في قلوبهم ويحرك الساكن من خواطرهم، ومن ثمة يجب أن يكون القائمون

بالتعليم على أكمل الصفات العقلية وأفضل الأعمال النفسية، يراعي فيهم ذلك بقدر الإمكان.

وإن ثقتنا بوعد اللَّه في قوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ٦٩)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ (النحل: ١٢٨)، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، واعتبارنا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وخبرتنا بأحوال الأمم الأوروبية، والأسباب التي وصلت بهم إلى ما نراهم عليه في القوة والدراية، كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين، بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت إلى توحيد كلمة الإسلام، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية، رغما عن أنفس كل مخاصم، ومنه رأي هؤلاء العاجزين(٤٥) أن لا حافظ للدولة ولا واقي للملة سواه، وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي. فإنه لا سياسة إلا بالقوة، ولا قوة إلا بالنجدة، ولا نجدة إلا بالوحدة، ولا وحدة إلا بالطاعة، ولا حقيقة للطاعة إلا بالعقيدة الحسنة، ولا عقيدة إلا بحياة الدين، ولا حياة للدين إلا بالتعليم، حتى يجري على أحكام التجربة، وليس ذلك إلا ما عرضناه. وإن جمهور المسلمين ممن تعرف أفكارهم في الأقطار العثمانية، بل وفي غيرها، لا يرون دواء لدائهم إلا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم. وإن يكونوا يجهلون الوسائل إلى ذلك، فالحمد للَّه الذي وفق الدولة - حرسها اللَّه - لتقريب مرغوبهم وتحقيق أمانيهم.

هذا ما نرفعه إلى مقام شيخ الإسلام. فإن صادف قبولاً، فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون. وإن كانت الأخرى، فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا. ونسأل اللَّه أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته إلى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا، وأنجح منها في إصلاحنا. وإنا في جميع الأحوال نوالي

الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الأعظم، وتأييده، وبقائه ظلاً للَّه ورحمة لعبيده. آمين.

«كلام في الدعاة والمرشدين»

وبقي في موضوع الإصلاح الديني كلام هو كالتتمة له، فنتقدم لعرضه، وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية إن لم تكن قليلة بالنسبة إلى الرعايا العثمانيين، فالداخل إليها قليل بالنسبة إلى عدد الأهالي، فإن الجمهور الأعظم من سكان القرى والأعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ولا يُقَدِّرون التربية الحسنة حق قدرها، فإصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته، بل يحرمون منها، كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم. وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة، ولهم وظائف من الأعمال يُطالبَون بأدائها، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا، والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا. فمن الواجب الالتفات إليهم بإصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم. وذلك لا يكون إلا بترتيب دعوة تنبههم إلى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم، وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم، ثم تخدعهم عن أطباعهم(٤٦)، وتلين من قساوة قلوبهم.

ثم إنهم لو رغبوا في التعليم، وكلفت الدولة بإنشاء مكاتب لتربية أبنائهم والإنفاق عليها، لزادت عليها النفقات، مع كثرة ما يلزمها من المصاريف في إدارة شئون المملكة. فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب، وعمل التعليم فيها، ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة، لتدبيره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم. ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والمجامع، ليذكروا الناس ما نسوا من دينهم، ويعرفوهم ما جهلوا منه، ويشربوا قلوبهم حب الدولة، ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين وخليفة

رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم. وعلى ذلك، يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليقفوهم على أمور دينهم، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء.

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماً وعملاً، وبالجملة، فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية، وأوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس، وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدخول إليها بما يصلحها، ثم يكونوا أقوم الناس سيرة، لا يخالف عملهم قولهم، فيكونوا مثالاً للناس يحتذونه، وقدوة لهم يتبعونها. ثم لا بد أن يكون وعظهم في كل قوم بلغتهم، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع.

ومن هذا، تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة، وتوليتها قوما يحسنونها، ويدرجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة، ويبينون لهم مضار الفساد، ويهدونهم إلى سبل الرشاد، كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة. وهذا باب عظيم من الإصلاح، إذا وُجِّهَت العناية إليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير.

فإن سأل سائل: أين الكتب التي توضع للطبقة الأولى والثانية من المتعلمين؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة، وتبثهم دعاة؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال؟ ثم كيف شَرَطْتَ في أهل الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم، مع الإيغال فيها والوصول إلى حقائقها، وذلك يستدعي زمنا طويلا؟

فالجواب: أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جدّاً، لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة اللّه عز وجل في أقرب وقت يمكن، متى صدر الأمر بذلك، تحت نظر مولانا شيخ الإسلام. وأما الرجال الذين يُعَلِّمون في الطبقتين الأوليين، وفي

الثالثة أيضا، والذين يليقون لوظيفة الإرشاد فهم إن تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة، فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي إلى الكفاية منهم لبداية المشروع، متى صدقت النية، وخلصت الوجهة للّه وللحق في البحث والاختيار. وأمثال أولئك الرجال، أهل الدين والاستقامة، قلما يقفون بأبواب الأمراء أو يتطلبون المناصب إلا إذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم، فهؤلاء لا يُعْرَفون إلا بعد التفتيش عنهم. ثم إذا حسنت البداية، وتبعها الاجتهاد مع الإخلاص في العمل، وصل الأمر بتوفيق اللّه إلى الكمال المطلوب.

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة، فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة، بل وعشرين، زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم. ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل. فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول بطلاب الحق زمن البحث للإحاطة بأطرافه، حتى يتمكنوا من نصره وتأييده.

وأما المصاريف، فإنه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين - (وهم موجودون في زوايا الخفاء، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) - وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم، فإنه لا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل. وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله، متى فوض الأمر لأهله، فإننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب إلا عن خبرة بأحوال إخواننا المسلمين، وطول ممارسة لأخلاقهم. والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون.

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين. وفي التفاصيل ما يطول به القول أضعافًا مضاعفة، فإن دعينا إليه لم نتأخر عن بثه. واللّه الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى اللّه على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤هـ.

* * *

لائحة إصلاح القطر السوري

أرفع إلى مقام دولتكم السامي[٤٧] أن **للدولة العلية** ـ أدام اللّه سلطانها، وعزز مكانها ـ حقوقا ثابتة على ذم المسلمين، تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبيعة الحياة الملية. ولا هوادة بين اللّه وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق، وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها، وأقصدها بذل ما يستطاع من السعي لدفع ما لا يلتئم مع مصلحتها، وأعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الأقوم.

وإنني على ضعفي ـ والحمد للّه ـ مسلم العقيدة، عثماني المشرب، وإن كنت عربي اللسان، لا أجد في فرائض اللّه، بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله، فرضًا أعظم من احترام مقام الخلافة، والاستمساك بعصمته، والخضوع لجلالته، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وعندي إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند اللّه بإيماني، فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان، فخاذلها محاد للّه ورسوله، ومن يحاد اللّه ورسوله فأولئك هم الظالمون. فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريبا عن أهلها، مفكرا في مجاري أعمالهم، ومآخذ مشاربهم، وضروب مذاهبهم من وجه ما يتعلق بالدولة ـ رعاها اللّه ـ وهو الذي بعثني على أن أعرض ما ألممت به من ذلك على مقام دولتكم، بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علما، وأرجحهم حلمًا، وأقومهم سيرة، وأشدهم حرصًا على تعزيز عرش الخلافة، وأصدقهم إخلاصا في خدمة أمير المؤمنين، أعز اللّه نصره. وأرفع إلى علي نظركم ما لو ألقي بين يدي سواكم لخشيت إغفاله، وتوجست إهماله. ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار، وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة. فإن كان ما رجوت، فذلك فضل اللّه وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو

رأيكم. وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه، مع الاعتراف بالعجز، وقصور الفكر، وكلال النظر.

* * *

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية، وأولاها بالاهتمام. وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم. وقد توهم بعض من تولاها من خدَمَة الدولة أن في نفوس أهاليها ميلاً إلى الاستقلال، وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة - نعوذ بالله - فهذا وهم لا أساس له، ولا يمس جانب الحقيقة. فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية. وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم، ولا هم لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأى وسيلة كانت. ولو فرض أن خيالاً باليا مثل هذا لاح بذهن أحد ممن له صلة بالأجانب منهم، فليس بخارج عن حد الأماني المستحيلة، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة، أو تعقد على التسليم له العزائم.

نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعض الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة، على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم مبالاته بها، وهي قذفات لا مكان للقصد منها، وطائشات كلم لا شمة للرأي فيها، وهي بما يصدر عن الأطفال أشبه منها بما يكون عن الرجال. ولهذا لم يكن أثرها في أنفس العامة فوق وصول ألفاظها إلى أسماعهم، ثم ترد على قائليها ويحثى بها التراب في وجوههم. ولكن مما يوجب الأسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه، وجاءوا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم، وأخمد أفكارهم، وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم، كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الإسلامية، على قيام أمثالها في سائر الطوائف.

على أنه يوجد أمر آخر إن لم يكن أعظم ضررًا من هذا الوهم ـ على فرض ثبوته ـ فليس بأقل غـائلة منه ، وذلك أن سكان هـذه البـلاد ينقسـمـون أولاً إلى قـسـمين : الأول : سكان جبل لبنان ، والثاني : سكان ولايتي بيروت وسورية .

« حالة أهالي جبل لبنان »

أما سكان جبل لبنان ، فهم طوائف مختلفة ، أكثرها عددًا وأقواها عدة طائفة **الموارنة** من النصارى ، ويليها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من **أهل السنة** ، وعدد قليل من **الشيعة** ، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين ، وهواهم للدولة الفرنساوية ، وصفاهم معها ، لاعتقادهم أنها الحامية لهم ، والواقية لحقوقهم . وقوى الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة ، بعد حوادث لبنان والشام المشهورة[٤٨] ، وامتياز الجبل[٤٩] . والحكومة الفرنساوية لا تنى فى تمكين هذه العقيدة ، بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب فى جميع أنحاء الجبل ، وتلك الجمعيات إنما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية ، وإشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا ، وإخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم ، وإبعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم ، حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته إلا ما يعلمه بعض السياحين وطُرَّاق البلاد من الأجانب . ثم بعد استتمام دروسهم ، لا يرى النبيل منهم مطلبا أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية فى إحدى دوائر الأجانب ، إما ترجمانا لقنصل أو كاتبا فى شركة ، أو ما شاكل ذلك . ورؤساء هذه الطائفة لا مفزع لهم يلجئون إليه إلا قنصل الدولة الفرنساوية . وفى كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لإبلاغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل سنة ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقا بها ، ولهم صفات فى الشجاعة والثبات تخولهم مقاما يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة

فى الجبل، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان، عندما صار النظام قاضيا بأن «متصرفه»(٥٠) يكون **كاثوليكيا**، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين. وأصبحت قوة البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت فى سابق العهد، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم، أو ينالوا شيئا مما يخولهم النظام نيله، فانحطت بذلك أحوالهم. وقد كانوا ولا يزالون فئتين: **جنبلاطية**، **ويزبكية**. فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة **إنكلترا**، وأخص علائقهم مع قنصل الإنكليز. واليزبكيون ـ وهم أقرب الفئتين إلى الدولة ـ مالوا إلى المشرب الفرنساوى، وكرعوا منه حتى عموا، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهدا فى استمالتهم أيضا بواسطة المدارس والمكاتب التى ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولا وبالذات، وتربية غيرهم ثانيا وبالتبع.

والدروز قوم خُلْوٌ من العلوم بالمرة، سذج كأنهم فى بدايات البداوة، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة، ولا يخشى على كبارهم أن يخعلوا مذهبهم إلى مذهب آخر؛ وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك، وعلى كبارهم من الانقياد السياسى إلى دولة الإنكليز.

أما **المسلمون السنيون** و**الشيعة** وغيرهم، فلا نظر إليهم؛ وإنما هواهم هوى جيرانهم. فالمخالطون **للموارنة** طوع لهم، والمخالطون للدروز تبع لهم، وقلما يعرفون شيئا من شئون دينهم.

فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا **فرنسا** و**إنكلترا**. وليس بخاف ما تأتى به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت آثار مثلها فى بلاد أخر. والدولة ـ أعزها اللّه ـ مع أن البلاد بلادها، ليس لها من يُروِّج سياستها ويؤيد كلمتها، وأمرها يتبع ميل «المتصرف»، إن صدق فى خدمتها كان لها وإلا صار إلى غيرها. «والمتصرف» شخص يعزل ويولى، وأهل البلاد هم القوة الراسخة، وبهم تؤزر السلطة فيهم.

ولكن كل هذه المساعى الأجنبية ـ على ما يحفها من عناية المتذرعين بها ـ تُخْشَى

عواقبها وتُرْعد بوائقها، إذا جاء المستقبل على أثر الماضى، لا يُعَارَض فيه السعى بمثله، ولا تُقْطَع الطريق على السالكين فيها. أما إذا توجهت من الدولة لمحة نظر إلى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها، وتطهيرها من تلك الأغيان[٥١] الطارئة عليها، فما أيسر أن يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعى هباء منثوراً. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم، فلا بد من النظر فى وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثمانى، ولئن دعيت إلى تفصيلها بذلت ما فى الوسع للفكر فيها.

« حالة أهالى ولايتى بيروت وسورية »

أما ولايتا بيروت وسورية، ففيهما من سكان الأعراب المتبدون[٥٢]، وفيهما القرويون وأهل الحضر. أما القرويون وسكان المدن، فمنهم المسلمون **أهل السنة** وهم الجمهور الأغلب، ومنهم **الدروز** فى « **حوران**»، ومنهم **الشيعة** سكان « **الشقيف**» وبلاد «بشارة» فى نواحى « **صيدا**» «**وصور**»، ومنهم « **النصيرية**» فى لواء «**اللاذقية**»، ومنهم الطوائف المسيحية من **موارنة، وروم كاثوليك ملكيين، وروم أرثوذكس، وبروتستانت**.

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهبا واحدا فى تربية أبنائها وتهيئتهم للأعمال، وهو مذهب التقليد الإفرنجى. غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوى وهؤلاء هم الموارنة. والروم الملكيون يدفعون بأولادهم فى المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب **الجزويت** وغيرهم لينشئوا كما ينشأ الموارنة فى **جبل لبنان**، وإذا أسسوا مكاتب لأنفسهم ـ كما فعل الموارنة فى تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والملكيون فى المدرسة البطركية بها ومنشآت أخرى فى أطراف البلاد ـ فلا يضعونها إلا على قواعد فرنساوية واللسان الأول فيها الفرنساوى، والهوى والميل فرنساوى، ومنتهى أمرهم فى التحصيل على ما بينا فى الموارنة، ودروس تلك المدارس التى يدعونها وطنية إنما تقرر فى كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الإفرنج مما يمتنع دخوله في **البلاد العثمانية** لاحتوائه على الطعن فى الدين والدولة. وهكذا

يعلمون أبناء البلاد إلى أن ينتسبوا إلى غير أبيهم الحقيقى. وأجل شىء يفتخر به الناشئون فى تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوى، ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية. وما من مكتب من هذه المكاتب إلا و**لفرنسا** مساعدة مادية وأدبية له.

ومنهم **البروتستانت** ومشربهم إنكليزى، ومنهم من لا مشرب له فى التربية وهم **الروم الأرثوذكس**، ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية، ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم إلى مدارس **الجزويت** وأمثالهم فينشئون فَرَنْسَاوِيِّين، وتارة إلى مدارس أخر فهم ينشئون على المشرب الذى نموا عليه. وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية إلى الدولة، غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة إلى الأجانب حتى لا يكون ذلك عارا عليها فى أعين إخوتها من بقية الطوائف، فاختارت ما يوافقها فى المذهب الدينى، فانتسبت إلى **دولة الروس**، غير أن الروس لم يوجد لهم إلى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسى.

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب[٥٣] عثمانى على قواعد توافق حال أهل البلاد، وقام بإدارته رجال متبصرون حذاق فى إصابة الأغراض والرمى إليها، لبزت تربيته جميع تلك التدابير واجتثت أصول تلك المفاسد. وإنما يلزم لذلك سعى خارج المكتب لجلب التلامذة إليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب. وإذا دُعِيتُ لبيان طريقة ذلك السعى استعنت باللّٰه على بيانه.

«**النصيرية**»: قوم أجلاف أشداء، يعتقدون بألوهية **على بن أبى طالب**. فمذهبهم الدينى غير مذهب الدولة، وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم فى صداقة الدولة. ولهذا كثيرا ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة، وكان ذلك منهم بسعى وكلاء الأجانب، وبث الوساوس من المرسلين **البروتستانت** بما أنشئوا بينهم من المكاتب، حتى إنه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم فى الشقاق، وكان «**راشد باشا**» واليا على سورية، فذهب بنفسه لإخضاعهم، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين، فالتمس من الباب العالى تقرير ستين ألف قرش لتصرف على

إنشاء مكاتب عثمانية فى قرى هذه الطائفة، وصدر الأمر بذلك، إلا أنه لم يجر العمل به حتى الآن! ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة، وهم فى **اللاذقية**، ولا مكاتب ولا تعليم!! وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التُفتَ إلى تربيتهم فى مكاتب عثمانية منتظمة، بل لو اعتُنِىَ بإخراجهم من مذهبهم إلى الإسلام الصحيح لم يصعب ذلك إذا أُحْكِم أساسُ التربية فيهم، وبنى على قواعد الحكمة والدربة، وقام بالعمل عليه أربابُ المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية.

«**الشيعة**»: لا يقرون بالخلافة إلا للقائم المنتظر، ولهذا وجد الأجانب سبيلاً للدخول على قلوبهم، ولكن بغير تلك الطرق التى دخلوا بها على غيرهم. فإن لهذه الطائفة حمية على مذهبها الدينى تفوق حمية جميع المذاهب. يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفى الإسلام، ولهذا لا يلقون أولادهم فى المكاتب المسيحية، ولكن وكلاء الأجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة فى صورة مشوهة، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق فى مزاعم أولئك المفسدين، وكثيرا ما يخيلون إليهم الاحتماء بدولة أخرى. وليس من البعيد أن تميل أفكارهم إلى خلاف ما يرغبه الصادقون فى محبة الدولة، ولا تؤمن غائلة ذلك. واستعمال الشدة فى مراقبتهم لا يزيدهم إلا نفورا، ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الأجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية. بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية واستصفائهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الأفكار الصائبة، الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم، لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم، لا ريب فى أنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها، فإن أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول.

«**الدروز فى حوران**». لم يخف حالهم على رجال الدولة، غير أنه زاد فى سوئها عناية الإنكليز بإرسال رجال من رؤساء **البروتستانت** لتعليمهم وبث الدسائس فيهم، حتى إنهم عينوا أسقفا فى **القدس** بمعاش ألف وخمسمائة ليرة فى كل شهر لتدبير التربية فى حوران خاصة!! ولا طريق لإصلاحهم وراحة الدولة من

ناحيتهم إلا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية، وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها.

«**المسلمون من أهل السنة**»: هم عماد الدولة وركنها الشديد، وهم قومها الحقيقيون، وفيهم عصبتها الثابتة. ومن البيّن أن قوائم **الدولة العلية** - ثبتها اللّه - مستقرة على أديم الدين، لأنها دولة خلافة، فعاملها فى القلوب سلطان الدين، فكلما قوى الدين فى الأفئدة ظهرت آثاره فى أعمال، فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة. وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة، ولكل وسيلة خلف منها، أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية، أيدها اللّه.

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة فى المذهب الدينى تمام الاتفاق، وهى علاقة من أمتن العلائق فى طبيعتها، ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ويستدعى دقة النظر، وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعدما أهمل التعليم الإسلامى الصحيح. وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل فى اللائحة المعروضة لدولة شيخ الإسلام[٥٤]. وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد فى نظر المسلم، فقد تسابقوا ركبانا ورجالاً متطوعين إلى الجهاد المقدس فى حرب «**سباستبول**» المشهورة[٥٥]. ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد ما لا يسر. وفى هذه الأيام الأخيرة، يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية، وإن جاءت - لا قدر اللّه - حرب ذهبوا إليها كارهين، بعد أن كانوا يذهبون راغبين. كل هذا والجهاد من فرائض دينهم، يفيض به كتاب اللّه فى أغلب سوره. وما كان خمود الحمية فى نفوسهم إلاّ لضعف العقيدة بمخالطة الأوروبيين وإهمال التعليم المذهبى. وقد قال المستر «**جى دبليو لتيز**» مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه إلى جريدة «الدايلى تلغراف» الصادرة فى فبراير سنة ١٨٨٨[٥٦] فى أثناء كلامه عن لزوم تقوية العقائد الدينية فى قلوب الرعايا الهنديين: «لا بد أن نؤمن بما آمن به «أكبر شاه» الهندى من أن الدين والمُلْك توءمان. فكما أن كل دولة تخمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع إليها العدم، ويقضى عليها الزوال بحكمه، ويستحيل عليها أن تدوم، كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ولا تعينهم على التمسك بها، لا يتسنى لها إلى النجاح سبيل». فهذا إنكليزى يطلب

من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتتثبت محبتهم. فما أجدرنا بالعناية بذلك، والملة ملتنا والقوم قومنا.

انتبه المسلمون في هذه الأيام لسوء حالهم من نيف وعشر سنين، وضارعوا سائر الطوائف، فشكلت منهم جمعيات خيرية «**كجمعية المقاصد الخيرية**» لتربية أبناء المسلمين، وإحياء العقائد الدينية في قلوبهم، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم. وجد أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب(٥٧) الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير، فساء ذلك الطوائف المسيحية، فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية. وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الإسلام ولا يعرفونه. فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات، وتحويلها إلى مجالس رسمية، ثم محى أثرها بالمرة. والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون، ولم أر شيئا كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات، فخمدت أفكارهم، وتقطعت آمالهم، ورجعوا إلى جاهلية، إما لا رغبة لهم في العلم أصلاً، وإما لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية وبعض مبادئ علوم لا تفيد في إصلاح الأنفس شيئا، ولكن تؤثر في إفسادها.

فالزاعمون أنهم من رَغَبَةِ العلوم، يبعثون بأبنائهم إلى تلك المكاتب المسيحية، فرنساوية أو ألمانية أو إنكليزية أو وطنية بالاسم أجنبية بالحقيقة. ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك. وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين: تحويل العقائد إلى المسيحية، وإمالة المشارب إلى الدول المنسوبة إليها، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم، وإما دهريين لا عقيدة لهم. ولو دُعيتُ إلى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لإفساد قلوب المسلمين لأوضحتها كما هي عندهم.

فالمسلمون **السنيون** هم أحوج رعايا الدولة إلى عنايتها، حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم، ولا ينحط بهم الفساد النفسي إلى أسفل مما وصلوا إليه.

وأول مـا يلزم لذلك، تنظيم مكتب داخلي[٥٨] يؤكل ويشرب فيـه في مـدينة بيروت، من صنف المكاتب العالية. يوضع له قانون«وبروجرام» دروس يوافق حالة البلاد. وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفا باللغة العربية، يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم. وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم، حتى يقوى التلامذة في العربية، ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك. ولابد أن يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه في بادئ الأمر حتى يقبل الناس عليه، وأن يكون في درجة لا تنقص عن مكاتب الأجانب في شيء. وثالث شروطه، أن يكون أساسه على إحياء الدين، وحب الدولة؛ ولابد أن يكون«بروجرام» فنونه على وضع خاص. ورابع شروطه، أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة، وليس ينحصر همه في أخذ راتبه الشهري، وأن يكون حكيما في تصرفه، وفي حال يجلب ثقة الناس به. والله بعد ذلك كفيل بأن يدفع إليه جميع الطوائف المسيحية، وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه.

ثم تنشأ مكاتب[٥٩] ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الأساس، لا فرق إلا بالدنو والعلو. والتربية في جميع الأحوال، لابد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله، ووقاية السلطنة، كما هو جار في ممالك أوروبا، وكما كان عليه أسلافنا، وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو إيثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة. وليس هذا بالعمل الصعب، إذا وجهت إليه النية الصالحة، واصطفي له رجال من أهله، وما هم بالمعدومين، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين، والبحث يظهرهم.

وأما أهل البداوة من الأعراب المتنقلة في أطراف البلاد، فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة، ولكن مما يؤسف عليه أنهم كَلٌّ عليها، ضررهم أكثر من نفعهم. ولبعض رجال الأجانب علاقات خبيثة معهم، حتى إنني رأيت عند بعض رجال الإنكليز أيام كنت فى «لندرا» رسائل من بعض مشايخهم توددا[٦٠]، وما ذلك إلا من إهمالهم وعدم العناية بتربيتهم. وإذا دُعيتُ إلى وضع لائحة فى تهذيبهم،

وجعلهم فى حالة لا تنقص عن «التركمان» بالنسبة إلى الروسيا، بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة، لاستمددت من اللّه التوفيق فى ذلك.

وربما يقال: إن هذا الأمر وما قبله يحتاج إلى نفقات لافضل لها فى خزينة الدولة فأجيب بأن أهل العمل وذوى البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الأغنياء على الفقراء بالسعى والجد، خصوصا إذا أعيدت جمعية مثل «**جمعية المقاصد**». ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين إلى أن تصرف شيئا فى هذا السبيل. وطريق الصواب واضح لأهله متى ثبتت العزيمة. ولا أطيل القول فى هذه العجالة، فإنما الغرض سوق ما تنبه إليه الفكر إجمالاً إلى ساحة الفضل والكرم. والمرجو شمولى بالعفو عن تقصيرى، واللّه يطيل عمر **مولانا الخليفة الأعظم**، ويرفع الإسلام فى خلافته إلى أوج المجد والشرف. آمين.

* * *

مشـروع إصـلاح التـربيــة في مصـر

هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات إليه من نظام التربية بمصر ويمكن تفصيله عند إرادة العمل به

إذا كان الناس في حاجة إلى صلاح الحاكم[٦١]، فما حاجة الحاكم إلى صلاحهم بأخف من حاجتهم إلى صلاحه، فإن السلطة سلطتان: جيدة، ورديئة. فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين، والرديئة ما أُخذَ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت.

أما الأولى: فإن منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد، لها التدبير، وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل. وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي، وهو مجموع الروح والبدن، فكل يستفيد من الآخر ما به بقاؤه ونماؤه. وكما تحتاج الآلات البدنية إلى سلامة الروح من العلل النفسية، كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك، تحتاج الروح إلى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وما شابه ذلك؛ وما يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه؟!

وأما السلطة الثانية: فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته؛ فصاحب السلطة صانع والمحكوم آلته في الصنع، فهو كاتب مثلاً والمحكومون قلمه، أو هو حارث والمحكوم محراثه، وكما أن الآلة لا تعمل إلا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل إلا بآلته. وكما يجب أن تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل، فإن فقد أحد الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته، فكل من السلطتين في حاجة إلى صلاح

المحكوم . فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه، كذلك يطلب صاحب السلطة - في أي منزلة كان - أن يكون المحكوم بحيث ينقاد إلى كل ما يحكم به، وعلى الصفات التي تنساق به إلى الغاية التي يذهب إليها حاكمه.

أما ما رسخ في خيال بعض الشرقيين، ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الأوروبيين، من أن صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سفلية، ولا نسبة بينهما إلا أن الأول قاهر والثاني مقهور، وأن الثاني في حاجة إلى صلاح الأول ليكون به رءوفا رحيما، وأن الأول لا حاجة به إلى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال، فذلك منشؤه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الإنسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة، ولا يثبت لهم سلطان، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم، وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب أن يصرفوهم فيه، وتغافلهم عن استطلاع طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم.

يقال إن الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته . فقد يكون ذلك حقا، لكنها آلة ذات شعور وإرادة . وما له شعور وإرادة، فجميع أعماله إنما تكون عن شعوره وإرادته، فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والإرادة وتفسد بفسادهما . فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل، إلا إذا كان الشعور والإرادة صالحين له . وصلاحهما بأن يكون الشعور وجدانا، لفرق بين النافع والضار، وبين النظام والاختلال، ليكون ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الإدارة معروفا عند أغلب الرعية، وأن تكون الإرادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فإذا كان الشعور مختلاّ، والإرادة فاسدة، كانت الأحلام طائشة، والأهواء متحكمة، ومداخل السوء كثيرة . فويل لذي السلطة من تلك الرعية، وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار، وكل ما يتخيله إصلاحا لهم أو له فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أو الرسم فى الهواء.

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها، فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة، وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة، وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحش من الحيوان فضلاً عن الإنسان. ولذلك، نرى كثيرا من أنواع الوحوش، التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة، كالضباع والذئاب والخنازير، قد كادت تنقرض بإصلاح الأراضي الزراعية، وانتشار الإنسان في أطرافها، وتعهدها بالزرع والعمارة. وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار إلى دار، ولا يمكن أن يتصوروا ذلك ما دام في أرضهم نبات ينبت. فإذا أمحلت أرضهم، فَضَّلوا الموت على المهاجرة منها. وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك.

ولذلك، كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين، وكل قادم إليهم امتزج بهم، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم، وانتسب نسبتهم فصار مصريا، وأحرز جميع خواص المصريين، ونسى أصله وغاب عن أعقابه منشؤه. ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال، وألفت مقاومة القهر بالصبر، فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك، وجوره أشد من جور إسماعيل باشا، لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر. ولهذا، كان المتغلبون يفنون فيهم، وهم باقون.

أهل مصر قوم سريعو التقليد، أذكياء الأذهان، أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة. فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم، فتنبههم إلى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه، فلا يبيدون من حاجة. فأهل مصر على ذلك، هم رعية حاكمهم، ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم.

فحاكمهم إذا كان رأسا، فَهُم بدنه. وإذا كان عاملاً، فهم آلته. فلا بد من استصلاحهم، حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا، ترمي إليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية.

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الأرض، وهو ممر أهل المشرق إلى المغرب، وأهل المغرب إلى المشرق. وهو في حلق أوروبا، تتلاقى فيه سيارة الأمم، فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد.

الأمم العظيمة الأوروبية يحسد بعضها بعضا على التمكن في أرض مصر، أو الفوز بإحراز المنافع السياسية أو المالية فيها. فالوساوس والدسائس لا تنقطع نفثاتها من أولئك الأحزاب، يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم. وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال إن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم، وإنكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت.

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى إليهم، كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم. فلكل كلمة من هذا القبيل مكان في نفوسهم. ولكن، ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا. غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة، تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلاً من الزمن، ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله. فاللّه يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى إليهم.

يقال إن أهل مصر ضعفاء. ولكن، قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد، كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم، وأثبتهم قدما في المواطن. ولا يعلم متى يوجد القائد، ومن أي جنس يكون، إذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب، تجري حيث تجد سبيلاً للاندفاع. ثم هم لا يُقَدِّرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح، ولا يبالون به، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين، بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة، إلا إذا أخذوا بتربية صحيحة، فهناك تنضبط أحوالهم، وينشأ النظام واحترامه في قلوبهم، ويهتدي صاحب السلطة إلى طرق تصريفهم.

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس، إذا لم يكن مبعثهما الحق، ينشآن عند

المصريين من أمرين. **الأول**: بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح. والثاني: حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب. ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة، وظن ما ليس بواجب واجبا، وظن الواجب غير واجب. فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة، فلا يصلحون بدنا لرأس، ولا آلة لعامل، لاختلال المدارك، وفساد الإرادات.

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر، وتنفذ بصيرته إلى هذه الحقيقة. فلهذا، لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنا يعتد به، وكل إصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة تكون قد فتحت في نفوسهم فتحا جديدا، وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا، وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم.

أهل مصر قوم أذكياء، كما قلنا، يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي أن البذرة لا تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر.

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعًا فيها. فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين، فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك، ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد **محمد علي** إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم.

لا أتكلم عن إصلاح لدين غير الإسلام في مصر، فإن غير المسلمين فيها العدد القليل، والجمهور الأغلب من المسلمين.

الدين الإسلامي الحقيقي ليس عدو الألفة، ولا حرب المحبة، ولا يحرم

المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة، وإن اختلف عنهم في الدين، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح، وإرشاده إلى مظان الفوائد، والبصر بالعواقب، وتقويمه بفضائل الأخلاق. وبالجملة، فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لعامل. وقد أرشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامي كان أوسع نظرا في الأمور، وأطهر قلبا من التعصب الجاهلي، وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر. وإنما يُبْعد المسلمَ عن غيره جهله بحقيقة دينه. وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله، اللَهم لمن يفهمها كما جاءت، ويعرف معناها كما وردت.

إن القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم، لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة. ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه، فأفسدوا قلوب أهاليه. ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر.

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم، فحرموا خيره، ولم يبق عندهم إلا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين. على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام اللّٰه، وأنه ينبوع الدين، ولكن ليس لهم من معاهد التربية إلا جهتان: المدارس الأميرية، ومدرسة الأزهر الدينية. وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة. وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم.

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك، لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة. وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك. فإن بلادا غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين، وسلامة أفكارهم، ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد. أما مصر، فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها

في المدارس، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالإثبات، ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على الأذهان عما وقر فيها، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة، ولا يجدون معارضا لهم من أهل الدين لأنهم لا يهتمون بما لا ينفع تحت نظرهم مباشرة. وما دامت الأصول محفوظة، فأنظارهم عن غيرها منصرفة. وأكبر دليل على ما نقول، سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء إلى خلعه بالمرة.

المدارس الأميرية

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية، ولا التربية الصحيحة. هذه المدارس، أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد «الأرنئوط» و«الأتراك» و«المورلية»، ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج إليها في نظام الحكومة التي أسسها. وأهم تلك الفنون: الهندسة والطب والترجمة، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة إليها. ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما. أما التربية على أخلاق سليمة، فلم تخطر له ولا لمن تولى إدارة هذه المدارس على بال. ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف، أدخل في تلك المدارس بعض المصريين جبرا، وما كان يدخل مجبورا إلا الذين لا قوة لهم من الفقراء، وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين.

ثم جاء خلف محمد علي عباس وسعيد، فأهملا النظر في المدارس بالمرة، حتى جاء إسماعيل فوسع نطاقها، وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الإدارة والقضاء، وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الأمر. غير أن جميع ما أتاه من ذلك، كان صوريا ليقال إن له في حكومته مثل ما لأوروبا في حكوماتها، ولم يكن القصد منه تربية العقول، ولا تهذيب النفوس، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولى أعمال الحكومة.

وفي زمن إسماعيل باشا، كثرت رغبة الناس في المدارس، ولكن من الأعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة، يُحتاج في الوصول إليها إلى بعض الفنون، ومن الفقراء الذين لا يجدون ما يقتات به أبناؤهم، فيرسلونهم إلى المدارس ليستريحوا من نفقتهم. ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال إلا أن يتعلم ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين. أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلاً صالحا في نفسه، يحسن القيام بالعمل الذي يفوض إليه في الحكومة أو في غيره، فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم، فسرى ذلك من السابقين إلى اللاحقين حتى اليوم.

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم، سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا. ولو استفرغنا أذهان المعلمين، لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة، ويطالبونهم بحفظه، وفهم عبارته إن كان، ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي إليهم، حتى تتم مدتهم في المدرسة، ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد، ولا مطامح أنظارهم هل إلى نافع أو ضار. وذلك رسم يؤديه المعلمون، ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير. ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة، ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم، إلا من كانت له فطرة سليمة، وله موهبة طبيعية، فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب. وعلى مثل ذلك، كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال. فإن استمر السير على الطريقة المعروفة الآن، كانت النتيجة دائما كما بيناه، فلا يئول ذلك بالمصريين إلى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع.

المدارس الأجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها، فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية. فقليل

من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها، ومن أرسل بولده إليها داوم نصيحته بعدم الالتفات إلى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده، ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الأخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه. وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثرا سياسيا أو أدبيا في مصر، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم، ولذلك تاريخ في البلاد معروف، فهي ضارة بالألفة، مبعدة للمحبة، رغما عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك، فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها.

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة، يأتي إليها الناس: إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة، وإما طمعا في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه، ولا يزال بعضها إلى اليوم. ولكن مما يؤسف عليه أنه لا نظام لها في دروسها، ولا يُسْأل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله، ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب، فَهِم أم لم يفهم، صلحت أخلاقه أم فسدت. ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نَصيحة من أستاذه تعود عليه بالإصلاح في دنياه أو دينه، وإنما يسمع منه ما يملأ القلب بغضا لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته، ويطبق على الذهن غفلته، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع إذا كان موافقا لمبدإ التعصب الجاهلي. فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها، ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها، وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها.

ثم إن المعروفين «بالعلماء»، وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة، ويؤذن لهم بالتدريس فيها، هم قدوة الناس وأئمتهم، مع أنهم أقرب للتأثر

بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم، وذلك بما ينشئون عليه من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لا ترجع إلى أصل صحيح. فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم، مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها.

إصلاح مدرسة الأزهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغير نظام الدروس، وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها، بحيث يقرر فيها: أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس وإلا حرم الامتياز، وكل أستاذ يُسْأل عن طلبته. ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطا بالفهم لا بالكتب. وتغيير «بروغرام» الدروس، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية. ويكلف الأستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الإمكان. ويجعل شيخ الجامع رقيبا على الأساتذةوالتلامذة في ذلك. ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه. وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا تستلفت الأذهان إلى شيء خلاف المصلحة، وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة.

ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية، أو بإدارة الأوقاف، على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به. وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية أن إصلاح الأزهر لا يمكن، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم. فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين(٦٢) سنة، عندما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه، فقاومه بعض من كان موجودا من العلماء، فيئس من الإصلاح وترك الأمر إلى اليوم. فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر، ولم يكن بالتدريج اللائق. أما الآن، فقد تغيرت الأحوال، وأصبح الإصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح. وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الإصلاح بمجرد التوجه إليه، وما يعجز عنه من ذلك، فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه إذا فوض ذلك إليه. على أن العناء في ذلك

لا يطول إذا صلحت المدارس الأميرية، فإن الناس لا يختارون الأزهر إلا لسوء ظنهم بالمدارس، أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها. فإذا حصل الإصلاح فيها وجدوها أدنى إلى المنفعة منه، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة.

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف، ولا يتم لها إحسان النظر من وجه التربية إلا بتوجيه العناية أولاً إلى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن، فإنها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الأميرية وللأزهر. فإن كان الغذاء فاسدًا، كان المزاج المتغذي أشد فسادا. وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها، ولكن من الوجه التعليمي وإصلاح الأمكنة بحيث تكون أوفق للصحة، لا من الوجه التهذيبي، والثاني هو أهم مطلوب دون الأول، فإنما ينظر إليه من حيث هو وسيلة للثاني. فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون «الفقهاء»، وهم لا يعرفون شيئا سوى حفظ القرآن لفظا بغير معنى، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون الأصل النافع. وقد عرفوا بأنهم أفسد حالاً من العامة. على أن الكتاتيب يرد عليها أبناء الأهالي جميعا إلا القليل، ثم يرجع الغالب إلى ما كان عليه آباؤهم. فهي منابت للعامة، ولكنها لا تنبت الآن إلا جهلاً.

ولا يمكن إصلاح تلك الكتاتيب إلا بإصلاحهم (أي الفقهاء). وإصلاحهم مرة واحدة، أو إبدالهم بخير منهم متعسر. ولكن إذا وجهت العناية إليهم، أمكن إصلاحهم وإصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين. ثم إن ذلك الإصلاح يستدعي عملاً يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف، من حيث إن أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب، فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الإصلاح بقدر الإمكان. وهو يقتضي سعيا حثيثا، وتدقيقا شديدا وسيرا في أرض مصر أجمعها ونظرا في كل قرية من قراها. وهو

ليس بعسير على الشخص الواحد فضلاً عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك.

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري، مما يزاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب، حتى إذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعرا بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة. فإذا دخل المدرسة أو الأزهر، كان نماء معلوماته على ذلك الأساس، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير، بأن تبين لهم فيه نسبتهم إلى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم وإلى المقام الخديوي وغير ذلك. وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القريبة من الأذهان، والمكان الذي يتعلمون فيه، والوقت الذي يخصص لذلك، والمعلم الذي يعلمه، ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين إدارة الأوقاف ونظارة المعارف.

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لا يزالون إلى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم إلى خدمة الحكومة، سواء نالوا ما قصدوا أم لا. إلا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم إلى نهاية التعليم المعد لذلك، فيرجع الولد إلى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفا ببعض مبادئ العلوم التي لا يجد لها موضعًا تستعمل فيه، فلا يلبث أن ينساها، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة. ثم إنه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة ثم لم يمسهم التعليم. ويجد في نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله، فيقضي عمره في البطالة أو ما يقرب منها، فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالاً، ويقف نفسه على عبادة الأوهام، وخدمة الدسائس التي تنبهه إلى طلب ما يغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعا لها.

فأول ما يجب لإصلاح هذه المكاتب، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى في «البروجرام» إدخال مبادئ العلوم من وجهها العملي الذى ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد. فقواعد الحساب مثلاً، تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الأميريين وغيرهم، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال في الأوراق والدفاتر، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك. ويدخل فيها فن الأوزان والمكاييل. وإن كانت مبادئ هندسية، فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد، أو على أفضل منها. وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات[٦٣] المتداولة بين الأهالى، حتى إذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج إليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده، فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه.

ثم يضم إلى ذلك تعويده على بعض الأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة، أو يخصص لذلك يوم في الأسبوع، ليعلم كفلاء التلامذة أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة، وأنهم إذا لم ينالوا الخدمة، فإن لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للأوهام الرديئة. ثم يضاف إلى «البروجرام» مبادئ العقائد الدينية على الأصل الصالح، وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة، وشيء من تاريخ البلاد، وما كانت تعانيه في سابق زمنها، وما صارت إليه من الراحة في هذه الأوقات[٦٤]، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه، ليعلم التلميذ أنه من أى جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة، فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه.

ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك. وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها «البروجرام» اللازم للمكاتب الابتدائية، وطريق التعليم، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض إليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم. فإذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي، ولم يتيسر له أن ينتهي إلى غاية التعليم، رجع إليه

بشيء نافع، ونمت فيه الأخلاق الصالحة، والأفكار الحسنة، وانطبع قلبه على الخير والسلامة، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة، ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه، فلا يكون إلى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس.

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في«بروجرامات» دروس الفنون التى تقرأ فيها، لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لإقامة تلك المدارس. وإنما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية، وتهذيب الفكر، وغرس مبدإ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا فى استعمال ما تعلموا، قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس، لا يخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية. وإنما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة. فالذي يجب لتأسيس التربية فيها: تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح - تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة - إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا. كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية - تعليمهم الإجادة في الكتابة، كل في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه - تعليمهم أصول النظام العام، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام، فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والإدارة، وهو شيء غير نفس القانون، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل، وهو شيء غير الهندسة - وعلى هذا القياس.

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم أن القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين، وإن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة، ويورد الأدلة على ذلك - وهي كثيرة لا تعد - حتى إذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به، وائتمن على عمل يفوض إليه، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته، لعلمه أن للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية. فإن

لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة، وجد سبيلاً آخر للعمل وهو في رضا عن النظام المحيط بأعمال وطنه، فيكون بذلك عضوا صالحا، ويقوم بينه وبين الدسائس حجاب منيع من الاستقامة الفكرية والخلقية. حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية، بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة.

المعلمون والمربون، ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن ليس له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها، ولم يدقق البحث في مصلحتها. أما أنا، فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها، كما أن كثيرا مثلي لا يرون ذلك.

أما **أولاً**: فلأن بلادا واسعة مثل مصر لا تعدم أفرادا متفرقين في أنحائها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان ما يلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها، كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الأطراف ليعرف الصالحين لتوليها. على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل. فإن لم يكن الموجود بالغا الغاية في المقصود، فلا أقل من أن يكون قريبا منها.

وأما ثانيا: فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج إليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن، ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي. على أن في الرسم نقصا يجب تتميمه، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بـ «بدار العلوم».

«دار العلوم» مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة[٦٥]، وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر، وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغا يكاد يؤهلهم للتدريس. ثم جعل في دروس تلك المدرسة

دروسا لجميع ما كانوا يقرءونه في الأزهر من العلوم الدينية، ليتمموه على وجه أجلى وأنفع. وأضاف إلى ذلك أطرافا من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة، وشيئا من الجغرافية والتاريخ. وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتمم لدروسه فيها صالحا لأن يكون أستاذا في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية. ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها. ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام فيها، ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والأفكار، لا يمتازون عنهم إلا قليلا. وإن كانت مع ذلك، أنشأت أفرادا من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة، ولكنهم أقل عددا مما كان ينتظر.

ثم من غريب التصرف، أن هذه المدرسة ـ مع أنه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة ـ لا يقيمون عليها من النظار إلا جاهلاً بالدين واللغة العربية، بل غير معتقد بالدين بالكلية، كما فعلوا سابقًا ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم. وفيهم من لا تجوز معاشرة التلامذة له، فضلاً عن أخذهم العلم عنه. وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به. وليس فيهم أهل لوظيفته إلا شخصان فقط. والكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها. وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الأزهر، لا يغيرون منه فاسدا، ولا يزيدون عليه صالحا. وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلاً من الكتب لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها. وليس العيب في ذلك راجعا إليهم، ولكن إلى من لم يضع أصلاً لسيرهم في تعليمهم، ولم يؤسس قاعدة ترجع إليها جميع الأعمال، صادرة من المعلمين أو المتعلمين، ولم يقم على تلك القاعدة خبيرا بالبناء عليها، عارفا بالغاية التي توجه المدرسة إليها، حكيما في تصرفه

بأذهان التلامذة والأساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنويا حقيقيا يأوي إليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده .

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعا للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي . ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر ، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر . ولكن يلزم لذلك أمور :

(الأول) : إصلاح «البروجرام» ، وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة في الأزهر ، والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها ، وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية ، وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن ، منها علوم الآداب الدينية ، وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين .

(الثاني) : تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن ، وتعلم الأحاديث النبوية .

(الثالث) : اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة .

(الرابع) : تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلى المقصد الذي وضعت له المدرسة ، عالمًا بالدين ولغته ، موثوقا به عند العامة .

(الخامس) : إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر .

(السادس) : توسيعها إلى ما يسع مئة تلميذ .

(السابع) : أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة .

(الثامن) : ـ وهو أهم ما يجب ـ أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون .

(التاسع) : أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم .

(العاشر) : أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب .

(الحادي عشر): أن يكون للموظف منها في مدرسة ما سلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم، وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيسا لمن دونه.

(الثاني عشر): أن يبقوا بلباسهم، الذي هو لباس أهل الدين، مهما ترقوا في الوظائف.

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديدا، ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها، وذلك يمكن بعد العزم على الإجراء.

نفقات الإصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للإصلاح زيادة نفقات. ولكن إذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق، فلا أظن أنه يحتاج إلى زيادة. على أنه لو احتيج إليها لا يثقل احتمالها، بعد اليقين بأن هذا الإصلاح يئول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لعامل. وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل - وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية - أفضل منه في جميع السبل. فإن كانوا يصرفون آلافا من الجنيهات على بعض المباني الخربة، بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار. فإن التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد، الذي يصونها من جيش الفساد، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له، ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم. وإني أجد هذا الإصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد «أحمد خان[٦٦] في الهند»، وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن.

النهاية، لا توصل إلى الغاية - كما قالوا ذلك من قبل - فنقول لهم: إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت، فلم تعد بخير على البلاد. فليسلكوا الآن هذه الطريقة على سبيل التجربة بعض سنوات، فليس هناك ضرر ينتظر. فإن لم تكن فائدة، فلا خوف من المضرة.

إن من يزعم العجز، إنما يلجأ إليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه، فإن كانت له أدلة فليوردها، ولا نعدم لها من الحقيقة دافعا. فإن أبى إلا العجز، فربما يوجد من لو وكل إليه الأمر قام به ولم يعجز عنه، والتجربة مشرق الحقيقة، إن شاء اللّه تعالى. على أنه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع، وأكفل أن يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر.

وإني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة، وإن فوائده ربما نقلت إلى أقطار أخر فعادت بجزيل الخير على ما نماه، وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا بإصلاحه على قاعدة المحبة والألفة لا على طائشة الإخافة والرهبة، ويكون بذلك قد كون لنفسه شعبا جديدا يعينه في الشدة، وينصره في الفتنة، ويعضده في ساعة المحنة، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية. وفي ظني، أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته، وعرض نفسه لغير الزمان، وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه. واللّه ولي الأمر، وبيده كَل شيء، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

النهضة الأدبية في الشرق (٦٧)

حضرة صاحب مجلة الجامعة اللامعة.

لعل الجامعة تعني بالصحافة الحاضرة والمجلات والجرائد ما هو منها في مصر. وهكذا ينبغي أن يكون السؤال عنها خاصة، ولذلك سيكون كلامي قاصرا عليها، ولا أذكر ما ينشر منها في غير البلاد المصرية إلا إذا دعت الحال إلى القياس والمقارنة. من البديهي، وإن غفل عنه كثيرون، أن قيمة ما يكتب تعلو وتنحط على حسب ما يكون من قصد الكاتب وأثر المكتوب في نفس القارئ. فإن كانت الجريدة أو المجلة أنشئت لمقصد نبيل، وكان لما يدرج فيها أثر جميل في نفوس قارئيها، قدرها قدرها العقلاء، وعدت من حاجيات البلاد أو كمالاتها. فإن أفادت صاحبها مع ذلك غنى في مال، أو سموا في مقام، أو بسطة في جاه، كان كالخلق الجميل ينفع صاحبه ويسر معاشريه، وإلا كانت كالهمة العالية تتعب من تكون له، وإن رفعت به قومه وأهله.

وقد كان لمصر جريدة واحدة، هي الجريدة الرسمية، ينشر فيها ما كانت تحب الحكومة أن تنشره من أوامرها، وقليل من الأخبار الخارجية التي يروق للحكومة درجها فيها. وبقية صفحاتها كانت وقفا على مدح أمير البلاد، وبعض رجاله الفخام. وإذا نكب الأمير أحد أولئك الرجال، وجد محرر الجريدة أوسع المجال لذكر مثالبه والنيل منه. فكانت قيمة الجريدة بمقدار ما تحتوي عليه. ولهذا، لم يكن الناس يشتركون فيها إلا جبرا.

وأنشئت بعض الجرائد والمجلات بعد ذلك، ولكنها كانت أشبه بالرسمية. أنشئت مجلة «روضة المدارس»، يكتب فصولها أساتذة المدارس، وبعض

موظفيها، وقليل من سواهم. ولم يكن الغرض من إنشائها إلا إظهار كل كاتب ما عنده من العلم على زعمه، أفهم أم لم يفهم؟! أخذ القارئ حظا منه أم لم يأخذ؟!.. ولذلك ماتت بموت أصحاب تلك الرغبة، ولم يرثها أحد من الناس.

وأنشئت جريدة «وادي النيل»، ولها ميل إلى الغرض الذي أنشئت له «روضة المدارس» فيما ينشر فيها من الآداب، وإلى الجريدة الرسمية في المدح والهجاء. ولم يكن في عبارتها ما يسر غير ممدوحها، ولا يسيء غير من صدر الأمر بذمه فيها. ولكن كان في أسلوبها ما لا يسيغه إلا ذوق كاتبها رحمه اللّه. لهذا، ماتت بموته، غير مأسوف عليها من أحد.

ثم جاء زمن بحوادث غيرت الحال التي كانت عليها مصر من قبل، وظهرت في الناس حاجة إلى الاطلاع على ما يحدث بينهم، فأحس بعض المهرة وطلاب العيش بهذه الحاجة، فأسرعوا إلى موافاة الناس بما يسدها. ولكنهم ـ واأسفا ـ لم يكتنهوا كنه الحاجة ولم يحيطوا بحقيقتها، وغلبتهم حاجتهم إلى الكسب العاجل فأنشئوا جرائد مستقلة عن الحكومة، لكنها اشتقت من جرائدها، فجاءت من نوعها وعلى طريقها من حيث اضطرارها إلى إرضاء الحكام والأمراء، ومقالاتها في المدح والهجاء. وزادت على ذلك أنها كانت في حاجة إلى إجابة ما يطلب مشتركوها من ذلك، وهم قوام معيشتها، فكانت تنال أجرا من الحكومة على بعض ما يكتب فيها، ومن المشتركين على ما يوافق أهواءهم منها. وصاحب الجريدة لا غرض له يرمي إليه من تعبه في تحريرها إلا أن ينال مالاً، أو يكسب جاها يستثمره في جلب المال. ثم جاء من ينافسه، فاتخذه قدوة، وحذا في عمله حذوه. فما قيمة هذه الجرائد؟.. هي قيمة الغرض الذي أنشئت له؛ وذاك الغرض أن يعيش محرروها بحق أو باطل. هي قيمة أثرها في الناس؛ وهو صرفهم عن كسب الفضيلة والتحلي بها إلى الاكتفاء بذكرها ودفع أجرة نشرها.

وأنشئت جريدة من الجرائد لغرض سياسي حقيقي فى أثناء الحرب بين الدولة الروسية والدولة العثمانية، وكان يكتب فيها أفاضل معروفون. وكانوا يستشيرون

العقل والحق والعدل فيما يكتبون . . ولكن غلب على الجريدة، مع ذلك، حب الظهور، ولم تجد إليه سبيلاً إلا بسب من يعارضها فيما تكتب أو يخالفها فيما تقرر، خصوصا إن كان المعتدي عدوها وكان عليها أن تمر به مر الكرام . ولكن كان ذلك في طبيعة الوقت، فجرت عليه . فكنت ترى الجرائد في ذلك الزمن معارض سباب يضحك لمناظرها السفهاء، ويبكي من عواقب ما تتقاذف به الحكماء .

ثم ظهرت جرائد كثيرة في هذه البلاد لم يدع أربابها إلى نشرها إلا الحاجة إلى الكسب، سواء كان بتحميلها العامة، فمن لم يحملها انتظر ما لا سبيل إلى اتقائه من شتم وقذف، أم كان بحملها على الحكومة، فإن لم تمدها بما تريد اتخذت الحرية سلاحا ظالما تشق به عن العورات، وآلة لقلب الحقائق وتغييرها إلى ضلالات، وكثيرا ما جرعت العامة ما خدر عقولها وخُيِّل إليها أنها سعيدة في شقائها .

غير أن ذلك لم يمنع بعض تلك الجرائد أن تتخذ لها سبيلاً إلى مشرب من المشارب تثبت على وروده، سواء كان ما يوافق العامة أو يوافق الحكومة . لهذا قويت وصار لها كون مستقل، بحيث لو ذهب شخص القائم بها صح لها أن تبقى وأن يستمر وجودها إذا خلف الذاهب من يسلك مسلكه . لكني لا أنكر أنها مع ذلك قليلة الفائدة، لقلة ما يودع فيها مما ينفع الناس، ولإرضائها العامة بوهم لا حقيقة له .

كان هذا شأن جرائد الزمن الماضي، إلى ما يقرب من الحاضر ببضع سنين، وبعضها استمر في ذلك إلى الآن . . أما اليوم، فأمر الجرائد أصبح من أضر الأمور بالعامة . فإنه إذا سدت السبل في وجه العاجز، وكان يقدر على صف الكلمات بعضها جانب بعض، بادر إلى إنشاء جريدة تحت اسم ضخم، ونادى في مقدمتها بأنه لا يريد إلا تقويم العقول وتغذية الأرواح، ثم شرع في تهديد بعض الأغنياء أو الأمراء أو الحكام بكشف أسراره وإبداء عواره، لا يريد بذلك إلا أن يشتري الناس سكوته .

ويعظم هذا الخطر ضعف طبيعة أغلب العامة من هذه البلاد، وميلهم إلى الهزل، وغلبة البطالة عليهم. ولا شيء يدعو إلى الاشتغال بأعراض الناس كالفراغ من العمل، ولا يسلي الناقص عن نقصه مثل عيب الكامل بما يعاب هو به، ولا لذة للناقصين تساوي لذتهم بالحط من الكاملين.

هذه العاقبة السيئة التي صارت إليها الجرائد في هذه البلاد، لم تذهب على بصيرة بعض الناس قبل الحوادث العرابية وفي أثنائها، حتى عملوا على السعي في إعدام الجرائد التي يسمونها جرائد أخبار ليستبدل بها مجلات أدبية لتربية العامة وإفادة الخاصة تحت مراقبة من هو أهل لأن يراقبها، يكون لها ذيول تجارية(٦٨) فقط تصدر كل يوم، ولا عجب كان من ترقب تلك الحالة، فإنها من الترقى الطبيعي للنشأة الأولى.

هذا الذي ذكرته فيما يختص بمعاني ما تنشره تلك الجرائد. أما ما هو من ناحية ألفاظها وأساليبها، فذلك مما يحمد في قليل منها، ولكنه يسوء أهل الذوق ويخيف أهل الغيرة على اللغة في الكثير الأغلب، فإنك ترى أولئك العجزة الضعفاء يخترعون ألفاظا من عند أنفسهم فيما يشاءون من المعاني، ويهشمون بها اللغة تهشيما، فلا يبالون بما يقدمون أو يؤخرون، لا يرجعون في ذلك إلى معجم ولا يجرون على قاعدة، فيزيدون اللغة ضعفا على ضعفها، ويصكون وجه الفصاحة، ويصفعون قفا البلاغة. وما ظنك بأمة تهان فيها ملكة العلوم، وهي البلاغة؟!

أما المجلات.. فأغلب ما صدر منها أنشئ على ذوق منشئيها، إما لكسب المال من قوم مخصوصين تروج عندهم بضاعتها، وإما لنشر شيء من المعارف بين طبقة خاصة من الناس، وهذا القسم أنبلها، ولكن الفائدة منه ليست عامة، وقد يسوء أثره في الناس من دخل فيه الغلو في مشرب أو التفاني في نصرة مذهب والطعن في مذهب آخر بدون تحكيم الإنصاف. غير أن المجلات أكثر خيرا وأقل شرا من الجرائد على كل حال؛ لأنها لم تشتق من الشعر القديم القائم على عمودي المدح والهجاء كما اشتقت منه جرائد الأخبار.

أما النصيحة للجرائد وللمجلات فهي :

أولاً : أن يمتاز أهل الفضل من أربابها بوحدة تجمعهم وتلصق بعضهم ببعض، حتى لا تدع فرجة لدخيل فيما بينهم، فيكونوا طبقة خاصة تفرق عند الناس، ولا يمنعهم من ذلك الاختلاف في المشرب ولا الضغائن التي تسربت في قلوبهم من المنافسة، فلهم أن يستمروا على اختلافهم وأن يقيموا على ضغنهم، وإنما الذي عليهم أن يتلاحموا في الأدب ليكونوا عصبة ينصرونه إذا هوجم ويقودونه إذا ضعف، ثم يعودون فيما بينهم إلى ما يحب كل منهم أن يكون عليه. وهذا أمر لا يسوء العقلاء، بل هو ما يمتازون به عن الحمقى والسفهاء.

ثانيا : أن ينظروا في جميع تلك الجرائد الأخرى، فإذا وجدوا فيها ما يخالف حقيقة أو يذل فضيلة أو يروج رذيلة أو يخالف شريعة أو لغة، حملوا عليه حملة واحدة، ونفروا من قراءته بكل ما تبلغه الاستطاعة. وفي هذا وحده ما يقوي وحدتهم، ويحمل النازل عنهم على الالتحاق بهم، ومن لم يستطع ذلك كفت الأيدي عن تناول ما يكتب خوف العار اللاحق من قراءته، فتنضب مادته ويدركه الموت الفاضل قبل الحياة الخبيثة. وأن يجتهدوا في تنقية عباراتهم مما يخالف أوضاع اللغة أو يخرج من أساليبها الصحيحة الفصيحة، وذلك لا يجشمهم إلا مراجعة المعجمات وبعض الكتب من فنون الأدب.

ثالثا : أن يبعدوا من مجادلة بعضهم بعضا عن كل ما فيه تعريض بعيب أو رمز إلى مذمة. وأن تتجه مقاصدهم إلى تربية فكر يصح أن يكون عاما في الأهالي، ويحملوا الناس عليه، كالعمل والاهتمام بما هو من العدل والتعاون على الخير والحق، وأن يجعل ذلك غرضا يرمي إليه الكاتب في جميع ما يكتب، مع تسهيل العبارة ما استطاع.

رابعا : أن ينشئ كل منهم لجريدته شيعة تنصر غرض صاحبها، وينصر هو ما نماه في نفوس أعضائها، على أن يكون سبيل الجريدة وشيعتها أن يصل إلى منفعة ثابتة في البلاد، ولا يكون سبيلها كذلك حتى تراعي في العمل حالة الأهالي ودرجات استعدادهم وتدقيق النظر في كيفية قيادتهم إلى منافعهم.

أما ما عليه أرباب الجرائد المعتبرة الآن من اتباع أهواء العامة، فمتى مدحت شيئًا مدحوه، ومتى نفرت من شيء نفروا منه، أو تطلعهم لما يبدو على وجوه بعض الحكام من رضا وسخط، فيرضون إذا رضوا ويسخطون إذا سخطوا، فذلك مما يجعل الجرائد مزعزعة الأركان ضعيفة البناء تسقط لأول عاصفة تهب عليها من حيث كانت تنتظر السكون.

ثم أخص المجلات بأمر يجوز أن تشركها الجرائد فيه، وهو البحث في عوائد البلاد وأخلاقها، والتنقيب عن مناشئها، حتى إذا عرف ما عراها من الأمراض، وأجيد تشخيصه وعرفت علله وأسبابه، بُحث في تدبير العلاج النافع له، وقُدم إلى الأنفس بالمقدار الذي تحتمله.

هذا ما خطر ببالي الآن أن أقوله. والله يوفقكم إلى صالح العمل والسلام.

* * *

حوار حول الصحافة وإصدار «المنار»

الأستاذ الإمام : إن المصريين في حالة جعلت أفكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد، وهو أخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الإنكليز، ولا يلتفتون إلى ما وراء هذا. وقد قامت به ثلاث جرائد: «المؤيد» و«المقطم» و«الأهرام» . . . وإنه لا يمكن لك مباراة واحدة منها في خطتها.

وإذا كتبت في الموضوعات الأدبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة، لا يلتفت إلى كلامك الناس. فإنني لا أعرف أحدا في الأزهر ولا في المدارس مشتغلاً باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف، وهؤلاء إن وجدوا لا غناء فيهم. وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لا يأتي منه ما يفي بنفقاته، ولا ينبغي التعب وإنفاق المال هكذا.

الشيخ رشيد : إن صاحب مجلة «الهلال» أخبرني بأن له ٣٥٠٠ مشترك.

الأستاذ الإمام : إن كانوا يحسبون كل من يكتبون اسمه في دفاترهم مشتركا فقد يكون عنده هذا العدد. وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد أنهم يبلغون الألوف.

الشيخ رشيد : إن من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الإصلاحية المفيدة . .

الأستاذ الإمام : يمكنك أن تكتب هذه المباحث في كتاب، فهو أرجى لقراءة الناس له.

الشيخ رشيد : إن معالجة قضايا التربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التي فشت في الأمة كالجبر والخرافات.. هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة ـ (المنار) ـ وإنني أسمح أن أنفق عليها سنة أو سنتين من غير أن أكسب شيئا.

الأستاذ الإمام : إن كان هكذا فهو حسن، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها. وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة، فإني أساعدها بكل جهدي... يجب ألا نتحيز لحزب من الأحزاب[٦٩]، وألا نرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بذم أو انتقاد، وألا نخدم أفكار أحد من الكبراء، هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة، الذين يدعون بها كبراء، إننا قد نستخدمهم ولكن لا نخدمهم... إن الطبع ينبغي أن يكون في المطبعة الأميرية للبعد عن الدسائس وعن اطلاع جماعة المطابع على شئون الجريدة الداخلية... لكن أجر الطبع في المطبعة الأميرية غال، وإنما غلاؤه لأجل التصحيح، فإذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح بأجرة مناسبة فلا معدل عنها. وأنا أسأل عن هذا الأمر.

* * *

أنتم تسمعون أن في مصر حرية... هذه الحرية ليست للمسلمين. المسلمون في أشد المراقبة عليهم، وأبعد الناس عن الحرية. لا حرية لهم فيما ينفعهم أصلاً، ولكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم[٧٠].

عزيزى الفاضل **نقولا أفندي شحاته . .**

بعد إهداء التحية . . أقدم إليك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي ، من أفاضل أهل العلم في طرابلس ، وهو الذي سبق الكلام معكم فيه ، وإنه يريد إصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر أنه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة«الأخبار» . والرجاء أن تساعدوا حضرته بإعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم ومن أعيان ومعتبرين في القطر المصري ، وعندي يقين أنه سينال منكم ما يحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين .

١٤ مارس سنة ١٨٩٨م

محمد عبده

الشيخ رشيد رضا(٧١)

إن اللّه بعث إليّ بهذا الشاب (الشيخ رشيد) ؛ ليكون مددا لحياتي ، ومزيدا في عمري . إن في نفسي أمورا كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأُريد . وإذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه ، فإنه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول . وإذا قلت له شيئا مجملا ، بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل . فهو يتم ما بدأت ، ويفصل ما أجملت . وقد رأيت في سفري هذا من آثار عمله وتأثير «مناره» ما لم أكن أظن ولا أحسب . فهو قد أنشأ لي أحزابا ، وأوجد لي تلاميذ وأصحابا . . . ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ ، واستغنائه الآن عني . ماذا كانت تلك الحاجة؟ وماذا عملت له؟ أنا واللّه في خجل من نفسي أنني لم أعمل له شيئا . وهو قد عمل لي كل شيء . عمل لي ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طوالِ حياتي خدمتهم ! !

* * *

إن[٧٢] التجسس في هذا البلد لا يكون إلاّ لأحد رجلين: الخديو، وهو(الشيخ رشيد) قد عاداه لأجلي؛ واللورد كرومر، وهو لم يعرفه، ولا يحب أن يعرفه، وإلا لكنت أنا الذي أعرفه به.

* * *

إذا[٧٣] كنت أنا إنسانا ذا قيمة في الوجود، فإنما ذلك بأخلاقي لا بوظيفة الإفتاء ولا بغيرها. وأي خلق يكون لي، إذا كنت أترك صحبة رشيد رضا لأجل الخديو؟! وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضا لأجل الخديو، إذا أراد؟! أُحب أن تعلم ويعلم الخديو أنني أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الإفتاء وعضوية مجلس إدارة الأزهر؛ لأن هذا الرجل متحد معي في العقيدة، والفكر، والرأي، والخلق، والعمل...

نقد للمنار وصاحبه

إنك كثيرا ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلى يزينه للناظرين، ويهون قبوله على المبطلين. فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل، وقلما يكون للداعي إليه صديق، وإنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه...

إن«المنار» في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص، فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين، حتى العوام....

* * *

حوار بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد حول الشيخ علي يوسف

الشيخ رشيد : إن أكبر أسباب استياء الشيخ علي منك هو اعتقاده أنك الذي حملت صديقك الشيخ أحمد أبا خطوة القاضي الشرعي على الحكم بعدم كفاءته لبنت السيد عبد الخالق السادات.

الأستاذ الإمام : إنني موافق لك فيما كتبت في «المنار» ونقله عنك (المؤيد) في مسألة الكفاءة. . . وأما رأيي في الشيخ علي والسادات، في شخصيهما فهو أنهما كفئان، لكن في الخسة لا في الشرف!!.

* * *

رسائل إلى فرح أنطون

ـ ١ ـ

حضرة[٧٤] الفاضل المحترم فرح أفندي أنطون .

لا تأخذ عليّ في الإبطاء بالإجابة ، فمن الشواغل ما لا يذكر . وقد يمنع عن الجواب وأكبر . تذكر ثنائي على مشرب الجامعة ، وإنما يثني على العامل عمله ، يحدّث عن الفاضل فضله . ورجائي أن يتم لك ما أحسنت قصده ، وأن يعجبك لنجاح فيما وجهت عزمك نحوه . والسلام .

محمد عبده

١٩ من إبريل سنة ١٨٩٩

* * *

مجلة «الجامعة»[٧٥]

-٢-

حضرة الفاضل صاحب مجلة «الجامعة».

لا أجد الآن من الوقت ما يسع الجواب عن مطالبك جميعها. ولكني أحب أن أجيبك عن كل واحد منها متى أمكنني الوقت من ذلك. وإنما يسهل عليّ أن أجيبك الآن عن آخر سؤال.

رأيي في مجلة الجامعة، أنها من أبعد المجلات عن سوء الظن الذي يكثر نشوبه بغيرها، وليس يعلق بذهن الناظر فيها إلا حسن القصد.

والنصيحةالتي أقدمها إلى مجلة الجامعة أن تستمر على خطتها، وأن تثابر السير وراء طلبتها. وأرجو أن تقبل تحية الاحترام من الفقير إلى اللّه وحده.

محمد عبده

- ٣ -

الآن[٧٦] وصلني رقيمك. . وأشكرك على التهنئة، وعلى الميل إلى استدامة الصلة. وأحب أن تعرف أن ما يسمى وشايات لا سلطان له عليّ، وإني لا آخذ بالكلمة تلقى إليّ إلا إذا قام عليها من الأدلة ما يحصل اليقين. ثم إن قلبي لا يسع ما يسميه الناس عداوة، وليس فيه مكان لذلك. ولكن قلبي قد يحتقر ما لا قيمة له. أحيانا يُظهر ما يجد من ذلك. وأحيانا لا يبالي بإظهاره ولا كتمانه.

وما ذكرت مما ذكر[الشيخ رضا[٧٧]] لم أطلع عليه، أو لم ألتفت إليه، ولا وقت عندي لتحقيقه. على أنه إن لم يكن فيه إلا: «وواحدة من الإسكندرية»، فليس فيه تلميح ولا تصريح بذكرك، فلم حملته على نفسك؟!

على أنني قد علمت حق العلم أن وشاية أو تقريرا ـ أو ما شئت فسمه ـ ذهب من الإسكندرية إلى الجزائر، ولكنك لم تخطر ببالي عندما تحققت ذلك، فلم تسيء الظن لمجرد ذكر لفظ يشمل مدينة بتمامها، فيها ممن يشتغل بهذه السفاسف كثير لا يليق بهم أن يكونوا في عمل مثل عمل مجلتك؟!!

وإنك لو راجعت دفتر أعمالك، لوجدت من أكبر ما يصح لقلبي أن يتأثر له، ذلك المطبوع الذي أرسلته إليّ، وبعثت به إلى [**الشيخ رشيد رضا**[٧٨]]. ولكيلا يبقى منه أثر في نفسي، لم أبق له أثرا عندي. وعلى كل حال، فلا تجعل لهذه الأمور سلطة على نفسك، ولا أظن أن عنفوان الشبيبة يمنعك من بذل الجهد فيما أحب لك ولكل من يعمل عملاً يرجى منه الخير، ويخشى منه الشر في الشرق.

أما ذكرك المجمل ما ألقيته في تونس، فإليك من ذلك ما تحب، غير أني أوجب أن ينسب إلى جريدة «الحاضرة» التي تنشر في تلك المدينة، لأمرين:

الأول: أنه من حقها . . والثاني: أنه بعبارة صاحبها، وفيها ما لا يصدر من قلمي العربي عادة. وإذا أشرتَ إلى شيء من سياحتي، فليكن بعد تحري ما تعلم من ذلك.



ـ ٤ ـ

حضرة[٧٩] الفاضل . .

لو احتقرتك ما كتبت إليك كلمة ، وإنك لتسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه غيرك . وكنت أود لو كنتَ لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم . ولكن . . اللهم عرّفنا بأقدار أنفسنا ، فذلك اللهم أنفس ما تعطي وأفضل ما تهب .

* * *

درس عام في العلم الإسلامي والتعليم[٨٠]

إن بعض إخواننا الذين عرفناهم في تونس قد طلبوا من الفقير مسامرة أو محاورة، وربما كان ذلك اصطلاحا عندهم. ثم قالوا درسا. فسألني بعضهم عن ذلك، فقلت: نعم، هو درس، ولكن لا تظنوا أنه درس في تحقيق مسألة علمية، فإن عندكم من جلة العلماء من نعترف بفضلهم. فمن أراد تحقيق مسألة علمية فليراجعهم. أما هذا الفقير فرجل سائح، قصدت هذه الديار للتعرف ببعض المسلمين، والنظر في أحوالهم، وأمور دينهم من حيث العلم والتعليم. ولذلك، لما أجبت طلبهم في إقراء الدرس، ما قصدت إقراء درس حقيقي، ولكن التكلم فيما يختلج بفكري من أمر التعليم والعلم، والإعراب عما في ضميري مما أتمناه لإخواننا المسلمين من التقدم في العلم. وقد رأيت في بلاد الإسلام التي سحت فيها عدة أناس يشتغلون بالعلم، ولكني وجدت عند الأغلب اشتباها في ما هو العلم الذي يُنفق الوقت في تحصيله، هذا فيما يخص الأمر المهم الذي كررته لكم، وما زلت أكرره، من أهمية التعليم، حتى ينتج ذلك التكرار ما نتمناه من التقدم، ما دام الناس في حاجة إلى التكرار.

ثم إن هناك مسألة مشتركة بيننا وبينكم، عامة في سائر بلاد الإسلام، وهي مسألة الرضا بالموجود، ولها تعلق أيضا بالتعليم. فإذا ذكرت نقصا أو عيبا في طريقة أو في حالة من الأحوال، قيل لك: ماذا نصنع، ونحن أناس متوكلون على اللّه؟ وهذا مراد اللّه من عباده؟ وهو عذر المقصر عند تقصيره في بلاد الإسلام، وعون على ما نراه من النقص في طرق تحصيل العلم، ولذلك أردت ضمه إلى مبحث التعليم.

* * *

معنى العلم

أما الكلام في معنى العلم، فليس الغرض منه الخوض فيما اصطلح عليه علماء السلف الصالح، أو غيرهم من المتكلمين أو الفلاسفة، أو غيرهم حتى من الزنادقة؛ لأن هذه ألفاظ اصطلاحية طالما شغلت أهل العلم بتفسيرها، والأخذ والرد في معانيها، مع أن واضعيها إنما حددوا بها المعاني حتى تنضبط ويسهل تناولها والوصول إليها، ولكن يصح أن يقال فينا وفيهم إنهم أرادوا خيرا فاستعملنا شرا. ولذلك أترك الألفاظ الاصطلاحية، وأتكلم في معنى العلم من حيث هو معروف في الكتاب والسنّةوسيرة السلف، وعلى لسان العامة والخاصة.

العلم جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)؟! الآية. وهو استفهام إنكاري، معناه أنه لا يستوي عالم وجاهل. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: ١٦)؟! أي أن الظلمة لا تساوي النور، فبين لنا تعالى أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم، وأن النور مثال لحال من يعلم، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام. ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام، وهو سائر في طريق يقصد غاية معلومة، فإن الظلام يُعمِّي عليه الطريق، وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده، وقد يصادف مهواة فيسقط فيها، فتدركه هلكته قبل الوصول إلى غايته.

وهذه حال الجاهل بوسائل أي غاية من الغايات التي يعرض للإنسان قصدها في حياته. فكل من طلب غاية في حياته بدون علم لا يصل إليها. فيؤخذ حينئذ من هذه الآية الكريمة، أن اللّه تعالى بيَّن لنا أن العلم للإنسان كالنور، لا بمعنى أن العلم سراج أو مصباح. وإنما ذلك مثل لحال من يعلم الطريق الموصلة له إلى مطلبه، والوسائل المؤدية إليه، فإن حاله يشبه حال من يمشي وبين يديه نور يبيّن له السبيل ويكشف له ما فيها من الموانع، فيتجنبها أو يذللها، حتى ينتهي إلى غايته ظافرا بعافيته وسلامته. لأن الآيات والأعلام المنصوبة لا يراها المغمور بالظلام، وإنما يراها المبصر بالضياء والنور. ولما كان العلم ضوءا يهدي إلى الخير في الاعتقاد والعمل، كان أوّل ما نزل على النبي الأمّي الذي لا يقرأ ولا يكتب قوله تعالى:

﴿ اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ① خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ١، ٢)، الآيات. فافتتح اللّه الوحي بتعليم القراءة، والقراءة تعلم، وجاء في الحديث الشريف أنه قال في أول مرة، «ما أنا بقارئ». وما زال الملك به حتى قرأ الآيات.

ثم بعد أن أمر تعالى بالقراءة من لا يقرأ عادة، وبين له أن الذي يأمره بالقراءة هو الذي خلق الخلق كله، وهو قادر على أن يقرئه بعد أن لم يكن قارئا، وأنه الذى خلق الإنسان الحي الناطق المفصح عما في نفسه من علق، أي دم جامد لا عقل فيه ولا نطق، فهو قادر على أن ينشئ فيه القراءة والعلم وإن لم يسبق له تعلم - بعد أن ذكر هذا قال - ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٣ - ٥)، فخص من العلم العلم بالقلم والكتابة، تنويها بشأن التحرير والبيان، وتنبيها على عظم فائدته، وهو إنما يكون بعلم اللسان والبراعة فيه.

لا نريد من العلم تصور القواعد، وإنما نريد منه ملكة الإفصاح والبيان، وكون المراد منه هذا أمر بديهي، إذ لولا الكتابة لما وصلنا إلى درجة من الدرجات التي نراها. فافتتاح اللّه تعالى الوحي بطلب العلم، والثناء عليه سبحانه بأنه هو الذي علمه ووهبه الإنسان، إرشاد إلى فضل العلم، وحث على تحصيله، خصوصا العلم بالقلم.

فالعلم ما يُبَصِّر الإنسان في الغاية التي يطلبها، ويهديه إلى الحق الذي هو معقد النجاة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢)، ولم يقل للجاهلين أو الغافلين. فإذا كان للعلم هذه المزية، فلا يصح أن يكون العلم الممثل له بالنور إلا علم إرشاد وتبيين. ثم جاء في الأحاديث والأدعية المأثورة قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما[٨١]»، كأنه يقول اللهم اجعل علمي علما صحيحا، ينطبق على ما بينته في كتابك. ويروى أنه قال: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علما، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم[٨٢]». ثم إننا نجد في الآثار وأقوال العلماء غير ذلك مما يطول ذكره. كما تجدون فيما يدور على ألسنة

الناس عند ذكر العلم ما يرشد إلى أنهم لا يفهمون من العلم إلا معنى التبصر في أي أمر من الأمور، والإتيان به على الوجه الأكمل بقدر الاستطاعة.

فتبين من ذلك إذن أن معنى العلم الحقيقي، الذي أثنى اللّه عليه، وميز به المهتدين من الضالين، هو الكشف عن الأمر الحقيقي، بحيث إذا أراد أن يميلك عنه مميل لا يقدر على ذلك، كمن عرف طريقا موصلة إلى غاية، فلا يعدل عنها مهما حاول مضله. فلا يكون العلم حقيقيا، ولا تنبعث النفس إلى تحصيله، إلا إذا كان كذلك بالنسبة إلى الغاية المطلوبة منه. فإذا وجدنا من العلم ما يوصلنا إلى البصيرة بما نقصد من الغاية في مدة قصيرة كيومين مثلاً، ورأينا ما سمي علما ولكنه إنما يوصلنا في مدة أطول كأربعة أيام مثلاً، كان لنا أن نعد الأول علما حقيقيا؛ لأنه أرشدنا إلى أقرب طريق مؤدية إلى الغاية، وأن نعد الثاني غير علم لأنه عاقنا عنها، وأوجد لنا العثار(٨٣) فيها، فالعدول إليه سقوط في الضلة.

وأولى بأن يسمى ضلة، علم يقصد بتحصيله غاية، ثم هو لا يؤدي إلى تلك الغاية بالمرة بعد إنفاق الزمن الطويل في تحصيله. فتسميته علما من الخطإ الذي لا يتفق مع ما جاء في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، واستعمال الخاصة والعامة.

ولكن من الناس من يقول لك: العلم يطلق بإطلاقات ثلاثة: الإدراك، والقواعد، والملكة، فتحصيل القواعد وإن لم تحصل الملكة يسمى علما على الحقيقة، فاشتغالنا بتحصيله اشتغال بتحصيل العلم. غير أن هذا القائل لم يراع ماذا قَصَدَ المُسَمِّي للقواعد علما، فإنه لم يضع لها هذا الاسم إلا لأنها توصل إلى الغاية، في رأيه، فإذا استعملت لغير الغاية فقدت معناها، وعُدَّت من الشواغل عن العلم المطلوب، فإن شاء سمى هذه الشواغل جهلاً؛ لأنها أضلته عن العلم، وإن شاء فليسمها علما كما يهوى لا كما يعرف الناس.

* * *

العلوم الإسلامية

ومن هنا يمكنني أن أتخلص إلى الكلام على حالتنا في تحصيل العلم، في جميع بلاد الإسلام، وهو موضوعنا فنقول:

عندنا علوم شتى نشتغل بتحصيلها ونسميها العلوم الإسلامية. وإنما سميت بهذا الاسم؛ لأن موضوعاتها لها علاقة بدين الإسلام، كالفقه وأصوله، وهو علم يبحث فيه عن طرق استنباط الأحكام من أدلتها. وكعلم التوحيد، وهو علم إسلامي يبحث فيه عن وجوده تعالى وصفاته الكمالية. ثم العلوم النقلية كالتفسير، والحديث، واللغة، والنحو، والمعاني، والبيان والبديع، وما سمي علم الوضع.

ومن هذه العلوم وسائل ومقاصد نحن مشتغلون بجميعها، وسائل ومقاصد. ولا حاجة إلى الكلام في تبيين طرق الاشتغال بها عندنا وعندكم، إنما الكلام في أمر عام معروف عند الجميع، وهو طرق تحصيل هذه العلوم.

* * *

فالنحو مثلاً يدرس بتونس بكتبه التي تقرأ بمصر « كالقَطْر » و«الأشموني» و«الصبان»، وله غايتان: الأولى، التمكن من فهم كتاب اللَّه، وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام، وكلام سلف الأمة. والثانية، إصلاح اللسان من الخطإ. نشتغل بعلم هذه القواعد في هذه الكتب، ثم نشغل أنفسنا بالبحث في عبارة المؤلف هل تدل على ما قصده؟ فقائل يقول: نعم. ويأتي قائل آخر يقول: لا. وقائل ثالث يرجح قول نعم، ورابع يرجح قول لا، ونحو هذا مما ترونه في التقارير المكتوبة على الحواشي. ويطول بذلك الزمان، وتضيع الفائدة، وينصرف الذهن عن القاعدة. ثم بعد الفراغ من العلم لا يجد الطالب تقويما في لسانه ولا صحة في تحريره، ولا قدرة على فهم ما جاء في كلام العرب، أو في كتاب اللَّه وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم.

ويزيد الأمر صعوبة طريقة الابتداء التي اختاروها في تدريس النحو. فإن الأستاذ يبادئ الطالب - وهو لا يعلم شيئا من اصطلاحات العلم - بتحقيق المسائل وتفتيتها كما يقولون، كأنه عريق في العلم، ولا يراعي مقدار استعداده للفهم. وقد وقع لي أني مكثت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا من شرح«الكفراوي» على «الآجرومية»، فحملني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم، لتمكن اليأس من نفسي. ولكن لأمر أراده اللَّه، قهرني والدي على الرجوع إلى الطلب، فهربت في الطريق. ولكني صادفت في مَهْربي من علمني كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه، فذقت لذته واستمررت في طلبه.

فعلى الأستاذ أن يكون بيده ميزان يزن به ذهن الطالب، ودرجة استعداده لقبول

ما يقول. فيجب على المدرس أن يتنازل مع المبتدئ إلى درجته، ثم يرتقي به شيئا فشيئا حتى يصل إلى الدرجة التي يتمكن فيها من إدراك دقيق المعاني.

وهذا الفن - فن معرفة درجات الأذهان وكيفية الاستفادة - فن مخصوص تستلزم قراءته ست عشرة سنة إذا كان شرح المطول يحتاج في قراءته إلى ثمانى سنين. ومن أنفق أوقاته في هذا الفن، الذي ألفت فيه الكتب وبسطت فيه، فإني أضمن له ثوابه عند اللّٰه تعالى أضعاف أضعاف ثواب من يختم إقراء المطول، لما أنه يرشدنا إلى الغاية التي طالبنا اللّٰه بها.

* * *

علم المعاني والبيان

(والغاية منه)

علم المعاني والبيان علمان يُبْحَث فيهما عن البلاغة، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فما هو ذلك المقتضى؟ نجد الناظر في هذا الفن، أو المعلم له، يقول: هل تتحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال في الجملة، أم لا بد من مراعاة جميع مقتضيات الأحوال؟ فإن كان الأول، فكيف يعد بليغا من لم يراع الحال كما ينبغي، وهو يعلم أنه غير مراع له؟ وإن كان الثاني، فلا تختلف طبقات البلاغة، ولا يكون لها أعلى وأسفل.

ويطول البحث، ويكثر الجدال في ذلك، وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها، ولا يجد الباحث ما يرده إليها.

وهكذا نجد البحث يطول في الغالب إلى حد يشغل الذهن عن الغرض المقصود. مع أنه لو قال الأستاذ: البلاغة صفة في الكلام تُبلِغ المتكلم مراده من نفس السامع، على قدر طاقته. ثم إنها تكون بمراعاة حال المخاطَب، وذلك ينْقسم إلى قسمين ما يتعلق بفهم الكلام، وما يتعلق بالمعنى الذي سيق له الكلام. فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعاني، ثم ينطبق في بيان ذلك وتقرير المعاني التي سماها الإمام«عبد القاهر الجرجاني» واضع هذا الفن معاني النحو. أما القسم الثاني، وهو حال المخاطب بالنسبة إلى المعنى الذي سيق له الكلام، فتتوقف معرفته على أمور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها إلى معرفة طبائع الأشخاص، ومداخل المعاني إلى قلوبهم، فمن أراد أن يقنع مخاطبه بعقيدة مثلاً فعليه أن ينظر، فإن كان المخاطب ممن لا يقنع إلا بالبرهان فعليه أن يقيمه له، وإن كان ممن لا يدرك البرهان ولكنه يقنع

بالمُسَلمَّات مثلاً سلك معه له تلك السبيل، ولا يكون بليغا إلا إذا لاحظ ذلك مع ما يتعلق بالنظم.

لو سلك الأستاذ هذا المسلك، لجمع المعاني الكثيرة إلى ذهن الطالب، ووجه نفسه إلى الغاية المطلوبة منها. ثم إنه بعد ذلك كله، لا يعد معلما للبلاغة إلا إذا وجه فكر الطالب إلى ممارسة كلام العرب، ونسج في التحرير والتعبير على ما نسجوا عليه، حتى تحصل له ملكة البلاغة، ويصل إلى الغاية من عمله. فإن غاية هذا العلم تشمل كلا الأمرين: الأول: أن يكون الطالب فصيحا بليغا فيما يكتب أو يخطب. والثاني: أن يقيس بلاغة البلغاء ببلاغة القرآن فيدرك حقيقة الإعجاز. وهذا الأمر الثاني هو في الحقيقة الأمر الأول، فإن من لم يكن بليغاً بالملكة والعمل لا يمكنه أن يميز بين طبقات البلاغة.



أسهل طرق تعليمه

سئل «**الأصمعي**»: أي الرجلين أشعر، «أمسلم بن الوليد» أم «أبو نواس»؟ فحكم لأبي نواس. فقيل له: إن أخاك «أبا عبيد» يحكم لمسلم بأنه أشعر. فقال: إن أبا عبيد يروي الشعر، ولكنه لم يكابد مشقة العمل في صناعته، فليس أهلاً للحكم. وهذا قول حق، فإن من لم يذق لم يعرف. وأما ما يظن من أنه يتيسر للطالب بعد معرفته اصطلاحات علم المعاني، أن ينظر في كتب التفسير «كالكشاف» مثلا، ويعرف ما يقول «الكشاف» في وجوه بلاغة الآية، وبذلك يكون ممن عرف بلاغة القرآن وإعجازه، فليس من كلام المحصلين. لأنه لو كفى ذلك، لما كانت حاجة إلى صرف الزمان الطويل في تحصيل علم المعاني. بل كان لنا أن نقول إن القرآن معجزة، لأن صاحب «الكشاف» قال إنه معجزة، وننتفع بزماننا في تحصيل ما هو أنفع. وذلك مما لا يعقل.

ورب قائل: إن المتكلم اليوم(٨٤) يقول ذلك من قبيل من يأمر غيره بالبر ولا يأتمر به، فقد عرض بنفسه جزافا بإلقاء خطبة على أناس لا يدري أخلاقهم، ولا يدري ما يقولون بعده، ولا يعرف مواضع الخطاب من أنفسهم. فالجواب: نعم لم أقف على هذه الأمور تفصيلاً، ولكن مدة إقامتي بهذه الحاضرة كانت مدة اجتماع بأفاضلها وعلمائها، وبذلك حصلت لي خبرة إجمالية. فخطر ببالي أن ألقي جملة فيما يطابق مقتضى الحال. وفي ظني أن ما أقوله، إن لم يقع موقعًا حسنًا من نفوس جميع السامعين، فلا أقل من أن يستحسنه بعضهم، وذلك يكفيني في مطابقته لمقتضى الحال.

اختلط علينا الأمر بالنظر في المعاني الاصطلاحية، وكثرة البحث فيها. وانقلب

الغرض منها إلى مصاب نزل بنا في علومنا وعقولنا، فانصرفنا بها عما طلب منها. ولهذا يلزمنا أن نأخذ مأخذا في العلوم يُسَهِّلُ تحصيلها، وييسرها على الطالب. وفي ظني أنه إذا هذبت طرق التعلم لطالب علم البلاغة مثلاً، أمكنه أن يبلغ الغاية منه في ثلاث سنين. وكذلك من أراد بلوغ الغاية من النحو، لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، بحيث يصير الطالب بعد هذا فصيحا بليغا، مميزا بين طبقات البلاغة، شاعرا بمعنى إعجاز القرآن، قادرا على فهم ما جاء في كلام السلف، والانتفاع به فيما يصلح معاشه ومعاده.

وجملة القول، إن الغاية من هذه العلوم العربية هي أن يبلغ المرء بالتعلم مبلغا كان عليه العربي بالسليقة، وهذا يحصل بما قدمناه.

ومما يلزم التنبه إليه في التعليم، أنه من حق الإنسان أن يفتح للطالب باب النظر بنفسه في العلوم، فيبين له القاعدة مثلاً، ثم يطالبه بما يراه في انطباقها على جزئياتها في العمل. فإنه إذا عوده على أن يقول له كل شيء، وأن يقوده في كل أمر، وقف ذهنه عند حد الاتباع، وصعب عليه أن يحقق أمرًا بنفسه. فعليه أن يطالبه بالعمل دائما، ويعلمه طريقة معرفة الخطإ والرجوع إلى الصواب. وهذا هو ما يطلب من الدرس بين يدي الأستاذ، حتى تحصل ملكة التمييز. أما الوصول إلى غاية الكمال في العلم بقدر الإمكان، فأمره موكول لاجتهاد الطالب بعد مفارقة الدرس.

ووقوف ذهن هذا المنقاد في كل شأن عن معرفة الأمر بنفسه، من الأمور المحسوسة. فمن ذلك، أني لما جئت هذا البلد كنت أمر من طريق قصيرة من محطة سكة الحديد إلى البيت ذهابا وإيابا، ولكن مصحوبا بالسيد «**خليل أبو حاجب**». وقد رأيت أمس واليوم أن أذهب إلى المحطة راجلاً، فبعد أن مضيت في طريقي خطوات، قيل لي: إن هذا ليس هو الطريق إلى المحطة، فرجعت إلى طريق آخر. وطال عليّ السير حتى صعب عليّ الرجوع إلى المنزل؛ لتشتت الطريق عليّ. واضطررت إلى سؤال بعض المارة عن المحطة، فدلني عليها. فإذا بيني وبينها أطول

مما بيني وبين البيت الذي خرجت منه!! ثم بعد رجوعي إلى البيت، خرجت ماشيا مرة أخرى بعد نحو ساعة، فاهتديت إلى طريق المحطة. ولكن وقع لي اشتباه على مقربة منها، ولم تُزَل الشبهة إلا بسؤال مار. أما بعد ذلك، فإني لا أضل في هذه الطريق أبدا.

فالعصمة من الضلال، إنما تأتي في الحقيقة من عمل العقل وحده، مع الاستعانة بما أرشد إليه المرشدون الراشدون.



الغاية من علم التوحيد

ومن العلم ما يكون العلم والعمل به واحدا، كعلم الكلام، فإن المقصد منه إنما هو تحصيل اليقين بمسائله، كثبوت الوجود للّٰه تعالى، وصفاته الكمالية التي ورد النص بإثباتها له، ودفع شبه الملحدين الذين ينكرون ثبوت شيء منها، وثبوت بعثة الرسل صلوات اللّٰه عليهم أجمعين. فهذا العلم، إن جرينا في تعلمه على التقليد في الدليل كالتقليد في النتيجة، واكتفينا بفهم ما جاء من الأدلة على ألسنة من كتبوا فيها، أعرضنا عن الغاية من وضعه؛ لأن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها في الأذهان، وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح، وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه بدون تقليد. وإنما يعد النظر في دليل المستدل السابق مُعينا ومُهَيِّئا للعقل إلى تصحيح النظر. فالطريقة التي يجري عليها أغلب المعلمينَ، ليست من غرض علم الكلام في شيء.

ومن الناس، من إذا سألته في أمر يتعلق بعقيدة من العقائد، فاجأك بقوله: لا تقل ذلك فتكفر أو تعتزل، أو ما أشبه ذلك. وهو سلاح يتخذه المرتابون في عقائدهم ترسا يدفعون به ما يخشون من الشبه التي تزلزل عقائدهم. ولكن هذا الدفاع، يدل على ارتياب صاحبه في عقيدته قبل الدفاع، فإن صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع، فإن وجد عند مخاطبه شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه. وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هي التي أغلقت دون المسلمين أبواب العلم؛ فإنه كلما لاح نور إلهي في يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق، وجد من هذه الكلمات «كالاعتزال» و«الفلسفة» ما يخمد ذلك النور فيه. ومن سوء الاستعمال في تعليم هذا العلم، أن يُعلَّم الطالب متن «السنوسية» مثلاً، وهو لم يُحصِّل شيئا من مبادئ العلوم. فيقال: إن الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاثة أقسام،

الواجب، والمستحيل، والجائز. ثم تُقرأ له هذه الأقسام بالتعاريف الاصطلاحية، وهو على جهل تام بما يُعدُّه لفهم معنى الحكم، فضلاً عن أقسامه، فيضطر الطالب إلى حفظ الألفاظ بَدون أن يحصُل من معناها إلا على خيالات لا تنطبق على حقيقة.

وقد قال المتقدمون، إنه لا ينبغي أن ينظر في علوم الكلام إلا بعد تحصيل مقدماتها، والاستعداد لفهم طرق الاستدلال، حتى لا يضل الطالب بالنظر فيها وهو على جهل من وسائل فهمها. فاللازم الأخذ بأحد أمرين: إما أن يستدل الناس بالأكوان على مكونها، وبالآثار على المؤثر فيها، لينالوا بذلك اليقين فيما يعتقدون، كل على حسب استعداده. فالعامي مثلاً يستدل بما بين يديه من نبات وحيوان على حسب ما يظهر له في نظامها. والسيد «علي الرضا»[٨٥] يكتب كتابا في التشريح، يقول في آخره إنه عرف بذلك وجود اللَّه، وإنه المنفرد بالتصرف في هذا الكون. وإما أن يعلم علم الكلام على طريقة تكفل الانتفاع به في الوصول إلى اليقين الذي لايقبل التزلزل، والإيمان الذي يملأ القلب خشية من اللَّه ورجاء به وخضوعا له.

وأما طلب هذا العلم بمجرد قراءة كتبه، ومعرفة ما دلت عليه عبارتها فقط، فهو في الحقيقة مما يصد عن اليقين ويبعد عنه، خصوصا إذا خاف الناظر من أن يقال إنه «فيلسوف» أو «معتزلي» أو ما أشبه ذلك. فإنه لا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد، كما هدانا اللَّه إلى ذلك في كتابه؛ فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد. ووقوفنا عند حد فهم العبارة مضر بنا في العلم، ومناف لما كتبه أسلافنا وما تركوه لنا من جواهر المعقولات في الكتب النفيسة المستودعة بخزائننا التى أصبحت اليوم أكلة للسوس، وفراشًا للأتربة، لا نمد أيدينا لنستلبه منها، أو لنزعج السوس عن أكلها وإتلافها!! أنفس ما فيها فرّ من بين أيدينا، ورصعت به خزائن أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم النور، ولو طلبناها لم نجدها!

وربما اعتذر الطالب عن عدم قبول النصيحة، بأنه لا مناص له عن صرف الزمان في قراءة المطول ونحوه مثلاً، لأن غيره(ككتاب الصناعتين) ليس مما قرره القانون، أو لأن الأستاذ لا يريده، ولأنه يبغي أن يكون عالما مشهورا، ولن يكون كذلك في نظر العامة إلا إذا قرأ المطول بحواشيه في المدة المعلومة، أو في أطول منها. ولكن هذا لا يصح عذرا. ولست أريد بنفي العذر أن أحمل الطالب على عصيان أستاذه، أو حرمانه مما يطلب من الشهرة بين قومه. بل أريد أن أنبه إلى سلوك طريق وسط، وهو أن يجمع بين الحضور في درس الأستاذ، وتحصيل حقيقة العلم؛ فيطالع درس الأستاذ، ويضم إلى ذلك مطالعة شيء من الكلام البليغ، وتحرير ما ينسج على منواله في تحصيل الملكة المطلوبة.

ولقد عرض لي ما يعرض للطلبة اليوم، وكنت أتمنى أن أبلغ من الشهرة ما بلغه غيري، فحضرت درس تلك الكتب مع اشتغالي باستكمال ما أردت من العلم. على أن طلب الشهرة في العلم، إنما هو عند شعور النفس بشيء من الغرور. فإذا أدركت حقيقة العلم، نسيت شهوة الشهرة، وأدركت أنها بمنزلة من الجهل تقضي عليها بتحصيل العلم للعلم، والعمل به في سائر الأوقات وعلى أي الحالات.

للطالب أو الأستاذ أن يستعيذ من هذه البدع التي يراها جديدة، ويقول إنها بدع مخالفة لسنة السلف الصالح، التي لا نريد أن نغيرها، لأنها لو لم تكن مفيدة لما سنها أسلافنا، فما لنا إلا اتباعها. وعليه يكون مثلي كمثل ذلك المغنى على مسمع جماعة من الأعاجم بكلام «مجنون ليلى» إلى طلوع الفجر، فقيل له: باللّٰه عليك، غن لنا عن ليلى ومجنونها. فقال: إن الغناء كان في ذلك. قالوا: ولماذا لم تُعْلِمْنا من قبل، حتى نفرح؟!! ذلك أن الطريقة التي نشير بها هي طريقة أسلافنا الأقدمين. فالعود إليها إحياء لسنتهم، وعمل بآثارهم. فلما كان أسلافنا جارين في تعليمهم على تلك الطريقة القويمة، كان نور العلم يضيء لهم سبلهم إلى سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وكانت الأمم التي تعد نفسها اليوم حاملة مصابيح العلم تستضيء بنورهم.

يقول القائلون: إن طلب تغيير الطرق اعتناء بالجديد، وولوع بالبدع، أو نزوع لها. وليس الأمر كذلك؛ فإن الجديد والبدعة هو ما نراهم عليه، وقد ظهر أثره وعم ضرره. فالقديم الحقيقي هو ما ندعو إليه ولا نجاح لنا إلا بالتعويل عليه.

* * *

التوكل

بقيت مسألة نبهنا عليها في أول الأمر، وهي أن الواحد منا إذا لاح في ذهنه نور إلهي يرشده إلى طريق العلم، يأتيه معارض يقول له: إن الحالة الحاضرة هي ما قدر اللّه، لا حيلة لنا فيها؛ فالمرء متوكل على اللّه، مسير بحسب القدرة؛ فعلينا بتسليم أمورنا إليه تعالى، والتوكل عليه. وبذلك، ينطفئ النور الذي لاح بذهنه، وبعد أن كان خطر بباله داعي العمل، ينزع للبطالة والكسل. والعجب أنهم يظنون هذه الوساوس من العقائد الدينية، ولكن الدين يتبرأ منها، وما للدين عدو أضر من أمثال هذه الاعتقادات.

نرى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو إمامنا وقدوتنا، لما بعث في دياجير الجهل، وتحكم سلطان الشرور، وقبائح العادات في الأمم التي أرسل إليها، لم يقل إن ذلك ما أراده اللّه، ولم يُسْلم أمره للقدر بترك العمل. وكذلك الصحابة رضي اللّه عنهم، أصابهم من الآلامَ في السعي ما أصابهم، مع أنهم أشد الناس توكلاً على اللّه، وأكملهم تمسكا بالقدر في طريق الحق، فإذا كانوا قدوتنا - كما هو الحق - فلماذا لا نقتدي بسيرتهم، وننبذ وساوس المبطلين، وهذيان العُمْي والمغفلين؟ واللّه تعالى قد دعانا إلى طريق الحق والتواصي بالحق وبالصبر وحملنا على ذلك: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٢، ٣). فالذين فقدوا التواصي بالحق والصبر هم بلا شك خاسرون.

الاحتجاج على ترك العمل بالقَدَر من عقائد الملحدين. وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعي عليهم فيه. وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو:

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨). فلا يسوغ لأحد منا، وهو يدعي أنه مؤمن بالقرآن، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون. من يزعم أنه متوكل، من المتظاهرين بالصلاح، فهو كاذب زنديق، لأنه إنما يدعي التوكل إذا طولب بأمر فيه مشقة عليه، أو يجد في نفسه عجزا عنه، لا سيما إذا كان في مصلحة عامة، فهو يرضي بما يجد. فإذا رجع أولئك المتبتلون إلى منافعهم الخاصة، لم تجد للتوكل في نفوسهم أثرا، فهم يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به يعيشون، أو ما به على الناس يظهرون، وحينئذ لا يرجعون إلى التوكل. فهم كذبة، لا يصح الاقتداء بهم. وكفانا قدوة وخير أسوة سيد المتوكلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة باللَّه جل شأنه، لا يفتر عن العمل في الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه.

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله ـ صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا»[٨٦]. ويفسرون ذلك، بأننا لو ألقينا أثقالنا على الله، وتركنا أسباب عيشنا في كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا، لرزقنا كما يرزق الطير. ولكن هذا الفهم خطأ، بعيد عن المعنى المراد. ولولا ذلك، لقال صلى الله عليه وسلم: لرزقتم كما ترزق الطير، تلبث في أعشاشها، وتفتح أفواهها، فتصبح خماصا وتمسي بطانا. يظنون أن هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل، مع أنه جاء للحث على العمل. والكلام في معنى حق التوكل، ظنه ترك السعي بالمرة، وهو خطأ محض. فالمراد من حق التوكل، أن يعتمد الإنسان على اللَّه سبحانه وتعالى، مع اتباع سننه التي سنها في الطلب؛ فيحصل الصالح من أسباب مطلوبه ما جعله اللَّه سببا، ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبما طالبه اللَّه تعالى به. ثم بعد أن يستعمل الأسباب، يناجي ربه بسره: إني قد أتيت بما في استطاعتي، على مقدار ما وهبتني، وما بقي، مما لا أعلم ولا أملك، فهو في يدك، فأعني بقدرتك، ولا تحرمني معونتك. ثم يمضي في عمله. هذا هو حق التوكل. وقد أشار إليه صلى

الله عليه وسلم في قوله: «تغدو خماصا وتروح بطانا»، فإنه أراد بذلك أن الطير إنما تسير في تحصيل معاشها على الإلهام الذي أودعه اللّه فيها. ألهمها معرفة الأماكن التي فيها أقواتها، كما ألهمها الغدو إلى تلك الأماكن لتصيب أقواتها منها، فهي تعمل بإرادتها على ذلك الشعور الذي منحه اللّه إياها. فحق التوكل، لا يتم لنا إلا بأن نجري في أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الإلهام عند الطير. والذي يقوم عندنا مقام الإلهام، هو العقل. فلا نكون متوكلين حق التوكل، حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طرق الوصول إلى المقصود. فالاعتماد على اللّه بهذه الطريقة كافل نجاح الأعمال.

وبهذه الوسائل، يسهل علينا التوفيق بين السعي والتوكل، لا سيما في تحصيل العلوم، وهي كثيرة. وأولاها بالتقدم فيما أعتقد، علوم لساننا العربي. فإن إصلاح لساننا هو الوسيلة الفردة لإصلاح عقائدنا. وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم، وأقوال أسلافهم. ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان. ولا تحصل هذه الملكة، إلا بالعناية بتحصيل علومه على الوجه الذي سبق بيانه، من الجمع بين معرفة القواعد من أسهل طرقها بدون التفات إلى عبارات المعبرين، وبين العمل بالقول والقلم حتى يملك الطالب من اللسان ما كان يملكه العربي بسليقته. وبدون ذلك، لا نصل إلى فهم أسرار شريعتنا، بل تسد في وجوهنا طرق الوصول إلى الحقيقة منها.

فعلى كل من له غيرة على ملته، أن يبذل ما في وسعه لتسهيل طرق تعليم اللغة، وتحصيل الملكة فيها قولاً وكتابة، حتى يتكلم بها غالب أهلها، ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة، لأن في انحطاط لغتنا انحطاطا لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا. وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا.

أقول قولي هذا، ولا أريد به إلزام سامعه بقبوله، وإلا خالفت ما أدعو إليه من

استقلال الفكر وحرية الرأي. على أني لا أظن أن في السامعين من يلتزم به لو طلبت إلزامه، ولكنه رأي أعرضه على مسامعهم، فإن وجده السامع صوابا أخذ به، وإلا فإنه لم يخش شيئا سوى احتماله مشقة الحر في هذا المجلس! وهو قدر مشترك بيني وبينه! واللّٰه يوفقنا إلى إصلاح أحوالنا في معاشنا ومعادنا، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد للّٰه رب العالمين.

* * *

التربية (٨٧)

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة، لأن ذلك فوق استطاعتها. بل وضعت لها قانونا اتفق عليه جميع أعضائها. وهو قد اشتمل على شروط معينة، يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء.

ثم جعلت، كما قدمتُ، أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من أولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب، إذ الواجب علينا أن نعتني قبل كل شيء بما تعتني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره، وهي لم تعتن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة، وها نحن أولاء نرى فساد الأخلاق عاما ومصائبه مشاهدة للجميع.

إذا رأينا مجالاً للفخار، افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الأولين. وإذا حاسبنا أنفسنا، رجعنا للملامة والذم على آبائنا الأقربين. وفي ذلك الفخار كبير العار، وفي هذا اللوم عظيم اللوم، لأننا نحن قد أهملنا وقصرنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية.. أهملنا فتركنا ذلك الفخار التالد يذهب هباء منثورا، فلم نتدارك من آثاره شيئا. وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الأقربين بلة بإهمال آخر، فقوضنا ما كان باقيا من آثار ذلك الفخار، فكان لنا ذلك العار، وهذا الشنار.

إن الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية. وليست هي إلا عبارة عن اتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعاليم. وهي عبارة عن السعادة الحقيقية، تعلم الإنسان الصدق والأمانة ومحبة نفسه. فإذا تربى أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.

إذا تربى الإنسان، أحس في نفسه أنه سعيد بوجود الآخر معه. ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا إلا بأنه شقي بوجود غيره. وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح، وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة، المولدة للوساوس والأوهام. ولا شقاء للمرء، أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان.

ولكن، لو كنا متربين لانبَثَّ فينا إحساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجاتنا، وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولغيره.

إن بلادنا ليست بلاد الجوع القتال، ولا بلاد البرد القارس المميت، ولا بلاد الشقاء التي لا ينال الإنسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم. بل نحن في بلاد رزقها اللّٰه سعة من العيش، ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة. ولكنها ويا للأسف!! منيت، مع ذلك، بأشد ضروب الفقر: فقر العقول والتربية.

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم، وتقدر المغارم على المخالفات، هي التي تربي الأمم وتصلح من شئونها، فإن القوانين لم توضع في جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات. وأما القوانين العامة المصلحة، فهي نواميس التربية الملية لكل أمة.

ونحن على نموذج هذه التربية، قد جرينا في خطة التعليم بمدارس الجمعية الخيرية. ونتمنى أن يصبح هذا النموذج يوما ما عاما بين جميع أفراد الأمة المصرية. وإذا لم توجد التربية على مثل هذا النمط، فلا حياة للأمة ولا سعادة.

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جامعته، فهو إذن يعلم الإنسان من هو ومن معه، فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة هي ما يسمونه بالاتحاد.

وسنة اللّٰه في خلقه أن توجد الروابط في العائلات.. ومنها إلى الفروع.. ومنها إلى الأصول القومية، ومنها إلى مجموع الأمة التي هو منها. إذن، فلا بد من الوقوف على كنه هذه الروابط ومعانيها. وإذا تمكن هذا العلم من نفس الإنسان، تعلّم كل شيء، وبحث عن طرق النجاح في كل شيء.

ولكن . . كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاما في أخلاق الأمة؟! وقد انعكست آية الوجدان، فإذا الإنسان أجفى ما لديه الأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد؟!

ألا إن الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور، هي الأخلاق الفاضلة بمراتبها . . فعلى المسلمين، إذا أرادوا الاتحاد، أن يربوا أنفسهم تربية إسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة، وبغير ذلك كل أمل باطل، وكل الأماني أحلام أو أوهام، وكل احتجاج بغير سعي عجز .

الناس في كل الأمم أكفاء في التمثيل . ولا نقص في الدنيا إلا من جهة العقول والأخلاق، وهي لا تكمل إلا بالتربية، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فينا غير اللقلقة والهذيان .

إن **الجمعية الخيرية الإسلامية**، قد شرعت في طريقة ابتدائية للتربية . ولديها أمل أن تصل إلى الطريقة الانتهائية، طريقة العمل، لا طريقة العلم المعيبة التي نرى مثالها في الذين يأتون إلينا كأساتذة، عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين، وليس لديهم ما يؤهلهم للتربية والتهذيب . ولست أقول ذلك قدحا في طريقة التعليم الجارية بين ظهرانينا، ولكنني أقول بالإجمال: إنها غير ملائمة لمنهاج جمعيتنا التي تحب أن تصلح شئون الناشئين من الطبقات النازلة .

نحن نتمنى تربية بناتنا، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (البقرة: ٢٢٨). ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ (الأحزاب: ٣٥) الآية . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية . فكان بذلك ترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم .

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلاً، إذا أرادت أن تمنحه شيئا: خذ هذا وأخفه عن الأعين، حتى لا يراك أخوك!! فكم من نقيصة علمته بهذا القول؟! علمته ثلاث خصال، هن الموبقات المهلكات: الأثرة، والدناءة، والسرقة . وربما ترضيه بإنكار ما أعطته إذا سأله أخوه، فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد

وهو الكذب. وقد لا يتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة، فيشب الطفل متعودا على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح، لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالي بما يقول. وإنني أذكر حديثا شريفا أو أثرا بمعناه، هو: إن الرجل لينطق بالكلمة لا يرى لها بالاً، فيهوي بها في النار أربعين خريفًا(٨٨).

فتأملوا في فظاعة الأخلاق التي يشب عليها أبناء وبنات العامة من الأمة. ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة إلا بالتربية الكاملة الشاملة للأبناء والبنات. وإن النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تتكون من بينهما أمة ولا جمعية، وعلى الخصوص إذا أصبحت العلائق والروابط الطبيعية مهددة بين الناس، كما نشاهده بيننا الآن.

ولقد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضيا فى إحدى المحاكم الجزئية، أن نحو ٧٥ في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض، بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقيعة والنكاية. فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية؟! هل يمكن بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات، أن نبحث عن الروابط للجامعة الكبرى؟! أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ما جذ أصولها وجذورها، وقطع أوصال عروقها، وغادرها قطع أخشاب يابسة؟!

اللهم إن كنا نريد الحياة والسعادة الدائمة، فلنعمل لإصلاح شئون الناشئين بالتربية المثقفة المهذبة، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الأخلاق الفاضلة. وكلما زدنا في سبيل ذلك سعيا توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية، ونمت ثروتها، فأدت وظيفتها للأمة كما ينبغي.

نسأل اللّه أن يصلح ما بيننا من فساد، وأن يوفقنا جميعا إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا.

* * *

تعليم أولاد الفقراء[٨٩]

-١-

إن الغرض الأول من تأسيس الجمعية: تربية أولاد الفقراء من يتامى وغيرهم تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله، ويستعينون بها على معايشهم وتحصيل أرزاقهم، ومن عساه يوجد في مدارس الجمعية من أولاد الأغنياء فوجوده غير مقصود بالذات. .

وإن الامتحان الذي يعرض أمام حضراتكم اليوم هو مطابق لهذا الغرض، ومبني على هذا الأصل. ولهذا، لا تسمعون فيه ذكر لغة أجنبية. ولقد كان من رأي بعض الأعضاء المؤسسين، أن تعلم في مدارس الجمعية اللغات الأجنبية، لأجل الترغيب في الإقبال عليها. وقد كان الجواب عن ذلك الرأي: إنه ليس الغرض لمدارس الجمعية التجارة، فنرغب الناس فيها بما ليس من موضوعها، وإنما الغرض تربية أولاد الفقراء، فلو أمكننا أن نلتقطهم من الشوارع ثم نرضي أولياءهم لفعلنا.

لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها، كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف. بل إن أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه إلا الاستخدام في الحكومة، وهذا الفكر كان مستوليا على الأمة. ونحمد اللّٰه أن كثيرا من الناس قد انتبه لما في هذا الفكر من الخطإ والضرر. والجمعية توطن نفوس التلامذة في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه بإتقان، ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة. فولد النجار يكون نجارا، وولد الحداد يكون حدادا، وولد الفراش يكون فراشا. والتربية والتعليم يساعدان كلا

على إتقان عمله وصناعته، فيكون أكثر كسبا لأنه أكثر إتقانا للعمل مع الأمانة والاستقامة.

ولا شك فى أن الإنسان إذا ظفر بفراش كاتب مهذب يزيد في أجره، ويطول عنده مكثه. ومن كان فيه استعداد لشيء أعلى مما كان عليه آباؤه، وظهر عليه ذلك، فإنه ينبعث إليه من نفسه، والجمعية تساعده عليه، وقد حصل هذا لبعض التلامذة. والجمعية مهتمة بإنشاء قسم صناعي في مدارسها، لأنه من مقاصدها الأصلية.

هذا الاحتفال بامتحان تلامذة مدارس الجمعية لم يكن بمواطأة، ولا كان تركه في الماضي إلى هذه السنة - وهي الخامسة من سني المدارس - عن قصد، وإنما هو شيء جاء من نفسه، واقتضته طبيعة العمل. فمثل الجمعية فيه، كمثل الطفل الذى تظهر فيه بعد خمس سنين ثمرة العلم. وقد ظهرت الرغبة فيه قبلاً من أعضاء الجمعية، على ثقتهم بحسن النتيجة، لما فيه من ظهور ثمرة العمل التى يسر بها العامل، وتكون مدعاة لمساعدة إخوانه الآخرين له، ومسرة من لم يستطع المساعدة، فإن كل مسلم يسره أن يرى إخوانه المسلمين موفقين للأعمال النافعة للأمة التى لا يستطيعها هو. وهذا هو السبب فى دعوة حضراتكم إلى هذا الاحتفال، وشكرنا لكم حسن الإجابة والقبول.

-٢-

إن غرض[(٩٠)] الجمعية من تربية هؤلاء الأطفال الفقراء، هو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل واحد منهم على إحياء صناعة والده وترقيتها، إلا أن يرى نفسه مستعدا لصناعة أعلى منها وأرقى . . . إن الجمعية تساعد بالمال من يتخرج فى مدارسها ويشتغل لصناعة والده مدة سنة. وإنها تعلم التلامذة بأنهم لوالديهم أولاً، ثم للأقربين، ثم للأمة. وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة . . .

إن من يتعلم فى المدارس الأخرى، وفى أوروبا، يصبح مشغولاً بالأمانى الباطلة التى لا تدرك، محتقراً لوالديه وأهله وللناس، يقضى معظم أوقاته فى الملاهى ومعاهد البطالة واللغو فى الغالب.

إن الأمة فى حاجة إلى تربية الطبقات الدنيا، هى لا ترتقى ولا تسعد إلا بذلك، لأنهم هم الذين يقومون بمعظم الشئون وأكثر الحرف التى لا يستغنى عنها الخواص، ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدى التربية، فاقدى الآداب.

إن جراثيم الخير التي تلقيها مدارس الجمعية في نفوس التلامذة لا بد أن تنمو وتغلب جراثيم الشر التي أصيبوا بها من البيئة التي يعيشون فيها، لأن الحق دائما يغلب الباطل والخير يصرع الشر، إلا إذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير، وضاعوا في كثرة الأشرار.

وربما ينازعني بعض السامعين في هذه القاعدة، مستدلاً باستحواذ الشرور على الناس. وأكتفي بأن أجيب هؤلاء بكلمة واحدة وهي: ائتوني بعشرة من دعاة الخير في القوم الذين تحكمون بفسادهم وتغلب جراثيم الشر فيهم على جراثيم الخير...

أما مصادر الجوائز التي وزعت اليوم على نجباء التلامذة، فإن لها مصدرين.

أحدهما: إن اللجنة التي تألفت لإيجاد أثر يخلد ذكر المرحوم علي باشا مبارك، لخدمته المعارف، كانت ارتأت أن تقيم له تمثالاً في نظارة المعارف. ثم رجعت عن هذا الرأي؛ لأن معظم الأمة المصرية يعد التماثيل إهانة لا تكريما، ويسمون التمثال: «الصورة المسخوطة» أي الممسوخة. وترجح للجنة أن تعطي هذه الدراهم للجمعية الخيرية تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للنابغين من تلامذة مدارس الجمعية الخيرية، بشرط أن يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتابا في تاريخ علي باشا ومآثره يوزع مع الجوائز أيضا، ويكون هذا أحسن ذكرى وأثر.. وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة، فرأينا من التعجيل بالبر أن توزع الجوائز، وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء الله تعالى. وهذا ما أصاب مدرسة القاهرة من هذه الجائزة، يعطى لأنبغ التلامذة في العربية.

وأما المصدر الثاني : فهو أن الأستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش، تبرع بعشرة جنيهات للجمعية شكرا للّه تعالى على شفائه من مرض ألم به، وجعلها دائمة في كل سنة.

-٣-

لا بد[٩١] أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بالتربية ينتقد علينا شيئا، أنا أوافقهم على انتقاده، قبل أن أذكره وأجيب عنه، وهو أن يحفظ التلاميذ مقالات في الدين والآداب كالذي سمع منهم الآن، فيها من الحكم والمعاني العالية ما لا ترتقي عقولهم إلا بالإحاطة به، وما تعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة.

أعيد القول بأن الانتقاد صحيح، وأن حشو الأذهان بحفظ ما لا يفهم يفسدها، ويذهب باستعداد العلم منها، ومدارس الجمعية تهتم بهذا الأمر، فنحن نؤكد دائما على المعلمين ألا يعلموا التلاميذ كلاما لا يفهمونه، والعمل على هذا، والتفتيش من ورائه لتحقيقه.

وأما ما سمعتم، فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المنتقدون بادي الرأي، ذلك أن التلميذ يخرج من مدارسنا إلى العمل غالبا، ولا ثقة لنا بأنه يسمع في خطب المساجد ولا في دروسها شيئا من حكم الدين وأسراره التي تبعث النفوس على العمل بأحكامه، كالذي سمعتم من حكم الصوم. وكذلك لا نرجو أن يجد معهدا من معاهد العلم يسمع فيه شيئا من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالأولى، فرأينا أن يحفظ كل تلميذ بعض مقالات من هذه المقاصد، يُجْتَهد في إفهامه معانيها بالجملة كما تقتضيه سنُّه، ويوكل الفهم التفصيلي إلى حوادث الزمان، كبذرة وضعت في أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقي والتغذية، حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء اللّه تعالى.

إذا أجلتم النظر في أحوال المسلمين، ترون أن ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكَمه، وغرسها في النفوس - (وهو الفقه الحقيقي في الدين) - قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين، والإتيان به على غير وجه من بعض آخر. ولنضرب لذلك مثلاً بفريضة الزكاة التي حفظ تلاميذنا مقالة في فوائدها في العام الماضي، كما يذكر من حضر احتفاله، وفريضة الصوم التي سمعتم فوائدها، وهي التي تلي الزكاة في الترتيب.

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل، ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع. وقد جعل اللَّه إنفاق المال في سبيله آية الإيمان، وجعل تركه علامة النفاق والكفران. وقاتل **الخليفة الأول**، بموافقة الصحابة كلهم، رضي اللَّه عنهم، مانعي الزكاة. ومع هذا كله، نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه، حتى كأنه ليس من الدين بالمرة...

والصوم... إن بعض المسلمين تركوه، وإن الذين يصومون لا يؤدون هذه الفريضة على الوجه الذي أراده اللَّه تعالى بقوله: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨٣)...

إن مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل إنسان، وهو أن يحسن القراءة بلغة أمته، ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه، ويتربى عليه عملاً، والحساب والتاريخ وتقويم البلدان [٩٢] وطرفا من مبادئ التاريخ الطبيعي، وحفظ الصحة، وأدب المعاشرة. ولا بد عندنا من تعليم هذه الأشياء على وجه مفهوم في مدة أربع سنين، وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة. وليس عندنا لغة أجنبية؛ لأننا لا نعد التلامذة للوظائف والشهادات، وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع، وما ذكرنا من التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع.

كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاما في البلاد، ومنبثا في جميع الطبقات، ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس الثانوية

والعالية ما هي مستعدة له. ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران:

أحدهما: أن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة، لأنها شرط للاستخدام في الحكومة. والسبب في رغبة الناس في خدمة الحكومة، هو أن الناس لعدم ثقتهم بأنفسهم، ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة، وضعف همتهم عن سلوكها، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه، وإن كان وشلا(٩٣) آسنا. فإذا استخدم بمائة وخمسين قرشا، ولو في أعلى الصعيد أو السودان، ينام آمنا مطمئنا، ويلقي هم الدنيا وراء ظهره، إلا إذا تيسر له السعي في شفاعة تزيد في راتبه، أو ينتقل بها إلى مكان غير مكانه. ولو استعمل مواهبه التي منحه اللّٰه إياها، وكدح في طلب الرزق من طرقه الواسعة، لا سيما التجارة، لجاز أن يكون من أهل الثراء الواسع..

أما ثاني السببين: فداؤه أقتل، وعلاجه أعسر، أتدرون ما هو؟ هو قلة المعلمين والمربين. فإننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يُبْدِئ التلميذ في السنة الأولى (بألف باء)، فلا تنتهي السنة إلا وهو يقرأ ويكتب يعرف ما ذكرناه آنفا وعُرض عليكم نموذجه. والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون. وقد عزمنا على تجديد مدرسة للجمعية، ولكننا عند المذاكرة فيها، كنا نشكو قلة المعلمين. إننا نحتاج معلما لإحدى مدارسنا، فنعلن ذلك في الجرائد، فيجيئنا الراغبون بالعشرات، فنمتحنهم، ونختار من نراه الأمثل، وإن لم يكن على حسب الرغبة تماما، ثم يتمرن على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش. ومثل هؤلاء يجدر بنا أن نسميهم معلمي الضرورة...

ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب، ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل، وذلك بإنشاء مدرسة لتخريج المعلمين، ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الأغنياء.

* * *

- ٤ -

المدرسة[٩٤] تعلم المبتدئين القراءة والخط والحساب ومبادئ العربية، وتربيهم على الأعمال الدينية والأدبية. تعدهم بذلك للعيشة الصالحة في أنفسهم، ومع الناس الذين يعيشون معهم. وهذه المبادئ لا يستغني عنها إنسان، فقيرا كان أو غنيا. فالفلاح يحتاج إلى مكاتبة بعض الناس، فإذا كتب بيده أو قرأ ما يُكْتَب إليه، وحسب ما يبيعه ويشتريه بنفسه، فهو خير له من الاستعانة بغيره على ذلك. ولهذا التعليم فائدة أعلى من الاستعانة على المعيشة، وهي ارتقاء العقل واستعداده لفهم المصلحة وتمييزها من المفسدة. فإننا نرى كثيرا من الناس يقع التنازع بينهم، فيتعدى بعضهم على بعض حتى تفنى ثروة الفريقين في التنازع، وإذا حاولت إقناعهم بأن هذا ضار، وأن الخير والصواب في خلافه، لا يسهل عليك ذلك لأنهم لا يفهمون.

وأهم ما تقصده الجمعية من التربية في مدارسها، تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق والأمانة اللذين عليهما مدار السعادة. ما نجحت أمة إلا بهما، ولا هلكت إلا بفقدهما. وقد حث الإسلام وجميع الأديان على هذين الخلقين، ونهى عن الكذب والخيانة أشد النهي. وإننا مع ذلك، نرى الكذب والخيانة فاشيين في الناس إلى حد سلبت معه ثقة الناس بعضهم ببعض، وفقد الثقة مؤذن بالخراب والدمار.

هذا التعليم سلم يرتقي عليه الغني إلى التعليم العالي، ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق، فإما أن يجد فيلحقه، وإما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق والأمانة. فهذا التعليم لا يستغني عنه أحد حتى الحمّار والحمَّال.

وتُعَلِّم المدرسة أيضا مبادئ العلوم، ولغة أجنبية لإعداد من يريد خدمة الحكومة لها، وهذا ما لا ترغب فيه الجمعية نفسها، لكنه من حاجة الناس، وإنما رغبتها في الاستعانة به على تعلم الصناعة لمن يريدها. ولها الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها في تأسيس قسم صناعي في هذه المدرسة، فإن المحلة بلدة كانت

معروفة بالصناعة. وقد وعد صاحب السعادة **أحمد باشا المنشاوى** بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعي، فلم يبق إلا اهتمام الوجهاء الحاضرين بالاكتتاب في جميع المراكز وجمع المال الذي يمكن من إتمام العمل.

وقد علمت بأن أهل **المحلة الكبرى** ثلاثون ألفا، أو يزيدون، وهي قاعدة مركز عدده كثير، وليس فيها إلا مدرسة **للقبط** وأخرى **للأميركان**. وإننى قد رأيت في بعض سياحاتي في البلاد الأجنبية مدينة عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة، وقد أنشأ الأهالي فيها مدرسة كلية تعلم فيها جميع العلوم العالية بمساعدة أهل المركز الذي هي قاعدته، أنفقوا عليها ملايين الفرنكات. على أن فيها عدة مدارس ابتدائية، وفي كل قرية من قرى ذلك المركز مدرسة ابتدائية. فنرجو أن نبلغ من مجاراة أمثال هؤلاء الأحياء أن ترتقي مدرستنا هذه، ويكون فيها قسم صناعي، وأن يكون لنا في القاهرة مدرسة كلية، فإن القطر المصري كله لم يبلغ من التقدم في العلم أن كانت فيه مدرسة كلية تعلم فيها العلوم العالية.

ـ ٥ ـ

إنكم(٩٥) أنفقتم في خير سبيل، وتاجرتم أربح متاجرة، فإن هذه المدرسة ملككم، لو أن العلم يملك. وما الجمعية الخيرية إلا نصيرتكم في عملكم، وهي لا تني في معاونتكم بإذن اللّه، وتؤمل أن تكونوا سواعدها وأعضادها . . .

إن ما فرض على التلامذة الموسرين من أجر التعليم، (وهو ثلاثمائة قرش سنويا) ليس مما يضيق به صدر الكريم، وتعلمون أن نفقة التلميذ في المدارس الأخرى تبلغ ثمانية جنيهات في السنة أو تزيد. ولو أنكم دفعتم في مدرسة هي لكم ضعف ما تدفعون في مدارس غيركم لكنتم الرابحين، لأن فرقا بين من ينفق في بناء دار هي له ومن ينفق على دار مستأجرة . .

لا نريد أن نخاطب الموسرين الذين أغوتهم شدة الغنى، وأسكرتهم خمرة الشباب، فقذفوا بأموالهم في هوة الضياع، وصرفوا الطارف والتليد فيما يضر وما

لا يفيد، فأولئك كالأنعام بل هم أضل. وإنما نخاطب العقلاء من الأغنياء فنقول: إذا كنتم تقتصدون لتوفروا من مالكم ما تتركون لأولادكم حتى لا يكونوا فقراء تعساء، فقد سعيتم في طريق محمود مهَّده الإسلام، ودعا إليه **النبي** عليه الصلاة والسلام. وإن ما تصرفونه في سبيل العلم والتربية هو من هذا القبيل أيضا، لأنه توفير لسعادة الأبناء. بل لا سعادة بالمال إذا لم تصحبه تربية نافعة وعلم صحيح يهتدي بهما المتمول إلى كيفية الانتفاع. بل لا يكون الإنسان سعيدا إلا إذا كان عائشا مع مهذبين سعداء. هب أنك تركت لولدك ما تبتغي من الثروة، وهو في موطن خيمت عليه الجهالة، واستحوذت على أهله الضلالة، أتراه يعيش سعيدا بين الأشقياء؟! ويحيا غنيا بين الفقراء؟! ولا تمتد إليه يد الغواية وتغلب عليه طبائع السفهاء؟! وتستهويه شياطين الأهواء؟!. كلا.. إن المرء بقرينه، ورجل الخير بين أبناء الشرور على خطر. فمن أنفق من ماله للعلم والتربية فهو الذي يوطئ لذريته أكناف السعادة، ويوطد لهم دعائم المعيشة الراضية، لأنه يصلح لهم مباءة يعيشون في ظلالها آمنين.

إن السنة[٩٦] الإلهية في الترقي أن يبدأ الشيء صغيرا ثم يترقى بالتدريج. وإن الأمور التي تنشأ كبيرة، فالغالب أن ينحل عقد نظامها فى القريب العاجل، والعياذ باللّه تعالى...

إن الجمعية الخيرية الإسلامية لم تحدد سن التلميذ في نظامها عبثا، ولا تقليدا، ولكن حددته لفوائد سامية.. تعلمون بالضرورة أن ليس من دخل هذه المدرسة يكون تحت لواء الوظائف، بل سيكون منهم التاجر والزارع والصانع. فإذا دخل التلميذ المدرسة في الثامنة، وأتم التعليم في أربع سنين أو خمس، يخرج منها غضا رطيبا مهيئا للدخول في أي عمل شاء. وإذا تقدم في السن، ودخل المدرسة بعد العاشرة، عاقه يبس عوده عن أن يلين للأعمال الصناعية أو الزراعية، وربما عجز أبوه عن إتمام تعليمه، وهو عاجز عن الاشتغال بأعمال المعاش، فيضيع بين عجزين.

إن علي[٩٧] باشا مبارك أبطل، بمنع ضرب التلامذة، التربية بالإهانة والقسوة، وجعل التلميذ مقرونا بكرامة النفس، وهى قوام التربية. فإن المعاقبة على الذنب بالإهانة والقسوة لا تؤدب النفس؛ لأنها تخفي الأخلاق الذميمة ولكنها لا تمحوها، بل تزيدها وتقويها، فتكون كامنة، حتى إذا تسنى لها الظهور تظهر في أقبح الصور. وأما الذي يمحو الأخلاق الذميمة، فهو الإقناع بقبحها وضررها، وحسن المعاملة، وتكريم النفس، حتى تتكرم عن الشوائن وتأنف من كل ما ينافي الشرف.

وأما الأمر الثالث[٩٨]، فهو إنشاء مدرسة دار العلوم التي تسمى الآن «مدرسة المعلمين الناصرية»... إن تلامذة هذه المدرسة يؤخذون من طلاب العلم في الأزهر، فيضمون إلى العلوم الأزهرية، جملة صالحة من العلوم الكونية التي تقرأ في المدارس. وقد تخرج في هذه المدرسة كثيرون خدموا المعارف في مصر خدمة نافعة، فمنهم معلمو العربية في جميع مدارس الحكومة وبعض المدارس الأخرى، ومنهم المشتغلون في المعارف بالتفتيش في المدارس والكتاتيب، وهم محافظون على زيهم المصري، زي أهل العلم الديني، ولهذه المحافظة تأثير عظيم في التربية والتعليم.

* * *

التعليم العام[٩٩]

لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام إلا مبلغ مائتي ألف جنيه، مع أن في وسعها إنفاق أكثر منه؛ لأن دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليونا من الجنيهات. وهي لا تنفك عن زيادة أجور التعليم التي تتقاضاها من الناس على تعليم أولادهم من حين إلى حين، وقد بلغت من ذلك إلى حد أن صارت تربية الأولاد عبئا ثقيلا حتى على أوساط الناس. وإذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفا لا يتسنى التحلي به إلا في بيوت الأغنياء فقط. ومن المبادئ التي يجري عليها القابضون على أزمة أمورنا ، أن لا حق لأولاد في نوع ما من التعليم، فهم يجاهرون به كل المجاهرة، ويبدو منهم على الدوام في حديثهم وتقاريرهم وكتبهم.

نعم . . إنه من المسلم به إلى حد محدود أن الوالد الذي يخصص جزءا من دخله لتربية أولاده يهمه أن يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء، وأنه يراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحمله على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيرا من النفقات . ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة، هو أن يستنتج من هذا أن كل تعليم مجاني يكون عقيما؛ فإنه مما تنبغي ملاحظته أن التعليم في المدارس المصرية، من عهد محمد علي إلى سنة ١٨٨٢ ، كان مجانيا في كل هذه المدة، ولم يمنع هذا أن تنتج تلك المدارس عددا من الرجال المتعلمين تعليما حقيقيا، ومعظمهم من الفقراء. ولم يضر أوروبا أن التعليم مجاني في كثير من البلدان. ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غبر من الاختبار في مصر، وما حضر من الاعتبار بأوروبا، ما دام الذين بيدهم مقاليد حكومتنا مصممين على ألا يقبلوا إلا ما يهديهم إليه فكرهم.

يشق على الإنسان أن يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والأمهات على نظارة المعارف، يقودون صغارهم إليها، سائلين التصدق عليهم بقبولهم مجانا في مدارسها، معتذرين بفقرهم، ومدلين بما يكون بعض أفراد أهلهم قد أدوه إلى الحكومة من الخدم، مؤملين على الدوام أن العناية الإلهية والمرحمة القلبية تلين صلابة ذلك المبدإ ولو مرة واحدة، ولكنهم يضطرون في آخر الأمر إلى الرجوع إلى بيوتهم أو إلى قراهم خائبين خائري العزائم غير راضين، لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الأبناء الأعزاء الذين تمنوا لهم أماني كثيرة. . .

ما حيلتنا؟! . . . يقولون لنا: إن بين ظهرانيكم من أبناء وطنكم أغنياء، في وسعهم إنشاء مدارس مجانية للفقراء. . آه، واأسفاه!! نعم. . إن أبناء وطننا في وسعهم القيام بهذا العمل، وبأحسن منه، ولكن مصر لا يوجد فيها محبون للإنسانية، وأخص من بينهم محبي الإنسانية المستنيرين. قد يوجد أحيانا بعض منهم يشيدون مساجد لا حاجة إليها لكثرتها عندنا، وبعض آخر يقف جزءا من عقاره على وليّ ولكن همة الناس وانبعاثها إلى العمل لم توجه نحو التعليم. فأمتنا أقامت زمنا طويلاً تعتمد على الجماعة في كل شيء، ومن أجل كل شيء.

أما إذا نحن نظرنا إلى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية، من جهة قيمته، فإننا نضطر إلى القول بأنه قلما يكون رجلاً في قدرته أن يمارس حرفة تقوم بمعيشته، ويستحيل أن ينشئ عالمًا أو كاتبا أو فيلسوفا، فكيف بالنوابغ في شيء من هذا؟!

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة. . أما جميع العلوم الأخرى التي تتألف منها معارف الإنسان، فالمصري قد يأخذ منها بعض معلومات سطحية في المدارس التجهيزية، ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه أن يدرسها دراسة وافية، بل يقضى عليه غالبا أن يجهلها. .

فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والأخلاقية والاقتصادية، وعلم الفلسفة القديمة والحديثة، وعلم آداب اللغة العربية واللغات الأوروبية، وكذلك الفنون الجميلة، لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية.

فكان فينا القضاة والمحامون، والأطباء والمهندسون، ممن تختلف درجاتهم في العلم، ولكننا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث، ولا ذلك المفكر، ولا ذلك الفيلسوف، ولا ذلك العالم، ولا ذلك الإنسان الذي يمتاز ببعد الفكر والنظر وشهامة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على السعي وراء مطلب من مطالب الكمال.

وصفوة القول: إن خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها، ويظهر أنها مصممة على ألاّ تحيد عنها، تتلخص في أمور ثلاثة:

أولها: مساعدة التعليم الابتدائي في المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب، حيث تعلم الكتابة والقراءة وقواعد الحساب.

ثانيها: التقليل من نشر التعليم في الأمة ما أمكن.

ثالثها: حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في أضيق الدوائر.

المصريون موقنون بأن من بيدهم مقاليد أمورهم العمومية، لا يعملون كل ما في وسعهم لترقية الناشئين أخلاقا وعقولا. وهذا الرأي، مما يدعو إلى الأسف والأسى من جميع الوجوه. فإنه سيحدث في الرأي العام تيارا من الاستياء إن لم يكن عاجلاً فآجلاً. وليت شعري، ماذا يربح الإنكليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس؟! وإذا كان ثمة أمر يصح أن يتلاقى فيه الطرفان، ويكون قاعدة للاتحاد، فإنما هو التعليم العام، إذ لا يمكن أن يوجد تناقض بين مصلحة الإنكليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد. فمن أراد استدرار ما بمصر من المنافع والخيرات، فسبيله في ذلك أن يعني بتعهد ما فيها من موارد الثروة، وأن يبدأ بالإنسان، بكل ما فيه من معاني الإنسان. فلا بد من امتزاج العنصرين الأوروبي والوطني، وأخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يدا بيد.

ولعمري، إن الإنكليز ليسيئون إلى أنفسهم، إذا أوهنوا الأهلين، وأرخصوا من قيمتهم، وصغروا من شأنهم؛ فإنما مصلحتهم في أن يكون أبناء هذا الوطن أعزاء أحرارا، فإن موارد الثروة والخير للإنكليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء..



رسائل إلى الشيخ رشيد رضا[١٠٠]

-١-

. . . .

رأيت «حسن باشا»[١٠١]، وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد، فرأى رأيا لا يخلو من حسن، وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب، حتى في النجاسات، ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ما يهم من اختلاف المذاهب كلها، ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة. فإذا سهل عليك ذلك، فافعل. وأحب أن أراك يوم الاثنين الآتي في عين شمس، قبل الظهر، إذا تيسر لك ذلك. والسلام.

* * *

-٢-

. . . . .

«حسن باشا» أرسل يسألني اليوم: هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه؟ وأحب أن أجيبه، فهل شرعت؟ وبودي أن يكون الجواب: نعم، وأن يتم العمل في مدة قليلة.

* * *

-٣-

ليتك تشتغل بهذا الكتاب أو هذين الكتابين في القريب العاجل، حتى يمكن وضعهما بين أيدي التلامذة في أول الدراسة الآتية.

الإصلاح اللغوي

إن اللغة في حاجة إلى إصلاح آخر، فوق إصلاح التعليم لفنونها وآدابها، وإتقان الكتابة والخطابة فيها، وهو ما فعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العالم في أوروبة، من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية، وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره، والمعاجم العلمية، وفلسفة البيان والانتقاد، وغير ذلك . . . إن هذا النوع من الإصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيس فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة . . . إن فن التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، وإننا في أشد الحاجة إلى حذوهم فيه . .

إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر، إلا إذا كان متقنا للغة من لغات العلم الأوروبية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله، من مدح وذم، وغير ذلك من العلوم.

* * *

إصلاح الأزهر

الأزهر والإصلاح

إن نفسي توجهت إلى إصلاح الأزهر، منذ كنت«مجاوراً» فيه، بعد التلقي عن السيد **جمال الدين**. وقد شرعت في ذلك، فحيل بيني وبينه. ثم كنت أترقب الفرص، فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها، حتى إذا ما صادفت الموانع لوليت وصبرت مترقبا فرصة أخرى.

وبعد أن عدت من المنفى، حاولت إقناع الشيخ **محمد الأنبابي** - شيخ الأزهر - بشيء، فلم يصادف قبولاً. قلت له مرة: هل لك أيها الأستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الأزهر؟! ووصفت له من فوائدها ما شاء الله أن أصف. فقال: إن العادة لم تجر بذلك. فانتقلت به فى شجون الحديث إلى ذكر الشيوخ، وسألته: منذ كم سنة مات «**الأشمونى**» و«**الصبان**»؟! قال منذ كذا، قلت: إنهما حديثا عهد بوفاة، وهذه كتبهما تقرأ، بعد أن لم تجر العادة بذلك. فسكت، ولم يدخل فى الحديث.

* * *

إن بقاء الأزهر متداعيا على حاله فى هذا العصر محال. فهو إما أن يعمر، وإما أن يتم خرابه. وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه. فإن دفعتنى الصوارف إلى اليأس من إصلاحه، فإننى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى. بل أترك الحكومة وأختار أفرادا من المستعدين، فأربيهم على طريقة التصوف التى ربيت عليها، ليكونوا خلفا لى فى خدمة الإسلام. ثم أؤلف كتابا فى بيان حقيقة الأزهر، أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومه وتأثيرهم فى الوجود، وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية؛ حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التى يجهلها الناس حتى من أهله.

تداخل الحكومة فى الأزهر[١٠٢]

الشيخ رشيد: إن قرار مجلس إدارة الأزهر، هو كقرار كل مجلس رسمى وكل محكمة، يطالب القانون بتنفيذه ويعاقب على تركه. فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التى يمتنع شيخ الأزهر من تنفيذها بصفة رسمية؟ فلو فعلت هذا مرة واحدة، لنفذ كل قرار.

الأستاذ الإمام: إن هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة. وإننى أرجو ألا أدع الحكومة تتداخل فى الأزهر، ما دمت فيه. فيكف أكون أنا الذى يدعوها إلى ذلك؟ فنحن ندعو الشيوخ بالإقناع معتصمين بالصبر.

إن وجدانى[١٠٣] ومراقبتى لله تعالى لا تمكننى من إقرار ما لا يبيحه الشرع. والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق.

* * *

الأزهر وإصلاح برامجه التعليمية[١٠٤]

الشيخ محمد البحيرى: إننا نعلمهم كما تعلمنا.

الأستاذ الإمام: وهذا الذى أخاف منه!!

الشيخ البحيرى: ألم تتعلم أنت فى الأزهر، وقد بلغت من مراقى العلم، وصرت فيه العلم الفرد؟!

الأستاذ الإمام: إذا كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكر، فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق فيه من وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة!!

* * *

الأزهر واستقلاله عن الحكومة[١٠٥]

الأستاذ الإمام: إن لورد كرومر أرسل إلى أنه يريد أن يزورنى. وأنا أعلم أن غرضه الكلام فى حالة الأزهر... ويريد أن تتدخل الحكومة فى عزل الشيخ **سليم البشرى**، كما فعلت فى عزل الشيخ **حسونة النواوى**.

الشيخ رشيد: وماذا تنوى أن تقول له؟

الأستاذ الإمام: أقول أحسن ما أعلم، وأسكت عن شر ما أعلم، ولا أقول إلا حقًا، ولا أدع منفذا لنفوذ الأجنبى أن يتسرب إلى هذا المعهد الدينى.. وأنا ما دمت فى هذا المكان، لا أدع للحكومة مجالا للتدخل فى شئونه، لأنها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية.

هل[١٠٦] يسر الإنجليز بتخريجى لهم رجالاً مستعدين، يفهمون حقوقهم، ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة؟!

إننى[١٠٧] ما قصدت إلى خدمة المسلمين فى شىء، ولقيت مقاومة فيه من غيرهم: لا من إنكليزى، ولا من فرنسى، ولا من قطبى، ولا من شامى.

* * *

شيخ الأزهر يخالف قانونه(١٠٨)

إن الشيخ سليما مسكين، لا يعلم أن مادة . . . من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يتقرر من أحكام قانونها، محاكمة جنائية. وإنني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الإدارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا، بمقتضى قانون الأزهر، وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات، فإنه لا يسعه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات. ولكنني إنما أريد أن يكون إصلاح الأزهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين، ولا فرق فيها بين قانون الأزهر وسائر قوانين الحكومة، إذ هو صادر بمقتضى «ديكرتو» خديوي كغيره.

* * *

المادة الثانية من قانون الأزهر: «شيخ الأزهر ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الإدارة، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الأزهر وترقية التعليم، ويدير الأعمال بما لا يخالف القوانين وقرارات مجلس الإدارة».

صدرت قرارات من مجلس الإدارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الأروقة، وقرارات متعلقة بالتعليم، وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيه في السنة من الأوقاف الخيرية. وشرط في ذلك القرار أن من لم يقم منهم بما عهد إليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره، والمعول على الاختبار. ولكنهم من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم، وهم في التدريس كغيرهم لم

يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات. والقرارات المتعلقة بمشايخ الأروقة لم ينفذ منها قرار واحد.

* * *

المادة السادسة: «مجلس الإدارة ينعقد كل ١٥ يوما مرة على الأقل».

لا ينعقد المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو إعطاء كسوته التشريفية لغيره، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك. أما للنظر في حالة التعليم أو في وضع شيء مفيد له، فلا ينعقد. غاية الأمر أنه ينعقد في شهر شوال من كل سنة، لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لا غير.

* * *

المادة الثامنة: «مجلس الإدارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الأزهر، سواء كان ورودها بصفة دائمية أو مؤقتة».

ظنت المشيخة أن المراد من ذلك: النقود التي تأتي للتوزيع على أنها نقود. أما ما يرد في شرط الواقفين من النقود التي يشترى بها جرايات، فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس، وهكذا جرى العمل. مع أن المراد عموم ما يخصص للأزهر من النقود سواء اشتري به خبز. أو وزع نقودا.

* * *

المادة الحادية عشرة: «مجلس الإدارة يوزع العلوم التي تدرس في الأزهر على الأساتذة وعلى السنين، ولا يجوز لأستاذ أن يتعدى ما يقرره المجلس».

لم يشتغل مجلس الإدارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الأزهر، وإنما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت، أي الحساب والجغرافيا والجبر لا غير. وبقية العلوم تهمل، لا يعرف ما يدرس أولاً ولا

آخراً إلا ما جرت به العادة في قديم. والمادة المذكورة إنما وضعت لإصلاح القديم، لأنه ضار ضرراً ظاهراً.

* * *

المادة السابعة عشرة: تتضمن تقسيم العلوم إلى وسائل ومقاصد، وأضيف فيها علوم الأخلاق الدينية والحساب والجبر. وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الإلزامية، التي يمتحن فيها الطالب حتما عند طلبه الامتحان لنيل شهادته العالمية. وجاء في المادة ٦٠ أن من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون، أو من يدخل الأزهر بعد ذلك، يكون امتحانه على حسب القانون.

ومع ذلك، لم يلتفت إلى إلزام الداخلين بعد صدور القانون بتعليم هذه الفنون، ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات. بل لم يتنبه إلى ذلك، إلا في هذه الأيام، حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات للامتحان، فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر، ولكن ذلك بعد فوات الوقت.

* * *

المادة التاسعة عشرة: العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها، كعلوم البلاغة، يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل.

هذه المادة لم يعلم بحرف منها قط.

المادة ٢٠: يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس، ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة ما يساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد.

* * *

لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو، وهو من الوسائل. وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث، فلا يصرف فيه إلا الزمن القليل.

* * *

المادة ٢٢ : تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعًا باتًا في جميع العلوم في السنوات الأربع الأولى، ويكتفى بالمتون والشروح الواضحة. وبعد الأربع السنوات، يخير الطلبة والأساتذة في النظر في الحواشي. وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الإدارة.

حصل اجتهاد مدة سنتين فقط، بعد صدور القانون، في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الأربع الأولى، وإلقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة، ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات عليهم أم لا؟ ثم بعد ذلك أهمل الأمر بالكلية، والمشايخ يقرءون الآن ما يريدون، كما كانوا قبل صدور القانون.

* * *

المادة ٢٣ : «لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد، قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه. وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه».

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفقد حال كل طالب في دروس المقاصد، لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي. وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم، بل لم يشتغل مجلس الإدارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الأخذ بما يقرره.

* * *

المادة ٢٤ : «أكثر مدة الطلب ١٥ سنة».

مقتضى ذلك، أن الطالب لا يقيم على أنه طالب في الأزهر أكثر من ١٥ سنة. ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك، ولم يلتفت مجلس الإدارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلداء. بل منهم من يطلب الامتحان، والمشيخة لا تجيبه إلى طلبه.

المادة ٣٧ : تقضي بأن طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الأشهر الأربعة الأولى من كل سنة، وأنه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين.

ومقتضى ذلك أن يتحتم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين، وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع، ولا معنى لتحديد مدة الطلب بالأشهر الأربعة. والآن، يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة، ولا يمتحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصًا في السنة. وفي ذلك قتل للطالبين، وهدم لقواهم، بتطاول السنين عليهم بلا فائدة.

أما المواد ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧، المتعلقة بكيفية الامتحان فلم يعمل بها ولا مرة واحدة.

إصلاح التعليم في الأزهر[١٠٩]

«هأنذا، كما ترونني، وحيد ليس لي من الأساتذة من يساعدني، ولا من دعاة الخير من ينصرني.

أريد أن أعلم في هذا الجامع شيئًا نافعًا، بدلاً من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى، التي هي أضر من كتبكم القديمة المؤلفة في القرون الوسطى[١١٠]...

ولكن هل أجد من يساعدني على ذلك؟! وإن لم أجد، فهل أفلح فيه وحدي؟!».

الأزهر الشريف

والغرض من إصلاح طرق التعليم فيه[١١١]

ما كنت لأخط سطرًا واحدًا في موضوع ما، يكتبه بعض الناس في هذا الوقت متعلقًا بالأزهر الشريف، لولا ما نسب ناسب كلامًا لأحد شيوخه بعدما وصف بأوصاف تعين شخصه، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الأزهر ويمس كثيرًا من شيوخه.

لا أتكلم فيما بعث الناسب على ملاقاة الشيخ، ولا ما دفع الناقل إلى النقل عنه. فذلك مما عرفه كل قارئ لأول الاطلاع عليه. ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب إلى الشيخ، دفعًا للبس من الباطل قد يستر عين الحق عمن يهمهم أن يعرفوه.

لا ننكر على الأستاذ ما قاله في الغرض من إنشاء الأزهر، فذلك غرض كل من يبني مسجدًا لله، في أي مكان وأي زمان، لا يبني مسجدًا إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه.

ولا ننكر عليه أن الخدمة التي يلزم أن يؤديها الأزهر هي تعليم الدين. ولكن لم نفهم قوله: «وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر، فلا علاقة للأزهر به». فإن كان يريد أن التعليم في الأزهر يجب أن يكون قاصرًا على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه، وعلم تقرير العقائد، كما ورد به الكتاب والسنّة، وعلم آداب الدين والأخلاق المؤسسة على ما ورد منه ـ وأما ما عدا ذلك، وإن كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها، فلا يصح أن يدرس في الأزهر ـ إن كان يريد ذلك، فكنت أكون أول موافق في رأيه، لو كان التعليم في الأزهر قاصرًا على ذلك

في القرون الماضية، و لو كان حضرة الأستاذ نفسه لم يتعلم ولم يُعلِّم في الأزهر غير هذه العلوم. لكنا عرفنا الأستاذ يُقْرِئ فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام، على ما في علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها، وعلى ما في مقدمات الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود، وهل هو عارض للممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لأحكام الجواهر والأعراض، مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون.

وقد ذكر لي بعض عشاق الأستاذ أن له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد، مما لم يساوه فيها غيره، وقال لي: إنه يعرف من كتاب المواقف(١١٢) وشراحه، ويقف على أسراره، ما لم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه. ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الخمسين التي ذكرها، ولم نجد للاهتمام في الأزهر وجهة إلا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها، مما ليس في علوم الدين، وإن كان من مقدماتها.

وإني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق، فإذا قرأ «شرح التلخيص في المعاني والبيان» **للسعد التفتازاني**، أفنى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته. وقلده بعض الناس في ذلك، حتى أصبح آباء الطلبة يئنون من طول الإقامة في الأزهر الشريف دون أن يحلى الطالب منها بطائل. والفضل في ذلك، لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم، فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني ما لا يعرفه إلا مثل الأستاذ من علية المحققين!!

أما كتاب اللَّه، فلا نعهد للشيخ فيه درسًا يستوفي من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح «السعد» على التلخيص. ولا أخص الشيخ بذلك، بل هذا كان شأن الأزهر الذي وجدناه عليه ولا يزال إلى الآن.

كنت أوافق الشيخ على ما رآه، إن صح أن يكون ذلك مراده، لو سعى ـ حفظه اللَّه ـ هو وإخوانه من خدمة العلم في إنشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يُرْتَقَى بها

إلى فهم علوم الدين، وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية، وينال الشهادة بذلك يأتي إلى الأزهر ويتعلم الدين خاصة.

كل ذلك لم يكن. فلم يبق إلا أن الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله، حتى علم المنطق والكلام. فإذا أراد الشيخ ذلك - ولا محيص له عن أن يريده - فماذا يقول في **إمام الحرمين والإمام الرازي** وغيرهما من أئمة مذهبه، وفيما جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الأكوان ليبنوا عليها الأدلة التي رأوا إقامتها لإثبات مُكَوِّنها، وفي العلماء الأجلاء الذين كانوا يقرءونها في الجامع الأزهر في كل زمان، وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم، فإنا لا نسمح لأنفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصلحة في ذلك.

فإذا صح معنا أن أئمتنا سبقونا إلى إضافة هذه العلوم - علوم البحث في حقائق الأكوان - إلى علوم الدين، لأنهم عرفوا أن لا سبيل إلى إقامة الأدلة الصحيحة على العقائد - التي شَرْطٌ في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث، وقد شاركهم الأستاذ في العمل على تلك الطريقة - فما الذي ينكره الأستاذ من علوم سماها «علوم الأعصر»، أو أمور سماها «أمور الدنيا»؟

هل يعد الحساب من ذلك؟ وهو باب من أبواب الفقه، في قسم من أهم أقسامه، وهو علم الميراث أو علم الفرائض؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي - صَلى اللّه عليه وسلم - التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها، وهي قسم من الحديث؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية أو الأخلاق التي تكتسب من الدين، وهو الفقه الحقيقي، ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الأزهر، لكن لا على سبيل الإلزام، فألزم بها الطلبة، وأصبح كل واحد منهم يعرف أنه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها، وما عدا ذلك، فهو لا يزال على ما كان. فهل هذه الفنون، هي التي يسميها الأستاذ مبادئ الفلسفة؟

إن من الغريب عندي، أن يكون الأستاذ الذي يشيرون إليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه.

الأمر العالي الصادر بتنظيم الأزهر موجود، والاطلاع عليه سهل، فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه، حتى يعرفوا ما هو الإصلاح الجديد؟

جاء في ذلك الأمر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم، وأنه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل ما يساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ؟

إن الذين أرادوا الإصلاح، لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين، والوقوف على أسراره، والتخلق بأخلاقه. والأمر العالي الصادر في سنة ١٣١٤هـ[١١٣]، وهو ما يسمونه الإصلاح، كان كافلاً لذلك، لو كان حضرة الأستاذ وإخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه. ولكن مثل هذا الكلام الذي نشر في هذه الأيام، وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة. بعد الذي حال دون الإصلاح، وعاق طلابه عن الوصول إلى ما يقصده حضرة الأستاذ من جعل التعليم دينيا، ومن إشراب كل عمل من أعمال الطلبة والأساتذة روح الدين. فليهنأ الأستاذ ببقاء الأزهر على ما هو عليه قبل الإصلاح وبعده إن كان لم يبلغه ذلك، أو بلغه ما يخالفه ممن لم يصدقه الحديث.

أما قول الأستاذ: إن في الطلبة من يحط من مقام الأئمة، وينكر عليهم مراتب الاجتهاد، فذلك مما لم أسمعه ولا أظن أحدا يعرفه إلا من بَلغه. غير أنا نعرف أن كثيرا من الطلبة يختلف إلى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين ويخوضون معهم فيما لا يليق، لا متعلقا بالأئمة فقط، ولكن قد يصعدون إلى من هو أعلى وأقدس. وهو شيء يشتكي منه طلاب الإصلاح، ويحاولون دفع ضرره بتعليم الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة، رضوان الله عليهم أجمعين. فإن الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق، وجهل الطالب ونقص علمه، فتروج عنده

الأباطيل بسهولة. ولو علم حال من مضى من سلفه، كان من السهل عليه أن يهدى الضال، لا أن يتبعه في ضلاله.

فهل يسمح الشيخ بتعليم تاريخ السلف في الأزهر، حتى يعرف الطلبة من أحوال الأئمة ما يدفعون به المطاعن فيهم؟ وهل عَلَّم الأستاذ أحدا من هو **الإمام الشافعي؟** وكيف حَصَّل العلم؟ وكيف عمل على نشره في الآفاق؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات الخاصة وغوغاء العامة، مع الوقوف على أحوالهم، وتقرير الأحكام بما يتفق مع مصالحهم في شئون دينهم ودنياهم؟ فليطلعني حفظه اللَّه على واحد أخذ عنه هذه السيرة الجليلة، سيرة الإمام الشافعي، محررة بما صح من الأخبار، لا محشوة بما لا يعقل من الأوهام.

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الأزهر، كما يقول، فإننا لم نفهم لها معنى. لعله يعني ما حصل من المغاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الأيام. لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها، لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تأريث بعض إخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه، وهي حركة ضد الإصلاح لا ناشئة عنه.

يقول الشيخ: إنه لا يعرف إلا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم. متى كان هذا؟ أما انتقاد الطلبة على أساتذتهم، فقد كان معروفا مدة الأربعين سنة التي أقمتها في الأزهر، والعشرة التي سبقني بها الشيخ. بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم وأقوالهم.

وأما وصول الانتقاد إلى حد الإهانة والتقاطع، فذلك لم يكن الآن، اللهم إلا أن يعني الشيخ ما وقع من أحد حذاق المحامين[١١٤] من الشدة في نقده لبعض كلامه. ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن، وإن كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية، أظن أن مجلس الشيخ مطروق بأولئك الذين ينقلون له ما لا تعرف له حقيقة.

من أين جاء للشيخ لفظ «**سبنسر**»[١١٥]؟! وأي طالب نقل إليه هذا الاسم؟ وأي مبدإ من مبادئ «سبنسر» دخل في الأزهر؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة، لو

كـان هو الذاكر لـه؟ سبـحان اللّه! مـا كـان أحق بالتـقـوى أن تنهى أهلهـا عن اللمـز والهمز!

إن الـذي يـلـمزه الشـيـخ بهـذا الكـلام، طالـمـا نـادى في درسـه بـأن الـذي أضـر بالعقـائـد وباللغـة: إدخـال الفلسـفة في الأولى، والـحذو حـذو أهلهـا في الثانيـة. فهـو، وإن تعلـم شيئا مما تعلمه، لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم تمكن وسائل الخير.

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الأزهر، بعد حضرة الشيخ «حسونة النواوي»، وقد ظهر له أن ما أدخله الشيخ حسونة كان شرا على الأزهر؟ وكـانت مشيخة الأستاذ كافلة بإزالة ذلك الشر؟! زهد في المشيخة، حتى لا يعلو على بعض إخوانه كما يقـول؟! سبـحـان اللّه! أفمـا كان لـه أسوة في سيـدنا **أبي بكر**، وسيـدنا **عمـر بن الخطاب**، في قبول الرياسة على إخوانهم ليحفظوا نظامهم؟ هل هو أزهد منهما في الرياسة؟ أو أعلم منهما بما فيها(١١٦)؟

يمدح المشـايخ الذين رآهم في خـمسين سنة لا يشتـغلون بالسيـاسـة؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن؟ هل كان **الشيخ حسونة** يشتغل بها؟ أو **الشيخ سليم** من بعده؟ أو حضرة **الشيخ الببلاوى** اليوم؟ وأي سياسة يعني الشيخ؟ إن كـان مـا يريد منها سيـاسة الأزهر، وتنظيـمه، وتأسيس العـمل فيه عـلى قواعد يلزم السير عليـهـا، فـالبـادئ بوضع هذا الأسـاس هو **الشـيخ العبـاسي** - رحـمه اللّه. ولقـد هاج عليـه الناس، وفيهم كثير من إخوان الأستـاذ، لأنه وضع قـاعدة الامتحان. على أنه كان يغضى من مهابته كما يعرف الشيخ. وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة، إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحـان، حتى حرموا من نيل درجة العالمية، وهم يندبون حظهم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح، ولولا حادثة حدثت ما دخلت في الامتحان، ولذهبت متاعبي سدى.

وإن كـان يريد للسيـاسة مـعنى آخر، فـمـا هو؟ ومن هم المشـتغلون به؟ أظن أن الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر، حيث سمح بنشر

هذا الحديث، أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي، لكن يستبيح منه لنفسه ما لا يستبيحه لغيره!!

نعم عهد لعلماء الأزهر، ولطلبته تبعا لهم، الاشتغال بالسياسة قبل أن يدخل فيه ما يسمونه بالإصلاح. ذلك في أيام الفتنة العرابية. فقد انقسم المشايخ إلى قسمين، أكثرهم مع عرابي، وأقلهم مع **الخديو** السابق. وكانوا يسمحون **لعبد اللّٰه أفندي** نديم أن يدخل الأزهر، ويخطب فيهم بفتنة السياسة. وكانوا يحيطون به، وينادون: اللائحة مرفوضة(١١٧). وكان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ. وأما ما كان في زمن الفرنسيين، وأول مدة **محمد علي**، فلا نتكلم فيه، لأنه مضى عليه أكثر من مئة سنة، وصار أولئك المشايخ سلفا رضى اللّٰه عنهم.

ألم يكن الأجمل بحضرة الأستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولاً في لقاء الذين يعنيهم بكلامه، ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون؟ فإن رأى خيرا ساعد عليه. وإن رأى شرا وعظ ونصح. فإن لم ينجح النصح، كان له الحق فيما ينشره في جرائد سيارة يحب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؟!

اللهم، ألهم الأستاذ وإخوانه أن يقرءوا سورة الحجرات، وأن يعظموا قول اللّٰه فيها. فإذا جاءهم فاسق بنبأ، تبينوا ولم يصيبوا قوماً بجهالة، حتى لا يصبحوا نادمين!!

أما ما نشره بعض الناس في تلك الجرائد، التي لا أشك في منازعة ضمائر أربابها لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الإلحاد، أو وجوه الإصلاح، فهو مما لا يصح النظر فيه، بل هو مما يمر به العقلاء كراما. سامح اللّٰه هؤلاء المخاطرين بشرف الأزهر وأهله، الطالبين لإلحاق أشد المضرات به. ونظر اللّٰه جل شأنه بعنايته إلى هذا المسجد الشريف، وقيض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها، حتى يصبح مؤديا للوظيفة التي تطلب منه، ويتمناها الشيخ الفاضل.

وإذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ أحراراً فلينقلوا هذا كما نقل ذاك بعضهم عن بعض، تأدية للأفكار إلى قرائهم(١١٨).

تحدٍّ (١١٩)

إنكم تعلمون أن الإيمان بوحدانية اللّٰه تعالى هو الأساس الأعظم لدين الإسلام، ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه، حتى إذا ما قالها المشرك في ميدان القتال وجب الكف عنه.. إلخ..

وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة. وإني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس مائة جنيه، وأعدكم بأن من أقام أمامي البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني، وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جوابا صحيحا، فإني أدفع إليه هذا المبلغ. وليبلغ الشاهد منكم الغائب.

* * *

هاهي ذي الجنيهات المائة، فمن كان مستعدا لإقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم... فأصغوا إلى إذن....

حوار مع الشيخ عليش (١٢٠)

الشيخ عليش: بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درسًا.

الشيخ محمد عبده: نعم.

الشيخ عليش: وبلغني أنك رجحت مذهب **المعتزلة** على مذهب الأشعرية!

الشيخ محمد عبده: إذا كنت أترك تقليد الأشعري، فلماذا أقلد المعتزلي؟ إذن أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل.

الشيخ عليش: أخبرني الثقة بذلك.

الشيخ محمد عبده: هلم الثقة الذي يشهد بذلك، فليميز أمامنا هنا بين المذهبين، وليخبرنا أيهما رجَّحْتُ.

الشيخ عليش: أو مثلك يفهم شرح العقائد؟!

الشيخ محمد عبده : الكتاب حاضر، وأنا حاضر، فسلني إن شئت!!

بين اليأس والرجاء

إن انتقام اللّه تعالى من المسلمين، لإعراضهم عن كتابه وعن هدي رسوله، اتباعا لأهوائهم وشهواتهم، وما فتنهم به سادتهم وأمراؤهم، لَمَّا يبلغ حده، بدليل أن هذه النقم لا تزال تتجدد وتتعدد... إن المسلمين مصابون بالعقم، لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والأعمال النافعة فيهم، ويخلفه مثله، على خلاف ما ترى في الأمم الحية... مثلاً: **الشيخ المهدي العباسي، والشيخ علي الليثي، في مصر... والأمير عبد القادر الجزائري، والسيد محمود حمزة مفتي الشام**، وغيرهم، لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم...

(لكن)... إنني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراً، فلا أدري أهي من بقايا الحياة الأولى أم هي بدء حياة جديدة؟!

أرَقٌ لحال المسلمين

أرقني الليلة الفكر في حال المسلمين، وما ينزل بهم من البلاء ببعدهم عن دينهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم. وقوي سلطان الفكر، فهاج المجموع العصبي، ونبهه تنبيها شديدا، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس، «كالموسكي» و«الأزبكية» فأقف في الطريق، أو تجاه أحد مجامع اللهو (كالمقاهي)، وأنادي: أيها الناس، ماذا رأيتم في دينكم من القبيح، حتى تركتموه؟! وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلا، حتى تقلدتموه؟! ثم أخطبهم في حقيقة ما هم فيه، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه، وأبين لهم طريقة النجاة منه. وقد عالجت النوم، فلم أملك منه شيئا، فلجأت إلى الكتابة. وما كنت لأكتب في الليل، فجرى القلم بفصل جعلته في أواخر فصول «رسالة التوحيد». فثابت إليّ بعد ذلك نفسي، وران النوم على عيني. ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل، وجاء وقت السحور، فلم أنل منه نيلاً، فكانت هذه النومة في النهار، عوضا عما فاتني في الليل[١٢١].

بين القرآن وكتب الفقه[122]

الشيخ رشيد : ماذا بك؟ وما هذا الذي تنظر فيه؟

الأستاذ الإمام : هو التهيج العصبي الذي يلم بي أحيانا من الفكر في الأمور العامة. وهذه كتب (ثلاثة) في أصول الفقه، ألهو بمباحثها عن القرآن !! فإنني إذا فكرت فيه، رأيت بعد المسلمين عنه، فيقوى هذا التهيج العصبي. ولم أجد شيئا يشغل الفكر مثلها!!

الفقه والفقهاء

إن المسلمين ضيعوا دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل . . . ولم يبق عندهم شيء. هذه الصلاة التي يصلونها، لا ينظر اللّه إليها، ولا يقبل منها ركعة واحدة: حركات كحركات القرود، وألفاظ لا يعقلون لها معنى. لا يخطر ببال أحد منهم أنه يخاطب اللّه تعالى، ويناجيه بكلامه، ويسبح بحمده، ويعترف بربوبيته، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره.

ومن العجيب أن فقهاء المذاهب الأربعة - (وربما غيرهم أيضا) - قالوا: إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع، يحصل بها أداء الفرض، ويسقط الطلب. ما هذا الكلام؟! . . إنه لباطل. . كل آيه تذكر الصلاة تبطله . . قالوا : النية في الصلاة : أن يقصد الإنسان فعل هذه الصلاة دون غيرها. وبالغ بعضهم، فقال: لا بد من تصور جميع أعمالها عند التكبير. وفسروا قوله صَلى اللّه عليه وسلم : «إنما الأعمال بالنيات» بهذا. إنما قصد الفعل عند مباشرته طبيعي، فإنني إذا قمت أمشي لا أقصد بمشيي القعود. . وحاشى للّه أن تفرض الشريعة الحكيمة هذا، وتجعل عليه مدار الأعمال والعبادات.

ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة. . إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا. . المراد بالنية، في الحديث، قصد المرء وغرضه من فعله، وهو إما وجه الله وابتغاء مرضاته، (وهو النية الصحيحة)، و إما غرض آخر كالرياء. . .

إن صلاة «المستر براون» الإنكليزي[١٢٣] عندي خير من صلاتهم. . . هو رجل إنكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم. وهو يحملها، ويقرأ فيها دائماً عند الفراغ. ويصلي بحسب ما يفهم من القرآن، ويستقبل القبلة كما حرره بحسب معرفته بعلم الفلك. ويركع ويسجد. فهذا وجد عنده روح الصلاة. وكان لا يعلم الأوقات وعدد الركعات. قال لي: إنني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع. . وسألني عن صلاته، فقلت له: أنا أصلي، فصل معي. وعلمته كيفية الصلاة في زمن قصير بالعمل، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها. وقال لي مرة: إنه يعجب لكون المسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم، ويكونون خير الناس. وقد سألني: من أكثر الناس جناية على القرآن؟ فقلت: ذووه وأصحابه! ! فسرَّ بجوابي هذا كثيرا. أوتيَ كل هذا الإعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع أن الترجمة الإنكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة.

* * *

وقد جعل «الفقهاء» كتبهم هذه، على علاتها، أساس الدين، ولم يخجلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها، وإن عارض الكتاب والسنة. فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء، على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة. . .

* * *

ينبغي[١٢٤] لمن يؤلف أن يحيط أولاً بمسائل الباب الذي يكتب فيه. وأن يعتمد على كتب القرون المتوسطة «**كالزيلعي**» لا هذه الكتب المختلة، «كالكنز» و«التنوير». وأن يرجع أحكام الباب ومسائله إلى قواعد كلية، ثم يسرد الأحكام

بعدها في غاية الوضوح. وأن يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل، فيقدم ما ينبغي تقديمه، ويؤخر ما ينبغي تأخيره. وألا يخلط مسائل باب بآخر، وإن كان بعض المسائل يشترك فيه بابان كالبيع والإجارة، فلا بأس بذكره في كل باب، ولا بأس بالإشارة إلى أنه تقدم. وأن يذكر القول الراجح بدليله، ويذكر بعده القول المرجوح، مع الإشارة إلى دليله. وأن يختصر في مسائل العبادات.

إذا رجعنا إلى كتب القرون المتوسطة، «كالزيلعي»، نكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه. وما دمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة، ولا نعرف الدين والعلم إلا منها، فلا نزداد إلا جهلاً. هذا «الشوكاني»، لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتدلاً، صار عالماً فقيهًا... إن حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين... إن العامي الذي يحتاج إلى الكسب والعمل، لا سعة عنده لصرف سنين طويلة فى تعلُّم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الأزهر، من هذه الكتب الطويلة الصعبة. وأي حاجة إلى هذه الأبحاث الطويلة، والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة؟!.. قال صَلى اللّه عليه وسلم: «صلوا كما رأيتموني أصلي». وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه في ورقات قليلة. وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به.

من أين جاءهم أن ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به؟! وهل فيه زيادة عن الماء، إلا شيئا من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة؟ وماء «الكولونيا» أحسن شيء للوضوء، فإنه يمنع آثار المرض أيضا. وكان **الشيخ الأنبابي** يقول بنجاسته، لأن فيه «سبيرتو»!! وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو؟! والاستدلال على نجاسته بإسكاره، ضعيف، فإنه لايمكن شربه لأنه محرق للجوف. كذلك محلول السليماني من أحسن المنقيات والمطهرات الطبية، وشربه قاتل.

ثم إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان، أمور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم؟! هذا لا يستطاع، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجئوا إلى غيرها.

إن أهل «بخارى» جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم. والمصريون قد ابتلوا بهذا، فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد، فصاروا يرون أن الدين ناقص، فاضطر الناس إلى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب. والفقهاء هم المسئولون عند اللّه تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها، لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء، ويتركون لأجلها كل شيء.

يقرءون الأصول، ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب إلى أصله، أو يبحث عن دليله. بل لم يخجلوا أن يقولوا: نحن مقلدون، لا يلزمنا النظر في الكتاب والسنة... دانوا لكتب المتقدمين، على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الأمة، ويكتفون بقول: «وكلهم من رسول اللّه ملتمس»!!

كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها، ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل. وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان، ينبغي لهم التنبيه على ذلك. وإن هذا الحكم ليس عاما، وإنما سببه كذا، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان.

رسالة إلى أحد علماء الهند[١٢٥]

بسم اللّه الرحمن الرحيم.. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد أبي الخير. حفظه اللّه.

السلام عليكم ورحمة اللّه. وبعد.. فقد سرني أن أعرف لي أخا جديدا في بلاد الهند يقدر العلم قدره، ويحب بثه بين الناس ونشره.

يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ما تلقيت وما قويت، ويطلب مني أن أرسل إليه سندي في رواياتي. . وإني أقول لحضرتكم: إنني أستحي أن أجيز شخصا لم أره بشيء، ولم يكن لي فيه أثر بالنسبة إليه. كيف أجيزك بشيء تقول إنك ترويه عني، ولم تروه في الحقيقة عني؟ ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسي رجاله، ولا أحوالهم، ولا مكانهم من الثقة والضبط؟ وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون.

أحب أن أكشف لك رأيي في هذه الشئون: هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب اللّه. وإنما شأني الذي كلفت به هو أن أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت، ومن تلقى عني شيئا أو فهمه مما كتبته، فله أن يرويه عني، وأن يؤديه على ما فهمه، بعد دقة البحث والتحري، والأخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية. فإذا وصل إليك شيء مما أقول أو أكتب، وفهمته كما أحب أن يُفْهَم، فإليك الأخذ به وروايته عني، بعد التحقق من صحة النسبة، وأكون لك من الشاكرين.

أسأل اللّه أن يوفقنا جميعا إلى خدمة دينه الحق، إنه ولي العاملين. والسلام عليكم ورحمة اللّه.

١٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ (١٢٦)

مفتي الديار المصرية

محمد عبده

الرد على هانوتو

الإسلام والمسلمون والاستعمار

- ١ -

قرأت[١٢٧] الساعة مقالة «مسيو هانوتو»، المُتَرْجَم في جريدتكم، نقلاً عن جريدة «الجورنال» الباريسية، تتميما لبحثه السابق.

بحثه السابق، وشيء من تتمته، إنما هو دافق من غيرته على شئون دولته. يريد أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم، أو يجاورونهم في ممالكهم. ذلك لا يتم، على مذهبه، إلا بالبحث في طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غَيرَ المسيحيين، وبه يُفَضِّلُ المسلمون سلطة إسلامية على سلطة فرنساوية. فإن أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوي، وسَهُل الجمع بين ما وقر في نفوسهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا، طاب الجوارُ في قلوب الملة لعقيدة الإسلام، والطاعةُ لكل أمر يصدر عن آخر فرنساوي في طبقته، وصح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض، وإلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة، أو تجليهم إلى قارة أخرى.

ولهذا، جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار إليها في كلامه، ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في أنفس معتقديه.

أما غايته في البحث، وتناوله بيده، فمحضاء[١٢٨] يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنساويين تثير عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون «مسيو هانوتو» للأمة الفرنساوية مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة[١٢٩]، فذلك أمر نَكِلُ فائدتَه إليه، وإلى علمه بمكان دولته من القوة، ومنزلة تمدنه من

المرحمة والإنسانية، ونستلفت إليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية، ويتجملون بآداب الأمة الفرنساوية، ويطربون إذا ذكرت المدنية الفرنسوية.

ولو لم يتعرض «مسيو هانوتو» إلى الطعن في أصل من أصول الدين، ما حركت قلمي لذكر اسمه، وكان حظي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار، حظ الناظر في أحوال الأمم وعمال رجالها، حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم، ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب(١٣٠).

أما ما جاء به من التحكك بأصل الدين، فهو الذي أغْمِزُهُ بما أكتب اليوم:

يرى الناظر في كلام «مسيو هانوتو» لأول وهلة، أنه مقلد في التاريخ، كما هو مقلد في العقائد، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها إلى ذهنه، ثم هو سلط عليه قلمه ينشرها كما يشاء القدر، ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنساويين، وهو جمهورهم.

أكْثَرَ من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي، والتفريق بينهما، وأن أحَدَهُما قَهَرَ الآخر، وأن التمدن الآري هو الذي ظفر بقُرْنة التمدن السامي، وما يشبه ذلك.

إنَّ مهد التمدن الآري ومنبت غراسه «الهند»، لا يزال إلى اليوم على الوثنية التي يحبها «**مسيو هانوتو**» في أغلب أنحائه. ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها، بل يدوم تباينها ما دامت الأرض أرضا. ومن طبقاتهم من قضى عليهم دينهم بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة، ولا يباح له أن يرتقي إلى طبقة ما فوقه إلى انقضاء العالم، وهو الجمهور الأغلب منهم. وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه. والاعتقاد بفناء العالم، وإنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش فيه، هو مبنى عقائدهم.

فهل جاء هذا للآخذين بدين «البراهمة» من التمدن السامي؟ وهو لم يَعْرِفْهُمْ إلا

في آخر الزمان، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم، كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية؟!

ثم . . هل يظن «مسيو هانوتو» أن التمدن الذي وصل إليه الأوروبيون، حُملَ إلى أوروبا مع المهاجرين الأولين، الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطَار الغربية؟!

ألم تخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ، وما كانت عليه أوروبا من الآرية الهمجية؟! وأن العلم والمدنية لم يَنْبُعا من معينها، وإنما جاءاها بمخالطة الأمم السامية، كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين، وهم أساتذة الأوروبيين الآخرين، كما يزعم «مسيو هانوتو»؟!

ما هذا التمدن الآري، الذي كانت عليه أوروبا، عندما انتقص أطرافها المسلمون؟! هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة اللّٰه والاعتراف بالعقل؟! . . نعم . . هذا هو الذي كان معروفًا عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام .

ماذا حمل الإسلامُ إلى أوروبا؟ وما هي المدنية التي زحف عليهم بها، فردوها؟! زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس، وسكان آسيا الآريين . زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نَظَّف جَميع ذلك، ونَقَّاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ، وذهب به أبلج ناصعا، بَهر به أعين أولئك الغافلين المسكعين(١٣١)، الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

إني أكيل «لمسيو هانوتو»، إجمالاً بإجمال، والتفصيل لا يجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة، كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان ضوءُها يسطع من بلاد الأندلس على ما جاورها،

وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدينة الحاضرة.

يحار القارئ لكلام «مسيو هانوتو» في معنى المدنية السامية التي جاء بها الإسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية. ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية، مع قصوره عن النفوذ إلى حقائق ما أودعَتْهُ، هو الذي قَصُرَ به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها إلى الأذكياء[١٣٢]. والعارف بطباع الأمم، لا يعسر عليه أن يقودها إلى ما يضمن لها الفوز على جيرانها، وإنما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم.

إن الناظر في التاريخ، تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان. ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية، ليقاوموا دعاة تلك المدنية ويخمدوا نارها.

إن صح الحكم على الأديان بما يُشَاهَدُ في أحوال أهلها وقت الحكم، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة. فإن الإنجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه، ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه. يأمر الإنجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ,يوجبُ عليهم إذا سلبهم السالب قميصا أن يعطوه الرداء أيضا، وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر، وأن يفنوا بكليتهم في الأب، ويَقُصُّ عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول إلهي رباني، يدعو الناس إلى الانقطاع من هذا العالم الفاني، ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي.

هل خطر ببال **«مسيو هانوتو»** أن يجعل «ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر»، كما أوصى الإنجيل؟ وهل رأى مثالاً لذلك في المدنية الآرية التي ناخت مع الدين المسيحي؟!

العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن. فإن هذه المدنية إنما هي مدنية الملك والسلطان. مدنية الذهب والفضة. مدنية الفخفخة والبهرج. مدنية الختل والنفاق. وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرة» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك.

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر، حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم، فانقلبت الحال بهم، وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم، فضلاً عن ملوك.

نعم، يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الإنجيل، وهم جماعة من الأميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه. وهم، من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع، بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة. فإن كانت هذه هي المدنية الآرية، التي صارعها الدين الإسلامي، فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته.

من الساميين: الفينيقيون، وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة، بل والقراءة والكتابة. ومنهم: الآراميون، وقد كانت لهم مدنية لا تُنْكر أيام الرومانيين، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم عن ذلك. ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية في سلم الإنسانية واحدة، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم. وما زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية، لا فرق عندهم بين آري وسامي، متى مست الحاجة إلى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة، أو استكمال شأن من شئونها.

وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل

عن الغرب المستقل. فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد، والدين الآري يعني به ما يقابله.

وإني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية، يعرفها صبيان المكاتب، وهي أن دين التوحيد ليس دينا ساميا، بل هو دين عبراني فقط، عرف به إبراهيم عليه السلام، وبنوه، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون. أما بقية الساميين، من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس، وهو يعرفها، فقد كانوا وثنيين مُشبِّهين، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعداءهم الآريين.

وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد، وذكر لذلك عللاً وأسبابا أدَّتْهُ إليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الإنساني. وسنأتي على الكلام فيها، وهي المقصد من كلامنا إن شاء اللّٰه تعالى.

وقبل إلقاء القلم، أذكِّر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير، كما يتفانى المسلم في اللّٰه على رأيه، أني إن صغَّرت شأن «**هانوتو**» في معارفه التاريخية، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة، وكثير من قومه يعرف ذلك منه، لأنه لا أمير في العلم إلا العلم. والسلام.

- ٢ -

تحرش «مسيو هانوتو» بمسألتين من أمهات مسائل الدين: القدر، والتوحيد، أو التنزيه. وبعد أن خلط في بيان وجه الإشكال في المسألة الأولى، واختلاف الناس فيها قديما، وأنهم انقسموا إلى فريقين: قائل بأن العبد مُسَيَّرٌ بقدرة اللّٰه، لا عمل لإرادته في فعله. وذاهب إلى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به، فله ما كسب وعليه ما اكتسب. قال: إن الرأي الأول يحط الإنسان إلى حضيض الضعف، والثاني يرفعه إلى ذروة القوة. ثم وصل الأول بمذهب

« **البوذيين** » القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي، والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الإله بالإنسان في أوصافه المادية. وإن الأول قعد بأهله، والثاني ارتفع بمعتقديه إلى مراتب الكمالات الإنسانية. وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل.

ثم انصب على الديانتين المسيحية والإسلامية، وقال: إنهما تمثلان ذينك المذهبين، أي مذهبي الناس في القدر. وإن الأولى ربانية تورثت ما ترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون. وإن الأولى ترقى بالإنسان إلى المقام الإلهي، والأخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني. ويظهر ميل كل من الديانتين ظهورا بينا في الأصل الذي بني عليه كل منهما: فأصل الأولى، هو إيجاد الإله الأب للإله الابن، حتى كان إلها بشراً، واتصال الإلهين بروح القدس. وأصل الثانية، تنزيه الإله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الإنسان.

ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين، وردهما إلى أصول واحدة، وعقد التشابه بينهما، إلى آخر ما أطال به على غير جدوى.

* * *

هل عُهد بين الكُتَّاب وأهل النظر تشويش في الفكر وخلل في المقال، يشبه ما جاء به هذا الكاتب؟ أدَعُ الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم.

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل، مشبهين أو منزهين. ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك. بل كان منشأ الكلام في ذلك، الاعتقاد بإحاطة علم اللّٰه بكل شيء، وشمول قدرته لكل ممكن. وقد عظم الخلاف في المسألة بين المسيحيين أنفسهم، وهي مشبهة في رأي «**مسيو هانوتو**». وبدأ النزاع بينهم قبل الإسلام، واستمر إلى هذه الأيام. ولعل «هانوتو» اطلع على مذهب «**التوميين**» - أتباع القديس توما[١٣٣] - أو **الدومينيكيين**، وهم جبرية، وأشياع «**لو إيولا**»، وهم قدرية[١٣٤] اختيارية. ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية. وليس هذا

بمذهب سامي كما يزعم؛ بل لم تنبت أصوله، ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين، ثم انتقلت عدواه إلى غيرهم.

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه، وترك العمل اتكالاً على القدر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين ـ وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاديف إلى جزائر بريطانيا ـ أنه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه إليه الغيب؟.. لكن سمعنا بذلك في الأديرة، وبين الرهبان. وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس، حتى ضجت منهم أوروبا في زمن من الأزمان، وطلبت الخلاص منهم بالسيف البتار.

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين، ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة. ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلاسفة بإبطاله، وهو مذهب القائلين إن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة، ولا يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب. أليس هذا أدخل في باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف؟

* * *

جاء القرآن الشريف ـ وهو الكتاب المنزل بالإسلام ـ يعيب على أهل الجبر رأيهم، وينكر عليهم قولهم: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ (الأنعام: ١٤٨). إلخ الآية. وأثْبَتَ الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية. وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك، فإنما جاء في تقرير السنن الإلهية العامة، المعروفة بنواميس الكون، كما في آية: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ (هود: ١١٨). إلخ ونحوها.

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اختيار العبد في أفعاله وبين أثر القدرة الإلهية، في أخلاق الأمم أو في تغريز الغرائز مثلاً. فاختيار العبد في أفعاله، مما يُقرُّ به الوجدان، ولا ينكره إلا من جهل نفسه. لكن ما عليه الأمم من الاختلاف في

الطبائع والغرائز والسجايا، ليس لأحد من خلق اللَّه فيه اختيار، بل خلَقَهُ كخلق السماوات والأرض وما بينهما.

وجاء النبي - صَلى اللَّه عليه وسلم - في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذي لا يكلُّ، والدَّائب الذي لا يملُّ، والساهر الذي لا يَنَام، والجادَّ الذي لم يبلغ شأوَهُ أحد من الأنام. هل تقول عنه: إنه اتكأ يوما على وسادته، واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته، قائلاً: الذي كفل لي النصر يكفيني التعب، وضَمانةُ اللَّه لإعلاء كلمة دينه تغنيني عن النَّصب؟ كلا.. بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطا، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزما واحتياطا.

جاء أصحابه على أثره، وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الأولين، وكانوا أكمل الناس إيماناً بإحاطة علم اللَّه وشمول قدرته، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم اللَّه من قوتي العقل والاختيار. وكانوا أسوة في السعي، ومثلاً في الدأب والكسب، حتى كان من آثارهم في نشر الإسلام ما يتألم منه اليوم «**هانوتو**» وأمثاله.

هذه هي العقيدة السامية، أو الدعوة المحمدية، أو المدنية الإسلامية. ارتقت بأربابها، وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض، لم يتلمظوا[١٣٥] بشيء من نعيم الحضر، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان. ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها، وكشفوا ما كان مستورا عندها، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوروبيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية.

ولكن.. وا أسفاه!! نتأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين، واحتملت غثاء من قَمْش[١٣٦] الآريين، وقذفت به في الأرض الطاهرة، فتدنس به أديمها، وانتشر قذَرُهُ، وعم مِزْره.

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان، ولبسوا لباس الإسلام، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد، وخالفوا

اللَّه ورسوله في النهي عن الخوض في القدر، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا، واللَّه يقول لنبيه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩).

وجد بين المسلمين طائفة تعرف «**بالجبرية**»، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة، يقذفها الحق ويطردها العقل وينبذها الدين، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل، ولم تبق بينهم بقاء «التوميين» بين النصارى. وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار[١٣٧]، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الإيمان، وأَخَذَهُ عن المسلمين في أخريات الأيام أهل النظر من النصرانية، مثل «**بوسيه**»، ومن مال ميله، وتبعهم الجمهور الأعظم منهم.

ولكن .. لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة، من عدة قرون، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم، فلصقت بأذهانهم، لا على أنها عقائد، ولكن وساوس، قد تَمْلكُ الجاهلَ وتُرْبكُ العاقلَ إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح. فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم إلى توريطهم فيما هم فيه، كما هو شأنهم في كل أمة.

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا، من «حسنات» الآريين، فإنه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى.

ما أضَلَّ «هانوتو» وأمثاله من قصار النظر، إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البُله، الذين يغشون أطراف **الجزائر**[١٣٨] **وتونس**، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام، وجعل من ذكر اللَّه آلة لسلب أموال الطغام!!

أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم، لأدوا فرضهم، واستنبتوا أرضهم، واستغزروا من الثروة، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر، وأيقنوا في صولتهم علما أن ليس من الموت

مفر، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها، ونال ما ينال القوي من الضعيف والعزيز من الذليل، ولانقلب جنونهم لدى «هانوتو» عقلاً وتحول هذيانهم حكمة وعلما.

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين، أما التنزيه والتشبيه فإنا نوفيه حقه في تتمة هذا المقال، ونشفق على القارئ من الإملال. والسلام.

-٣-

اليوم آتي على آخر القول[١٣٩] لكسر شرة «هانوتو» في توثبه على الإسلام. وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه، وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسيد الألوهية). ونبدأ الكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الأول.

إن كان «**مسيو هانوتو**» قرأ شيئا من أحوال الأمم ونشأة العقائد، وعَقَلَهُ، يَعْلَمُ أن الوثنية، وتوهم السلطان الإلهي ظاهرا في بعض الموجودات المادية، كانت عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية، لم يدخلوها، ولم يتوسطوا منازلها. وكانت ولا تزال دليلاً على انحطاط عقول أهلها، مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط، تبتدئ من وثنيي إفريقيا، وتنتهي إلى **بوذيي الصين وبرهمن الهند**.

كذا ارتقى الإنسان في العلم، ولطف وجدانه بالفهم، ونفذ عقله بالتفكير في أسرار الكون، وتمزقت دون روحه حجب المادة، وانجلى له بوجود الأعلى على تفاوت كذلك في درجات الظهور والانجلاء، حتى ينتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه «مسيو هانوتو» وأمثاله، لأن ما لا حد له محال أن تحيط وجوده الحدود.

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر «هانوتو» بمدنيتهم، نشئوا وثنيين، وما زالت الوثنية ترق وتدق وترث[١٤٠] بارتقائهم في العلوم وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات، حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة.

وقف «**فيثاغورس**» على عتبة التقديس، وجاء بعده «سقراط» و «أفلاطون» و«**أرسطو**»، مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم، باذلين الوسع في محو ما غشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى. ومن قرأ كتاب «جمهورية أفلاطون»، التي نقلت إلى العربية أيام «**المأمون**» تحت اسم «المدينة الفاضلة»، علم كيف يقارع «أفلاطون» ما بقي من آثار الوثنية، من الآراء السخيفة، والعادات الرديئة، التي كانت تحول بين الأمة اليونانية، وما يبتغي لها من الفضائل التي كان الفيلسوف يطمع أن تكون عليها.

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد، لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا.

كذلك قدماء المصريين، لم يقف بهم العلم دون التوحيد. غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم، واستبقوا صور العبادات الأولى، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم.

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط[١٤١]، وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأعلى، وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره، فيرونه، عظيمه وحقيره، سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود إلى مراتب قدَّرَتْها الحكمة وتَمَّتْ بها النعمة.

فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة، حيث قام شاهداً على الكون بجملته، ما فَصَّلَ منه في فهمه وما أَجْمل في كلمات علمه، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد، وهو رب العالمين، وأن لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه، لا في الإيجاد ولا في الإمداد، بل هو وحده يمكنه بما سنَّ له الشرع الإلهي أن يصل بنفسه إلى تلك الحضرة، وأن يستمد منها المعونة في كل شئونه؟!

* * *

ينقسم أهل التشبيه إلى قسمين: أحدهما من يعتقد الألوهية في بعض الموجودات المشهورة، ويقف عند ما يعتقد منها. والآخر يعتقد بأن بارئ الكون يظهر في بعضها.

أما الأولون: فهم الذين ضعف الإدراك فيهم عن الإحاطة بحقائق الأكوان. فإذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات، ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم، وأنهم إليه يرجعون في جميع أمورهم. فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وإنسان، ولا يزالون حيارى في شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم. ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم، لأنها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس، ويقَدِّرُون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم، يسارعون في إرضائها بما يعن لهم، كما تشرِّعه لهم أهواؤهم.

ومن ذلك، كانت القبائح تُرْتَكَبُ في هياكل الآلهة، وتُنْتَهَكُ حرمات الفضائل في محاريبها، وتُقَدَّمُ الذبائح الإنسانية بين يدي التماثيل الحجرية. وأي درك ينحط إليه الإنسان أنزل من هذا؟! وأمره معروف في التاريخ، ولا تزال مشاهده إلى اليوم معروفة.

أما الآخرون: فهم أرقى درجة من أولئك في الإدراك، ولكن.. ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد؟.. كانوا إذا فاقهم إنسان في عقل أو شجاعة، أو صَدَرَ منه ما لا يألفون من الأعمال، أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال ظنوه مظهرا للوجود الإلهي، فدانوا لسلطانه، واستكانوا لقهره، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لإرادته، فسلبهم كل ما كانوا يملكون من عقل وإرادة وعزم، وحق عليهم الصَّغارُ ما داموا على تلك العقيدة.

وقد سَهَّلَ هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن يَنْزِلوا من الناس منازل الآلهة، طمعا في استعبادهم. وكم قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة!!

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث، ليس بخير من القسمين الآخرين، وهم: المعتقدون بالوسائط. ما قدَرُوا اللَّه حق قَدْره، فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم. فظنوا أنه في ملكوته كملك في جبروته، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه، ويستصنع عمالاً للتصرف في شئون عباده. فإذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى إلى اللَّه، أو صدر منه ما يظنونه دليلاً على أنه من المقربين إليه، رفعوه إلى تلك المنزلة، منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون، فاتخذوه شفيعا لديه، يلجئون إليه في مهمات أعمالهم، ويستمدون منه المعونة بما له من الدالة على ربِّه. وإذا سئلوا عما يفعلون، وما به يدينون، قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ (الزمر: ٣).

ماذا أصاب هؤلاء من سرِّ ما اعتقدوه؟ استُعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم، واستسلموا لهم في جميع شئونهم، فكانت علومهم من أوهام، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأوليات من المعلومات إذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها عن زعمائهم. ثم كانوا يتركون وسائل الْعُلى اتكالاً على ما يستمدونه منهم. ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الإنسانية من بلايا هذه العقائد، والعِيان يؤيده في كثير من الأمم في الشرق والغرب إلى اليوم.

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها، لا ينكرها مطلع على مبادئ العلوم الصحيحة، بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشئوا في جوها الفاسد.

أما زعم «**هانوتو**» أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالأفراد في سلم الفضائل طمعا في نيل مرتبة الألوهية، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه، فيما أعلم، ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل عن طريق التوصل إلى مقام الألوهية، ولا إن الألوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا. بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام **سقراط** و**أفلاطون** لمحاربتها. أما السعي إلى الفضائل، فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم.

أما حُكْمُهُ على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية، فذلك أدَعُ الكلام فيه إلى المسيحيين أنفسهم، ولكن أقول: إن المسيحية بذلت وسعها، في بداية أمرها، لتطهير الأرض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها، وجاهدت من تلوث من عقائدها، من اليهود والرومانيين. وانبث رجالها في الوثنيين، يدعونهم إلى الإله الواحد. وكان التنزيه قوام دعوتهم، كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم. ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها، وتاريخ الإمبراطور «قسطنطين» معروف عند أهل العلم وغيرهم، لا حاجة إلى تفصيل ما كان منه.

ثم لما امتد الغلو في التشبيه. ظهرت المظالم، وعظمت المغارم، واختفى العلم وخسئ العقل، وتهدمت أركان النظام، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية، حتى ظهر الإصلاح وقضى على ما سبقه(١٤٢)، واستقامت أوروبا في طريقتها المعروفة، وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك.

لم نسمع أن أحدًا من المسيحيين يعبد اللَّه لينال رتبة **المسيح**، فيكون إلها بشراً، كما يؤخذ من عبارته. ولم نر أثرا لأحدهم يدل على أنه عَقَلَ عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره، ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها، فلا مُكْنَةَ له في أن يحتذيها. وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين ما لا يصل إليه العقل، وما يناقض حكم العقل. وذهبت إلى أن المسيح لم يكن إلا نبيا مختارا بعثه اللَّه لخلاص البشر من سلطان الشيطان، وحملوا الابن على **المصطفى (المختــار)**، والأب على الرب الرحيم. وأعْرفُ بعض طوائف «البروتستانت» اليوم، وإن كانت قليلة العدد، يذهب إلى تأويلَ «الكلمة بالعلم»، و«روح القدس» بالحياة، وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفاري، وأكَّدَ لي أن لهم شيعة تدين بذلك.

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية إلى وثنية؟! نعوذ باللَّه من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم. إني أرفع أدبا من أن أطعن في عقائد المسيحيين في جريدة، وقد أُمِرْتُ أن أجادل بالتي هي أحسن، ولكني أرجع إلى الكلام في الآثار التي عنِي «**هانوتو**» باتخاذها دليلاً.

جاء الإسلام يدعو العالم بأسره إلى التوحيد، وصرح بأن دين التنزيه هو دين اللّه من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى، ثم هو دين الأنبياء بعد موسى، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام. ولم ينكر أن في اليهود، وفي المسيحيين خصوصا أهل تنزيه، وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه، ودعاه إلى الرجعة إلى أصل دينه، حتى يقوم بالعبادة للّه وحده، ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه.

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الإسلام، وهي أكثر عدداً، وأوفر عُدَدًا، وأعظم قوة، وأشد بأسًا. فلم يكن إلا قليل من الزمن، ثم ظهر الحق، ونفذ شعاعه إلى القلوب، فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من الملل، فأعتقتْ الهمم وافتكّت العزائم من أسرها، وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الإيمان على أسرار الوجود، ومزقوا تلك الحجب و الأوهام، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين. ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هَبَّتْ ريحه بينهم، حتى سطعت أنوار العلم فيهم، ولم يبق باب من أبوابه إلا دخلوه، ولا مُرْتقَى من مراقيه إلاَ تملوه. ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان إلا استخرجوه، من زوايا النسيان وجلوا صدأه وأبرزوه للأنظار.

هذا أثر الإسلام، وهو دين التنزيه، ولم يكد القرن الثاني من ظهوره ينتهي، حتى جال المسلمون في علوم السماوات والأرض، وصححوا الأغاليط، ونقحوا القواعد، وحرروا الأصول. وفى مفتتح القرن الثالث، أقاموا المراصد ومسحوا الأرض وأتوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار مسيو «هانوتو».

إني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الأمم الغربية اليوم:

«أقامت النصرانية في الأرض ستة عشر قرنا، ولم تأت بفلكي واحد. وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين».

ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية، وإنما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له.

يظن «**هانوتو**» أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه، ولكنه وَهَمَ في ذلك. فإن الإسلام أفضى بالعبد إلى ربه، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه. قضى الإسلام بألا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق، وحظر على الناس مَقامَيْن لا يمكن الرقي إليهما: مقام الألوهية التي تفرد بها، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء، ثم أغْلقَ بابها. وما عدا ذلك من مراتب الكمال، فهي بين يدي الإنسان، ينالها باستعداده، لا يحول دونها حجاب، إلا ما كان من تقصيره في عمله أو قصوره في نظره.

إذا اعتقدت بقصور فضل اللّه عنك، وقفت نفسك حيث وضعتها، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلاً. هكذا يرفع الإسلام الصَّحيحُ نُفَس صاحبه. وهذا هو معنى الإسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه «مسيو هانوتو». فهل بقي الإنسان مع هذا المعنى من الإسلام في درك من الحيوانية، وفي هجرة عن التوسل بالأسباب إلى مُسَبَّبَاتِهَا في كسب الفضائل و الكمالات؟

يجب على الباحث في الإسلام أن يطلبه في كتابه، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام والمسلمون مسلمون. ولو استشم «**مسيو كيمون**»[١٤٣] الذي استشهد «هانوتو» بكلامه - ريح العلم، لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه.

من أين أتى المسلمون؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ وممن تعلموا الافتراس؟ وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟.. أنا أعلم ذلك، وأهل العلم يعلمون، واللّه من ورائهم محيط.

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباءوا بما كان لهم وما

عليهم. حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه «**كيمون**».

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم إليه في تنزيله، وعلى لسان نبيه، ومهده لهم، وَخطَّهُ لهم أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة، ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه «هانوتو» و «كيمون» من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع.

يرى «كيمون» أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه «هانوتو»، لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين. وبئسما اختارا لسياسة بلدهما، أن يظهرا ضعتهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما.

أما فليعلما، وكل من يخدع نفسه بمثل حلمهما، أن الإسلام إن طالت به غيبة فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة. وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز، مثل «**إسحاق طيلر**»[١٤٤] وهو قس شهير ورئيس في كنيسة:

«إنه يمتد في إفريقيا، ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره».

ويأسف أشد الأسف من السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم، وقال إنه «يختار إسلاما لا سُكرَ فيه على مسيحية فيها سُكر».

وهو لا يزال ينتشر في الصين وغيرها من أطراف آسيا، وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارته، وتنثني به الملمات إلى ماكان عليه لأول نشأته، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو إن شاء اللّٰه.

لو أسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها، وفي مقدمتها «مسيو هانوتو»، وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده في الجزائر ومدغشقر، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا إليها، وألا ينتهزوا الفرص للثورة عليها؟ كلا.. فما ظنك

بالمسلمين، وهم يسمعون قصف هذا الرعد، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجد في إهلاكهم والدأب في إفنائهم؟!

إن العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات، بعد معرفة أصولها، هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب، وتدنو به منه، وتهون عليه الرضا عنه. ولكن «**هانوتو**» وأضرابه من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شيئا من هذه الأركان الثلاثة، ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون، حتى يصلوا إلى ما كانوا يحسبون. فلينتظروا، إنّا معهم منتظرون.

- ٤ -

حضرة[١٤٥] الفاضل صاحب جريدة «المؤيد» الغراء..

ألقت إليّ المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة في القطر المصري[١٤٦]، جاء فيهما حديث بين صاحب الجريدة و«**مسيو هانوتو**»، صاحب الفصول المعروفة في الإسلام.

ولم أشك في أن كثيراً مما جاء في هذا الحديث، صادر عن رأي «مسيو هانوتو»، لأنه لا يصدر إلا عن عارف مثله بأحوال أوروبا وكثير من أحوال المشرق. ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه، وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ما تضمنه، يُعَدُّ ظلما له وجوراً عليه، خصوصًا ونسبة القول إليه يَدَعُ في أذهان الناس أثرًا لا يحسن السكوت عنه.

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أُصيبَ بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين، وما انبعثت إليه نفوسهم اليوم. وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد، كما ذكره حضرته في مقال له سابق. فلا يليق بذي غيرة على الحق ألا يوفيه من الاعتبار ما يستحق. وأرجو أن يترجم ما أكتبه في جريدة «المؤيد» إلى الفرنساوية، وأن يرسل إلى «**مسيو هانوتو**»، ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا.

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء، ويعتبرون بمثال، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام «مسيو هانوتو»؛ فقد أرشدهم إلى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها، وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها. وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيال، وَعقدَ الآمال بإنصاف الأمم تَلَمُّسٌ للمحال. وما على المهتم بحماية ذماره، وطالب الطهر من عاره، إلا أن يدرك مُدْرَكهُمْ، ويعمل عملهم، ليبلغ من الحول حولهم، فيفوقهم في القوة، أو يكون مثلهم، فيتعارض في المنافع معهم معارضة المالك، لا أن يتسلى بالأعاليل، ويلهو بالأضاليل، ويقنع بالأماني، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري، واللفظ الطلي، وهو من روح قائله خلي، حتى إذا دهموه وهو في غفلته، وأخذوه في نومه أو يقظته، بسط يده يلتمس الرحمة منهم، ويرقب أن يفيض عليه سبب العدل عنهم.. فهذا عمل الجاهل الأحمق، وهو بالذلة والاستعباد أحق.

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي عنه، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من **أبي بكر الصديق**، فقد قال **لخالد بن الوليد**، حين أرسله لحرب اليمامة(١٤٧): «حاربهم بمثل ما يحاربونك به، السيف بالسيف والرمح بالرمح».

ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد، وكل عمل يأتيه أحد المنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة.

فالظاهر في ميدان المنافسة: من كان رأيه أسدَّ، وقوته أشدَّ وسلاحه أحدَّ. فإذا قربت القوتان من التكافؤ، أمكن لمصالح المتنافسين أن تتفق، وسهل على كل منهما أن يرتفق، وإلا استحال الاتفاق، و استبد القوي بالارتفاق(١٤٨)، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء، سنة اللّه في عالم الأحياء.

وقد فصل «**مسيو هانوتو**» ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله: «العدل تكافؤ القُوَى».

صرح «مسيو هانوتو» بأن أوروبا، بعد أن كانت لا تشتغل إلا بما يجري فيها، اندفعت إلى الاستعمار، ولا يردها عنه إلا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها. وَضَرَبَ المثل باليابان، فإنها بما ارتقت في المدنية، وما أصلحت من شئونها الداخلية، وأعدت لوقاية ممالكها وحماية مسالكها، قد آذنت أوروبا بقوتها، وحملتها على الإقرار بمكانتها، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها، وأمكنها بُرْهانُ القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوروبيين. وهو قول حق، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون، وله في كتابه المنزل خير هاد، وأرشد مرشد. وكان يكفيه منه آية: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ (الأنفال: ٦٠)، فقد دعته الآية الكريمة إلى الإعداد، وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع. ولا حد لما تستطيعه أمة إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هُيِّئَتْ له، وأُطْلِقَتْ له القوة، وهي كل ما يقوى به خصم على خصم، ويقدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب. وخير القوى ما حفظ به الحق وعظمت به المنفعة، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده، حتى يستقر السلام بينهم، وتشمل الطمأنينة شئونهم.

وقد تألفت قوى الأمم الأوروبية من عناصر، هي: العلم، والأدب، والتجارة، والصناعة، والعدل، والدين، والسلاح. وذكرتُ الدين في جملة عناصر القوة، لأن «مسيو هانوتو» لا ينكر أن أوروبا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها، عند سنوح الفرص لسوقه إليها، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما يقضي به ذلك السلطان متى أظلهم، وفى فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها، وهو من الأمور المسلمة التي لا يجادل فيها عارف مثل «هانوتو» فلا حاجة للإطالة في بيانه. غير أني أذكر قصة كنت شاهدتها، لا بأس بذكرها في هذا المقام.

تعلَّم أحدُ أبناء جبل لبنان، من بلاد سوريا، في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد، وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم، وطالع عددا من مؤلفات كُتَّابهم، وامتلأ قلبه بحب فرنسا، واستقر في ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد. ثم اشتغل بكتب الفلاسفة الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسيين، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة، إنما يهمها من سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر.

ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية، أن يذهب إلى باريس، ويسألها المعونة على إنشاء مدارس في جبل لبنان، يُبْنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة. فذهب إلى باريس سنة ١٨٨٤، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المُقام في البلاد الفرنساوية، وطلب منه أن يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة. فسعى الذكي سعيه، ثم عاد إلى صاحبه، وقال له: إن ما تخيلته ضرب من الوسواس، وإن الحكومة الفرنساوية، وإن كانت تطرد «الجزويت»[١٤٩] من بلادها، وتنازع الكنيسة في سلطانها، لكن سياستها في الخارج دينية محضة. ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها «للجزويت»، وإعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك. فإن كنت تريد إنشاء مدارس دينية في بلاد لبنان، كان أَمَلُكَ في المساعدة قريبا، وإلا فارجع واشتغل بما يصلح لشأنك الخاص بك.

فرجع الشاب بالخيبة، بعدما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود، ولم يجد من يساعده على الرجوع إلى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا إذ ذاك، وكان لي حظ في مساعدته، كما كنت شاهدا الحديث الذي رويته.

فإن لم يسْعَ المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها، أو تقوية ما ضعف عنده منها، وهو مسلم، كان مخالفا لكتابه، ولقول الصدّيق، رضي اللَّه عنه، ومستحقا للوم «**مسيو هانوتو**»، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوروبيين إلى يوم القيامة.

بقي عليَّ الكلام مع هذا الوزير في أمرين:

الأول: فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام، وما يسمونه دعوة إلى توحيد كلمة المسلمين قاطبة، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد.

الأمر الثاني: سوء ظن المسلمين بالسياسة الأوروبية، بل وبالمسيحيين أجمع، حتى وصل فقد الثقة بهم إلى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا في عمل من أعماله، وإن أخلص لهم الخدمة، كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث(١٥٠)، وغيره.

* * *

-٥-

شأن(١٥١) المسلمين اليوم، وظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين، وجمع السلطة الدينية والسياسة في شخص واحد في جميع البلاد الإسلامية(١٥٢).

* * *

أؤكد «**لمسيو هانوتو**» أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم في بلد من بلاد المسلمين. ولو خطا خطوة إلى معرفة أحوالهم على ما هي عليه، لما خطر بباله أن يشير إلى هذه الدعوة، فضلاً عن أن يبني عليها حكما. وإن ما علق بالأوهام منها فإنما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق، ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسيي الغرب، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها.

وإني أعرض الحقيقة كما هي، لا تغشاها ستار من تمويه، ولا غطاء من تلبيس. وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع «مسيو هانوتو» بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين، وما يَرُدُّ أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه إلى رشدهم(١٥٣)، حتى يتقوا اللّه في أنفسهم وأهل بلادهم، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا، ولا من السكون شغبا.

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض، وأن نسمَةً من نَفَسِ الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم، فحركت ساكنهم، وأثارت هممهم إلى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين وفيما صاروا إليه، وأن منهم من يتكلم بما يرى إذا وجد سبيلاً إلى الكلام، ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة إذا تهيأت له الوسائل لذلك(١٥٤). ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ولا كلام لنا في هذَرِ المقلدين، وإنما كلامنا فيما يرمي إليه غرض أولئك الناظرين.

* * *

ظهر الإسلام، لا روحيا مجردًا، ولا جسدانيا جامدًا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كل القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمًّى نفسه دين الفطرة. وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدُّوه المدرسة الأولى التي يرْقى فيها البرابرة على سلم المدنية. ثم لم يكن من أصوله «أن يدع ما لقيصر لقيصر»، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له ويأخذ على يده في عمله.

جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا، فهدى ضالاً، وألان قاسيًا، وهذب خشنًا وعلم جاهلاً، ونبه خاملاً، وأثار إلى العمل كسلاً، وأقدر عليه وَكلاً، وأصلح من الخلق فاسدًا، وروج من الفضيلة كاسدًا. ثم جمع متفرقًا، ورَأب متصدعًا، وأصلح مختلاً، ومحا ظلما، وأقام عدلاً، وجدد شرعا، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه. فكان الدين بذلك عند أهله كمالاً للشخص، وألفةً في البيت، ونظاما للمُلك. وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شئونهم، ولم يفت العلمُ حظه من عَنايته، بل كان قائده في جميع وجوه سيره.

فإن شاء قائل أن يقول: إن الدين لم يعلمهم التجارة، ولا الصناعة، ولا تفصيل

سياسة الملك، ولا طرق المعيشة في البيت، لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعي إلى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه، وأباح لهم الملك، وفرض عليهم أن يحسنوا المملكة.

وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني، وهو في مدينة «يثرب»، من بلاد العرب: «ولو أن سخلة[١٥٥] بوادي الفرات أخذها الذئب لَسُئِلَ عنها عمر»؟!! ويقول خليفته الرابع: «أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون لهم أسوة من جشوبة العيش؟» - أي خشونته - يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الإحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر.

هكذا كان الإسلام مهمازا للمسلمين؛ يحثهم إلى جلائل الأعمال، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استعراف الأحوال وتقويم الأفكار، وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة، حتى رَضِيَتْهُمْ الأرض سادة لها وقادة لسانها، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم.

أفبعد هذا، يعجب عاقل إذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم، ويمقت ما مقته؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغا في دينه، وإن كان فيه مُلكُ الأرض أو ملكوت السماوات، بعد أن شهد من أثر نعمة اللّه عليه في هذا الدين ما شهد؟! لا عجب في ذلك، فإنه نتيجة ضرورية ينساق إليها الأمر بنفسه بحكم سنة اللّه في خلقه.

وا أسفا!! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة به. أما الدين نفسه، فقد انقلب في عقل المسلم وضعُه، وتغير في مداركه طبعُه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته، وحق فيه قول **علي كرم اللّه وجهه**: «إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يُلبسُ الفروُ مقلوبا»!!

لا أبحث الآن في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم إلى ما ذكرت. ولكني أقول، ولا أخشى مُنكِرا لما أقول: قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه،

وتسرب في عقائده، من حيث لا يشعر، مالا يتصل بأصلها، بل يهدم قواعدها، ويأتي على أسسها.

عرضت البدع في العقائد والأعمال، وحلت محل الاعتقاد الصحيح، وأخذت مكان الشرع القويم، وظهرت آثارها في أعماله، وعم شؤمها جميع أحواله.

إن صح لفظ الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، أو لم يصح، فالقرآن يؤيد معناه، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه. فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الإسلام وخصال الإيمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بها قَرُبَ أو بَعُدَ، على تفصيل معروف في كتاب اللّه وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح به الزمان.

ضل المسلم بعد ذلك في طلب العلم، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة الفرائض والوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها. أما ما يتعلق بسر الأخلاق فيها، ووسيلة قبولها عند اللّه، فذلك مما لم يخطر له ببال، إلا القليل النادر. وأما آداب الدين وتهذيب الروح، واستكمال الخصال الجليلة، مما جعله الإسلام غاية العبادات، وثمرة الأعمال الصالحات، فهو - مع أنه أهم علوم الدين - مما لا تتوجه إليه عزيمة، ولا تنصرف نحوه إرادة، اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض، لا ترقى بهم أمة ولا تسمو بهم كلمة.

أما من ينقطعون لطلب العلوم، ليحصلوا جُعْلةً منها، فقد انقسموا إلى فريقين:

الأول: من يظن أنه وارث علوم الدين، والقائم بحفظها، وقد قل أفراده في معظم البلاد الإسلامية، ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر. والمشتغلون منهم في بعض البلاد، كمصر والآستانة، فإنما حظ الذكي منهم أن ينظر في كتب مخصوصة عيَّنها له الزمان وضعفُ العرفان، ويفهمها، بمعنى أن يثق بأن

هذا اللفظ دال على ذلك المعنى، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم، سواء سلم عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم.

فكان مثلُهُ مثل من ورث سلاحا فكان همه أن ينظر إليه ويملأ عينيه منه، ولا يمد يده إليه ليستعمله أو يزيل الصدأ عنه، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخَبثُ. ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة. رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة، ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر. وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم، لا يساويه في سوء عاقبته خطأ. وللكثير منهم، بل للأغلب من سوء الفهم في الدين ما لا حاجة إلى عدِّه. ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق من العلم لا يظهر له أدنى أثر في صلاح الأمة، كما هو مشهود.

والفريق الثاني: من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة، عال أو سافل، وأفراد هذا الفريق، إن كثروا أو قلوا، يُحَصِّلُون مبادئ العلوم المعروفة بالعلوم العصرية، ثم يُحصِّل كل واحد منهم ما به ينال المنصب الذي أعده له والده. على أن ما يُحَصَّلُ إما لفظ يُحْفَظُ، أو خيال يُحْزِنُ، والمدار على الوصول إلى ورقة الشهادة !!

ومن هؤلاء من يذهبون إلى أوروبا لاستكمال التربية فيها، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية. فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة، قنع بها، وقصرَ همه على العمل فيها. ومن لم يجد، وقف على الأبواب ينتظرها، فإذا مل الانتظار أو انقضى زمن العمل، وجدته في «قهوة» أو «ملهى» يسرف في أوقاته، ويفسد في أدواته. والصالحون منهم - وقليل ما هم - لا يهمهم شأن العامة، شقيت أو سعدت، هلكت أو قامت. فأي أثر لما تعَلَّمَهُ هؤلاء يظهر في الأمة؟! أستثني منهم شواذ في كل بلد، مع ضعفهم، يُرْجى أن ينمو عددهم، وتجني الأمم ثمار أعمالهم - هذا شأن الرجال مع العلم.

أما النساء: فقد ضُرِب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أو دنياهن

بستار لا يُدْرى متى يُرفع، ولا يخطر بالبال أن يُعَلّمْنَ عقيدة أو يؤدِّين فريضة سوى الصوم. وما يحافظن عليه من العفة، فإنما هو بحكم العادة وحارس الحياء، أو قليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام. وحشو أذهانهن الخرافات، وملاك أحاديثهن الترهات. اللهم إلا قليلاً منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن.

وكل من الرجال والنساء يَعُدُّ نفسه مسلما، يعِدُها بالجنة، ويُمنِّيها بالسعادة!!

* * *

أخطأ المسلم في فهم معنى «التوكل» و«القدر»، فمال إلى الكسل، وقعد عن العمل، ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها. ويظن أنه بذلك يرضي ربه، ويوافي رغائب دينه.

أخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من - أن المسلمين خير الأمم، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه، وإن لم يتحقق شيء من معناه، وأن اللّه كفيل بنصره بدون عمل للعبد في الدفاع عنه. فإن أصابته مصيبة، أو حلت به رزية، تسلى بالقضاء، وانتظر ما يأتي به الغيب بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارئ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ما عرض من خلل، أو مُدافِعة الجلل، مخالفا في ذلك كتاب اللّه وسنة نبيه.

أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر، والانقياد لأوامرهم، فألقى مقاليده إلى الحاكم، ووكل إليه التصرف في شئونه، ثم أدبر عنه، حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعها من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه.

ومن رأى حزن الآباء، إذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية، وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها، حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت حد

التأله من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة إلى الإدبار والتخلي عنه من حيث إنهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ولا يعينونه في أمر مهم، اللهم إلا إذا أرغموا على ذلك.

ومن ذا الذي يحسن عملاً إذا ألجئ إليه بالرغم عنه؟! ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة جملة، وضعف شعوره بحسنها و قبيحها، اللهم إلا ما يمس شخصه منها.

أما الحكام ـ وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه ـ فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم في أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة. ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم، وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم، وابتزاز الأموال لإنفاقها و إرضاء شهواتهم، لا يرعون في ذلك عدلاً، ولا يستشيرون كتابا، ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم، وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب.

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى في مذاهب شتى في العقائد، وطرق متخالفة في السلوك، وآراء متناقضة في الشرائع، وتقليد أعمى في جميع ذلك. فتفرقت المشارب، وتوزعت المنازع، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة، كل يجذب إلى نفسه لا ينظر إلى حق ولا يفزع من باطل، وإنما همه أن يظفر بخصمه، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له في الإسلام في معرض التشدق بالكلام.

وزد على ذلك، وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم، وهى بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له، وأن ما نزل بهم من الضر لا كاشف له، وأنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه.

مرض سرى في نفوسهم، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتعلقهم بما لا يصح من الأخبار، أو خطئهم في فهم ما

صح منها. وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول، وكفى في شناعتها قوله، جل شأنه: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

تبع هذه البدع جميعها - وأخرى يطول ذكرها - هزال في الهمم، وضعضعة في العزائم، وتناقض في الآراء، واضطراب في العقول وفساد في الأعمال يبتدئ من البيت وينتهي إلى الأمة، يمر في كل طبقة، ويجول في كل دائرة، خصوصا من دوائر الحكومات.

وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى، فإنما عرض على أقوام في بعض البلاد الإسلامية تبعا لهذه البدع الضالة. على أنني لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته في الأمم المسيحية، شرقية كانت أم غربية، والتاريخ شاهد لا يكذب.

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم، بسبب ابتداعهم في دينهم، وخطئهم في أصوله، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله. ولهذا سلط اللّه عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه، إلا إذا تداركهم بلطفه. وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه - إذا ذكره - بما يتبرأ منه، ويعدُّه حجابا بين الأمم والمدنية، بل يَعُدُّهُ نبع شقائهم، وسبب فنائهم.

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة، في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب، ثم في مصر، وكل منهم بحث في الداء، وقدَّر له الدواء، بحسب فهمه، على تقارب بينهم، ولعلهم يلتقون يوما من الأيام عند الغاية، إن شاء اللّه.

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شئونه. ويمكن أن يقال: إن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد، وإزالة ما طرأ عليه من الخطإ في فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها

سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية، دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة.

فإذا سمعت داعيا يدعو إلى العلم بالدين، فهذا مقصده، أو مناديا يحث على التربية الدينية، فهذا غرضه، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد، فتلك غايته.

وهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها. فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا.

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين، سواء في **مصر** أو غيرها، أن يثير فتنة على الأوروبيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين. غير أن بعض المسيحيين إذا سمع قولاً في الدين، أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولاً من خياله، وأخذ يخاف منه ويخشى غائلته، ثم يسميه باسم الدين. وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون إلى شئونهم، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم، لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم. وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه، فإنه بظنه هذا يعتقد أنه غاشّ مُغررٌ، وسالبٌ مُتلصِّص، وسوء ظن بالمسلمين أيضا. فإن أهل الوطن الواحد، لا يستغني بعضهم عن بعض، مهما ارتقت معارفهم، وعظم اقتدارهم على الأعمال. وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال إلا بحق، والأجنبي الذي لا ينفق

الواحد ويربح المائة يرجع إلى الاعتدال في الكسب، ويحتاج إلى شيء من التعب في استدرار الربح.

وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الإسلامية، وهي في عنفوان قوتها، والأجانب يطلبون الكسب في أرجائها وهي في أرفع مقام من عزتها.

نعم .. يعرض في طريق الدعوة إلى الدين، من هذا الوجه، أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم **بسوريا** أو **بالهند** أو **بالعجم** أو **بأفغانستان**، أو بغير هذه الأقطار، لأن مرض الجميع واحد، وهو البدعة في الدين، فإذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر. أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم، فلم يمر بعقل أحد منهم. ولو دعا إليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين.

يكثر بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج، ويقول: إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض، ومن أفضل الوسائل للتعارف بينهم، فعليهم أن يستفيدوا منه. وهو كلام حق. ولكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه. فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم أو اختلّ من أعمالهم، وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء. وهذا أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد، خصوصا عند الأوروبيين.

يكثر المسلمون اليوم من ذكر **الدولة العثمانية**، و**السلطان عبد الحميد**، ويعقلون آمالهم بهمته، وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له. وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش أحدا، فإن هذه الدولة هي أكبر دول الإسلام اليوم، سلطانها أفخم سلاطينهم، ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم، وهو أقدر الناس على إصلاح شئونهم، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية.

فأي شيء في هذا يزعج أوروبا، حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين، إذا حدثت مثل هذه الحوادث الماضية، كما يقول «**مسيو هانوتو**»؟!

* * *

بقي الكلام على جميع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد. يقول «مسيو هانوتو»: إن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية. وهو كلام صحيح، ولكن لم يدر ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين.

لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا عند الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك، ويحرم الأمراء، ويقرر الضرائب على الممالك، ويضع لها القوانين الإلهية.

وقد قررت الشريعة الإسلامية حقوقا للحاكم الأعلى، وهو الخليفة أو السلطان، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية. وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية، والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية، وأهل الدين قائمون بوظائفهم، وليس له عليهم إلا التولية والعزل، ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم إن أمكن.

وهذه **الدولة العثمانية** قد وضعت في بلادها قوانين مدنية، وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم، وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها.

وكذلك حكومة **مصر**، أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم، ولا دخل لشيء من ذلك في الدين. فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى، كما يطلب «مسيو هانوتو»، ولكن مع ذلك، لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين، بل كان الأمر معكوسا.

أمراؤنا السابقون لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين، لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته

في ارتكاب المظالم، والمغالاة في وضع المغارم، والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين، وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال.

إن **فرنسا** تسمي نفسها حامية **الكاثوليك** في المشرق، وملكة إنكلترا تلقب نفسها بملكة **البروتستانت**، وقيصر الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا. فلم لا يسمح **للسلطان عبد الحميد** أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين؟!

لا أظن أن «**مسيو هانوتو**» يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها في البلاد الإسلامية الفرنساوية إذا وجد فيها من يقوم بها، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين، فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين، سابقوا الأوروبيين في اكتساب العلوم، وتحصيل المعارف، ولحقوا بهم في التمدن، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم. إن شاء اللّٰه.

* * *

-٦-

سوء[١٥٦] ظن المسلمين بسياسة أوروبا كلها، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية، وعدم اطمئنانهم إلى سياسة الدول المسيحية، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين إلى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا، ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم[١٥٧].

* * *

سمع بذلك كله «مسيو هانوتو» من صاحب الجريدة المعروفة[١٥٨]، ومن بعض العثمانيين في **الآستانة** و**باريس**، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوروبا اقتصادية ملكية لا دينية لا هوتية.

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم «مسيو هانوتو»؟ ومن بلَّغهُ أخبارهم؟

أهم الهنود؟ وهم في حكم دولة أجنبية، ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم، وتعليقهم الآمال بعدلهم، والتماسهم الحق من طرقه؟

هل هم مسلمو **الروسيا**؟ وثقتهم بحكومتهم، وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد، حتى إن دولة الروسيا تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب **الأرثوذكسي**؟! هل هم الأفغانيون؟ وإخلاص أميرهم في مصافاة الإنكليز أشهر من أن يذكر، ولا ينفي إخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها؟

هل هم الفرس؟ واستنامتهم إلى السياسة الروسية لا يجهلها أحد؟!

هل هم المراكشيون؟ وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا، شغل بعضهم ببعض، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي اللّٰه فيهم بقضائه؟!

هل هم التونسيون؟! وقد أثنى عليهم «مسيو هانوتو» بما هم أهله، وثبت له ارتياحهم إلى السلطة الفرنساوية بمجرد ما أطلقت لهم الحرية الدينية.

لعله لم يقصد إلا العثمانيين، كما يدل عليه بقية كلامه، وكما يفيده قوله: «ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا»، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم[١٥٩].

فأما المصريون، فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالأوروبيين وبالمسيحيين العثمانيين، فإنهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة، ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين، وهم معهم على غاية الوفاق، خصوصا أهل الإخلاص وسلامة النية منهم، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة في الفريق الآخر، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية، إلا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين، وآذاهم في دينهم، أو في منافعهم الخاصة بهم، لا لشيء سوى التعصب الأعمى.

ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه «**مسيو هانوتو**»[١٦٠]، فإنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية، وبعد

أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية، شهد المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم، كما افتخر بذلك مرارا في جريدته، وإن كانت لهم عليه هنات لا تزال تبدو من فيه إلى وقت ذلك الحديث . . فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من الخدمة لأنه مسيحي عثماني؟ هل حرم أحد حق المحاماة وإنشاء الجرائد أو المطابع أو إقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية، لأنه مسيحي عثماني؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد.

أما حالهم مع الأوروبيين، فإنا نراهم إذا أحسوا بعدل من إنجليزي ذكروه، أو وصل إليهم معروف من أي عامل أوروبي شكروه، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته إنكليزي، كما شوهد ذلك كثيرا في شكاياتهم، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب «**اللورد كرومر**»، وهو ليس بحاكم رسمي، فأي دليل على الثقة أكثر من هذا؟

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين، ومن له بينهم أصدقاء يركن إليهم ويعتد بولائهم، و«مسيو هانوتو» وصاحب الجريدة الذي يحادثه يعرفان ذلك.

كثيرا ما أغرى الأوروبيون، من الفرنساويين والأميركيين من أرباب المدارس في مصر، شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم، والدخول في الديانة المسيحية، وفرُّوا ببعضهم من القطر المصري إلى البلاد الأجنبية، وأحرقوا بذلك كبد والديهم. ومع ذلك، لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم إلى مدارسهم. وناظر المعارف عندنا وزير مسلم، وأولاده يتربون في مدارس «الجزويت»، وكثير من أبناء الأعيان المسلمين في مدارس «الفرير»، فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان؟!

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالأوروبيين، خصوصا في المعاملات، حتى أساء أولئك الأوروبيون استعمالها، وانتهزوا فرصتها، وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم، ومع ذلك، فهم لا يزالون يأمنون ويغالون في الاستنامة إليهم، ويقلدونهم حتى فيما يخالف دينهم وعوائدهم، فماذا يطلُبُ من الثقة فوق هذا؟

هل يشكو عقلاء المسلمين في **مصر** من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبي، من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص أو غش، من صدق أو كذب، من أمانة أو خيانة، من قناعة أو طمع، حتى آل الأمر بالناس إلى ما آلوا إليه من خسارة المال وسوء الحال؟!

فهل هذا هو فقد الثقة بالأوروبيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة، وجناب «**مسيو هانوتو**»؟!

وأما العثمانيون من غير المصريين، فإذا ارتقينا إلى الدولة وسلطانها، أيده اللّٰه، وجدنا أن نظام الدولة ماض باستعمال المسيحيين في إدارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم، أو فوق ذلك، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين.

إقبال السلطان عبد الحميد على رؤساء الطوائف المسيحية، وإنعامه عليهم بوسامات الشرف، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته، والإحسان إليه برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد.

صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم، ثم سهل عليه، وهو مسيحي، أن يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته، من نحو شهرين إثر هبوبه لنصرة «مسيو هانوتو»، ثم والى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها، فما هي الثقة إن كان هذا فقدانها؟

أما سياسة الدولة الخارجية، فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانية، وهي دولة مسيحية، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة إسلامية. وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الإنجليزية، ثم حدثت حوادث

أهمها نشأ من ضعف سياسة «**مستر غلادستون**»، فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة، ثم إنا نراها اليوم تتراجع، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا، ويودون لو مالت إليها سياسة الدولة، وهم مسلمون.

والذي أحب أن يعرفه «**مسيو هانوتو**»، أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ليست بسياسة دينية، ولم تكن دينية قط من يوم نشأتها إلى اليوم، وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة، ولا دخل للدين في شيء في معاملتها مع الأمم الأوروبية.

إمبراطور ألمانيا جاء إلى **سوريا** للاحتفال بفتح كنيسة، فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشْتَهَرَ وبَهَرَ.

يجيء الأمراء المسيحيون من الأوروبيين إلى **الأستانة**، فيلاقون من الاحتفال ما لا يلاقونه في بلاد مسيحية، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة إليه، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة؟

كان يمكن **للسلطان** أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها، ولكن عُهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات. فإن سلمنا أن سياسة أوروبا ليست بدينية من جميع وجوهها، فسياسة الدولة العثمانية، مع أوروبا، هي كذلك، ومسلموها تبع لها.

فإن قال قائل: إن حوادث «الأرمن» لم تزل في ذاكرة أهل الوقت(١٦١)، وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني، أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها. ومع ذلك فإن كثيرا من «الأرمن» في خدْمة الدولة إلى اليوم، وهم بذلك موضع ثقتها، وهذا وذاك يدل على الريب فيمَا يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني، فإن المسيحيين وسواهم في الممالك العثمانية أنعم حالاً من المسلمين، كما شاهدناهم بأنفسنا.

ولو أنصف الأوروبيون، لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الأقطار، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه في أوروبا لا في آسيا.

لا يغثُّ[(١٦٢)] عليّ أن أقول: إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير، يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين أو عدم الثقة بهم؟

لا يليق بكاتب، مثل صاحب تلك الجريدة[(١٦٣)]، أن يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه، فإن ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جمعاء، وإني أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسييهم.

ليعلم «**مسيو هانوتو**»، أن جميع ما يقال له، أو يكتبه بعض العثمانيين، لا حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه إن كان يهمه أن يتكلم فيه.

* * *

وأما أن المسلمين أَخَذُوا عليه فيما كتب عن الإسلام، مع أنه خدمهم، وقوله: «فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم»، فنُبين له الوجه فيه، ليزول عنه ما سبق إلى فهمه:

لو اقتصر على الكلام في السياسة، وبحثَ في علاقة المسلمين مع حكومته، ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله، لما أخذ عليه أحد، إلا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف بذلك، وطعن في عقيدة «التوحيد» وبيَّن رداءة أثرها في المسلمين. واستل سلاحه على عقيدة «القدر»، وبيَّن سوء ما جرَّت إليه فيهم. وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين، وهو ما لا يرضاه أحد منهم.

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم، وفي انحرافهم عن أصول دينهم، واكتفى بتعنيفهم على إهمالهم لشئونهم، وغفلتهم عن مصلحتهم، كما جاء في حديثه الذى نحن بصدده، لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله، متعظا بنصيحته. والسلام.

* * *

كلمات[١٦٤]

إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم في الإسلام من سوء حال المسلمين، مع جهلهم هم بحقيقة الإسلام. إن القرآن نظيف والإسلام نظيف، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما في القرآن وانشغالهم بسفاسف الأمور.

الرد على فرح أنطون

الاضطهاد في النصرانية والإسلام

رسائل

من الأستاذ الإمام إلى الشيخ رشيد رضا[١٦٥]

ولدنا العزيز . .

وصلني رقيمك ، وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء اللّه .

إلى الآن لم أكتب شيئا ، وقد أخذت القلم الآن لأكتب ، وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين . ربما جئت إلى **مصر** يوم الخميس ، إن لم يطرأ ما يحملني على الذهاب إلى رشيد ، والسلام .

رمل **الإسكندرية** ، ٥ أغسطس سنة ١٩٠٢ م .

محمد عبده

ولدنا العزيز . . .

كتبت اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأي الفلاسفة ، والناس جلوس يتكلمون . وأريد مراجعته صباح الغد ، إذ لا يمكنني مراجعته وهم جالسون ، وهم لا يفارقونني إلى وقت النوم .

لم أر **فرحا** إلى الآن ، ولا أدري هل أراه غدا؟ . . . كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل إليه؟ وعلى كل حال ، فلا بد من نقله بخط آخر ، ولا يكون إلا خطك .

وأظن أن أكون **بمصر** مساء الغد إن شاء اللّه. فلتكن عندي **بعين شمس**، صباح الجمعة، بعد أن تسأل بالتليفون. والسلام.

رمل **الإسكندرية**، ٦ أغسطس سنة ١٩٠٢.

محمد عبده

ولدنا الفاضل...

السلام عليكم... رأيت ما كتب في «المقطم»، وهو حسن. «حافظ»[١٦٦] يروج «المنار»، وينجح إن شاء اللّه. تذكرت أني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في **البروتستانت**، ورأيهم في الفلسفة، وحكاية ما كان يقوله «**فولتير**» في «**أرسطو**»، هذه العبارة: «وكان علماء السنة يسمون أرسطو المعلم الأول». فإن كنت لم تطبع إلى الآن سب«فولتير» «لأرسطو»، فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب. وإن كان قد انتهى طبعه، فاختر لذلك موضعا في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة، قبل تبسم الإسلام من الأديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب.

إلى الآن، لم أكتب ولا كلمة في الموضوع، لأني في شغل شاغل من هؤلاء الناس المرزوئين في عقولهم أولاً، وفي بيوتهم ثانيا. وربما فرغت بعد يومين والسلام.

السنبلاوين، أول سبتمبر سنة ١٩٠٢م

محمد عبده

ولدنا العزيز..

أنا اليوم في «**المنصورة**»، وربما فارقتها إلى «عين المنزلة»، من طريق النيل؛ طلبا لراحة الفكر، وهربا من جو البلدان في فساده. وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة، لأهرب في «**عين شمس**»، ولا أدري ما يفعل اللّه بي من اليوم إلى الغد.

أصبحت وقد عوقبت عقوبة من يكل أمره إلى غيره، على ضعف ثقته بالناس

كافة إلا من اختار لنفسه. بحثت في محفظتي عن تتمة ما عندك من المقال المعروف، وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها، فلم أجدها. ولا أرتاب في أن الكاتب، الذي كان يحمل المحفظة، أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود المحروقين. فكدرني ذلك غاية الكدر، لأني لا أعلم من أي موضع يبتدئ ما كان فيها. وأرجو ألا يكون الكاتب قد أضاعها. أما نهايتها، فإني أتذكرها، ويمكنني أن أبتدئ مما بعدها، ولكن كيف يملأ الفراغ بين ما سأكتب وبين ما عندك، إن كانت الورقة قد ضاعت؟!...

المنصورة، ٤ سبتمبر ١٩٠٢م

محمد عبده

ولدنا العزيز...

وصل رقيمك، كنت أحب أن يكون اللفظ «علماء أهل السنة» بدل «علماء المسلمين»، لما تعلم من الفرق ورنة الاسم في آذان المخدوعين. لم أبحث عن الورقة الضائعة، ولا أظن أنها في المحفظة، فإن لم تكن عند أحد الكاتبين، فقد نسيتها في البيت. وعلى كل حال، فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال. تعوذ بالله من عطلة كالتي أنا فيها، ولكن المدة قصيرة، وأرى في الراحة شيئا من الفائدة، ولا أراك تحتاج إلى التتمة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل، فإن المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن.

أحب أن أعرف أثر المقال في نفس من تعرف من المسيحيين أو المسلمين. والسلام عليكم.

المنصورة، ٦ سبتمبر ١٩٠٢.

محمد عبده

ولدنا العزيز...

وصل رقيمك أمس في «المنصورة»، وأنا اليوم فيها. وربما وصلت إلى **مصر** مساء يوم الأحد، وأصبح في عين شمس إن شاء الله تعالى صباح يوم الاثنين.

والذي كنت أحب أن أعرفه هو ما يجد المسيحيون في المقال من حسن التأدب. وكنت أخاف أن يكون بدر مني ما يؤخذ عليّ فيه من هذه الناحية. أما تألمهم من الحق، فذلك مما لا يصح أن أشك فيه، لأن الباطل إذا لم يألم من منظر الحق فمم يألم؟!

وجدت بعض اللحن في المقالة، وقد أصلحته في النسخة التي وردت إلي. وأتذكر الآن أني وضعتها في الشنطة، ولو وجدت حيث أنا صمغا أو نشاء لبعثت بها إليك. ولكن أحب أن تنتظر بالملزمة الثانية حتى أحضر يوم الاثنين، إن شاء اللّٰه تعالى. وأتذكر الآن من الخطأ «وهبهم اللّٰه إياها» والصواب: منحهم، لأن وهب لم يرد في القرآن إلا متعديا باللام، ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح.

الناس في عماية عن النافع، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب إذا لم يسرعوا بالاشتراك في «المنار»، فإن الرغبة في «المنار» تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر، ولا يزال ذلك الميل في الأغنياء قليلاً، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلاً، ولكن ذلك لا يضعف الأمل في نجاح العمل. والسلام.

المنصورة، في ١١ سبتمبر ١٩٠٢م

محمد عبده

لا[١٦٧] تعجب مما يصنع عمال «المؤيد»، فالذي أظنه ـ ولا إخاله إلا صحيحًا ـ هو أنهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ «علي»[١٦٨]، ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود «البوسطة» من أوروبا. ولا أستبعد أن يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقال بدون ذكر مغرسه الأول[١٦٩]؛ إرضاء «لمحمد رشيد»[١٧٠]، وخوفا من إحفاظه لو علم أن «المؤيد» ينقل عن «المنار». وحجة الشيخ «علي» في ذلك، أن عدوه المخنث واقف له بالمرصاد، فإذا رأى كلمة طار بها إلى سيده، واتخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ. فإن شئت، عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضا.

ونحن لا نريد إلا النشر، وليست نسبة المنشور مما يهم إغفاله، فدعهم وما يعملون. والسلام.

محمد

ذكرت[١٧١] «الجامعة» - في الجزء الثامن من السنة الثالثة، في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد - أن للناس آراء في: هل الدين المسيحي أوسع صدرا في احتمال مجاورة العلم والفلسفة، أو أن الدين الإسلامي هو الأرحب خُلقا، والأوسع حلما من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون إذا نزلوا بداره، ولاذوا بجواره؟ وذكرت للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الإسلامي: «أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر. وابن رشد لم يقل شيئا سوى أنه قرر ما قال **أرسطو** وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه. وللقائلين بسعة حلم الإسلام: إن الإسلام لم يحكم بإحراق أحد لمجرد الزيغ في عقيدته، وكم حكمت المسيحية بذلك.

ثم جَعَلَت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم، وقالت «فيرد عليهم الأولون بقولهم: هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط؟ أم مع القريب والغريب معا؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن، التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية، فأضعفت أمتهم، وفرقت كلمتهم؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه «محاربة للإنسانية»، ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة؟!». أهـ.

ثم قالت «الجامعة»: إنها لا تفصل بين القولين، ولكنها فصلت فيهما فصلين:

الفصل الأول: في قولها إنا نرى أن السلطة المدنية في الإسلام مقرونة بحكم الشرع، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا. وبناء على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية. فإن الديانة المسيحية قد

فصلت بين السلطتين فصلاًبديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي، وذلك بكلمة واحدة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه». وبناء على ذلك، فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالاً للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية، فضلاً عن قتلهم، وسقي الأرض بدمائهم البريئة، فإنها تجني جناية هائلة على الإنسانية. وعلى ذلك، لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك، إذا بدا منها نقص، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها، لأنه لا نقص أعظم من «نقص القادر على التمام».

والفصل الثاني: في قولها: «إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي، ولذلك نما غرسهما في تربة أوروبا وأينع، وأثمرا التمدن الحديث. ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامي. وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا»، أهـ.

الجواب الإجمالي

وإني أعجل في الجواب بما ينفي هذين الحكمين إجمالاً:

أما الأول، فإن كان الإنجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة، فالقرآن قد أطلق الرأى من كل قيد بكلمتين لا كلمة واحدة، قال في سورة البقرة:
﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦). وقال في سورة الكهف: **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾** (الكهف: ٢٩).

وأما الثاني: وأسأل «الجامعة» في جوابه: أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذَكَرْتُهُمْ من **فولتير وديدرو وروسو** وأمثالهم. وكيف ساغ لها أن

تقول، وهي في أرض **مصر**، ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى؟ فإذا أرادت شاهدا على حال المسيحية والعلم، فلتمر اليوم على **إسبانيا**، ولتقف برهة من الزمان، ثم لتحكم. يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من «**جزويت**» و«فرير» و«أميركان»، وهي مدارس دينية، خصوصا مدارس «الجزويت». فهل يمكنني أن أجد طالبا واحدا مسيحيا في مدرسة دينية إسلامية، يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة؟ لا نجد إلا قليلاً منهم في مدارس الحكومة؛ لعلمهم أنها مدارس رسمية، لم يقم بناء تعليمها على الدين. فهل سمع أن والدا اضطهد، لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون؟ ألا يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم؟!

لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب «الجامعة»، أنه يوجد في بلاده(١٧٢) طائفتان، تعد آحادهما بالألوف، وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام، وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله، حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول، ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة. وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة، لا تؤكل ذبائح أفرادهما، ولا يباح لهم أن يتزوجوا بالمسلمات، وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم. ومن العلماء من قال: لا تقبل توبته. وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام في أوج القوة. ودخلوا في حكم الأتراك، وهم هم أيام كان مَلكُ فرنسا يستنجد بمَلكهمْ، وكانت عساكرهم على أسوار فيينا. كان أولئك الذين يراهم المسلمونَ قدَ خرجوا من دينهم، وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم، وهم جيرانهم وتحت أيديهم، وفي مكنتهم محوهم، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين. وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين؟ غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه. وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة. ولكن لا يكفي لبيان ما عَرَّضَتْ به الجامعة في

قولها: «هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط؟ أو مع القريب والغريب إلخ»، ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكمها، إلا تفصيل نعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم عن فهم، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم.

الجواب التفصيلي

أرى« الجامعة» جاءت فى كلامها بأربعة أمور، آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها:

الأول - إن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم، ولم يسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأخرى.

الثاني - إن من الطوائف الإسلامية، طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية.

الثالث - إن طبيعة الدين الإسلامي تأبى التسامح مع العلم، وطبيعة الدين المسيحي تيسر لأهله التسامح مع العلم.

الرابع - إن إيناع ثمر المدنية الحديثة، إنما تمتع به الأوروبيون ببركة التسامح الديني المسيحي.

فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة، وأبتدئ منها بالثاني لقلة الكلام عليه:

* * *

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين **السلفيين**[١٧٣] و**الأشاعرة**، مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من **أهل السنة** و**المعتزلة**، مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة. كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم سمع بحروب تعرف بحروب **الخوارج**، كما وقع من **القرامطة** وغيرهم، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة. ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيِّروا شكل حكومة. وما كان من حرب الأمويين والهاشميين، فهو حرب على الخلافة، وهي بالسياسة أشبه، بل هى أصل السياسة.

نعم، وقعت حروب في الأزمنة الأخيرة، تشبه أن تكون لأجل العقيدة، وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية، وبين الحكومة العثمانية و**الوهابيين**. ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروبا سياسية، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم، مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين.

وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة العباسية، وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة، فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم. ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم، وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم. وأكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم، إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم. أقول «الجهلة»، وأريد أهل

الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الإسلام، ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم. ولو رزق اللَّه المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى. ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم.

ما لنا وللحكام نعرض لهم؟ الذي عَلَيَّ أن أقول ولا أخشى منازعا: إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها. على أن هذا الأمر الذي جاءت به «الجامعة» وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة، لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم، لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء «الجامعة» بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا!!

هل أُذكِّرُها بما كان يقع في **القسطنطينية** من سفك الدماء بين **الأرثوذكس** و**الكاثوليك** على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل أذكرها بحادثة «**برتلمي سنتهلير**» التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم **البروتستانت**، وأخذوهم في بيوتهم على غرة، وقتلوهم نساء ورجالاً وأطفالاً؟! بماذا أذكر «الجامعة» من أمثال هذه الوقائع التي اسودَّ لها لباس الإنسانية، وتسلبت(١٧٤) لحدوثها البشرية؟! هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض، لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف؟!

* * *

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة، لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث. وإنني لا أستدل على رعاية الإسلام على الحكماء من الملل غير

المسلمة بقول كاتب مسلم، وإنما أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين، وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم.

قال المستر «**درابر**»، أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأمريكان: «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء، لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى **النسطوريين**[١٧٥] ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى المناصب فى الدولة، حتى إن **هارون الرشيد** وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنية»، (هو **يوحنا بن ماسويه** الشهير). وقال في موضع آخر: «كانت إدارة المدارس مفوضة، مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء، إلى النسطوريين تارة، وإلى اليهود تارة أخرى. لم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي وُلد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة. قال الخليفة العباسي الأكبر **المأمون**:

«الحكماء هم صفوة اللّه من خلقه، ونخبته من عباده؛ لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة. هم ضياء العالم، وهم واضعو قوانينه. ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية».

وقال في موضع آخر:

«إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين».

ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وبنوا من المراصد، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب، لأن هذا خارج عن بحثنا الآن، وسيرد عليك شيء منه فيما بعد.

* * *

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء **جيورجيس بن بختيشوع** الجنديسابوري(١٧٦)، طبيب **المنصور**. كان فيلسوفا كبيرا، علت منزلته عند المنصور، لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى، فأشفق عليه المنصور، وأنفذ إليه بثلاث جوار حسان، فردهن، وقال: إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية. فأعلى مكانته حتى على وزرائه. ولما مرض، أمر المنصور بحمله إلى دار العامة، وخرج ماشيا يسأل عن حاله. فاستأذنه الحكيم في الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه، فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة، فقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار. فضحك المنصور، وأمر بتجهيزه، ووَصلُه بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالإمساك وكزازة اليد)، وأوصى من معه بحمله إذا مات في الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب. ثم سأله عمن يخلفه عنده، فأشار إلى **عيسى بن شهلاثا**، أحد تلاميذه. فأخذه المنصور مكان جيورجيس، فطفق يؤذي القسوس والبطاركة، ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال رغائبه، فشعر الخليفة بذلك فطرده.

وممن حظي عند المنصور: **نوبخت** المنجم وولده أبو سهل، وكانا فارسيين على مذهب الفرس. ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل، كانوا جميعا منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة(١٧٧).

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة **المهدى**، **ثيوفيل بن توما**(١٧٨) النصراني المنجم، وكان على مذهب **الموارنة** من سكان **لبنان**، وله كتب في التاريخ جليلة، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عبارة.

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة، **بختيشوع الطبيب وجبريل**(١٧٩)

ولده ويوحنا بن ماسويه(١٨٠) النصراني السرياني، ولاَّه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها. وخدم **الرشيد** ومَنْ بعده إلى **المتوكل**. وكان يعقد في داره مجلسا للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن، مثل ما يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه.

وممن علا قدره في زمن **المأمون**، يوحنا(١٨١) البطريق مولى المأمون. أقامه كذلك أمينا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة. وكذلك ارتفع شأن **سهل بن سابور** و **سابور ابنه** وكانا نصرانيين، وولي **سابور بن سهل** بيمارستان **جند يسابور**.

وكان سلمويه(١٨٢) بن بنان النصراني طبيبا عند المعتصم، ولما مات جزع عليه جزعا شديدا، وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى.

وكان **بختيشوع بن جبريل** عند المتوكل يوما، فأجلسه بجانبه، وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق. فأخذ **المتوكل** يحادثه، ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب)، ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل: بماذا تعلمون أن الموسوس(المصاب بخبل في عقله) يحتاج إلى الشد؟ فقال **بختيشوع**: إذا عبث بفتق درَّاعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى.

وفي أيام المتوكل، اشتهر **حنين بن إسحاق** النصراني العبادي(١٨٣)، وهو من أشهر المترجمين لكتب **أرسطو** وغيره. وامتحن المتوكل صدقه، فظهرت له عزيمة لا تفل، فأقطعه إقطاعات واسعة. وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن **المأمون** وهو فتى، فكلفه بترجمة الكتب. وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهبا. وكانت بينه وبين **الطيفورى** النصراني محاسدة، أفضت إلى طلب الحكم على حنين في مجلس الأساقفة بالحرمان من الكنيسة، فمات غما لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة. وهذا **الطيفوري** أيضا كان من المقربين عند الخلفاء.

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي، متى[184] بن يونس المنطقي النصراني **النسطوري**. كان متفننا في جميع العلوم العقلية، أخذ عنه **أبو نصر الفارابي**[185] وانتهت إليه الرئاسة في بغداد، وكان من أهل ديرقني، ونشأ في مدرسة مار ماري، وقرأ على **روفائيل** و**بنيامين** الراهبين **اليعقوبيين**.

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي[186]، ومن فلاسفة دولة الإسلام، وهو نصراني طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة. ثم **يحيى**[187] **بن عدي بن حميد بن زكريا** المنطقي، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكيمة في وقته، وقرأ على **متى بن يونس** وعلى أبي نصر **الفارابي**.

ومنهم **أبو الفرج بن الطيب** فيلسوف عالم، قالوا كان كاتب الجاثليق، ومتميزا في النصارى ببغداد. وكان يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي. وكان معاصرا للشيخ الرئيس **ابن سينا**[188]، والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته، وله كلام فيه.

وممن كانت له المكانة الرفيعة عد الخلفاء والخاصة والعامة: ثابت بن قرة[189] الحراني الصابئ، من طائفة **الصابئين** المعروفة. وتربى في بيت محمد[190] بن موسى ابن شاكر، الفلكي المشهور، وبلغ في علوم الفلسفة مبلغا لم يُدانِه فيه غيره، وله تآليف كثيرةفي المنطق والطب والرياضيات، وبلغ عند **المعتضد** مقاما تقدم فيه عنده على وزرائه.

وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين«بحران»، ثم كان ابناه إبراهيم بن ثابت بن قرة وسنان بن ثابت بن قرة على قدم أبيهما. ومن حفدته أبو الحسن ثابت ابن قرة. وكان ثابت وإبراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت، ومدحهم كثير من الشعراء المسلمين وهم صابئة.

* * *

ماذا أعد «للجامعة» من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام؟ هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الإسلام **أبى يوسف**(١٩١) **يعقوب الكندى** - وهو بصري الأصل - ابن **الأمير إسحق** الذي كان أميرا **للمهدي** و**الرشيد** على **الكوفة**؟! وهو من ذرية الأشعث بن قيس، أحد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وكان عالما بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى، واشتغل بالترجمة، كما اشتغل غيره بها، فترجم كثيرا من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها. وكانت له المكانة العليا عند **المأمون** و **المعتصم** وولده أحمد. هل أنا في حاجة إلى ذكر **بنى موسى بن شاكر**: **محمد** و**أحمد** و**الحسن**، الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الأمراء والخلفاء؟! أأذكر **ابن سينا** ومنزلته في قومه ووصوله إلى مسند الوزارة عند **شمس الدولة**؟! أم أذكر **الفارابي** وما كان له من المكانة عند **سيف الدولة بن حمدان**؟!

لا ريب أن **أبا العلاء**(١٩٢) **المعرى** يصلح أن يكون رجلاً ممن تعنى «الجامعة» بنشر تراجمهم، وقد قال ما لم يقل بمثله **فولتير** و**روسو**، وقد مات مع ذلك على فراشه. وقبره اليوم مزار يرحل إليه في بلده.

أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء «الجامعة» أن الإسلام كان يوسع صدره للغريب، كما يوسعه للقريب بميزان واحد، وهو ميزان احترام العلماء للعلم. ويسهل عليّ، أن ألتمس العذر «للجامعة» بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث، قيل إنها حدثت للدين، وما حدثت له، بل كان سبب حدوثها. سياسة خرقاء، أو جهالة عمياء، أو تأريث بعض السفهاء.

لا أطيل خوف الإملال، وأنتقل الآن إلى الأمر الثالث، وهو المقابلة بين طبيعة الدينين، وهو أهم مما سبق ومما سيلحق.

طبيعة الدين المسيحي

تمهيد

ظنت «الجامعة» أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، ولذلك كان في طبيعته التسامح، أما الدين الإسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها.

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم، أو مع أى عقيدة تخالفهما، بل لا بد من بيان أركان الدين، وأهم أصوله التي ترجع إليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقية.

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض عادات أهله، أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر. فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله، فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشإ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه.

وإنني أوجز القول في إيراد الأصول الأولى التي وردت في الأناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين، وجاءت في كلام أئمتهم الأولين، ثم إيراد ما جر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين.

* * *

الأصل الأول للنصرانية: الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي، وأقوى عماد له، هو خوارق العادات. تقرأ الأناجيل، فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه، إلا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الأناجيل يطول شرحه. ثم إنه جعل ذلك دليلاً على صحة الدين لمن يأتي بعده، فجعل لأصحابه ذلك، كما تراه في الإصحاح العاشر من إنجيل «متَّى» وغيره. إذا تتبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين، تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه. فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين، لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص.

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان، ولو كان مثل حبة خردل، كاف في خرق نواميس الكون، كما قال في الإصحاح السابع عشر من «متَّى»: ١٠ «فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم». وفي الحادي عشر من «**مُرْقُس**» ٢٣: «لأني الحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، ولا يشك في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله له يكون، فمهما قال يكون له، ٢٤ لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم».

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة، وأن للعلل أو الشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها، أو ما شرطت فيه، أو ما تسبب عنها، أو ما

استحال وجوده لوجودها ـ كان مضادا لهذا الأصل في أي زمن . وقد كان كل علم من علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد لهذا الأصل . ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لايحتاج إلى البحث في الأسباب والمسببات ، لأن اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله ، فهو في غنى عن العلم ، والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه .

الأصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل ، أصل آخر ، وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرءوسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ماورد ١٦ : ١٩ من إنجيل «متَّى» : «أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات» . وفي ١٨ : ١٨ منه «الحق أقول لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» .

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك ، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها . فليس المعتقد حرا في اعتقاده ، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله ، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه . فإذا اهتزت نفسه إلى بحث ، أوقفها القابض على تلك السلطة . وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم ، فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا .

الأصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين ، أصل ثالث ، وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة ، تجد هذا الأصل في الأناجيل ، وفي «أعمال الرسل» . وكلما قرأتَ في الكتب الأولى عثرتَ به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت والهروب

من عالم الملك صريحة في الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من إنجيل «متّى». فممّا جاء في السادس: «لا تقدرون أن تخدموا اللّه والمال، ٢٥ لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس»؟ إلى أن قال: ٣٣ ولكن اطلبوا أولاً ملكوت اللّه وبره وهذه تزاد لكم، ٣٤ وأقول لكم أيضا: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت اللّه». وفي العاشر: «٩ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم، ١٠ ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا إلخ».

وحث على الرهبانية وترك الزواج، وفي ذلك قطع النسل البشري. قال في (١٩ : ١٠ من مَتّى) «ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل».

ثم إن ملكوت السماوات قد نيط أمره بالإيمان المجرد عن النظر في الأكوان. فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر في أي علم، والعلم لا دخل له في شئون الآخرة، والدنيا قد حرمت عليه؟ لا ريب فى أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها، وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده، فإن عبادة الإنجيل ليست شيئا سوى الإيمان والصلاة.

الأصل الرابع للنصرانية

الإيمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول، أصل رابع، وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول، لا يختلف فيه **كاثوليك**، ولا **أرثوذكس**، ولا **بروتستانت**، وهو أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما هو فوق العقل، بمعنى ما يناقض أحكام العقل، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به. قال **القديس «أنسيلم»**: «يجب أن

تعـتقـد أولاً بما يعـرض على قلبك بدون نظر، ثـم اجتـهـد بعـد ذلك في فـهـم مـا اعـتقـدت. فليس الإيمان، وهـو الوسـيلة الفـردة إلى النجـاة، في حـاجـة إلى نظر العقل، والكون ومـا فـيه لا يهـم المؤمن أن يجيل فيـه نظره». وقـول القـديس: «ثم اجتهـد بعد ذلك في فهـم مـا اعـتقـدت» نوع من التفـضل على النزعـة البـشرية إلى الفـهم، وعلى الميل الفطري إلى تصـوير مـا يتعلق به الاعـتقـاد، وإلا فـمجرد الإيمان كـاف في الخـلاص. ثم الويـل كل الويل لطالب الفـهم، إذا أدى اجـتـهـاده إلى شيء يخالف مـا تعلق به إيمانه، فكأن معنى الفـهـم أن يخلق المؤمن لنفسـه مـا يسلِّي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم.

الأصل الخامس للنصرانية

أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس، وهو أن الكتب المعروفة «بالعهد القديم» و«العهد الجديد» تحتوي على كل ما يحتاج البشر إلى علمه، سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية والأعمال البدنية، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى، أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتع بها. قال «**تيرتورليان**» - وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة -: «إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية، ودليل صحة هذه الكتب قدمها، وكونها أقدم من كتاب «**أميروس**» وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها، والزمن ناصر الحقيقة، ثم تحقق النبوءات التي وردت فيها». ثم قال: «إن أساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة، وإن اللّه لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط، بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعْلَمَه من الكون، والكتاب المقدس يحتوي على العرفان على المقدار الذي قُدِّر للبشر أن ينالوه». فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم - مما يجب تسليمه، مهما ضارب العقل وخالف شاهد الحس - فعلى الناس أن يؤمنوا به أولاً، ثم يجتهدوا ثانيًا في حمل أنفسهم على فهمه، أي على تسليمه أيضا كما ترى.

وقال بعض فضلائهم: إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس.

* * *

الأصل السادس للنصرانية

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين

يتنظم تلك الأصول كلها أصل سادس، وهو آخرها فيما أرى، ذلك الأصل هو الذي ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل «مَتَّى» وهو: «٣٤ لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا، ٣٥ فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها، ٣٠ وأعداء الإنسان أهل بيته».

وقد صرح في عدة مواضع من الإنجيل أن الإخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك، وإن كان قد جاء في مواضع كثيرة أن الإيمان وحده كاف في الخلاص. غير أن روح الشدة التي جاءت في قوله: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما إلخ» هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر.

* * *

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعْرضَ المسيحيون الأولون عن شواغل الكون، وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهارا للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شيء سواهما، وحجروا على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان وتلك العبادة. ووسائل الدعوة

هي الإيمان والعبادة كذلك. فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم، وضعوا أمام نظرها كتب «العهد القديم»، وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه، بل أن يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفًا من الزيغ عن الإيمان السليم - **البروتستانت** رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب المقدس - ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظًا لذلك كله. فإذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي إلى معارضة شيء من أمور الإيمان المقررة، وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر، ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة، كما أفهمه **المسيح** بعمله، على حسب ما ورد في الإنجيل، فقد قيل له: «٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك، ٤٨ فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟ ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه، وقال: ها أمي وإخوتي». ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده. ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نبتا ثم شجرا، فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة.

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم، وتقرر عند القوم قاعدة: «إن الجهالة أُم التقوى». (وكثير من أهل الأديان، مسيحيين ومسلمين، لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) - فحصروا التعليم في الأديار، ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر. وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره.

ظهرت ذات الذنَب التي تنسب إلى «**هالى**» في سنة ١٦٧٢، فاضطربت لظهورها أوروبا، ولجئوا إلى البابا، واستجاروا به فأجارهم، وطردها من الجو، فولت في الفضاء مذعورة من لعنته، ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة!!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدى رأيا يخالف صريح ما في الكتاب. وعندما أظهر «**بلاج**» رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم، أي أن الحيوانات كان يدركها الموت

قبل أن يخطئ آدم بالأكل من الشجرة، قام لذلك ضوضاء، وارتفعت جلبة، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك. يقول المؤرخ: وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك.

أحرقت كتب البطالسة والمصريين **بالإسكندرية** على عهد «**جول قيصر**». ثم إن «**تيوفيل**» **بطريرك الإسكندرية** انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة في المدينة لإتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة، بعضه بالإحراق وبعضه بالتبديد. قال «**أوروسيوس**» المؤرخ: إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الإمبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة.

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته «**سيريل**»، وكان خطيبا مفوها له على الشعب سلطان بفصاحته، وكان في **الإسكندرية** بنت تسمى «**هيباتى**» الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية، وكان مجلسها لا يخلو من البحث في أمور أُخَر، خصوصا في هذه الأمور الثلاثة: من أنا؟ وإلى أين أذهب؟ وماذا يمكنني أن أعلم؟ فلم يحتمل ذلك القديس «سيريل»، مع أن البنت لم تكن مسيحية، بل كانت على دين آبائها المصريين، فأخذ يثير الشعب عليها، حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دار ندوتها، وجردوها من ثيابها، وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار. يقول المؤرخ راوي هذه القصة: ولم يُسأل «سيريل» عما صنع «بهيباتي»، ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة. «الغاية تشفع للوسيلة».

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق، ونازع فيها فريق، إلاّ وقد سالت لها الدماء. فلنراجع التاريخ لنتمثل أرض **مصر** مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين، عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها للّه أما. كان ذلك في طبيعة الدين: أن من لم يتبع **المسيح** فهو هالك، والهالك لا يستحق

الحياة. ألم تر في الإصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده، وعندما جاء بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئا أخفاه عنه، فاطلع بطرس على حقيقة الأمر، ووبخ الرجل، وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة. ثم جاءت امرأته، وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه، فوبّخها بطرس وأخبرها بموت زوجها، فماتت هي أيضا. فإذا كان اللَّه يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئا من مال نفسه لم يقدمه هدية إلى الرسل، فكيف تكون الحياة من حقه إذا خالف اللَّه في الأرض ونابذهم فيما يعتقدون؟!

قال **البابا أنوثان الثالث**، عند الكلام في مصادرة أموال الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية: «لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة، وترك الحياة لهم منٌّ وإحسان». فلم يقصر الجزاء على الجاحدين، ولكن عَدَّاه إلى أولادهم، وقد عدّ ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الإحسان عليهم، لأنهم لا حق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم.

* * *

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد **قسطنطين** وما بعده، إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يُفْصَل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض. وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون، وما كان يقع بين ملوك أوروبا من التسافك في الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ، وليس من موضوعنا الكلام فيه.

ولكني أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوروبا بعد ظهور الإسلام،

واستقرار سلطانه في بلاد **الأندلس**، واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية.

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم، وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين، غلبوا على الأرض المقدسة، وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص. وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة. فلما قفل الغزاة إلى ديارهم، قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومرءوة، وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة.

ثم كان الخليفة **الحكم الثاني**(١٩٣) جعل من بلاد الأندلس فردوسا، كما قال الفيلسوف الأميركاني(١٩٤)، وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية. قال **بطرس المحترم الشهير**: «إنه رأى كثيرا من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد **إنكلترا**. وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا، كانوا يجدون فيها رحبا وسعة. وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعًا للكتب - نسخ وتذهيب وتجليد». . إلخ ما قال.

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب، ثم وجدت المطبعة، وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم من أهالي **إسبانيا** ومن حملوه مما جاورها. ثم انساب إلى العلم شيء مما سماه الأوروبيون فلسفة **ابن رشد**، وعند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر، وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس، أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

قال «**رومنيس**»: «إن قوس قزح ليس قوسا حربيا بيد اللّه ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء». فجلب إلى روما وحبس حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه، فحكم عليها وألقيت في النار. وقيل في علة

الحكم: إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وإنكلترا. وأي ذنب أعظم من هذا الصلح؟! هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء!!

* * *

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

أنشئت المراقبة على المطبوعات، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة. وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب، أو ينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره. وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومئ إلى مخالفة العقيدة **الكاثوليكية**، ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع، يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة.

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة، عندما خيف ظهورهما بسبب تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، خصوصا في جنوبى فرنسا وإيطاليا. أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب «**توركماندا**».

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام. ففي مدة ١٨ سنة - من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ - حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء، فأحرقوا؛ وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير، فشهروا وشنقوا؛ وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة، فنفذت. ثم أحرقت كل توراة بالعبرية.

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة «المقدسة»؟! وسيلة واحدة، هي أن يحبس المتهم، وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة، إلى أن يعترف بما نسب إليه، وعندئذ يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ.

قرر مجمع «لاتران» سنة ١٥٠٢، أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد،

وطفق «الدومينكان» يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه، وتحلية العقول ببعض أفكاره.

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم، والسعاة إلى كسبه. ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها: في المدن، في البيوت، في السراديب، في الأنفاق، في المخازن، في المطابخ، في المغارات، في الغابات، في الحقول. فوفت بما كلفت، مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين، عملاً بالقول الجليل «ما جئت لألقي سلاما بل سيفا».

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم، والقسوس في كنائسهم، والأشراف في قصورهم، والتجار بين بضائعهم، والصناع في مصانعهم، والعامة في بيوتهم ومزارعهم، وحيثما وجدوا، وأينما ثقفوا، ويوقفون أمام المحكمة، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم.

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس، الاعتراف الواجب أداؤه على **المذهب الكاثوليكي** أمام القسيس في الكنيسة.

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد، فيكون ما تسأل عنه عقيدة أبيها وزوجها أو أخيها، وما يبدر من لسانه في بيته، وما يظهره في أعماله بين أهله. فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه، رفع أمره إلى المحكمة، فينقض شهاب التهمة عليه. فإذا سئل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لا يجاب، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد، وهو من أهله، حتى يعترف.

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا، ما خيِّل إلى كل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم

يتبعه، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه. وقال «**باغلياديس**» ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد: «يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه».

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة، منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء.

* * *

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوروبا، على زعم القسوس، وكان ابن رشد أستاذا يتعلم عنده كثير من اليهود، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه، ثم هو مع ذلك مسلم، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا. فصدر الأمر في ٣٠ مارس ١٤٩٢م بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان، يجب أن يترك بلاد إسبانيا قبل شهر يوليو. ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط ألا يأخذوا في الثمن ذهبا ولا فضة، وإنما يأخذون الأثمان عروضا وحوالات. ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟! وصدر أمر «**توركماندو**» ألا يساهم أحد من سكان إسبانيا في أمر من أمورهم. وهكذا خرج اليهود - تاركين كل ما يملكون - بأرواحهم، على أنه لا نجاة لكثير منها، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وفي فبراير سنة ١٥٠٢، نشر الأمر بطرد أعداء اللّه المغاربة (المسلمين) من **إشبيلية** وما حولها - من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد إسبانيا قبل شهر إبريل - وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع لليهود، ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل. فهؤلاء المساكين نفوا جميعا إلى القتل، إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع، فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع.

ألا يعجب القارئ إذا رأى أن «**برونو**» يحرق بالنار حيا، بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠؛ لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود، وقال إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة؟ الحمد للّه رب العالمين.

* * *

ظهر القول بكروية الأرض ـ ذلك الأمر الذي عرفه المسلمون، وصار رأيًا لهم في أول خلافة بني العباس، ولم تتحرك له شعرة في بدن ـ فأحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية، ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه.

هل يصدق القارئ أن ما قصده «**كريستوف كولمب**» من السفر إلى المحيط الأطلانطيقي، لعله يكتشف أرضا جديدة، كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين؟! ثم أعيد النظر فيه، وعرض على أقوال الآباء من «**كريزستوم**» و «**أوغستين**» و «**جيروم**» و«**غريغوار**» و«**بازيل**» و«**إنبرواز**»، وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئا، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة، كما هو معلوم؟! قال كريستوف كولمب: «إن الذي أوحى إليّ هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد». من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم:

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل «السلطة للقسوس، والطاعة على العامة». كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الأرض والسماء، فهو باطل تجب مقاومته بكل ما يستطاع. لهذا حكم على «**غاليلي**» الذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد:

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في **الأستانة**، ثم نقلتها إلى أوروبا **امرأة تسمى «مونتاجو»** سنة ١٧٢١، فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها، واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك **إنكلترا**. وعادت هذه الشدة في المعارضة، عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري.

مقاومة تسهيل الولادة:

أيّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق؟!

اكتشاف أميركاني، رأى حضرات القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين. (إذ جاء في الإصحاح الثالث منه: وقال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادا).

* * *

مقاومة السلطة المدنية وحدية الاعتقاد

نشر البابا منشورا في سنة ١٨٦٤، جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية، أو جواز أن يفسر أحد شيئا من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة، أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه. وفي منشور له سنة ١٨٦٨: إن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم. ودعا الروم **الأرثوذكس** و**البروتستانت** إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه.

وفي سنة ١٨٧١، كان النزاع بين حكومة **بروسيا** والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات، رأى رأيا لا يروق للحزب **الكاثوليكي**، فحرمه البابا وطلب من الحكومة

عزله. وكانت إحدى المعضلات السياسية. غير أن عزيمة «بسمارك» نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة، وأبقت الأستاذ، وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية.

* * *

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب

لا أذكر الجمعيات العلمية التي ألغيت، والاجتماعات التي عطلت، لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر إلى منافعهم، وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري، ومن الطريق العقلي، من غير استشارة المسيطر الإلهي - وهو الكنيسة - ولكن أذكر شيئا واحدا وهو أن **الكردينال «أكسينيس»** أحرق في غرناطة ٨ آلاف كتاب بخط القلم، فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد.

* * *

البروتستانت أو الإصلاح

ربما يقول قائل: إن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول. ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى، بزغت شمس العلم بالغرب، وبسط للعلم بساط التسامح، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جريا مع طبيعة الدين.

لا أذكر في الجواب عن ذلك إلا ما ذكر **البروتستانت** أنفسهم في تاريخ الإصلاح: استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة. وقد أمر **كلفان**[١٩٥] بإحراق «**سيرفيت**» في **جنيف**؛ لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع **نيقية**، وكان يقول إن

روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها. فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات. وكذا أحرق «**فايني**» في **تولوز** سنة ١٦٢٩.

كان لوثر أشد الناس إنكارا على من ينظر في فلسفة **أرسطو**، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب، ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه!! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثر، لكنه لم يكن أحسن ظنا به، ولا أوسع صدرًا لمن يطلع على شيء من كتبه. وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف «المعلم الأول». فتأمل الفرق بين الفريقين!!

قالوا: البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة، وبإبطال السلطة على غفران الذنوب، والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية، وإبطال عبادة الصور. ولكنهم لم يغيروا شيئا من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري، كما أنها منبع نور الإيمان بالدين الإلهي، وأنه لايباح للعقل أن ينساق في نظره إلى ما يخالف شيئا مما حوته وأنه لا حاجة إلى شيء من العلم وراء ما ورد فيها. وبالجملة إنهم لم يبطلوا أصلاً من الأصول الستة التي تقدمت، إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الأصل الثاني في سابق قولنا.

قالوا: ولهذا لم يكن مذهب الإصلاح أخف وطأة على العلم، ولا أفضل معاملة من **الكاثوليك**، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة - (وهي القائمة على الأصول الستة) - ولم يكن لأهل النظر العقلي جزاء في كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم.

لو كنت ممن يحب الجدل في الدين، لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية، واضطهادات الكنيسة: «ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الإنساني من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البريء

على يد المعتدي الأثيم» . لكني في بحثي هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال، وإنما آتي بما هو حكاية حال، ليس للناظر فيها مقال .

* * *

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته «الجامعة» أساسا للفصل بين السلطتين الدينية والملكية، وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى إلى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل كما قالت «الجامعة» ـ وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية ـ فماذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته؟! هب أن مصالح الملك تكون دائما أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الإيمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين؛ إحداهما، تحل وتربط في الأرض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين؛ والأخرى، تحل وتربط في الأرض فيما هو من خصائص الدنيا، أفلا يكون هذا الفصل قاضيا بتنازع السلطتين، وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معا؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني؟! إذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم؟! فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة، أفتصبر الأخرى؟! هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين .

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها؟! والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله، ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى

أعـمـاق قلوب الناس، وتديرها كـيف تشـاء، والملك لا قـوة لـه إلا بأولئك الـناس المغلوبين للسلطة الدينية.

لا يتـأتى للملك أن يغـالب تلك القـوة إلا بعـد أن يتناول من الوسـائل ما لا يُعدُّ لإضعاف سلطتها. نعم هذا الفصل يُسهل التسامح، لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها، والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها.

ثم هل هـذا هو مـعنى قـول الإنجيل؟ القـصة على مـا جاء في الإنجيل أن بعض المرائين أراد أن يسقط **المسيح** ليأخذ عليه ما ينم به، فسأله: أيجوز أن نعطي جزية لقيصر؟ فأجاب: لم تجربونني؟ ائتوني بدينار لأنظر إليه. فأتوه بدينار، فقال: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّٰه للّٰه. فمعناه الظاهر من سياق القصة: أن صاحب السكة التي تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئا فادفعوه له، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من اللّٰه وعليه طابع صنعته، فلا تعطوا منه لقيصر شيئا. العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع اللّٰه، فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية. فأي تسامح مع العلم في هذا؟!

* * *

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه، فيما بعد نشأته، وما وقع من حوادث أهلـه مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن إلى مـا يقـرب من أيامنا هذه، كل ذلك مـأخـوذ من تأريخـهم الـذي كـتبـوه عن أنفسهم، ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكئون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم.

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين في المسيح عليه السلام

ودينه: فهو على غير ما رآه القارئ، إنا نعتقد أن **المسيح** روح اللّه وكلمته ورسوله إلى بني إسرائيل بعث مصدقًا لما بين يديه من التوراة. وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شئون معاشهم ومعادهم. ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم اللّه تعالى إياها، بل طالبهم بشكر اللّه تعالى عليها، ولا يُشْكَر حق الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها اللّه له. والعقل من أجلّ القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى اللّه وسبيل للوصول إليه. وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالفه شيء منه. هذا الذي نعتقد. فإن صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الأصول، أمكننا تأويله حتى يرجع معناه إليها، أو وكلنا الأمر فيه إلى اللّه وقلنا: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (البقرة: ٣٢).

الدين دين اللّه، وهو دين واحد في الأولين والآخرين، لا تختلف إلا صوره ومظاهره. وأما روحه وحقيقته، مما طُولب به العالَمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير: إيمان باللّه وحده، وإخلاص له في العبادة، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا. وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية. ونعتقد أن دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول. ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة والائتلاف. وهذا ما عمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالإسلام.

وإذا سأل سائل: إذا كان الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوروبيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم، واشتداده في معاداته، فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوروبا؟! وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها؟!

فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت «الجامعة»، وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الإسلامي، وما يليق أن يكون له مع العلم، وما انجر إليه الحال بمقتضى

تلك الطبيعة، وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثره في أخريات الأيام. وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى.

* * *

طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول:

للإسلام في الحقيقة دعوتان: دعوة إلى الاعتقاد بوجود اللَّه وتوحيده، ودعوة إلى التصديق برسالة **محمد** ـ صلى الله عليه وسلم.

فأما الدعوة الأولى، فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون، واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا، وأن ذلك الصانع واحد، لوحدة النظام في الأكوان. وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد، فنبهه إلى أن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح ـ على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها، وتنبت ما شاء اللَّه من النبات والشجر، مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات اللَّه عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته.

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوالمه، فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السماوات والأرض، كما جاء في آية: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ونحوها من الآيات. وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان. وقد يزيد

التنبيه تأثيرا في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة، كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أين كان ربنا قبل السماوات والأرض؟ فأجابه عليه السلام: «كان في عماء تحت هواء». والعماء عندهم السحاب. فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب، ولا يطالبه فيه بحساب. فليقرأ القارئ القرآن، ويغني عن سرد الآيات الداعية إلى النظر في آيات الكون: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥)؟ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس: ٣٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢). وأمثال ذلك. فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن، بل من نصفه في مقالي هذا.

يذكر القرآن إجمالاً من آثار اللّه في الأكوان تحريكا للعبرة، وتذكيرا بالنعمة، وحفزا للفكرة، لا تقريرا لقواعد الطبيعة، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة. وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل. انظر كيف يقرع بالدليل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢). ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي. والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية. وقد اتفق المسلمون ـ إلا قليلاً ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد باللّه مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان باللّه. فلا يصح أن يؤخذ الإيمان باللّه من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة، فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله اللّه إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود اللّه، وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولاً.

وقالوا كذلك: إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد باللَّه، لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة[١٩٦].

وأما الدعوة الثانية، فهي التي يحتج فيها الإسلام بخارق العادة، وما أدراك ما هو خارق العادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره، ولم ينقطع أثره، هذا هو الدليل وحده، وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وَهى، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل تقوية العقد لمن حَصَّل أصله، وفَضلٌ من التأكيد لمن سَلَّمه من أهله.

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده.

والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو اللَّه وحده - وليس من اختراع البشر - هو أنه جاء على لسان أُمِّيٍّ لم يتعلم الكتاب، ولم يمارس العلوم. وقد نزل على وتيرة واحدة، هاديا للضال، مقوما للمعوج، كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم، منقذا لهم من خسران كانوا فيه، وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه. حتى لقد دعا الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا، ولجئوا إلى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجئوهم إلى الدفاع عن حقهم، كان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنشر أنوارها في أجوائها.

وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المُدَّعى فعليهم أن يأتوا به، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣). وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢). قال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة. ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل.

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم، كل منهما مما يتناوله العقل بالفهم، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها وله منها حظه الذي لا ينتقص. فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها. أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت، أو حياة ميت، أو إخراج شيطان من جسم، أو شفاء علة من بدن. فهي مما ينقبع[197] عنده العقل ويجمد لديه الفهم، وإنما يأتي بها اللَّه على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم يضيء عقولهم نور العلم. وهكذا يقيم اللَّه بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات.

ثم إن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة اللَّه في الخليقة. ولا حاجة إلى بيان ذلك، فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف.

* * *

الأصل الأول للإسلام

النظر العقلي لتحصيل الإيمان

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح. فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟!

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من **أهل السنة**: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالبا غير واقف عند الظن، فهو ناج. فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟!

* * *

الأصل الثاني للإسلام

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أشرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره: اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه. والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - مُهِّدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد. فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف، حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟! وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء؟! إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها، ولا سماء بأجرامها وأبعادها.

* * *

أصل ثالث

من أصول الأحكام في الإسلام: البعد عن التكفير

هلاَّ ذهبت من هذين الأصلين، إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم؟ وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر. فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا؟! وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟! إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ، كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية، ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار!!

* * *

أصل رابع في الإسلام

الاعتبار بسنن الله في الخلق

يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتبار - وهو ألا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل، وألا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات - أصل

آخر، وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها، ذلك هو أصل العبرة بسنة اللّه فيمن مضى ومن حضر من البشر، وفي آثار سيرهم فيهم.

فمما جاء في الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧). ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٧) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣). ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الروم: ٩)؟ إلخ.

في هذا يصرح الكتاب أن للّه في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل. والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشئون، وعلى حسبها تكون الآثار. وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين، ما لنا ولاختلاف العبارات؟ الذي ينادي به الكتاب، أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه. فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية، عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها، في أي لباس وجدت، وفي أي صورة ظهرت، وتحت أي اسم عرفت. ولكن كتابه عربي. والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين، وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان، ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه، ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم، وما فيها من الوثنية وأطوارها.

هكذا صنع المسلمون الأولون. . ركبوا الأسفار، وأنفقوا الأعمار، وبذلوا الدرهم والدينار في جمع كلام العرب، وحفظه وتدوينه وتفسيره، توصلاً بذلك إلى فهم كتاب ربهم المنزل. فكانوا يَعُدُّون ذلك ضربا من ضروب العبادة، يرجون من اللّه فيه حسن المثوبة. فكان من طبيعة الدين ألا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه، بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه، متى حسنت النية في تناوله.

وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به. وأما المسيحيون الأولون، فقد هجروا لسان **المسيح** عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا، وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية، ولم يكتب في العبرية إلا إنجيل «**متَّى**»، فيما يقال. ألا ترى أن اسم الإنجيل نفسه يوناني؟ كل ذلك، كراهة لليهود الذين كان المسيح ينطق بلسانهم، ويعظهم بلغتهم، وتحرجًا من النظر في دواوين آدابهم، وما توارثوا من عاداتهم.

* * *

الأصل الخامس للإسلام

قلب السلطة الدينية

أصل من أصول الإسلام أنتقلُ إليه، وما أجله من أصل، هو قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها.

هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يَدَع الإسلام لأحد بعد اللّه ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه. على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا، لا مهيمنا ولا مسيطرا. قال اللّه تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢). ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط، لا في الأرض ولا في السماء. بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه؛ فما بينه وبين اللّه سوى اللّه وحده، يرفع عنه كل رق إلا العبودية للّه وحده. وليس لمسلم،

مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد. قال تعالى في وصف المفلحين: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣). وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢) فالمسلمون يتناصحون. ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير - وهم المراقبون عليها - يردونها إلى السبيل السوي إذا انحرفت عنه، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد، ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد. وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد، إلا عن كتاب اللَّه وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم.

لكل مسلم أن يفهم عن اللَّه من كتاب اللَّه، وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف. وإنما يجب عليه قبل ذلك، أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم: كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها، وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة، وما كان الناس عليه زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار. فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب، فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما، وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به، سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال. فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.

السلطان في الإسلام

لكن الإسلام دين وشرع. فقد وضع حدودًا، ورسم حقوقًا. وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله؛ فقد يغلب الهوى، وتتحكم الشهوة، فيغمط الحق، ويتعدى المعتدي الحد. فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام، إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بد أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخليفة.

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم. ولا هو مهبط الوحي. ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة. نعم، شَرْطٌ فيه أن يكون مجتهدا، أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها ـ مما تقدم ذكره ـ بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معا.

هو ـ على هذا ـ لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء. إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الإصابة في الحكم. ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة. والمسلمون له بالمرصاد: فإذا انحرف عن المنهج أقاموه عليه، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه. ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه. فالأمة ـ أو نائب الأمة ـ هو الذي ينصبه. والأمة هي صاحبة

الحق في السيطرة عليه. وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها. فهو حاكم مدني من جميع الوجوه.

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج «ثيوكراتيك»، أي سلطان إلهي. فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن اللّه. وله حق الأثرة بالتشريع. وله في رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان. فليس للمؤمن ما دام مؤمنا أن يخالفه، وإن اعتقد أنه عدو لدين اللّه وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه، لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا: هما دين وشرع. هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى، ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الإشارة إليه.

كان من أعمال التمدن الحديث، الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية؛ فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه: تشرع وتنسخ ماتشاء، وتراقب وتحاسب كما تشاء، وتحرم وتعطي كما تريد. وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم، في معاشهم لا في معادهم. وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم.

ثم هم يبهمون(١٩٨) فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد، ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم: أن السلطان هو مقرر الدين، وهو واضع أحكامه، وهو منفذها، والإيمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالإخضاع، وفي العقول بالإقناع، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع. ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه. وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ويحمي حقيقة الجهل؛ فلا يتيسر للدين الإسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم، ما دام من أصوله أن إقامة السلطان واجب بمقتضى الدين. وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض، وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام. علمت أن ليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة

الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها اللّه لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. ومن هنا تعلم «الجامعة» أن مسألة السلطان في دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم. وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء، وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد.

يقولون: إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني، أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام؟!

وأقول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام. وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء، فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريق نظره.

* * *

الأصل السادس للإسلام

حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا: إن الدين الإسلامي دين جهادي، شرع فيه القتال، ولم يكن شرع في الدين المسيحي. ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه. وليس فيه ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة، وهي التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر. من سخرك ميلاً فسر معه ميلين» - **(متى: ٣٩ و٤٠)** - ونحو ذلك، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو، وهي مما لا يدخل تحت الاختيار، بل ولا محبة الصديق، وإنما الاختياري العدل بين الأعداء والأولياء. لكن في ملكوت اللّه كل شيء مستطاع، ولا شيء فيه بمستحيل.

قلنا: لكن انظروا: هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه، وعند عدم التمكن من سواه، خاص بالدين الإسلامي؟! أو هو في طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه؟!

ليس القتل في طبيعة الإسلام، بل في طبيعته العفو والمسامحة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم، ويضمن السلامة من غوائلهم، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه. ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية ما تسمعه فى الحروب المسيحية، عندما اقتدر أصحاب «شريعة المسالمة» على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال.

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة، كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين. وإنما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين. وغاية ما يقال: إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل، فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته.

* * *

مقابلة بين الإسلام الحربى والمسيحية السلمية

الإسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار، لا يضايقون فى عمل، ولا يضامون فى معاملة. خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العُبَّاد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة، كما

كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يُعن على القتال. وجاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، «ومن آذى ذميا فليس منا»، واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام. ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى الإسلام - وضيق الصدر من طبع الضعيف - فذلك مما لا يلصق بطبيعته ويخلط بطينته.

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم، بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم، أجلتهم عن ديارهم وغسلت الديار من آثارهم، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا.

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد، أو شدة العضد كما شاهد التاريخ، وكما يشهد التاريخ، وكما يشهد كاتبوه. ذلك كله لأنه ما جاء ليلقى سلاما بل سيفا، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه. والإسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (لقمان: ١٥) فهو فى اشتداده على المـُهدِّدين لأمنه لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم.

وأنت ترى الإسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشىء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلُّبه عليهم، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة، ولا يخلون بنظام السلطة العامة، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم. ومن جهة أخرى، ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قرباهم من المشركين، ويطالبهم بحسن معاملتهم. ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم إلى ربهم. وفى

طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته، ويحمى من لا يتبع سنته، وإن كان فى عمى من الجهالة، وخبل من الضلالة. أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة، أو كشف غامض أو تبيين طريقة؟! كلا، ثم كلا. فمن بحث ونقب وسبر ونقر، أو شق الأرض أو ارتقى إلى السماء، فهو فى أمن من أن يعرض الإسلام له فى شىء من عمله، إلا أن يحدث شغبا، أو يفسد أدبا، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد وإصلاح الفاسد بسماح من الدين.

* * *

الأصل السابع للإسلام

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة:

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية كانت أو يهودية. وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته فى العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه.

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية. ولم تخرج الزوجة الكتابية، باختلافها فى العقيدة مع زوجها، من حكم قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١). فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة، وهى كما هى. وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها

لبـاس لـه . أين أنـت من صلة المصـاهـرة التى تحـدث بين أقـارب الزوج وأقـارب الزوجـة ، وما يكـون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة ، على مـا عهـد فى طبـيعـة البشر؟ وما أجلى ما يظهـر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم . أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين ، مما يُعَـود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه . والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها . وأما المخلوق ، فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى الزوجة الكتابية ، لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها اللّٰه بينه وبينها؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال ، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم ، أو قاعدة لصناعة؟ إن كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد أو يميل إلى رأى غير الذى يجد؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟!

لو ذهبت أعُد ما فى طبيعة الإسلام من عناصر وأركان ، كلها تؤلف مزاج الكرم وتكون حقيقة المسامحة مع العلم ، لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب علىّ أن أختم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

* * *

الأصل الثامن للإسلام

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الحياة في الإسلام مقدمة على الدين. أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رَهَبه، وتفعم أمله من رَغَبه، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ولا تجشمه في ترك الملذات ما فوق العادة.

صاحب هذا الدين - صلى الله عليه وسلم - لم يقل «بع ما تملك واتبعني»، ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

فرض الصوم على المؤمنين، لكن إذا خشي منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه، جاز تركه، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه.

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة، إلا إذا خشي منهما الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء.

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به، إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه، فيسقط ويصلي قاعدا.

السعي إلى الجمعة واجب، إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعبا ومشقة، فيسقط. وهكذا تجد القاعدة قد عمت: «صحَّةُ الأبدان مقدمة على صحة الأديان». فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البَدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

* * *

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة، والتوسع في التمتع بالمشتهيات، على شريطة القصد والاعتدال، وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية. جاء في الكتاب العزيز: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ

مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١ـ٣٣).

ثم عد اللّه النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا، التى يذكرنا بها فضله، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره، كما قال: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٥ـ٨). ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

ووضع قانونا للإنفاق وحفظ المال فى قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧). ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

* * *

النهى عن الغلو فى الدين

وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة، فيهلك دنياه وينسى نفسه منها، فذكرنا ـ بما قصه علينا ـ أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم اللّه علينا فى الدنيا، إذ قال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

فنرى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها. فهو الذى جمع للإنسان أجزاء حقيقته، واعتبره حيوانا ناطقا، لا جسمانيا صرفا، ولا ملكوتيا بحتا. جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة، واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى. أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩)، قد أطلق القيد عن قواه، ليصل من رفه الحياة إلى منتهاه؟ والنفوس، مطبوعة على التنافس، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا.

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود، أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطالع للرغبة وراءها، بل خصَّها اللَّه بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء اللَّه أن ترقى بدون حد معروف.

* * *

نتيجة جمع الإسلام بين مصالح الدين والدنيا

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها، ومرشدها وهاديها، بين شاحذين: شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضا فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع(١٩٩) لا تخشى العثرة بالوعيد، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد، فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها. فتسير فى مناكب الأرض، ولا تكتفى عن الكُلِّ بالبعض، وتبحث فى تربتها، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء، والبحث فى الماء، والاهتداء بنجوم السماء، بعد معرفة مواقعها، وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها، وظهورها وخنوسها(٢٠٠). وبالجملة، فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم، ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة، لا يجد من نواهى الدين ما يصده عن مطلب، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة. أين هذا من ذلك الذى لا

يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العلم ولذائذه، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق، تحول بينه وبين ملكوت السماوات؟!

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر اللَّه حق شكره، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره، لينفذ من مظاهره إلى سره، ويقف على قوانينه وشرائعه، ويستخدم كل ما يصح لخدمته فى توفير منافعه؟ يشكر اللَّه إذا توانى فى ذلك، وقد أرشده اللَّه فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجْله، وقد وضعه اللَّه تحت تصرف عقله. انظر إلى لطف الإشارة فى الآية المتقدمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إلخ، حيث قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم اللَّه تعالى فيما يرفه به معيشتهم، ويجمل به هيئتهم، ويحلى به زينتهم.

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوافر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان، وتلقيه من أى شفة وأى لسان. فإذا لاقاهم العالم فى أى سبيل، أو عثروا به فى أى جيل، أو ظهر لهم من أى قبيل، هشوا له وبشوا، ونصبوا إليه وكمشوا[٢٠١]، وشدوا به أواصرهم، وعقدوا عليه خناصرهم، ولا يبالون ما تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته: «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها». ألم يأتهم عن ربهم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)؟ ألم يسمعوا فى وصفهم قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨).

ذلك شأن المسلم مع العلم، إذا كان مسلما حقًا وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه. حديث: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، إن كان فى سند لفظه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - مقال، فسند معناه متواتر، فإنه سند القرآن نفسه. فإن اللَّه يفضل العلم بدون قيد ولا تخصيص، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين، ولم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم.

لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه، وإن كان في أول أمره مطلوبا بالغير، مثل العلم. تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه في تقويم معيشة، أو ترفيه حال، أو دفاع عن نفس وملة، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها، وتضمحل فيها كل غاية سواها. وعلة ذلك ظاهرة، فإن العلم مسرح نظر العقل، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هي أفضلها على الحقيقة. وقد وضع لها العليم الحكيم لذة، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة. ولست في حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس، فالحيوان يعرفها بَلْهَ الإنسان. وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع، عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول، وإحراز المعقول.

وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال. أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه، أن يسبح في مملكة العلم ليمتع عقله، ويسيح في بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجاتها، كما ذكرنا، فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة، ويستجلي سناءه للحاجة، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه، وشاغله عن حاجات حسه، حتى يدخل مغه في رمسه، كما وقع لكثير من المسلمين. قال إمام جليل(٢٠٢) من أئمتهم: «طلبنا العلم لغير اللّه، فأبى أن يكون إلا للّه».

* * *

نتائج هذه الأصول

وآثارها في المسلمين

إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟! وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين؟! فتح **عمرو بن العاص**، رضي اللّه عنه، **مصر**، واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى بست سنوات، في رواية

وتسع سنوات فى رواية أخرى، والإسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره. فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من **اليعقوبيين** اسمه «**يوحنا النحوى**»، كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته، وكان يميل إلى العلم بطبيعته. فإذا ركب معه بعض أهل العلم، أصغى إلى مذاكراتهم. ثم اشتد به الشوق، فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم. وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة، حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته.

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين: إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه، وأكرمه لعلمه. ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر، حتى قال أحد الفلاسفة الغربيين: «إن المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى، ترينا ما يسمو إليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى. بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية، ودخل فى التوحيد المحمدى، أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع».

خالط المسلمون أهل **فارس** و **سورية** وسواد **العراق**، وأدخلوهم فى أعمالهم، ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم، حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين، فاحتكت الأفكار بالأفكار، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع.

* * *

اشتغال المسلمين
بالعلوم الأدبية ثم العقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام، أخذ الخليفة **على بن أبى طالب**، كرم اللّٰه وجهه، يحض على تعليم الآداب العربية، ويطلب وضع القواعد لها، لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك. وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك

الفتن، استرسالاً مع ما يدعوهم إليه دينهم، وتنبههم لطلبه شريعتهم. وإن كانت الحروب الداخلية، التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع على أمر الخلافة، قد شغلتهم عن كل شىء من مصالحهم، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة. فالبراعة فى الآداب: من علم بوقائع العرب وتاريخهم، وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها. كان الخلفاء الأمويون يعلمون منزلتها، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسِّير، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول.

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من **المدينة** إلى الشام، ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين. فقد جاء رسول من الفرس إلى **عمر بن الخطاب**، رضى اللَّه عنه؛ فلما سأل عنه دُلَّ عليه، فذهب إليه، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء. وجاءت رسل الملوك إلى **معاوية**، رحمه اللَّه، فإذا هو فى قصر مشيد، محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية، مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء، مفروش بأحسن الفرش، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش. ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه، وإنما تناول مباحا، وتمتع برخصة آتاه اللَّه إياها. ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها.

***

اشتغالهم بالعلوم الكونية

فى أوائل القرن الثانى

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن، كما قلنا، ودالت الدولة لبنى العباس، واستقرت فى نصابها من آل بيت **النبى** قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة (١٣٢). ثم نقل **المنصور** عاصمة الملك إلى **بغداد**، فصارت

بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضا، وأخذ المنصور أيضا ينشئ المدارس للطب والشريعة، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية. وأكمل حفيده **الرشيد** ما شرع فيه، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها. وجاء **المأمون**، فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها، ونالت به أكبر ثروتها. ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير. وكان من شروط صلحه مع «**ميشيل الثالث**» أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة، فوجد مما فيها من النفائس كتاب «**بطليموس**» فى الرياضة السماوية، فأمر المأمون فى الحال بترجمته، وسموه بالمجسطى. ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس، أبناء عم الرسول - صلى الله عليه وسلم.

* * *

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دولة الإسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها، حتى كان فى **القاهرة** فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد، منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير. وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة، وكان فيها كرتان سماويتان (إحداهما) من الفضة يقال إن صانعها بطليموس نفسه، وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار. (والثانية) من البرنز. ومكتبة الخلفاء فى إسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد، وكان فهرسها أربعة وأربعين مجلدا. وقد حققوا أنه كان فى إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة.

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب، ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه. يقال: إن سلطان **بخارى** دعا طبيبا إندونيسيا ليزوره، فأجابه أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها

كلها. وكان **حنين بن إسحاق النسطورى** فى **بغداد** ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية، وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه.

* * *

إنشاؤهم المدارس للعلوم
وطريقة التدريس فيها

غُطى بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس. نقول «على سعتها» لأنها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير، فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار: فى المغول، فى التتار من جهة المشرق، فى **مراكش**، فى **فاس**، فى **إسبانيا** من جهة المغرب.

كانت طريقة الأساتذة فى التدريس أن كل مدرس يعد درسه، ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب، ثم يلقيه على التلامذة، وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم. وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شىء مما كتب صاحب الكتاب. غير أن مؤرخا واحدا رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ألا ينشر منها شىء إلا بإذن. على أنى لا أعلم شيئا من ذلك وقع فى الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاما.

نرجع إلى الكلام فى المدارس الإسلامية: يقول «**جبون**» فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب: «إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء، وبسط اليد فى الإنفاق على إقامة بيوت العلم، ومساعدة الفقراء على طلبه. وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من **سمرقند** و**بخارى** إلى **فارس** و**قرطبة**.

أنفق وزير واحد لأحد السلاطين ـ (وهو نظام الملك) ـ مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد، وجعل لها من الريع ليصرف في شئونها خمسة عشر ألف دينار في السنة، وكان الذين يُغَذُّون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها. غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة، وابن الغني يكتفي بمال أبيه، والمعلمون كانوا يُنْقَدُون رواتب وافرة». أ هـ.

انقسمت الممالك الإسلامية، في زمن من الأزمان، إلى ثلاثة أقسام، وتنازع الخلافة ثلاث شيع. كان العباسيون في آسيا(الشرق)، والأمويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون في مصر من إفريقيا (الوسط)، ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصرا على الملك والسلطان، ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والأدب. وكان مرصد«**سمرقند**» قائما في ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك، ومرصد «**جيرالد» في الأندلس**، يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الإدراك.

جميع المدارس في البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في **القاهرة**، وكان من أشد النظامات وأدقها، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة له بأنه فاز في الامتحان، على شدته. وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوروبا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في «ساليرن» من بلاد **إيطاليا**. وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب في «**إشبيلية**» من بلاد إسبانيا.

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الأدبية بجميع أنواعها، حتى القصص والأساطير الخيالية في الأحوال الاجتماعية، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة. وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين و**صابئين** وغيرهم، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين، وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها وينقلوها إلى لسانهم على حسب

ما يصل إليه علمهم فيها. وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الأمر من المسيحيين واليهود، ثم أنشئت المدارس الجامعة، وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين، كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه.

* * *

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب في أول الأمر يونانيا، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربيا. ولم يرض العربي أن يكون تلميذا **لأرسطو** و**أفلاطون** أو **أقليدس** أو **بطليموس** زمنا طويلاً، كما بقي الأوروبي كذلك عشرة قرون كاملة في التاريخ المسيحي.

قالوا: إن «**باكون**» هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية، أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين، وأطلق العلم من رق التقليد. ذلك حق في أوروبا، وأما عند العرب، فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة.

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم، هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات، وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة، حتى لقد نقل «**جوستاف لوبون**» عن أحد فلاسفة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب هي: «جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا»، وعند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي: «اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأستاذ تكن عالمًا». فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال، وماذا أعقبت من سوء المآل.

قال «**ديلامبر**» في تاريخ علم الهيئة: «إذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين، أمكنك أن تعد في العرب عدداً كبيراً غير محصور». وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربًا واحداً عند اليونانيين، ولكنك تعد من المجربين مئين عند

العرب، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشافات العرب دون سواهم. وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية، وهي من أصدق الأدلة في الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف.

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض.

قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام، جامدها ومائعها، حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في **سمرقند** و**بغداد** و**قرطبة**، حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية.

لا يمكنني في مقالي هذا أن أعد ما اكتشف العرب، ولا ما زادوه في العلوم على اختلاف أنواعها، فذلك يحتاج إلى سفر كبير، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوروبيين ومؤرخيهم، وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم. ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين(٢٠٣):

«تأخذنا الدهشة أحيانا، عندما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية، وتدرجها في كمال أنواعها، فإن هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن. والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها. قال «الخازني»(٢٠٤): إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء: إن الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهبا، ظن من هذا أنه مر في صور معادن أخرى، فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة، ثم صار بعد ذلك ذهبا، ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الإنسان: إنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج، ومن طريق الترقي، وهم لم يعنوا بقولهم

هذا أنه تقلب في صور الأنواع، كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك إنسانا». أ هـ.

ويقول الفيلسوف «**جوستاف لبون**»: «إن العرب أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي إلى نقض أصل الدين، وقال: إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع. فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص، فإنه قال كما قال **أرسطو** وغيره: إن الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع، فهي باقية لا تزول. وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر)[٢٠٥]. كما أخطئوا في قولهم عنه: إنه كان يعتقد بأن اللَّه روح العالم يظهر في صوره، والكل يرجع إليه، بمعنى أنه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر. وهو يقرب من قولهم السابق. فإن ابن رشد كان مسلما، وكان يعرف أن الإسلام لا ينافي العلم، وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة في طريق العلم، أو الاسترسال مع الخيال. وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه. ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا نسبة هذا الرأي إليه كما سبق بيانه. ولكني لا أنكر نسبته لو نسب إلى «**ابن سبعين**[٢٠٦]» وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد، فإن في كلامه ما يدل على ذلك.

ويقول فيلسوف آخر: «إن العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر، مقبورة بين جدران المكاتب، أو مخزونة في بعض الرءوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن، لا حظ للإنسانية منها سوى النظر إليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب، وغذاء الأرواح، وروح الثروة، وقوام الصنعة، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أعدت له. وليس في الأوروبيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل في إخراج أوروبا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم، وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تفكر، وفي معرفتها

أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم، إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم وأدخلوهما من إسبانيا وجنوبى **إيطاليا** و**فرنسا** عليهم. وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائبا، لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا في «**أفنيون**» نحو سبعين سنة، فدب العلم إلى شمالى إيطاليا واستقر به هناك. إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر، وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن إسبانيا». أ هـ.

يقول آخر: «لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده، وأن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرنا في أوروبا ولم تمنحنا فلكيا واحدا».

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة، بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل. والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالهم، وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته. قال بعض الفلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبته المشاهدة: «إن شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ - (يريد فاتحي الإسلام على اختلافهم) - ولا دينا بلغ في لينه ولطفه هذا الحد».

* * *

أخذ الخلفاء والأمراء

بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء، الذين يقال عنهم: إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معا، كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم، الداعين إلى تعلمها، كانوا العالمين العاملين. كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين؛ لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن

منها ما يعدو على الدين فيفسده. هل رأيت في غير الإسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة؟ لعلك لا تجده أبدا.

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم، وأضرب المثل بالشيخ **أبى العلاء المعرى**، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة.

يذكر **على بن يوسف القفطى**[٢٠٧] أن **صالح بن مرداس** - صاحب حلب - خرج إلى **المعرة**، وقد عصى أهلها عليه، فنازلها في حصارها ورماها بالمنجنيق. فلما أحس أهلها بالغلب، سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان، وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم، فخرج ومعه قائد يقوده، فأكرمه صالح واحترمه ثم قال: ألك حاجة؟ قال: الأمير - أطال اللّه بقاءه - كالسيف القاطع لان مسه، وخشن حده، وكالنهار البالغ، قاظ وسطه وطاب برده: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩). فقال له صالح: قد وهبتها لك. ثم قال: أنشدنا شيئا من شعرك لنرويه، فأنشده على البديهة أبياتا فيه، فترحل **صالح**. فانظر كيف وهب الأمير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف.

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال، وفيما سبق كفاية لمكتف.

* * *

إزالة شبهتين

وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخَلْقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر، وهمس بعضهم في آذان بعض، وتغامزهم على أهل الفضل، ولمزهم إياهم بالألقاب، بل واحتقارهم في بعض الأحيان، وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير. وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع - ممن يكره

أهل العلم ـ لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها، فإن القائمين على عقيدة **الكاثوليك** إلى اليوم في أرض فرنسا يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها، وقد تختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه، ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين. ونحن لا نرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم، ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء، وإنما هي نفرة الإنسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله إلى حيث يشاء.

يقول آخرون: إن التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به. وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة **المنصور** وغيره بالزنادقة.

وأقول: إن كثيرا من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء **الحلاج**[٢٠٨] وأمثاله، فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة، فتأخذ صاحب الفكر، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقًا له. وتخشى الفتنة إذا استمر مدعي الحرية في غلوائه. فلهذا يرى حُفَّاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه. ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد. ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة؟ وألا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومة؟ ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح، وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة، ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً؟ كلا، إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها في أول نشأتهم.

ماذا يقول القائلون؟! إن التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره يكاد يكون خفيا

سره. مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس، ينتقل الطالب من الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام، وسقطت قيمة الغلو في التعبير. وأخذ التسامح بينهم مأخذه.

كان **عمرو بن عبيد**(٢٠٩) رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه، ومع ذلك فهو من مشايخ الإمام **البخاري** صاحب الصحيح. وكانت له منزلة عند **المنصور** تعلو كل ذي منزلة عنده، حتى قال له يومًا وهو خارج من بين يديه: «رميت لكل الناس حبا فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد». فانظر كيف كان لإمام من أئمة **السنة** أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة. ولا يرى في ذلك بأسا؟!

إذا عدَّ عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك بإغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين، فما عليه إلا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم، وطلب تنكيلهم. وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله، والدين آلة له، ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضي قضاة كابن رشد - ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك - أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان، أو ذي نفوذ عظيم بين العامة. وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضا، كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ. فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة؛ لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه. وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة، أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه. وهذا لم يقع في الإسلام. اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا.

هذه طبيعة الدين الإسلامي عرضتها عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها. وهذا كان أثرها في العالمين الشرقي والغربي. وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله، هل في هذا خفاء على ناظر؟ وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر. أفلا يتبسم الإسلام عجبا وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه، من أديب لم يكن يعده من أعدائه، إن لم يحسبه في أحبائه، عندما يراه يسدد سهمه إليه، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه[٢١٠]؟!

* * *

الإسلام اليوم
والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

ربما يسأل سائل فيقول: سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي، وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق، ولا شنق لحملة العلوم الكونية، ومقومي العقول البشرية، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية، والفنون العصرية؟! أو ليس الناس تبعا لهم؟! أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله؟! ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية[٢١١] كتب مقالاً في الاجتهاد والتقليد، وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة، ومقالاً بين فيه رأيه في مذهب الصوفية، وقال إنه ليس مما انتفع به الإسلام، بل قد يكون مما رزئ به، أو ما يقرب من هذا ـ وهو قول قال به جمهور **أهل السنة** من قبله ـ فلما طبع مقاله في **مصر** تحت اسمه، هاج عليه حملة العمائم، وسكنة الأثواب العباعب، وقالوا: إنه مرق من الدين وجاء بالإفك المبين، ثم رفع أمره إلى الوالي، فقبض عليه وألقاه في السجن؟! فرفع شكواه إلى عاصمة الملك، وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه، بين يدي عادل لا يجور، ومهيمن على الحق لا يحيف، إلخ ما يقال في الشكوى، فأجيب طلبه، لكن لم ينفعه ذلك كله، فقد صدر الأمر هناك أيضا بسجنه ولم يعف عنه إلا

بعد أشهر، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارئ والكاتب، ولا الآكل والشارب؟!

ألم يسمع السامعون أن **الشيخ السنوسي** (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية ـ وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف[٢١٢] ـ فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين؟! وربما كان الأستاذ يجترئ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه، وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي **للقاهرة** قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي.

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال، الواسعة الأردان، في استهجان إدخال علم تقويم البلدان(الجغرافية) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الأزهر؟! وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم، وإنه إنما يريد الغض من علوم الدين[٢١٣]؟! أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به، مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولاً يبعد من الكتاب والسنة؟!

ألم تحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم إصبعا عما كان عليه سلفهم، وإن كان في البقاء عليه تلفهم؟! وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان، أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون، وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون؟!

ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا، وضوضاء وجلبة وهيعات مضطربة، إذا قيل إنه ينبغي لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادئ الطبيعة، أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي؟! ألا تقوم قيامة المتقين؟! ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين: هذا عدوان على الدين، هذا توهين لعقْده المتين، هذا تغرير بأهله المساكين، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى ألا يبقى شيء عَرَفَ له اسم في اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم؟!

هل هذه الحال جديدة على المسلمين، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم؟! لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة، أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم، خصوصا عندما يجد الوحدة في الصفات والشمول في جميع الاعتبارات. فلو أخذت مسلما من شاطئ الأطلانطيقى، وآخرمن تحت جدار الصين، لوجدت كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣). وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه، وإن نطق به الكتاب، واجتمعت عليه الآثار.

اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث، لتفهم أحكام اللّه منها. ولكن هذه الفئة أضيق عطنا[٢١٤] وأحرج صدرا من المقلدين. وإن أنكرت كثيرا من البدع، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أحباء[٢١٥].

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين، على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها؟! وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها، أحجموا عن إبداء الرأي، واجتهدوا في

تحويلها عن حقيقتها إلى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب. حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد **الدولة العثمانية** وأراد الالتحاق بأحد الأروقة في الجامع الأزهر، فوقع الشك: هل بلده مما لأهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف؟ فقال قائل لشيخ الرواق إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف. فقال: إنني لا أقتنع بما في تلك الكتب، وإنما الذي يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه - (ممن مات) - قال إن هذا البلد من قطر كذا، وهو الذي وقف الواقف على أهله!! وإذا قيل لأحدهم: إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطر، وبيان الحدود التي ينتهي إليها، وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون - (وهم منا) - وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات، قال: إنما أريد نصا فقهيا، لا دليلاً عقليا.

وإذا قيل لهم: اختلت الشئون، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس وضلت عقائدهم، وهوت عباداتهم من روح الإخلاص، فوثب بعضهم على بعض بالشر، وغالت أكثرهم أغوال الفقر، فتضعضعت القوة، واخترق السياج وضاعت البيضة، وانقلبت العزة ذلة، والهداية ضلة وساكنتكم الحاجة وألفتكم الضرورة، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس، فهل نبهكم ذلك إلى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه، ثم في علل ما صرتم وصار الناس إليه؟ قالوا: ذلك ليس إلينا، ولا فرضه اللّٰه علينا، وإنما هو للحكام ينظرون فيه، ويبحثون عن وسائل تلافيه. فإن لم يفعلوا - ولن يفعلوا - فذلك لأنه آخر الزمان، وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة، وأن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض، ولا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع. واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل، ولا تدع في نفس حركة إلى عمل!!

* * *

هذا الجمود ـ الذي لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار وثنيات الوجدان، لكتبنا فيه كتابا ـ هو الذي حمل «المسيو رينان» الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم ما نقلته عنه «الجامعة»: «على أنني أخشى أن يثبت الدين الإسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد، ولكنني أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامي القديمة وفي بضعة من رجال «**الأستانة**» **وبلاد الفرس** جراثيم جيدة، تدل على فكر واسع، وعقل ميال إلى المسامحة، إلا أنني أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء، فإذا اختنقت قضي على الدين الإسلامي. ذلك أنه من الثابت الآن أمران: **الأول**: أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة؛ لأنها لا تصلح أن تكون وسيلة إليه. **والثاني**: أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله. فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين، وإلا كان موتها ضربة لازب، أهـ. كلام رنان بتصرف لفظي قليل.

فمن أين يكون هذا الجمود العام، الذي سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين، يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا في سعيهم أو نجاحا في أعمالهم؟! من أين يكون هذا الجمود، إن لم يكن من طبيعة الدين؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث، إن لم يكن ناشئا من أصول الدين؟ فإن لم تُسَلِّم بأن هذا اضطهاد، وأن الاضطهاد من لوازم الدين الإسلامي، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم، أو اشمئزاز منه، أو استهجان له، أو احتقار لشأنه، وأحد هذه الأمور كاف ـ إذا عم بين المسلمين ـ في أن ينفر بهم عن كل مجد، وأن يحرمهم كل نفع، وأن يحقق فيهم ما تنبأ به «رينان» وغيره، فما قولك في هذا؟!

* * *

الجواب

أقول: هذا كلام فيه شيَةٌ من الحق، ولمعة من الصدق. أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف، فليس الحامل عليه التمسك بالدين. فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة. وأما صدور الأمر بالسجن، فهو من مقتضيات السياسة، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر، ويتبعه ثالث، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين. . إلى آخر ما يكون من حرية الفكر (التي يعوذون بالله منها).

فإن شئت أن تقول: إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم، فأنا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، من كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس!!

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين. لا تقل إن هذه السياسة من الدين، فإني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين، كأنها الشجرة التي: ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (الصافات: ٦٤ـ ٧٠).

* * *

جمود المسلمين، وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود، فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام. وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها ونصوع بياضها، ليس فيها ما يصح أن يكون أصلاً يرجع إليه شيء مما ذكرت، ولا مما تنبأ بسوء عاقبته «رينان» وغيره. وإنما هي

علة عرضت للمسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم. وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم، هو السياسة، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن: عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين، هو السياسة.

لم أر كالإسلام دينا حفظ أصله، وخلط فيه أهله، ولا مثله سلطانًا تفرق عنه جنده، وخفُر عهده، وكُفر وعيده ووعده، وخفى على الغافلين قصده، وإن وضح للناظرين رشَده، أكل الزمان أهله الأولين، وأدال منهم خشارة(٢١٦) من الآخرين. لا هم فهموه فأقاموه، ولا هم رحموه فتركوه. سواسية من الناس اتصلوا به، ووصلوا نسبهم بنسبه، وقالوا نحن أهله وعشيرته، وحماته وعصبته، وهم ليسوا منه في شيء، إلا كما يكون الجهل من العلم، والطيش من الحلم، وأفن الرأي من صحة الحكم.

انظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سببا فيما صار إليه أهله: كان الإسلام دينا عربيا. ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا. ثم أخطأ خليفة في السياسة، فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيرا له. ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي؛ لأن **العلويين** كانوا ألصق ببيت **النبي** - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك. وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك. هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا.

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه، وبئس ما صنع بأمته ودينه(٢١٧) أكثر من ذلك الجند الأجنبي، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم. وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في

خلوتـه، ويصلي مع الجمـاعـات لتمكين سلطتـه. ثم عـدا على الإسـلام آخـرون، كالتتار وغيرهـم، ومنهم من تولى أمره.

أي عـدو لهؤلاء أشد من العلـم الذي يعرّف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبح سيرهم؟ فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم. أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضـوا عنه يد المعـونة، وحملوا كثيـرا من أعـوانهم على أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيلهم، ليعدوا من قبيلهـم، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض إليهـم العلم، ويبعد بنفوسـهم عن طلبه. ودخلوا عليـهم ـ وهـم أغـرار ـ من باب التقـوى وحمـاية الدين. زعـمـوا الدين ناقصـا ليكملوه، أو مريضـا ليعللوه، أو متداعيا ليدعموه، أو يكاد ينقضّ ليقيموه.

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصـرانيـة، فاستعاروا من ذلك تعظيم شعـائره، وتفخيـم أوامره. والغـوغـاء عون الغاشم، وهم يد الظالم. فخلقوا لنا هذه الاحتفالات، وتلك الاجتماعات، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة، وأركس[٢١٨] الناس في الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقـيدة، حتى يقف الفكر، وتجمـد العقـول، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممـالك الإسلامية، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العـامة، وأن كل ما هو من أمور الجمـاعة والدولة فهو ما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن مـا يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل و أن الأسلم تفويض ذلك إلى اللّه، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحـاديث ما يعينهم على ذلك، وفي الموضـوعات والضعاف[٢١٩] ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام.

وقـد انتـشـر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين، وتعـاون ولاة الشـر على مساعـدتهم في جميع الأطراف، واتخذوا من عقيـدة القـدر مثبطا للعزائم وغلا

للأيدي عن العمل. والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة في الدين، وموافقة الهوى - أمور إذا اجتمعت أهلكت - فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم، كما يقال.

هذه السياسة - سياسة الظلمة وأهل الأثرة - هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السماوات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات. فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاما فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس - بما عرض لدينهم من البدع والخرافات - إلى الجمود الذي ذكرته، وعدوه دينا، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله وعلى دينه. فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاما. والقرآن شاهد صادق: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢). يشهد بأنهم كاذبون، وأنهم عنه لاهون، وعما جاء به معرضون. وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود، ونثبت أنه علة لا بد أن تزول.

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه، وولع شهواتهم بالدفاع عنه. وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها، وإنما يحسن إجمال القول فيها.

كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم، ويسبح به في الأرض، ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله، أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته. فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء، وتبلغ من التمتع بها ما تريد. فلما

وقف الدين، وقعد طلاب اليقين، وقف العلم وسكنت ريحه. ولم يكن ذلك دفعة واحدة، ولكنه سار سير التدريج.

جناية الجمود على اللغة

أول جناية لهذا الجمود، كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها. فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم إليها. أريد حاجتهم في فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها، وما تشير إليه هيئة تراكيبها. وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم. فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم، واكتفوا بأخذ حكم اللّه منه بدون أن يرجعوا إلى دليله. ولو نظروا في الدليل، فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه بأن كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطئوا نظرهم وأعموا أبصارهم، وقالوا: نعوذ باللّه أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا، وأرغموا عقلهم على الوقفة، فيصيبه الشلل من تلك الناحية. فأي حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها؟ وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان الأولون ينظرون في كلامهم.

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه، هو غير مبال بسلفه الأول، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان. فهو لا ينظر إلا إلى اللفظ وما يعطيه، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بُعده عن أهلها، حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم: جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة، وإن لم يصلوا منها إلى غاية في فهم ما وراءها. فدَرَسَتْ علوم الأولين وبادت صناعتهم، بل فقدت كتب السلف الأولين، رضي اللّه عنهم، وأصبح الباحث عن كتاب «المدونة» لمالك، رحمه اللّه تعالى، أو كتاب «الأم» **للشافعي**، رحمه اللّه تعالى، أو بعض كتب الأمهات في فقه **الحنفية**، كطالب المصحف في بيت الزنديق!! تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزأه الآخر في قطر

آخر . فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب، وجدت ما عرض لها من نسخ النساخ حائلاً بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود، وسوء الظن باللّه، وتوهم أن أبواب فضل اللّه قد أغلقت في وجوه المتأخرين، ليرفع بذلك منازل المتقدمين، وعدم الاعتبار بما ورد في الأخبار من أن المبلّغ ربما كان أوعى من السامع . وأن هذه الأمة كالمطر لا يُدْرَى أوله خيرا أو آخره . وقلة الالتفات إلى ذلك قد أضاعت آثار المتقدمين أنفسهم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه . لا ريب فى أن القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته، لغة دينه وكتابه وقومه، لا يجد من يفهم ما يقول، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول؟!

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق، وتمزيق نظام الأمة، وإيقاعها فيماوقع فيه مَنْ سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد، وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه، وهو كتاب اللّه وما صح من السنة . فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية . ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر، لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام، فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب آخر . وإذا سألتهم، قالوا : «وكلهم من رسول اللّه ملتمس»!! لكنه قول باللسان لا أصل له في الجنان . ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب، لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة، لكنا اليوم في شأن غير ما نحن فيه . يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض، ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه، يضلل بعضهم بعضا، ويرمي بعضهم بعضا بالبعد عن الدين . وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن، ولكنه الجمود، قد يؤدي إلى الجحود .

كان الاختلاف في العقائد، على نحو الاختلاف في الفتيا، تخالف أشخاص في النظر والرأي. وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه، مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد. فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التنطع، وأخذت الصلات تتقطع، وامتازت فرق، وتألفت شيع. كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزا حقيقيا، فما استطاعوا، وإنما هو تمييز وهمي، وخُلْفٌ في أكثر المسائل لفظي. وإنما هي الشهوات وضروب السياسات، أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع، حتى آل الأمر إلى هذه الفُرْقَة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل[٢٢٠] من عدة سنين: إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة، لأن أصول هذه المذاهب متقاربة، وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها. وقال: إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من **مذهب مالك أو مذهب الشافعي**، تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد. فقام كثير من المتورعين، يحوقلون ويندبون حظ الدين، كَأنَّ الطالب يطلب شيئا ليس من الدين، مع أنه لم يطلب إلا الدين، ولم يأت إلا بما يوافق الدين، وربما كان عليه العمل في أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين. فأين قول هؤلاء: «وكلهم من رسول اللّه ملتمس»؟! لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة، وقَصْرُ نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه. أو هي السياسة تحل ما تشاء، وتحرم ما تشاء، وتصحح ما تشاء، وتعطل ما تشاء، والناس منقادون إليها بأزِمَّةِ القوة أو الأهواء.

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود في أحكام الشريعة، جر إلى عسر حمل الناس على إهمالها: كانت الشريعة الإسلامية، أيام كان الإسلام إسلاما، سمحة تسع العالم بأسره، وهي اليوم تضيق عن أهلها، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها، وأن يلتمسوا

حماية حقوقهم فيما لا يرتقي إليها، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها.

صعب تناول الشريعة على الناس، حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول إلى علمها. فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعد شيئا إذا نسب إلى من لا يعرفها. وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها؟! فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم. بل سقط احترامها من أنفسهم، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف.

سألت يوما أحد المدرسين في بعض المذاهب: هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك؟ فأجاب: إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل، وإنما يفعل ما يفعل الناس. هكذا فعل الجمود بأهله، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس، لفعلوا، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء.

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة. لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن، لوجدته أحد أمرين: إما فقد العارف بالشريعة والدين، وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام، وليس المسئول بأعلم من السائل، وكلهم جاهلون. وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة؛ فهو إذا سئل، يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها، وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم. فإذا قلت للعارف تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك، واعْلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك، فتجد لأصله انطباقا على هذه الحادثة مثلاً وإن لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه، قال: سبحان اللّٰه! يريد ألا يأتي شيئا إلا إذا أتى به شيخه الذي أخذ عنه يدا بيد. ولو أبعد بنظره،

لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه . ثم إذا حاجحته في ذلك ، لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وأنك تدعوه إلى الخروج من دينه . ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ باللّه تعالى .

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة ، وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصًا عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى : إنه لا فائدة فى ذلك قطعا ، وهو تعب فى غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة ، كان الأمر والنهى لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه ، لبلوغ الفساد من النفوس غايته ، كما يزعم ولم ينظر فى الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه إلى ذلك ، وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه . هذا كله ، لأنه لم ير نفسه أهلاً لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ، ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الأوامر الإلهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر ، وأن اليأس من روح اللّه إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا ، بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو إن هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه ، وغيره أفضل منه - كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الإخلال بالدين ، وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا فى سبيل اللّه .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريرا للمسائل ، وإملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم ، قد يعترف

لك بصحة ما تقوله، ولكنه يستمر فى عمله، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون. فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين؟! وهل يرتاب من له أدنى إدراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين؟!

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل، وأشد ضررا منه الجمود فى العقيدة: نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان يعتمد اليقين، ولايجوز الأخذ فيه بالظن، وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان باللّه وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها، وأن العقل إن لم يستقل وحده فى إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود اللّه، وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول. نسوا ذلك كله، وقالوا: لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا - كما قلنا - ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد، بل ذهب بعضهم إلى أنه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد، فيكون التقليد كالتقليد فى المدلول، وكأنهم جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد. ويا ليته النقل عن المعصوم، بل النقل ولو عن غير المعروف. فتقررت لديهم قاعدة: إن عقيدة كذا صحيحة، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك. ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها، صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة. وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أمييهم، فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم وإن لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم.

انجر التساهل فى الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف، رضى اللّه عنهم. فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه، ويمتحنون قوله، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة. ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه

من المتقدم صير النقل فوضى، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه، بدون بحث ولا تنقيب، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين. وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله، وإهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة. دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل وجهاد شديد، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف وممن لا يعرف. وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا إن شاء الله.

سأل سائل الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة - ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته - فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين، وقال: إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها. أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا؟ كلا. حدث قيل وقال، وكثرة تسآل، ودخلت السياسة، ثم قيل: إن الزمان ناصر الحقيقة، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا، وسكت السائل، وماذا يصنع المجيب؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود، فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها، ووكلت إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب، وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس، ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر. فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - المجمع عليه عند السلف قاطبة، لانتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (القصص: ٣٦). ويريد من آبائه الأولين: من رآهم بعد ولادته، أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه، حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه.

ماذا يمكن أن أقول؟ . . أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين . وإذا دعى إلى ترك المنكر ، نفر وزمجر ، وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ، ومن يقرب منهم ، فى الاستبراء من البول على مرأى من المارة ، وفيهم النساء والأطفال ، وهم يظنون أنهم يتقربون إلى اللّه بما يفعلون .

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حُفَّاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه . ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

* * *

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم إن الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر ، وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة ، إما فى مدارس الحكومات الإسلامية ، وإما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى **بلاد القرم** أو **القوقاس** أو **سمرقند** أو **بخارى** أو **الهند** ، فإنى لا أعرف كثيراً من أحوالهم ، ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا ، وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به . فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوروبية ، ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الإسلامى وروحه من كثير ممن يدعى الورع والتقوى ، ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر اللّه منهم .

وإنما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى **مصر** و**سورية** وسائر بلاد **الدولة العثمانية** . سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم ، أباحت للمسلمين أن يرسلوا

أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين، بل فى مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الإسلامى، وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وألا ينكروا عليهم عملهم، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة.

جمود تلامذة المدارس الأجنبية

هؤلاء التلامذة إن كانوا فى مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الإسلامى فيها، بل ربما يعلم فيها دين آخر، فقد يسرى إلى عقائدهم شىء من الضعف، وقد تذهب عقائدهم بالمرة، وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مرارا. ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم، وحفظوها من التزلزل أو الزوال. وكيف يكون لأولئك الآباء شىء من هذا العلم، مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها، فضلاً عن أولئك المساكين؟! بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم، ولكن الجمود صير كل شىء صعبا، وكل أمر غير مستطاع.

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون. ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم، أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع، اللهم إلا زاجرا عن خير أو دافعا إلى شر، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم فهلكوا وأهلكوا. ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة، وليت الإسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضار من التعليم والتعلم.

* * *

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شيء من البقية، فهؤلاء ينشئون على شيء من المعارف فى الفنون المختلفة، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى، أو فى الاجتماع الإنسانى. ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين، وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة، فأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين. هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه، فينفر من دينه نفرته من الجهل. ولو قال له قائل ارجع إلى كتب الدين، تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وعلى خصمك، حار لا يدرى إلى أى كتاب يرجع؟ ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم، على ما فيها من تشتيت وتعقيد، وأبقوها كما ورثوها. فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه.

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم، بل قد يعده بعضهم خرافة - (نعوذ بالله) - فيأخذون عنه جانبا، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه، ويلتمسون لهم آدابا في غيره، وقلما يجدونها. فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم، فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه، ويسلكون إلى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة «ما دام الشرف محفوظا». فإذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك، فإنما ينشر الألفاظ نشرا لا يرجع فيها إلى أصل ثابت، ولا إلى علم صحيح، ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي إلى المفسدة، وهو يشعر - أو لا يشعر - على حسب حاله. ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه، أو درس عقيدة من عقائده. فشأنهم كلام في كلام، ولبئس ما يصنعون. ولولا هذا الجمود، لوجدوا في كتب دينهم وفي أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم، وتطمئن إليه نفوسهم، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين، وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم،

ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع إليها في سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية.

* * *

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل، فنكتفى بما أوجزناه فى الصفحات السابقة. ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى.

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامى - بعد عرضها عليك فيما سبق - أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث - مرض الجمود على الموجود - وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم، وتدعو إلى استعمال العقل فيما كانوا عليه. لا حاجة إلى إعادة ذلك.

ثم إننا أشرنا أيضا إلى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الإسلام، وإن محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه. وإما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا. وهذا الثانى كان أشد نكاية وأعون على الغواية. وهل تزول هذه العلة، ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض؟ وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه؟!

جاء فى الكتاب المبين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). ذلك الذكر هو الذكر الحكيم، هو القرآن الذى: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) كما قال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣). وعد اللّه بحفظ هذا الكتاب، وقد أنجز وعده، لم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب جاهل، فبقى كما نزل، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله، فذلك، مما لا يلتصق به، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا

نقيا، بريئا من الاختلاف والاضطراب. وهو إمام المتقين، ومستودع الدين، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر، وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات. ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه. ولابد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره، فيبتلج ضياؤه لأعين أوليائه، إن شاء الله تعالى.

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم اللّٰه بسلامة البصيرة، فيهتدون به إليه، ويحمدون سراهم بما عرفوا من نجاح مسعاهم، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع، وطمست بصائرهم، وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل، هؤلاء فى عمى عن نوره، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه، وفى آذانهم وقر. يصيحون بأنهم عمى صم، فلا يرون له سناء، ولا يسمعون له نداء، ويعدون ذلك من كمال الإيمان به. ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطول الحلم وهم يعلمون.

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون، ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه، ويقوون حجج أعدائه فى حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه، وما هم منه فى شىء، كما قدمنا.

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الأمم. فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه. ومن اتبع سنن قوم، استحق الوقوع تحت أحكام سنن اللّٰه فيهم، ولن يخلص مما قضى الله فى عذابهم. فقد قص عليهم سير الأولين، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه، وحادوا عن شرعه، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا. . أحل بهم الذل، وضرب عليهم المسكنة، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم. فهل ينتظر المتبعون سننهم، السائرون على أثرهم، أن يصنع اللّٰه بهم غير الذى صنع بسابقيهم؟! وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلاً؟!

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام، ولا تزال القوارع تحل

بديارهم حتى يفيقوا، وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم، ويفزعون إلى طلب النجاة، ويغسلون قذى المحدثات عن بصائرهم، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم يعد لهم وسائل الخلاص، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس، وييسير بهم إلى منابع العلم، فيغترفون منها ما يشاءون، فيعرفون أنفسهم، ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة، فيأخذ بعضهم بيد بعض، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين.

ولهذا أقول: إن الإسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدا، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول، وأقوى دليل على زواله، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله، ولطف اللّٰه بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون إليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب اللّٰه النازل بالجامدين ينصرهم.

هذا الكتاب المجيد، الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا، لابد أن يعود نوره إلى الظهور ويمزق حجب الضلالات، ويرجع إلى موطنه الأول فى قلوب المسلمين، ويأوى إليها. العلم يتبعه، وهو خليله الذى لا يأنس إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه.

يقول أولئك الجامدون الخامدون، كما يقول بعض أعداء القرآن: إن الزمان قد أقبل على آخره، وإن الساعة أوشكت أن تقوم، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد، وما منى به الدين من الكساد، وما عرض له من العلل، وما نراه من الخلل، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم؛ فلا فائدة فى السعى، ولا ثمرة للعمل؛ فلا حركة إلا إلى العدم، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم - (نعوذ باللّٰه) - .

هؤلاء حفدة الجهل، وأعوان اليأس، يهرفون بما لا يعرفون. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته؟! إن الذى مضى بيننا وبين مبدإ الإسلام - (أى الهجرة) - ألف وثلاثمائة وعشرون عاما، وإنما هى يوم أو بعض

يوم فقط من أيام اللّه تعالى. وإن آيات اللّه فى الكون ـ وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ـ تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾؟ (النساء: ٧٨).

إن ما بيننا وبين مبدإ الإسلام لا يزيد على عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة. فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام؟ إن زمنًا كهذا لا يكفى ـ وقد تبين أنه لم يكف ـ لإهداء الناس كافة بهديه، ولم تقم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم.

وقد وعد اللّه بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعوامًا، ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به إلى ما يرون ونرى. ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد، ويأخذ الدين بيد العلم، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان، فيدرك العقل مبلغ قوته ويعرف حدود سلطته، فيتصرف فيما آتاه اللّه تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا، وقفل راجعا، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم، الذين قال فيهم أمير المؤمنين **على بن أبى طالب**، كرم اللّه وجهه، فيما روى عنه: «هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما. وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا». واعتبر بعد ذلك بقوله «فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ عن خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف الغيوب، متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بألا ينال

بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولى الرّويّات خاطرة من تقدير جلال عزته».

هنالك يلتقى - (أى العقل) - مع الوجدان الصادق - (القلب) - ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا - إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان - (القلب) - فى الوجهة، بمقتضى الفطرة والغريزة، فإنما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس. وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى - (الوجدان أو القلب) - من مبادئ البرهان العقلى، كوجدانك أنك موجود، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك، ونحو ذلك.

منحنا العقل للنظر فى الغايات والأسباب والمسببات، والفرق بين البسائط والمركبات - والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام، وهلع واطمئنان، وشماس[٢٢١] وإذعان، ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان، ولا يحصيه البيان، فهما عينان للنفس تنظر بهما. عين تقع على القريب، وأخرى تمتد إلى البعيد. وهي في حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى؛ ، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان. والوجدان السليم من أشد أعوان العلم. والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان. فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه، وهيهات أن يقوم على الأخرى. ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفرد وجودين.

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل، ولكنك تعمله طوعا لوجدانك، وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك، فتقول: إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان. ولكنى أقول: إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره. عليك أن ترجع إلى نفسك، فتتحقق من أحد الأمرين: إما أن يقينك ليس بيقين، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك، فأنت تظنها علما وما هى به. وإما أن

وجدانك وهم تمكن فيك، وعادة رسخت فى مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح، وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هى منه فى شىء.

لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم. ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه: «تفكروا فى خلق اللّه، ولا تفكروا فى ذات اللّه». وعند ذلك يكون اللّه قد أتم نوره ولو كره الكافرون، وتبعهم الجامدون القانطون، وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذى لا بد منه فى تنبيه الغافل، وتعليم الجاهل، وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية فى التدريج: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٢)- ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (المعارج: ٦، ٧)- ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد: ٧)- وهو خير الناصرين.

* * *

حرية العلم فى أوروبا الآن

ونسبتها إلى الماضى والحاضر فى الإسلام

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته «الجامعة» وهو «أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوروبا، وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى، دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة».

ليس من السهل علىّ أن أعتقد أن أديبا كصاحب «الجامعة» يقول هذا القول - وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة، وهى من أهم المسائل التاريخية - وإنما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال، ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه.

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما؟ أم يسمى غل الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرما؟ هل تعد مساكنة جناب البابا للملكْ **إيطاليا** فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين: كرسى المملكة الإيطالية وكرسى المملكة البابوية فى عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوروبا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين - تساهلاً من العلم مع الدين لا تسامحا من الدين مع العلم، بعد ما كان بينهما، وبعد غلبة

العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك، ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبها؟!

* * *

اقتباس مدنية أوروبا من الإسلام

وأسباب ظهورها العام

السبب الأول: الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين في أوروبا، وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى، ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة. وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء **الأندلس**، وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا. وقد وجد هذان النوران استعدادا كمن بالنفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما إلى المدنية التي كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم، واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال، فأخذ الشعور الإنساني يتلمس السبيل إلى الخلاص.

وإذ لاح له هذان النوران، اتخذهما له هداية، واستقبلهما بوجهه، وكان بعد ذلك ما كان من تأثر[٢٢٢] الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران، ونفيهم من الأوطان، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة في أدنى الأشياء وأعلاها، حتى إنه عندما شرع ملوك **فرنسا** في فرش شوارع **باريس** بالبلاط على الأسلوب الذي وجدوه في مدينة **قرطبة**، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع، أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان، ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر في الشوارع على حريتها الأولى. وحصل لذلك شغب عظيم اضطر

الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع في أعناقها أجراس. وقالوا إن **الملك فيليب** السمين مات بسقطة عن فرسه، عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه!!

لقائل أن يقول: إن القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير، فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم(أو الصناعة).

ويسهل علي أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين، إلا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الأوروبيون اليوم، ونحن لا نبخسها قدرها كذلك!!

السبب الثاني: الضغط الديني

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلم، فلم تفتر لهم همة، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التي نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون إليه، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالاً، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الديني (**البروتستانت**)، فانضم دعاة العلم إليهم ظنا منهم أنهم سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم. وكان منهم «**إيراسم**» الشهير، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة، استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم. فانفصل «إيراسم» ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا، وقال: ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم.

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الإصلاح، لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العام وهو الكنيسة **الكاثوليكية** الرومانية، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض، واشتعلت نيران الحروب بينهم. قال أحد أفاضل مؤرخيهم: «وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرض القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لإفناء البقية

الباقية، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال، ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضارها في كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغني عنه واحدة منها. والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب، ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص، من أي طائفة كانت. من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم: أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف في الرأي: نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى». انتهى كلام المؤرخ بالمعنى.

السبب الثالث: الثورة

ولا حاجة بي إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية، وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم. وإنما أنبه القارئ إلى الاعتبار بما تقدم من القول، وبما يمكنه أن يقف عليه في كتب القوم. ليعلم أن الدين المسيحي في أوروبا لم يحتمل العلم فضلاً وكرما، وإنما قويت عليه أحزاب العلم، فساموه استكانة وخضوعا، ولو شاء ألا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

السبب الرابع: ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان. وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس، كانوا ـ ولا يزالون ـ يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم. وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه. ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه، ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب. ومع ذلك كله، نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه، والأمة الفرنسية ـ التي كانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من أشد الناس عليه، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم. ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة، وطلاب اللاهوت يعدون

بالألوف. كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض.

قال أحد رؤساء البروتستانت - في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في أن المسيحية، رومانية أو بروتستانتية، فقدت خاصتها الدينية، كما فقدت فائدتها الاجتماعية ما نصه مترجما: إذا كان الدين المسيحي ليس شيئا سوى **الكثلكة** المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني)، **أو** الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي)، فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبدا.

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها. فإن وفق للنجاح في سعيه، زال الخلاف - إن شاء اللّه - بين الدين والعلم، بل بين المسيحية والإسلام.

* * *

عودة إلى سماحة الإسلام

آخذ بيد القارئ الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان، وأقف به وقفة بين أيدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم. وكل مقبل على عمله. فإذا فرغ عامل من العمل، أقبل على أخيه ووضع يده في يده، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم. وكل يرى في صاحبه عونا على ما يشتغل هو به.. وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم، فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت، يتحادثون ويتباحثون. والإمام **البخارى**، حافظ السنة، بين يدي **عمران بن حطان** الخارجي يأخذ عنه الحديث. **وعمرو بن عبيد** رئيس **المعتزلة** بين يدي **الحسن البصرى** شيخ السنّة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل

الحسن عنه، فقال للسائل: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدَّبته. وكأن الأنبياء ربته. إن قام بأمر يقعد به. وإن قعد بأمر قام به. وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له. وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له. ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه، ولا باطنا أشبه بظاهر منه».

بل أرفع بصري، فأجد الإمام **أبا حنيفة** أمَام الإمام **زيد بن على** - (صاحب مذهب **الزيدية من الشيعة**) - يتعلم منه أصول العقائد والفقه، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادا في بيان المصلحة، وهما من أهل بيت واحد. أمُرُّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في المطلب وغايتها واحدة وهي العلم، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة، كما ورد في بعض الأحاديث.

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون، وبأيديهم القوة، وتحت أمرهم الجيش. والفقهاء والمحدثون والمتكلمون، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء. الدين فى قوته، والعقيدة في أوج سلطانها، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر. فهنالك يشير القارئ المنصف إلى أولئك المسلمين، وأنصار ذلك الدين، ويقول: هنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته. ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم. ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية. عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون).

يرى القارئ أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين. وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء، شأن الأحرار في الأفكار الذين أُطْلقوا من غل التقييد، وعوفوا من علة التقليد. ولم يكن يجري فيما بينهم اللمزَ والتنابز بالألقاب، فلا يقول أحد منهم لآخر: إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشابه ذلك.

ولا تتناول أحدا منهم يدٌ بأذى إلا إذا خرج عن نظام الجماعة، وطلب الإخلال بأمن العامة، فكان كالعضو المجذوم، فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله.

* * *

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب في المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق، ورمي زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق؟!

أشرنا فيما سبق إلى مبدإ هذا المرض، ونقول الآن: إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله - تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه وتوهين أركانه - وتصدر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه، تقليدا لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها. وأنشئوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه، ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين، وتولى شئون المسلمين جهالهم، وقام بإرشادهم في الأغلب ضلالهم. في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه، وسهل على كل منهم، لجهله بدينه، أن يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب. وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل، ودخل العلم والفكر والنظر - (وهي لوازم الدين الإسلامي) - في جملة ما كرهوه، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه.

لا أكاد أُخَطِّئُ القارئ إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة، وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه، إذ كانوا يقولون: هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي أو ما يماثل ذلك. أو زعم أن قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق

العدوى من أهل الملل المتشددة، وأن الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم.

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم، كانوا علماء الكون وأئمة العالم. أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود، وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم. هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين، أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك؟ لا، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين، وخدمة السنة والكتاب. فقد حملت كتب الإمام **الغزالي** إلى **غرناطة**، وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة، وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله، فجمعت تلك الكتب ـ خصوصا نسخ «إحياء علوم الدين» ـ ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت[٢٢٣]. قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين ـ إنه ضال مضل. وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم، وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة.

* * *

إهمال آثار السلف

وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم، حتى إنك لا تجد اليوم في أيديهم كتابا من كتب **أبي الحسن الأشعري** ولا **أبي منصور الماتريدي**. ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات **أبي بكر الباقلاني** أو **أبي إسحاق الإسفراييني**. وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين، أعياك البحث، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب.

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى

السادس، منها تفسير **الطبري**، وتفسير **أبى مسلم الأصفهاني**، وتفسير **القرطبي**، وتفسير **الجصاص**، وتفسير **الغزالى**، وتفسير **أبى بكر بن العربى**، وكثير غيرها. وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكَم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه، فهل يجد الباحث المجد نسخَة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق؟! وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين، وأن لها فيه سلفا، أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب؟! هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان؟!

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين. فهم لا يقرءون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون، يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها، وتصحيح مقدماتها، وتمييز صحيحها من باطلها، وإنما يتلقاها كأنها كتاب اللَّه أو كلام نبيه صلى اللَّه عليه وآله وسلم يأخذ فيها بالتسليم. فإذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله: هكذا قالوا، وإن لم يكن القول متفقا عليه، بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعي عنه ما يقول.

كاد طلب العلوم الدينية ينقطع في **سوريا** و**الحجاز** و**تونس** و**الجزائر**، وقلّ جدا في المغرب الأقصى، ولم يبق الاهتمام به إلا في بعض الصحارى. وذلك، إما لصعوبة طرق التعليم، واقتضائها الزمن الطويل - وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم - وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوروبا، أو في المدارس الأخرى، وليس فيها من الدين شيء، وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليما دينيا ينظر إليه.. وإما للفتور والخمود الذي نشأ عن التقليد والجمود. وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام

لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين. وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطبا النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته».

فهذا الصنف من المسلمين - وهو معظمهم - قد أنكر دينه الحق وعاداه، ونقم على أهله القائمين بخدمته. وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد. فإذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله، فهل يعد ذلك واقعا من دين الإسلام - دين محمد صلى الله عليه وسلم - دين القرآن - دين السنة الثابتة - دين الخلفاء الراشدين، ومن تبعهم من السلف الأولين؟!

متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه

الحق أقول - والحس يؤيدني -: ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصد عن علمه. فكلما بَعُد عنهم علم الدين، بَعُد علم الدنيا وحرموا ثمار العقل. وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية، توسعوا في العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزة. وأما غيرهم، فكلما اتصلوا بالدين، وجَدُّوا في المحافظة عليه، أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم، ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل، ولا أن يظهر منه فيه أثر، والدين من وجدانات القلب، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل. فالفصل تام بين العقل والدين، ولا سبيل إلى الجمع بينهما: سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم.

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم؟ أقول «اضطهاد» ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب، والتفنن في صنع آلات الهلاك، مع الأخذ بالشبهة، والاكتفاء في

الإعدام بمجرد التهمة. فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم، ولا في أزمنة جهلهم. ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم، ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم.

لا ريب فى أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديب اضطهادا، إنما هو جهلهم بدينهم. فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردهم إلى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه. كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنسُ وحشة.

الدعاة في الإسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون، أو دعاة لأصل الدين عارفون، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوروبا من أواسط القرن الرابع عشر من التاريخ المسيحي إلى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك؟ لا - إنما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين في عصور مختلفة، ربما لا يجتمع أربعة منهم - فما يزيد - في قرن واحد، ويأخذون في العمل لما وجهوا إليه، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم، فيحس الناس بهم، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم، حتى تشعر السياسة - (نعوذ باللّٰه منها) - بما عسى أن يكون من أمرهم، فتخمد أنفاسهم قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم، فينطفئ النور، ويدلهم الديجور.

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهادا للعلم لأجل حماية الدين؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك. وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف.

المقلِّد دون المقلَّد:

ربما يقول القائل: إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد، والنفرة من العلم، والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه، ورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصا أقرب الملل إليهم، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم والتوسع في علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين: قسما ينقطع إلى الآخرة في الأديار والصوامع، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان؟ وما لك ترى المسلمين خملوا، وارتخت أعصابهم، وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة؟ وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر - كما يقولون - يجري بهم إلى حيث لا يعلمون، ثم مع ذلك أحرص الناس على حياة، وأشدهم لهفا على الحطام، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا، فما هذا التناقض؟

فأقول له: إنك قد نسيت أن المقلِّد يكون دائما أحط حالاً وأخس منزلة من المقلَّد. فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلَّد إلى ظاهره ولا يدري سره ولا ما بني عليه، فهو يعمل على غير نظام، ويأخذ الأمر لا على قاعدة. ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم، لا سيما أنهم قد خلطوا في التقليد، وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تتنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد، فيستلقي إلى أن يستريح فينهض إلى العمل على هدى أو يموت.

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان: عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة. فلما طفقوا يقلدون، أغمضوا إحدى العينين، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم، ففقدوا المطلبين، ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا وتطهير ما أقذوا.

للقائل أن يقول: كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين، مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو **مصر** و**سورية** وغيرهما من البلاد في هذه الأيام؟ كل يقول: ديني ملتي، إسلام مسلمون، قرآن سنة، مجد الإسلام القديم، سلفه الصالحون، تعلم، تعليم، كتب قديمة، كتب جديدة، وما يشاكل ذلك، مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامي كثيرون، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذانا صما وأعينا عميا، وصدا عما يدعو إليه هؤلاء؟

ويمكنني أن أقول له: إن الصادق من هؤلاء ليس بكثير عدة، والجمهور منهم قلما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات، لكسب بعض دريهمات. ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء، وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر، كالزبد لا يمكث في الأرض. وأما الصادقون على قلتهم، فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ويطلبون الرشاد مما يعلمون خصوصًا في أمر الدين، والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الإصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب، فانتظر.

قد يقول القائل: لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوروبيين فيما مضى، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون؟ أليس ذلك سبيلاً لمؤاخذة الإسلام وحجة عليه؟!

وأقول له: إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم، بل المنتظر أن يكون أتعس. وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم، أو تنشأ الحرية الشخصية، أو تسري فيها الحركة العلمية إلى ما فيه صلاح

الجمعية الإنسانية، مع توالي المنبهات، وتواصل الصدمات إثر الصدمات. ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة. فلم يمض عليهم، وهم في بدعهم الجديد، ذلك الزمن الذي قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة، ثم تقضي نحبها في آخره. وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له.

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز في شريعة الإنصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو في التعصب الديني، فضلاً عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطا فيه. والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات. وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره في مثل المستعمرات الهولندية في الشرق و**مملكة الترنسفال** قبل سقوطها، و**بلاد الناتال** في الجنوب، ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا في الشمال من قبل عشرين سنة، ثم يرجع إلى **الجزائر** وما يليها في جهة الغرب، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية، وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر إليهم فيه الإنسانية شزرا، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا.

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون، ليعلم أنهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين. يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين[(٢٢٤)]، ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها، مع ما اتخذته قاعدة لعملها، وهو الشدة والإفراط في القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم. وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة، ويأبى اللّٰه أن يعثرهم على ما يبحثون عنه، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضع واحد، وهو محال كما يقرره فلاسفتهم.

* * *

رأي هانوتو الأخير

في معاملة المسلمين

موسيو «هانوتو» أطلق لقلمه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون، وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء، ثم بعد أن قتل المسألة علما ثلاث سنين، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين، رجع إلى موضوع البحث في هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به، ورأى غير الذي كان يصدر عنه. وإني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجتمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة[(٢٢٥)] متعلقا بإفريقيا، وأقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه، وهو بالمعنى:

«إن القواعد التي يجب أن يكون عليها العمل في إفريقيا هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت السياسة الاستعمارية تجري عليها فيما مضى من الزمان» - (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) - ثم بَيَّن هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون: «إنها الأمن والسلم». ثم قال: «إننا مدينون لهم بالعدل والسلم، كما أننا مدينون لهم بالتساهل الديني. ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول: إن التمدن الأوروبي يجد في طريقه في إفريقيا، لا سيما في شماليها، ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام، والذي هو في هذه الجهات - (شمالي إفريقيا) - أكثر نشاطا منه في غيرها. وهذا الدين يدعو إلى إله واحد، ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدرا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية، ويستولي على المؤمن استيلاء شديدا، فلا يعود يقدر على التفلت منه. فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن، بل ليس التساهل بكاف وحده، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين، ونبذل جهدنا في فهمه. وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) شعارا لا نخرج عن حدود معناها، وأن نحترم الدين الإسلامي ونحميه من كل طارئ سوء. ولا بأس

بذكر كلمة **للأمير عبد القادر الجزائرى** في هذا المقام وهي : «إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات» ، أهـ . محصل كلام **هانوتو** .

قبل الكلام عليه ، أسأل القارئ : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر - في نسبه إلى صاحب الرسالة ، ومقامه في أهل دينه ، ومكانته من سلامة العقيدة - في مذهبه؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى؟!

ترى «هانوتو» يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين ، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم . وعد هذا مبدأ جديدا لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه؟ مسألة فيها نظر ، فهل يليق بمنصف أن يذكر السلم إذا ذكر التعصب ما دام في الكون مثل هذه الدرجة منه؟

* * *

سياسة الإنجليز في التسامح

نعم ، نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها ، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم ، وهي الأمة الإنجليزية ، فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه ، وقد امتاز الإنكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئا كثيرا إلى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق ، وظهور أثر ذلك في كثير من كتابهم مثل « **ولتر سكوت**» و « **شيل**» وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الإنكليز بأزمان طويلة . فلنا أن نقول ولا نخشى لائما : إن هذه الخصلة الشريفة - خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام

ما يحترمون - هي من أجل الخصال متى ورثها غير المسلمين عن المسلمين.
وهل أجد من يأبى عَليَّ القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنكليز، وعنه أخذوا هذه الخلة؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين؟ يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين؟ وهكذا كان حال المسلمين، وإن كان ذلك على قاعدة أبَرَّ وأرحم.

* * *

خاتمة

فإن قال قائل: أليس لهذا المقال من آخر؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل، وترويج الكسل؟ قلت: إني أوجه كلامي هذا إلى أهل النهم إلى الفهم، وأرباب الشره إلى المعرفة. ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال، وأطول منه أضعافا مضاعفة، لأن الموضوع جليل، والكلام فيه مهما كثر قليل. وأما القارئ الملول، فعقله مدخول، وعزمه مفلول، وفكره مغلول، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول، فلا يُنْظَر إليه في الخطاب، ولا يُعتَدُّ به عند الحساب. ومع ذلك، فأنا واقف عند هذا الحد، وأنتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الإسلام، وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها، فرصة أخرى.

وقبل أن أترك القارئ أنبهه إلى أن ما أجْمل في هذه الفصول لم يُقَصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف، كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر. وقد يعلم من هذه النزاهة، أن هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على غيرنا: لكن إذا عشا الساري إلى ضوء نارنا، وطلب القرى منا، أسمعناه ما لدينا، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة، وأهنأ من خلق الأناة، إن شاء اللّٰه. أ هـ.

* * *

رسالة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. (الفاتحة: ١ ـ ٧)

(وبعد). . . فلما كنت في **بيروت**، من أعمال **سوريا**، أيام بعدي عن **مصر**، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية[٢٢٦]، ودعيت في سنة ١٣٠٣[٢٢٧] لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها علم التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة، والمطولات تعلو عن إفهامهم، والمتوسطات أُلِّفَتْ لزمن غير زمانهم.

فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أَمَسُّ بحالهم. فكانت أمالي مختلفة، تتغاير بتغاير طبقاتهم، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملي على الفرقة الأولى، في أسلوب لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله، وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، راميا إلى الخلاف من مكان بعيد، حتى قد لا يدركه إلا الرجل الرشيد.

غير أن تلك الأمالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة، ولم أستبق لنفسي منها شيئا. وعرض بعد ذلك ما استقدمني إلى **مصر**، وكان من تقدير اللّه أن أشتغل بغير التعليم، حتى أتى النسيان على ما أمليت، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت. إلى

أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي، ويصبو إليه عقلي وحسي. وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد، علما مني أنه ركن العلم الشديد.

فذكرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل: ولكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة إليه، في إنشاء ما أرى التعويل عليه، عزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة، ليرسل إليّ ما تلقاه بين يدي. وذكرت ذلك لأخي، فأخبرني بأنه نسخ ما أملي على الفرقة الأولى، فطلبته وقرأته، فإذا هو على مقربة مما أحب، قد يحتاج إليه القاصر، وربما لا يستغني عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود، ووقوف عند حد من القول محدود. قد سلك في العقائد مسلك السلف، ولم يعب في سيره آراء الخلف، وبعد عن الخلاف بين المذاهب، بُعْد مليه عن أعاصير المشاغب.

لكن وجدت فيه إيجازا في بعض المواضع، قد لا ينفذ منه ذهن المطالع، وإغفالاً لبعض ما تمس الحاجة إليه، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه. فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته. وزدت ما أغفل، وحذفت ما فضل. وتوكلت على اللّٰه في نشره، راجياً ألا يكون في قصره، ما يحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره. فما من أحد بأصغر من أن يُعِين، ولا بأكبر من أن يُعَان، واللّٰه وحده ولي الأمر، وهو المستعان.

* * *

مقدمات

التوحيد: علم يبحث فيه عن وجود اللّٰه، وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجب أن ينفي عنه وعن الرسل، لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم.

أصل معنى التوحيد: اعتقاد أن اللّٰه واحد، لا شريك له. وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة للّٰه في الذات والفعل في خلقه الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد.

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة **النبي** - صَلّى اللّٰه عليه وسلم - كما تشهد به آيات الكتاب العزيز، وسيأتي بيانه.

وقد يسمى علم الكلام: إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هي أن كلام اللّٰه المتلو حادث أو قديم. وإما لأن مبناه الدليل العقلي، وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه، وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها. وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تنبيه مسالك الحجة في علوم أهل النظر، وأُبْدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما.

هذا النوع من العلم، علم تقرير العقائد، وبيان ما جاء في النبوات، كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام. ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك. لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما

يشتمل عليه نظام الكون. بل كانت منازع العقول في العلم، ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض، وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه: أنه عدو العقل، نتائجه ومقدماته؛ فكان جُلُّ ما في علوم الكلام تأويلاً وتفسيرا وإدهاشا بالمعجزات، أو إلهاء بالخيالات. يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية.

* * *

جاء القرآن، فانتهج بالدين منهجًا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجًا يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه، ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه. فترك الاستدلال على نبوة النبي - صَلّى اللَّه عليه وسلم - بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة، وحصر الدليل في حال النبي، مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه، ولو في مثل أقصر سورة منه، وتناول من مقام الألوهية ما أذن اللَّه لنا وما أوجب علينا أن نعلم.

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته. ادعى وبرهن. وحكى مذاهب المخالفين، وكر عليها بالحجة. وخاطب العقل، واستنهض الفكر. وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين لصحة ما ادعاه ودعا إليه، حتى إنه في سياق قصص أحوال السابقين، كان يقرر أن للخليقة سنة لا تُغَيَّرُ، وقاعدة لا تتبدل، فقال: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الفتح: ٢٣). وصرح: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (الرعد: ١١). واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب، فقال: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ (فصلت: ٣٤).

وتآخى العقلُ والدينُ لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل. وتقرَّر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود اللَّه،

وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى به إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة. وكالتصديق بالرسالة نفسها.

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

* * *

جاء القرآن يصف اللَّه بصفات، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وُصفَ به في مخاطبات الأجيال السابقة. فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم، أو في الجنس، كالقدرة، والاختيار، والسمع، والبصر. وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش، وكالوجه واليدين. ثم أفاض في القضاء السابق، وفي الاختيار الممنوح للإنسان، وجادل الغالين من أهل المذهبين. ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات، ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة اللَّه، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل، مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل، فَسَحَ مجالاً للناظرين، خصوصًا وأن دعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد باللَّه على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو في التحديد(٢٢٨).

* * *

مضى زمن **النبى** - صَلَّى اللَّه عليه وسلم - وهو المرجع في الحَيْرَة والسراج في ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء، وجمع كلمة الأولياء، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يبتلونها(٢٢٩) بالبحث في مباني عقائدهم. وما كان من اختلاف قليل رُدَّ إليهما، وقُضيَ الأمر فيه بحكمهما، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين، إن كانت حاجة إلى الاستشارة. وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول

العقائد. ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه، ويفوضون فيما يوهم التشبيه. ويرون أن له معنى غير ما يُفهِمُه ظاهر اللفظ.

كان الأمر على ذلك، إلى أن حدث ما في عهد الخليفة الثالث، وأفضى إلى قتله. هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة، واصطدم الإسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآن قائما على صراطه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). وفتح للناس باب لتعدى الحدود التي حدها الدين، فقد قُتل الخليفة بدون حكم شرعي، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم، فقُضيَت أمور على غير ما يحبون.

وكان من العاملين في تلك الفتنة **عبد اللّه بن سبأ**، يهودي أسلم، وغلا في حب **على كرم اللّه وجهه**، حتى زعم أن اللّه حل فيه، وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة، وطعن على عثمان، فنفاه إلى **مصر**، فوجد فيها أعوانا على فتنته. إلى أن كان ما كان مما ذكرنا. ثم ظهر بمذهبه في عهد علي فنفاه إلى **المدائن**. وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده[٢٣٠].

توالت الأحداث بعد ذلك، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا. وكانت حروب بين المسلمين، انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين. غير أن بناء الجماعة قد انصدع، وانفصمت عرى الوحدة بينهم، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة. وأخذت الأحزاب في تأييد آرائهم، كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل. وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل. وغلا كل قبيل، فافترق الناس إلى **شيعة** و**خوارج** و**معتزلين**. وغلا الخوارج في عهد مروان الأول[٢٣١] فكفروا من عداهم، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلاً إلى أن تضعضع أمرهم على يد

المهلب بن أبي صفرة[٢٣٢] ، وانتشرت فارّتُهم في بلاد المغرب ، فأشعلوا فيها الفتن . وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف إفريقيا وناحية من جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة ، فرفعوا عليا أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية ، أو ما يقرب منه . وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .

غير أن شيئا من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع . وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والإفريقيين ومن يليهم . واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن ، اشتغالاً يحرص فيه على النقل ، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر . ووجد من أهل الإخلاص من انتدب نفسه للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم . ومن أشهرهم **الحسن البصري**[٢٣٣] ، فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة ، يجتمع إليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه . فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر . وشارك الدخلاء مَنْ حقَّ لهم السبق من العرفاء ، وبدت رءوس المشاقين تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها ، مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم يتب : اختلف فيها **واصل بن عطاء**[٢٣٤] ، مع أستاذه **الحسن البصرى** ، واعتزله ، يُعَلِّمُ أصولاً لم يكن أخذها عنه . غير أن كثيرا من السلف - ومنهم الحسن على قول - كان على رأي أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته[٢٣٥] . وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادي كأغصان الشجرة في

حركاتها الاضطرارية. كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالأمر، ولا يعنون برد الناس إلى أصل، وجمعهم على أمر يشملهم، ثم يذهب كل إلى ما شاء.

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين، بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو نفيها عنها، وإلى تقدير سلطة العقل في معرفة الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا في تأييد خطة القرآن)، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى، على ما سبق بيانه. ثم غالى آخرون، وهم الأقلون، فمحوها بالمرة، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب، عنادا للأولين[٢٣٦]، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مباني الاعتقاد الإسلامي.

* * *

تفرقت السبل بأتباع «**واصل**»، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا إلى أوليات العقل وما كان سرابا في نظر الوهم، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات. أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة، فغلب رأيهم، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب. فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون، معتصمين بقوة اليقين، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين.

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء. وكان فيهم «**المانوية**[٢٣٧]»، «و**اليزدية**[٢٣٨]»، ومن لا دين له، وغير أولئك من الفرق الفارسية. فأخذوا ينفثون من أفكارهم، ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم، فظهر الإلحاد وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر **المنصور**[٢٣٩] بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم.

فيما حوالي هذا العهد، كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه، وبناء لم يتشامخ علوه، وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر في الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك.

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[٢٤٠]. وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين، وأمسك عن القول، أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة. وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى، وسفكت فيه دماء بغير حق، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين. على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع، ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض[٢٤١] عليه.

وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم[٢٤٢] بالإسلام، وأفرطوا في التأويل، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بُعْدَ الخطإ عن الصواب، وعرفوا **بالباطنية** أو **الإسماعيلية**، ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ. فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة.

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم، كان أمر الخلاف بينهم جللاً، وكانت الأيام بينهم دولاً. ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض، واستفادة كل فريق من صاحبه. إلى أن جاء الشيخ **أبو الحسن الأشعري**[٢٤٣] في أوائل القرن الرابع، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم. وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر. وارتاب في أمره الأولون، وطعن كثير منهم على عقيدته، وكفره **الحنابلة** واستباحوا دمه. ونصره جماعة من أكابر العلماء، **كإمام الحرمين**[٢٤٤]، و **الإسفراييني**[٢٤٥]، **وأبي**

بكر الباقلاني[٢٤٦] وغيرهم، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة. فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان: قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية.

غير أن الناصرين **للمذهب الأشعري**، بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها، كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان. ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول.

ومضى الأمر على ذلك، إلى أن جاء الإمام الغزالى[٢٤٧] و**الإمام الرازى**[٢٤٨] ومن أخذ مأخذهم، فخالفوهم في ذلك، وقرروا أن دليلاً واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها، فلا وجه للحجر في الاستدلال.

* * *

أما مذاهب الفلسفة، فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض. ولم يكن من هَمٍّ أهل النظر من الفلاسفة، إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول. وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا. وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته، ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم، وإفادة الصناعة، وتقوية أركان النظام البشري بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة في ضمائر الكون، مما أباح اللّٰه لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) إذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا. وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق، أو يضع العقبات في سبيلهم إلى ما هدوا إليه، بعدما رفع من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي إليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع، وبعد ما صح من قوله عليه السلام: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»،

وبعدما سن لنا في غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء[٢٤٩].

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم.

الأول: الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان، خصوصًا عن **أرسطو** و**أفلاطون**، ووجد أن اللذة في تقليدها لبادئ الأمر.

والثاني: روح الوقت[٢٥٠]، وهو أشأم الأمرين. زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الجميع. فمال حماة العقائد عليهم. وجاء **الغزالي**[٢٥١] ومن على طريقته، فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات وما يتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الأجساد وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مباني الدين، واشتدوا في نقده. وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم، حتى كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال. فسقطت منزلتهم من النفوس، ونبذتهم العامة، ولم تحفل بهم الخاصة. وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامي من سعيهم.

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين، كما نراه في كتب **البيضاوي**[٢٥٢] و**العضد**[٢٥٣] وغيرهما وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا، والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر، فوقف العلم عن التقدم.

* * *

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة، وتغلب الجهال على الأمر، وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الإسلامي، فانحرفت الطريق بسالكيها، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب. على أن ذلك في قليل من الكتب، اختارها الضعف وفضلها القصور.

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم، فوضعوا ما لم يَعُدْ للإسلام قِبلٌ باحتماله. غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا، فشردوا بالعقول عن مواطنها، وتحكموا في التضليل والتكفير، وغلواْ في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين. وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، وهذا كفر وهذا إسلام، والدين من وراء ما يتوهمون، والله، جل شأنه، فوق ما يظنون وما يصفون. ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط؟! شر عظيم، وخطب عميم.

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم، ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية أمره أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، وبعدوا به عن حده.

والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد. العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين. والقرآن شاهد على كل بعمله، قاضٍ عليه في صوابه وخطله.

* * *

الغاية من هذا العلم: القيام بفرض مُجْمَع عليه، وهو معرفة الله تعالى بصفاته، الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب. فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه. ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملي. وحَقَّ ما قال؛ فإن التقليد

كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار؛ فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان.

* * *

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام:

ممكن لذاته.

وواجب لذاته.

ومستحيل لذاته.

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي. أما الواجب، فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي. والممكن، ما لا وجود له ولا عدم من ذاته؛ وإنما يوجد لموجود ويعدم لعدم سبب وجوده، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره. وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز، فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه.

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته: ألا يطرأ عليه وجود، فإن العدم من لوازم ماهيته من حيث هي. فلو طرأ الوجود عليه، لسلب لازم الماهية من حيث هي عنها، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة. فالمستحيل لا يوجد، فهو ليس بموجود قطعا، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا إليه، فهو ليس بموجود حتى ولا في الذهن.

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته: ألا يوجد إلا بسبب وألا ينعدم إلا بسبب. وذلك، لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته، فنسبتهما إلى ذاته على السواء. فإن ثبت له أحدهما بلا سبب، لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، وهو محال بالبداهة.

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثا، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب. فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه، أو يقارنه، أو يكون بعده. والأول باطل، وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة، وهو إبطال لمعنى الحاجة؛ وقد سبق الاستدلال على ثبوتها، فيؤدي إلى خلاف المفروض. والثاني كذلك، والإلزام يساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر، والثانى مؤثر ترجيحًا بلا مرجح، وهو مما لا يسوغه العقل، على أن علِّيَّة أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح، وهو باطل بالبداهة. فتعين الثالث، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه، فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجود السبب، فيكون حادثا؛ إذ الحادث ما سُبِق وجوده بالعدم؛ فكل ممكن حادث إن وجد.

الممكن لا يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي؛ لأن العدم سلب، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا في بقائه. أما في وجوده، فيحتاج إلى سبب وجودي، لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد، وذلك كله بديهي.

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء، يحتاج إليه في البقاء، لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود، ولا يرجح لها الوجود عن العدم إلا للسبب الخارجي الوجودي، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هي. فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته، فيكون في جميع أحواله محتاجا إلى مرجح الوجود عن العدم، لا فرق بين الابتداء والبقاء.

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد، ومعطي الوجود، وهو الذي يعبر عنه بالموجد، وبالعلة الموجدة، وبالعلة الفاعلة، وبالفاعل الحقيقي، ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها. وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المُعِدّ الذي يهيئ الممكن لقبول الإيجاد من موجوده، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه في الابتداء ويستغني عنه في البقاء، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه. ومن هذا القبيل، وجود البَنَّاء فإنه شرط في وجود البيت، وقد يموت البَنَّاء ويبقى بناؤه، وليس البَنَّاء واهب الوجود للبيت، وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به. وبالجملة، فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء. فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم، كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى، فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية، وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى. أما استفادة الوجود، فتقضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه، وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال.

* * *

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأخرى تنعدم بعد أن كانت، كأشخاص النباتات والحيوانات، فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة. لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود، ولا إلى الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول، فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه، كما سيجيء في أحكام الواجب، فهي ممكنة، فالممكن موجود قطعا.

* * *

وجود الممكن يقتضي بالضرورة

وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود. فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها. فإما أن يكون عينها، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه. وإما أنَ يكون جُزءها، وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات، والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب، فثبت أن للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود.

وأيضا الممكنات، سواء كانت متناهية أو غير متناهية، قائمة بوجود. فذلك الوجود، إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات، وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتضٍ للوجود، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة.

* * *

أحكام الواجب

صِفاتُ البرهانِ الّتي يجبُ الاعتِقادُ بها

القِدمُ.. والبَقاءُ.. ونفيُ التّركيبِ

من أحكام الواجب: أن يكون قديما أزليا؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا، والحادث ما سُبق وجُودُه بالعدم، فيكون وجوده مسبوقا بعدم، وكل ما سُبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود، وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب، وهو محال. فلو لم يكن الواجب قديما، لكان محتاجا في وجوده إلى موجد غيره، وقد سبق أن الواجب: ما وجوده لذاته، فلا يكون ما فُرض واجبا، وهو تناقض محال.

ومن أحكامه ألا يطرأ عليه عدم، وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها، وهو يعني سلب الشيء عن نفسه، وهو محال بالبداهة.

ومن أحكامه ألا يكون مركبا، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة، فيكون وجوده جملة محتاجا إلى وجود غيره، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته. ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه، وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه، بل يكون الوجوب لها أرجح، فتكون هي الواجبة دونه.

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية، فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب، فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشإ انتزاع في الخارج، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة.

وكما لا يكون الواجب مركبا، لا يكون قابلاً للقسمة في أحد الامتدادات الثلاثة، أي لا يكون له امتداد، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول، وصار إلى وجودات متعددة، وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة، فيكون ذلك قبولاً للعدم أو تركبا، وكلاهما محال كما سبق.

* * *

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهيا عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة.

كل مرتبة من مراتب الوجود، تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها، وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر، وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش. فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وإن في النوع، كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال.

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام، كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها.

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا، وظهر بالبرهان القاطع. فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا.

وكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور، وأمكن أن يكون له، وجب أن يثبت له. وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه، يعد من كمال الوجود كما ذكرنا. فيجب أن يكون ذلك ثابتا له. فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له.

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة، وهي صفة تستتبع العلم والإرادة. وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالاً للوجود بداهة، فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام، وناموس الحكمة، وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة، فهي كمال وجودي، ويمكن أن يتصف بها الواجب، وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به، وجب أن يثبت له. فواجب الوجود حي، وإن باينت حياته حياة الممكنات، فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة. ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا، وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه.

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه، فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها؟ فالحياة له، كما أنه مصدرها.

***

العلم

ومما يجب له: صفة العلم، ويراد به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة، أي مصدر ذلك الانكشاف منه؛ لأن العلم من الصفات الوجودية التي تُعَدُّ كمالاً في الوجود، ويمكن أن تكون للواجب، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له، فواجب الوجود عالم.

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة، ومن الممكنات من هو عالم، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الوجود الواجب، وهو محال كما قدمنا.

ثم هو واهب العلم في عالم الإمكان، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده.

علم الواجب من لوازم وجوده، كما ترى، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات، فلا يتصور في العلم ما هو أعلى منه، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه، وإلا تصور العقل علما أشمل، وهو إنما يكون لوجود أكمل، وهو محال.

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه، وعلم الواجب من لوازم وجوده، فلا يفتقر إلى شيء مَّا وراء ذاته، فهو أزلي، أبدي، غني عن الآلات، وجولات الفكر، وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة.

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لجلي النظر مما يشاهد في الأعيان، كبيرها وصغيرها، عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها، هذه الروابط بين الكواكب، والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل عالمه أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فُصِّل في علوم الهيئة الفلكية، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعْتَبِرْ بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها، وإيتائها ما تحتاج إلَيه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء، ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها، وإيداع غير الحساس منها، كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه. فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة، ثم تسقى بماء واحد، وتنمى بعناية واحدة. ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذي المر الزعاف، وهذه تتناول ما يغدو حلو المذاق. وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء، وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له، فهو الذي يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقة، ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله، إلى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة، ويستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه، وحاجته إلى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع. وهو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب، مثلاً، وأنها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء[٢٥٤] متكثرة، وغير ذلك مما لا يستطاع إحصاؤه، وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه. على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار، لم يزالوا في أول البحث.

هذا الصنيع الذي إنما تتفاضل العقول في فهم أسراره، والوقوف على دقائق حكمه، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالمصادفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام، وواضعا لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان، عظيمها وحقيرها؟ كلا . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم .

* * *

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود: الإرادة، وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة . بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب، وأنه عالم، وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه، ثبت بالضرورة أنه مريد، لأنه إنما يفعل على حسب علمه . ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة، وله وقت ومكان محدودان، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة، ولا معنى للإرادة إلا هذا .

أما ما يعرف من معنى الإرادة، وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده، وأن يرجع عنه، فذلك محال في جانب الواجب، فإن هذا المعنى من الهموم الكونية، والعزائم القابلة للفسخ، وهي من توابع النقص في العلم، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

* * *

القدرة

ومما يجب له : القدرة، وهي صفة بها الإيجاد والإعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته، فلا ريب يكون قادرا بالبداهة، لأن فعل

العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان.

* * *

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار، إذ لا معنى له إلا إصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم، وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا إرادة، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد، فيأتيه تنزها عن اللائمة، تعالى عن ذلك علوا كبيرا. ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى، إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها، فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال المكون، وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾. (المؤمنون: ١١٥)؟! وهذا هو معنى قولهم: إن أفعاله لا تُعَلَّل بالأغراض، ولكنها تنزه عن العبث، ويستحيل أن تخلو من الحكم، وإن خفي شيء من حكمته عن أنظارنا.

* * *

الوحدة

ومما يجب له: صفة الوحدة، ذاتًا ووصفًا ووجودًا وفعلاً. أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته، خارجًا وعقلاً. وأما الوحدة في الصفة أي أنه لا يساويه في حياته الثابتة له موجود، فَلِمَا بَيَّنَّا من أن الصفة تابعة

لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات. وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل، ويعني بها التفرد بوجوب الوجود، وما يتبعه من إيجاد الممكنات، فهي ثابتة، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة، وإلا لم يتحصل معنى التعدد، وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات، المتعينة، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة، فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتي؛ لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر في الخارج، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق. وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته، فيكون فعلُ كُلٍّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية. فلو تعدد الواجبون، لتخَالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق. وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام. بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات؛ لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة، وهو محال. فلو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة، فهو، جل شأنه، واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله.

* * *

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد إليه البرهان، وجاءت به الشريعة الإسلامية، وما تقدمها من الشرائع المقدسة، لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا **محمد** - صَلَّى اللَّه عليه وسلم - ولسان من سبقه من الأنبياء، صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع، ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود، ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع، وتصديقا لما أخبر به.

* * *

الكلام

فمن تلك الصفات: صفة الكلام، فقد ورد أن اللَّه كلم بعض أنبيائه، ونطق القرآن بأنه كلام اللَّه. **فمصدر** الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأنا من شئونه، قديما بقدمه. أما الكلام المسموع نفسه، المعبِّر عن ذلك الوصف القديم، فلا خلاف في **حدوثه**، ولا في أنه خلق من خلقه، وخصص بالإسناد إليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلقه، ولأنه صادر عن محض قدرته، ظاهرا وباطنا، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مَظهَرٌ لصدوره. والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل إليه، فإن الآيات التي يقرؤها القارىء تَحْدُثُ وتَفْنَى بالبداهة كلما تُلِيَتْ.

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالاً وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها. وليس في القول بأن اللَّه أوجد القرآن، بدون دخل لكسب بشر في وجوده، ما يمس شرف نسبته. بل ذلك غاية ما دعا

الدين إلى اعتقاده، فهو السنة، وهو ما كان عليه النبي وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة .

أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذي فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث، خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة، وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق، فقد كان منشؤه مجرد التحرج، والمبالغة في التأديب من بعضهم، وإلا فيجل مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكفيه بصوته(٢٥٥) .

* * *

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل: صفة البصر، وهي ما به تنكشف المبصرات .

وصفة السمع، وهي ما به تنكشف المسموعات . فهو السميع البصير، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدَقة ولا باصرة .

* * *

كلام في الصفات إجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث، إن لم يصح فكتاب اللّٰه بجملته وتفصيله يؤيد معناه، وهو قوله، صَلَّى اللّٰه عليه وسلم: «تفكروا في خلق اللّٰه ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا» .

إذا قدَّرْنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . أما الوصول إلى كنه حقيقتها فمما لا تبلغه قوته؛ لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة، وغاية ما يمكن عرفانه

منه هو عوارضه وآثاره. خذ أظهر الأشياء وأجلاها، كالضوء: قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان، وعلى هذا القياس.

ثم إن اللّٰه لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص. ولذة عقله، إن كان سليما، إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت، وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه.

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه، وهي نفسه. أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر؟ هل هي قبل الجسم؟ أوبعده؟ هل هي فيه؟ أو مجردة عنه؟ . . . كل هذه صفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه. وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته، أمَّا كنه شيء من ذلك، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده، ولا يجد سبيلاً للعلم به.

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى؟ ماذا يكون اندهاشه، بل انقطاعه[٢٥٦]، إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي؟

النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلَّت أنواره، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام.

وتخالف الأنظار في الكون، إنما هو من تصارع الحق والباطل، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار، أو صولة القوي منها على الضعيف.

أما الفكر في ذات الخالق، فهو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقل البشري، لما عَلمت من انقطاع النسبة بين الوجودَيْن ولاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى. فهو عبث ومهلكة؛ لأنه سعي إلى ما لا يُدْرَك، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره.

لا ريب فى أن هذا الحديث، وما أتينا عليه من البيان، كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها، فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها، أمَّا ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه. ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وما سبقه من الكتب، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه.

فالذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود، لا يشبه الكائنات، أزلي، أبدي حي، عالم، مريد، قادر، منفرد في وجوده، وفي صفاته، وفي صنع خلقه، وأنه متكلم، سميع، بصير، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه. أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات، ونحو ذلك من الشئون التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب، فمما لا يجوز الخوض فيه؛ إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه. والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تُرَاعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقي، وإنما تلك مذاهب فلسفة، إن لم يضل فيها أَمْثَلُهُمْ فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع. فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا، وأن نسأل اللّٰه أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا.

* * *

أفعال الله

جَلَّ شَأنهُ

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته، كما سبق تقديره. وكل ما صدر عن علم وإرادة، فهو عن الاختيار. ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته. فجميع صفات الأفعال من: خلق، ورزق، وإعطاء، ومنع، وتعذيب، وتنعيم، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص. فلا يطوفن بعقل عاقل - بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة - أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب الصدور عنه لذاته، كما هو الشأن في لوازم الماهيات، أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً؛ فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة، كما سبقت الإشارة إليه.

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى، التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، حتى إذا التقوا في غسق الليل، صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد. فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده، فاستمر بينهم القتال. وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب. ولما أسفر الصبح، وتعارفت الوجوه، رجع الرشد إلى من بقي، وهم الناجون. ولو تعارفوا من قبل، لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا، ولوافتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين.

نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله[٢٥٧]، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده[٢٥٨]، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض.

فقد بالغ قوم فى الإيجاب، حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله، حتى خُيِّل إلى الممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلَّبا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس، ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم، أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الصافات: ١٨٠). وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين. جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله.

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة. وصرح الغلاة والمقصرون جميعًا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله، والكذب فى أقواله. ثم بعد هذا، أخذوا يتنابذون بالألفاظ، ويتمارون فى الأوضاع، ولا يُدرى إلى أى غاية يقصدون. فلنأخذ ما اتفقوا عليه، ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه.

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظامًا أو يدفع فسادًا، خاصًا كان أو عامًا، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله، وحكم بأن العمل لم يكن عبثًا ولعبًا. ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة، وبداهة العقل. لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة، ولا يتمثل عند العقل بمثالها، إلا إذا كان ما يتبع العمل مرادًا لفاعله بالفعل، وإلا لعُدَّ النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلاً، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها. بل لَوُسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه.

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء، أن أفعال العاقل تصان عن العبث. ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها، يكون غاية لها. وإن كان هذا فى العاقل الحادث، فما ظنك بمصدر كل عقل، ومنتهى الكمال فى العلم والحكم؟ كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد.

صنع الله الذى أتقن كل شىء، وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم. ففيه: ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما، وحُفظ به نظام الكون بأسره، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به إلى العدم. وفيه: ماَ استقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصًا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان. ولولا هذه البدائع من الحكم، ما تيسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم، التى نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه، وإيتاء كل محتاج ما له إليه الحاجة، إما أن تكون معلومة له، مرادة مع الفعل، أم لا.. لا يمكن القول بالثانى، وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة، أو بالغفلة إن لم تكن مرادة. وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شىء، واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته. فهو يريد الفعل، ويريد ما يترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل.

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل، مع العلم بارتباطها به. فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة؛ إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد، لم يعد ذلك من الحكمة، كما سبق.

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين. وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ما وعد وأوعد به. فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه، وهو أصدق القائلين. وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك، يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار، حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيات السابق إيرادها، وعلى ما يليق بكمال الله، وبالغ حكمته، وجليل عظمته. والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ (الأنبياء ١٦-١٨).

وقوله: ﴿ **لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا** ﴾، أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق، الذى

لا يشوبه نقص، وهو محال. و﴿إن﴾ فى قوله : ﴿إن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، نافية، وهو نتيجة القياس السابق.

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين: فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته. فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها، ولا يبالى جوز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوِّز، فيسمى الحكمة غاية وغرضًا، وعلة غائية، ورعاية للمصلحة. وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاقه اسما، متى صح عنده معناه. وقد يعبر بالواجب عليه، بدل الواجب له، غير مبال بما يوهمه اللفظ.

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به، واعتقاد بشئون لإله عظيم يُعبد بالتحميد والتعظيم، ويجب الاحتياط فى تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصًا فى جانبه، فيتبرأ من تلك الألفاظ، مفردها ومركبها. فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار. ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر، وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية. والعلة الغائية أو الغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل إلى نهايته، وفيها ما فى سوابقها، ولكن الله أكبر. .

هل يصح أن تكون سعة المجال، أو التعفف فى المقال سببا فى التفرقة بين المؤمنين، وتماريهم فى الجدال، حتى ينتهى بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال؟!

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية، يزن نتائجها بعقله، ويقدرها بإرادته، ثم يُصدرها بقدرة ما فيه. ويُعَدُّ إنكار شىء من ذلك، مساويا لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل.

كما يشهد بذلك فى نفسه، يشهده أيضًا فى بنى نوعه كافة، متى كانوا مثله فى

سلامة العقل والحواس. ومع ذلك، فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه، وقد يطلب كسب رزق فيفوته، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة. فيعود باللائمة على نفسه، إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله، ويتخذ من خيبته أول أمره مرشداً له فى الأخرى، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم. ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى، إن كان سبب الإخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه؛ لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه، فينبرى لمناضلته. وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك، إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله، كأن هب ريحٌ فأغرق بضاعته، أو نزل صاعق فأحرق ماشيته، أو علق أمله بمعين فمات، أو بذى منصب فَعُزِل. يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته. فإن كان قد هداه البرهان، وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد، يصرفه على مقتضى علمه وإرادته، خشع وخضع، ورد الأمر إليه فيما لقى. ولكنه مع ذلك، لا ينسى نصيبه فيما بقى. فالمؤمن، كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله. وقد عرف القوم شكر الله على نعمه، فقالوا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع، وبه استقامت التكاليف. ومن أنكر شيئا منه، فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه.

أما البحث فيما وراء ذلك، من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وقدرته، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذى نُهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد العقول تصل إليه. وقد خاص فيه الغالون من كل ملة، خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدءوا. وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا. فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق[٢٥٩]، وهو غرور

ظاهر. ومنهم من قال بالجبر وصرح به (٢٦٠)؛ ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه(٢٦١)، وهو هدم للشريعة، ومحو للتكاليف، وإبطال لحكم العقل البديهى، وهو عماد الإيمان.

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشراك بالله، وهو الظلم العظيم، دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة. فالإشراك: اعتقاد أن لغير الله أثرًا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأن لشىء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين. وهو اعتقاد من يعظِّم سوى الله، مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا. هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم. فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه، وردِّ الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية:

الأول: أن العبد يكسب، بإرادته وقدرته، ما هو وسيلة لسعادته.

والثانى: أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده، وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله، بعد إحكام البصيرة فيه، وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك.

وهذا الذى قررناه، قد اهتدى إليه سلف الأمة، فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم، وعول عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين الجوينى، رحمة الله، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه.

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلَّف إلا اعتقادَ أن الله صرفه فى قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال، واعتقادَ أن قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته.

أما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك، فليس من مقتضى الإيمان، كما بينا، وإنما هو من شرَه العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار. ولا أنكر أن قومًا قد وصلوا بقوة العلَم، والمثابرة على مجاهدة المدارك، إلى ما اطمأنت به نفوسهم، وتقشعت به حيرتهم، ولكن قليل ما هم. على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء. وكثر ما ضل قوم وأضلوا، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم. لوشئتُ لقرَّبتُ البعيد، فقلت: إن من بَالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ما هى عليه فى العيان، ولا يكون النوعَ ممتازًا عن غيره حتى تلزمه خواص. وكذا الحال فى تميز الأشخاص. فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه.

* * *

اختيار الإنسان

ومن تلك الأنواع: الإنسان. ومن مميزاته، حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكرًا مختارًا فى عمله على مقتضى فكره. فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سُلب شىء منها لكان إما مَلكا أو حيوانا آخر، والفرض أنه الإنسان. فهبة الوجود له لا شىء فيها من القهر على العمل.

ثم علْم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذَا، وهو خير يثاب عليه، وأن عملاً آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر. والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار. فلا شىء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب. وكون ما فى العلم يقع لا محالة، إنما جاء من حيث هو

الواقع، والواقع لا يتبدل، وليس لشىء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره، لا بالمنع ولا بالإلزام. فانكشاف الواقع للعالم، لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا. وإنما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ. ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت ألاّ يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية. لكن يمنعنى عن الإطالَة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان، وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد؛ فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه، ولا يريدون إلا موافقا لما يعتقدون. فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا، نبذوه ولجوا فى مقاومته وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته. فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد. فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم: ويل للخابط، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه، وتحريف لهديه فى شرعه، عرتهم هزة من الجزع، ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا إلا على معروف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

* * *

حُسْنُ الأفعَال وَقبْحُهَا

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا. وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل.

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها. فإن اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار، خصوصًا إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض، ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض

أجزائها، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجابا، ومن القبيح اشمئزازًا أو جزعًا. وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس.

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء، ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان، بل وبعض الحيوان، التمييز بينهما. وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها، وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى نراه عليه الآن، وإن اختلفت الأذواق، ففى الأشياء جمال وقبح.

* * *

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة، وإن اختلف اعتبار الجمال فيها. فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب، والأرواح اللطيفة، وصفات النفوس البشرية، له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهر له بصائر لاحظيه. وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان من أثر الإحساس بالقبيح فى المحسوسات. وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل، والسقوط فى الهمة، وضعف العزيمة؟! ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها.

وقد يجمل القبيح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به. فالمر قبيح مستبشع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر. لكن أثر المر فى معالجة المرض، وعدل الدميم فى رعيته، أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته، فإن جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه، فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل. ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو إذا أمر، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر.

هل يمكن لعاقل ألا يقول فى الأفعال الاختيارية كما قال فى الموجدات الكونية،

مع أنها نوع منها، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية، إما بنفسها وإما بأثرها، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها، كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات؟! . . كلا . . بل هى قسم من الموجودات، حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة.

* * *

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه. تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق، كالحركات العسكرية المنتظمة، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم «بالجمناستيك»، وكإيقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها. ومنها ما هو قبيح فى نفسه، يحس منه ما يحس من رؤية الخَلْق المشوه، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات ونقع (٢٦٢) المذعورين.

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم. فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش. وكل ما يُحصِّل لذة أويدفع ألما لا يحصى عده. وفى هذا القسم، يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم.

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسَن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود، اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح.

* * *

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع، وما يقبح بما يجر إليه من الضرر. ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر، اللهم إلا من أحط جهاته، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر.

فمن اللذيذ ما يقبح لشوم عاقبته، كالإفراط فى تناول الطعام والشراب، والانقطاع إلى سماع الأغانى، والجرى فى أعقاب الشهوات. فإن ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز والذل. وإنما قبح اللذيذ فى

هذا الموضع لقصر مدته، وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى إلا بالموت على أسوإ حالاته، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومُقاساة شدائد الألم.

ومن المؤلم ما يحسن، كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف، ومجاهدة الشهوات، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوافر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قُدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة، إن عدت الحياة مثارا لها.

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا، مقارعة الإنسان عدوه، سواء كان من نوعه أو من غيره، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته، حسب ارتقائه فى الإحساس، ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله.

ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون، كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس إلى ما يُحصِّل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة.

وعُدَّ من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه، واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله، لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المعتدى، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها.

كل هذا عرفه العقل البشرى، وفرَّق فيه بين الضار والنافع، وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير. وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها، وإن كان

المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر.

* * *

كل هذا من الأوليات العقلية، لم يختلف فيه مِلّيّ ولا فيلسوف. فللأعمال الاختيارية، حُسْن وقُبح فى نفسها، أو باعتبار آثَرها فى الخاصة أو فى العامة، والحس أو العقل قادر على تمييزها ما حَسُن منها وماقبح بالمعانى السابقة، بدون توقف على سمع.

والشاهد على ذلك ما تراه فى بعض أصناف الحيوان، وما نشهده من أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع، وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه جاهليته.

ومما يحسن ذكره هنا، ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل، قال: كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها. فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب، فأمرت بهدمه، فهدم، ورفع البنيان إلى الحد الموافق، ووضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من أنقاض السقف القديم. وهذا هو التمييز بين الضار والنافع. فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدها أشد حمقا من النمل.

* * *

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل. فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية، ولم تبلغه بذلك رسالة، كما حصل لبعض أقوام من البشر؛ ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته، كما وقع لقوم آخرين؛ ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا، إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء، ثم قال: إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وإنها إنما تسقط فى

الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة، ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها فى الشقاء، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله: «إن معرفة الله واجبة، وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة، وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة؟! وأن يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه؟».

أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس، يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى، والرذائل مدار الشقاء فيها، فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه.

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة، كما هى حاجات فيل أو أسد مثلاً، وكان ما وهب له من الفكر واقفًا عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى إلى المنافع وإتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع. لكن قضى عليه حكم نوعه بألا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته، فى أى إقليم، وعلى أى حال، وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته، ولولا هذا لما اختلفت عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار.

* * *

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة، والمخيلة، والمفكرة.

فالذاكرة: تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر، فتستحضر من صور

المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده، كما هو بديهى.

و**الخيال**: يجسم من المذكور، وما يحيط به من الأحوال، حتى يصير كأنه شاهد، ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى، ويهمز للنفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى **المفكرة** فى تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان، ومنها ينبوع بلائه. فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر، ينظر مثلاً فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع، وضاقت يده عما يقيم معيشته، فيذكر ألماً لحاجة مضت. ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به، سواء فى سد حاجاته، أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره، بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته، ثم يتخيل ذلك المآل آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به.

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال، يرى مالاً مثلاً فى يد غيره، فيتذكر لذةً ماضية أصابها بمثل هذا المال، ويُعَظِّم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب. وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه؛ لينفقه فيما تخيل من المنفعة، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له، وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده، وسَنَّ سنة الاعتداء، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله.

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعا على نحو ما بينا فى المثالين. فلقوة الذاكرة وضعفها، ولحدة الخيال واعتداله، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر، بل وفى الذكر.

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع، ومنها ما هو ضار. وبعبارة أخرى: منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح. ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك. ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلمًا فى الحال، وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وإن عظمت لذته الحاضرة. ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحَنهمْ ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم، فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه، وكلَ يَظن أنه إنما يطلب نافعا ويتقى ضارا.

فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن. فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم، أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر.

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى، ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، لكن الوثنية أفسدت عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة. فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة؛ وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى، ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه. وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهى.

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه، لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور العبادات، كما يرى فى أعداد الركعات، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية، وضروب التوسل والزهادة فى

الديانة العيسوية . كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعلم الله أن فيه سعادته .

لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجا، فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين، إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة، وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة . ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه، ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهنًا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه، ويعلم صفاته الكمالية، وما ينبغى أن يعرف منها، والحياة الآخرة، وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير، معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه، أو درك ما ضعف عن إدراكه . وذلك المعين هو النبى .

النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك . وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضُلوا به غيرهم من مقامات عرفانهم، لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة . فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله، وبوحدانيته، وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه، وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك . فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص، وحسن المعرفة، وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه، مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس . ولو استقل عقل بشرى بذلك، لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة . فإن زيد على ذلك أن العرفان، على ما بيّنه الشرع، يستحق المثوبة المعينة فيه، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة . غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها، وإنما جاء الشرع مبينا للواقع، فهو ليس مُحدث الحسن، ونصوصه تؤيد ذلك . وأذكر مثالاً من كثير :

قال تعالى على لسان **يوسف** : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف : ٣٩)؟! يشيرون بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل قوتهم إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى. أما اعتقاد جميعهم بإله واحد، فهو توحيد لمنَازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفى ذلك نظام أخوَّتهم، وهى قاعدة سعادتهم، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان. فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد، جاء هاديا لوجه الحُسن فيه.

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها. وكثيرا ما تُبَيِّن له مع ذلك وجوه الحُسْن أو القبح فيما أمرَ به ونُهِىَ عنه. فوجوب عمل من المأمور به، أوالندب إليه، وحظر عمل، أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا، ومُجَازى عليه بعقوبة كذا، مما لا يستقل العقل بمعرفته، بل طريقة معرفته شرعية. وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حَسَنا فى ذاته، بمعنى أنه مما يؤدى إلى منفعة دنيوية أو أخروية، باعتبار أثره فى أحوال المعيشة، أو فى صحة البدن، أو حفظ النفس أو المال أو العِرْض، أو فى زيادة تعلق القلب بالله، جل شأنه، كما هو مفصل فى الأحكام الشرَعية. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حُسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قُبحه، وهذا النوع لا حُسن له إلا الأمر ولا قُبح إلا النهى. والله أعلم.

* * *

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة: بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها، ووقاء وجودها، على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود.

والكلام فى هذا البحث من وجهين:

الأول: وهو أيسرهما على المتكلم، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان. فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلاً من البشر، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته، وتبيين لسلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكام فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها. وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه. وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده في الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التى نزلت عليهم حق. وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه. فمتى ادعى الرسل النبوة، واستدل عليها بالمعجزة، وحب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة، وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم، وصدقهم فى أقوالهم، وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق

السليمة وإنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة، وإن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.

أما فيما عدا ذلك، فهم بشر يَعتريهم ما يعترى سائر أفراده، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، ويمرضون وتمتد إليهم أيدى الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وقد يُقتلون.

* * *

المُعْجِزَة

المعجزة: ليست من نوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعًا لناموس آخر طبيعى، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده.

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة، وتابعًا لأى سبب، إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فإصدار الله لها عند ذلك، يعد تأييدًا منه له فى تلك الدعوى. ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب،

وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة، وهى مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقًا لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة.

وأما السحر وأمثاله فإن سُلِّمَ أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات، فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شىء.

* * *

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء، فلأنهم لو انحطت فطَرهم عن فطَر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر، أو مَسَّ عقَولهم شىءَ من الضعف، لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن أسرار علمه.

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمُنكر فى إنكار دعواهم. ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، ولكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثتهم. والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عُهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

أما وقوع الخطإ منهم فيما ليس من الحديث عن الله، ولا له مدخل فى التشريع، فَجَوَّزَهُ بعضُهُمْ والجمهور على خلافه. وما ورد من مثل أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نهى عن تأبير النخل، ثم أباحه لظهور أثره فى الإثمار، فإنما فعله، عليه الصلاة والسلام، ليُعَلِّم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مَرْعيَّة والفضائل مَحْميَّة. وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة، فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل، والمؤاخذة عليه، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم. كان النهى والأكل رمزين إلى طورين من أطوار آدم، عليه السلام، أو مظهرين من مظاهر النوع الإنسانى فى الوجود.

والله أعلم . ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى ، يقطع بما ذهب إليه الجمهور .

حَاجَةُ البَشَرِ إلىَ الرِّسَالَةِ

(الوجه الثانى) : سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل . والكلام فى هذا الفصل موجه، إن شاء الله، إلى بيان الحاجة إليهم، وهو معترك الأفهام، ومزلة الأقدام، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام .

ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون، ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون، ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب إليه من أقرب الطرق، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق، اللهم إلا إشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى.

وللكلام فى بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان :

الأول: وقد سبق الإشارة إليه، يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والإرادات، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر، موحدين ووثنيين، مليِّين وفلاسفة، إلا قليلاً لا يقام لهم وزن، على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفَارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء مطلقا، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه . فمن قائل بالتناسخ(٢٦٣) فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : إنها متى فارقت الجسد ، عادت إلى تجردها من المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها .

ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية .

وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تُعدُّ للنعيم أو تُبعد عن النكال الدائم . وتضارب آراء الأمم فيه ، قديمًا وحديثًا ، مما لاتكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس ، عالمها وجاهلها ، وحشيِّها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلَّة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو الإلهامات(٢٦٤) التى اختصَّ بها هذا النوع ، كما ألهم الإنسان أو عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا .

وإن شذ أفراد منه ، ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول . بل قالوا إنه لا وجود للعالم إلا فى اختراع الخيال وإنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون(٢٦٥) .

ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الإلهام العام ، المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة ، وأس البقاء إلى الأجل المحدود .

كذلك قد ألهمَت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما يُنزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام عقلى يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يُشعرُ كل نفس أنها خلقت مستعدةً لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شيقةً إلى لذائذ غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهيأةً لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضةً لآلام من الشهوات ، ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعةً الأجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت

عد ولا تنتهى عند حد. إلهام يستلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء، ولم يُعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات.

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه، وكيف الاهتداء، وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعْوزَ الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد، وقضاء الأزمنة والأعصار فى تقويم الأنظار، وتعديل الأفكار، وإصلاح الوجدان، وتثقيف الأذهان ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب، لا ندرى متى نخلص منه، وفى شوق إلى الطمأنينة لا نعلم متى ننتهى إليها.

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون؟ هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك؟

كلا . . . فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر، ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت. فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوامل المستقبلة.

أفليس من حكمة الصانع الحكيم - الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، والذى خلق الإنسان وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعِدُّها، بمحض فضله، بعض

من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، يميزهم بالفَطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته؟ فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب؟ فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها . . هم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها . . ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله، وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية . . وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم . . وأن يبلغوا عنه شرائع عامة، تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله . . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال، ظاهرة وباطنة . . ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين؟!

لا ريب فى أن الذى أحسن كل شىء خلقه، وأبدع فى كل كائن صنعه، وجاد على كل حى بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيرًا ولا جليلاً من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه، والضلال فى أفضل حاليه.

يقول قائل: ولمَ لَمْ يُودعْ الغرائز ما تحتاج إليه من العلم؟ ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوكَ الطريقِ المؤدية إلى الغاية فى الحياة الآخرة؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث، وهو النوع الإنسانى، ذلك النوع على ما به، وما دخل فى

تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وألا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال. فلو أُلهِمَ حاجاته كما تُلْهَمُ الحيوانات، لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إما حيوانا آخر كَالنحل والنمل أومَلَكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض.

المسلك الثانى: فى بيان الحاجة إلى الرسالة يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه: أرَتنا الأيام، غابرها وحاضرها، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر، وينقطع إلى بعض الغابات أو إلى رءوس الجبال، ويستأنس إلى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ويأوى إلى الكهوف والمغاور، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار، ويكتفى من الثياب بما يخصف(٢٦٦) من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا.

ولكن مَثَلَ هذا مثَل النحلة تنفرد عن الدَّبْر(٢٦٧)، وتعيش عيشة لاتتفق مع ما قدر لنوعها. وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التى غُرِزَ فى طبعها أن تعيش مجتمعة، وإن تعددت فيها الجماعات، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه، وأودعَ فى كلٍّ شخص من أشخاصها شُعُورٌ مَّا بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد. وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك، فلا حاجة إلى الإطالة فى بيانه، وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا فى جُمْلة، ما وهبه من قوة النطق، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم، وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة إلى الأيدى العاملة، فتمتد الحاجة، وعلى أثرها الصلة، من الأصل إلى العشيرة، ثم إلى الأمة، وإلى النوع بأسره. وأيامنا

هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع، كما لا يُخْفى هذه الحاجة - خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها لها - صلات وعلائق ميزتها عمن سواها، حاجة فى البقاء، وحاجة فى التمتع بمزايا الحياة، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع.

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل.

فالكل منها بمنزلة بعض قواها، المسخرة لمنافعها، ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب، أو ما تحب، فإن اشتدت كانت ولعا وعشقا.

لكن.. كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين، إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها فى الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه. فإذا عرض التبادل والتعاوض، ولوحظ فى العلاقة بينهما، تحولت المحبة إلى رغبة فى الانتفاع بالعوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع، وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة، أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين.

يحب الكلب سيده ويخلص له، ويدافع عنه دفاع المستميت، لما يرى أنه مصدر الإحسان إليه فى سداد عوزه، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له، فهو يتوقع فقدها بفقده، فيحرص عليه حرصه على حياته. ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر، وغاب عنه السنين، ثم رآه معرضا لخطر مّا عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا، واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة، ذلك أن الإلهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب، فوجدانه

يتردد بين الإحسان ومصدره، وليس له وراءهما مذهب. فحاجته فى سد عوزه، هى حاجته إلى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة.

أما الإنسان - وما أدراك ما هو - فليس أمره على ذلك، ليس ممن يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه عن صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله، وهى غير محصورة، حتى يعتصر منه منافعه، وهى غير محدودة، وإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة، وبجوار كل لذة ألم ومخافة، فلا تنتهى رغائبه إلى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج ١٩-٢١).

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم، وفى قوى العمل، وفى الهمة والعزم. فمنهم المقصر ضعفًا أو كسلاً، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعًا، يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده، ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله - وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل، ليتمتع وإن لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يُخيّل إليه أن لا ضَيْر عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته، ولا يبالى بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه. فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة، أو الوصول إلى لذيذ، فتح له الفكر بابا من الحيلة، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة، فقام التناهب مقام التواهب، وحل الشقاق محل الوفاق، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر.

* * *

اللذة الرُوحانية

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية، وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه، وإن لم تكن له غاية؟

كلا . . ولكن قُدِّر له أن تكون له لذائذ روحانية، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما، حسبما يمتد إليه نظره. وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكانا كاد لا تصعد إليه سائر اللذات وهى من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم، لو صرفت فيما سيقت لأجله، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الإدراك والهمة والعزيمة، حتى خيل إلى كثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تَهَيُّب الحرمة.

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بُنى نظامهم وعُلِّقَ بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم، ورفد بعضهم بعضا فى الأعمال؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها، سببا فى تفانيهم؟ لا ريب فى أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال، فلا بد للنوع الإنسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها.

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة إلى العدل، وظنوا، كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة، وأن العدل نائب المحبة.

نعم . . لا يخلو القول من حكمة، ولكن . . من الذى يضع قواعد العدل، ويحمل الكافة على رعايتها؟ قيل: ذلك هو العقل. فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة. وقد رأينا أن اعتدال الفكر، وسعة العلم، وقوة العقل، وأصالة الحكم، تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ما تُخَيِّله المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمته، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى. وقد جاء منهم أفراد فى

كل أمة، وضعوا أصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته، وهو ما يجب اجتنابه، وإلى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته، وهو ما يجب الأخذ به. ومنهم من أنفق فى الدعوة إلى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها، وبذلك يستقيم أمر الناس.

هذا قول لا يجافى الحقَّ ظاهرُه، ولكن هل سُمِعَ فى سيرة الإنسان، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافَّةُ أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى فى إقناع جماعة منه، كشعب أو أمة، قول عاقلهم: إنهم مخطئون، وإن الصواب فيما يدعوهم إليه، وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء؟!

كلا.. لم يُعْرَفْ ذلك فى تاريخ الإنسان، ولا هو مما ينطبق على سُنّته. فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك، وهم مع ذلك يدَّعونَ المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول، ولا يَعْرفُ جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يَعْرفُ من أمر الجاهل، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل. فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعًا، ولا يرد طمأنينة. وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويفقد ما قصد بوضعها.

* * *

الحاجة الأخروية

أضف إلى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية، وأشد لزومًا لها: كل إنسان، مهما علا فكره وقوى عقله، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة

ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوِالم فى وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين ولا تتطرق إليها إرادة المختارين. تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى، ولا سبيل لها إلا الطريق التى حددت لنوعها، وهى طريق النظر. فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر. فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات، لكثرة نفعها أو شدة ضررها. ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب، لظهور أثرها. ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار، لاعتبارات له فيها. ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع، فجعل لكل نوع إلها.

ولكن.. كلما رق الوجدان، ولطفت الأذهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر، وجلَّت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه، فلم يسلم من الخبط فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه، فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا.

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قُدَرَهْم، وعلا متناول استطاعتهم، ولكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له، اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم، وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار، لغلبة الشهوات عليهم.

إن كان الإنسان قد فُطر على أن يعيش فى جملة، ولم يُمَنح من تلك الفطرة ما مُنحَهُ النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك، وإنما تُرَك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق، كما فُطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته. ولم يَفض عليه مع ذلك الشعور عرفانُه بذات ذلك القاهر ولا صفاته، وإنما ألقى به فى مطارح النظر، تحمله الأفكار فى مجاريها، وترمى به إلى حيث يدرى ولا يدرى. وفى كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده. فهل مُنىَ هذا النوع بالنقص، ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف

الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود؟ . . نعم . . هو كذلك، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

* * *

الرُسُل والرّسالة

الإنسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ويسامى بقوته ما يعظم أن يسامى من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك فى الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين.

من ذلك الضعف، قيد إلى هداه. ومن تلك الضِّعة، أخذَ بيده إلى مشرق سعادته. أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخَصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده. وكما جاد على كل شخص بالعقل المُصرِّف للحواس، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى فى الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمَسُّ بالحاجة فى البقاء وآثرُ فى الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظُ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع.

مَنَّ عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة، بل الراجع بها إلى النفوس التى أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه، وهى جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم، لا يشركهم فيها سواهم. وأيد ذلك، زيادة فى الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطرق على سوابق العقول، فيستخذى الطامح، ويذل الجامح، ويُصدَمُ بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته،

فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له، ويستوى فى كونه لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى.

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يَعلَمُوه من شئون ذاته وكمال صفاته. وأولئك هم الأنبياء المرسلون.

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته فى بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد.

* * *

إمكانُ الوحى

الكلام فى إمكان الوحى يأتى بعد تعريفه، لتصوير المعنى الذى يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر، فيفهم معنى المصدر نفسه. ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان، ولنذكر من اللغة ما يناسبه:

يقال: وحيت إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. والوحى مصدر من ذلك، والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه. ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله. وقيل الوحى إعلام فى خفاء، ويطلق ويراد به الوحى.

وقد عرفوه شرعا: إنه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه.

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول[٢٦٨] بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب

على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور(٢٦٩).

أما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك، وسهولة فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك، ويحب أن يرغم نفسه الفهَّامة على ألا تفهم.

نعم.. يوجد فى كل أمة، وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم ما وراء سواحل اليقين، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس. بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها، كما سبقت الإشارة، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون العقل وشئونه، وسره ومكنونه، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى، بل عن مجالس الحشمة التى تضمهم إلى الالتزام بما يليق، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان. فإذا عرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان، وهَمَّ من أنفسهم هام بالإصغاء، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ما ذاقوا، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم، إن شاء الله.

قلت: أى استحالة فى الوحى؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات فكر، مع العلم أن ذلك من قِبلِ واهب الفكر ومانح النظر، متى حفَّت العنايةُ من مَيَّزتْه هذه النعمة.

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة، يعلو بعضها بعضًا، وأن الأدنى منها لا يُدْركُ ما عليه الأعْلى إلاَّ عَلَى وجه من الإجمال، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فىَ التعليم فقط، بل لا بد معه من التفاوت فى الفطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، ولا شبهة فى أن من النظريات عنَد بعض العقلاء ما

هو بديهى عند من هو أرقى منه، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلا ما لا يحصره العـدد، وأن من أرباب الهـمم وكبـار النفـوس من يرى البـعيـد عن صـغـارها قـريبـا فيسعى إليه، ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ما صار إليـه كأنه من المعروف الذى لا يُنَازَع، والظاهر الذى لا يُجَاحَـد فإذا أنكره منكر ثاروا عـليـه ثورتهم فى بادئ الأمـر على من دعـاهم إليه. ولا يزال هذ الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة إلى اليوم.

فإذا سُلِّمَ ـ ولا محيص عن التسليم ـ بما أسلفنا من المقدمات، فَمنْ ضعف العقل والنكول عن النتيـجة اللازمة لمقدمـاتهـا، عند الوصول إليهـا، ألا يُسَلِّمَ بأن من النفوس البـشرية ما يكون لهـا من نقـاء الجوهر، بأصل الفطرة، ما تستعد به، من محض الفيض الإلهى، لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليـا، وتشهـد من أمر الله شهـود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهـان، وتتلقى عن التعليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعـاليم، ثم تُصـدرُ عن ذلك العلم إلى تعليم ما عَلمت ودعوة الناس إلى ما حُـمِلَتْ على إبلاغه إليـهم، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسَب الحاجة.

يُظهرُ برحمته من يختصه بعنايته، ليفى للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحة، إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده، وتكون الأعلام التى نصبهـا لهدايته، وسعـادته كـافية فى إرشـاده، فُتـخْتمُ الرسالة ويُغلَقُ باب النبوة، كمـا سنأتى عليه فى رسالة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم.

الملائكة

أما وجود بعض الأرواح العالية، وظهورهـا لأهل تلك المرتبة السامية، فمـما لا استـحالة فيـه بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم، قديمه وحديثه، اشتمـال الوجود عـلى مـا هو ألطف من المادة، وإن غُيِّب عنـا. فأى مانع من أن يكون بعض

هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الإلهى وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه؟ فإذا جاء به الخبر الصادق حَملَنا على الإذعان بصحته؟

أما تمثل الصوت، وأشباح لتلك الأرواح لتلك فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة، فقد عُهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم، فقد سَلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس، فيصدق المريض فى قوله إنه يرى ويسمع، بل يجالد ويصارع، ولا شيء من ذلك فى الحقيقة بواقع. فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة، ولا منشأ لها إلا فى النفس وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس؟ وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم.

وغاية ما يلزم عنه، أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم، وهو مما يسهل قبوله، بل يتحتم، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة. وهذه المغايرة، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم، والدليل على سلامة شهودهم، وصحة ما يحدثون عنه.

إن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وإن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل.

أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس، لهم مُشَارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال(٢٧٠) لا تنكر عليهم، لتحقق حقائقها فى الواقع. فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يُحَدَّثُ به عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف.

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة. ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به. ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول، وفساد الأخلاق، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبئوا به، بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة.

وُقوعُ الوَحى والرّسالةِ

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه، ظاهر للشاهد الذى برئ حاله، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة.

أما للغائب عن زمن البعثة، فدليلها التواتر، وهو كما تبين فى علم آخر: رواية خبر عن شهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب [عادة]، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه، كالإخبار بوجود «**مكة**»، أو بأن **للصين** عاصمة تسمى «بكين» وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة[٢٧١]، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به. ومرجع كل ذلك إلى العدد، وبُعْد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر.

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يُحَصِّلُ اليقين بالمُخْبَر به، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به. ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر

كإبراهيم وموسى وعيسى، ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بُعثوا بينهم بالأقوى سلطانا، ولا بالأكثر مالاً، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه. وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدْنين الذين تعافهم النفوس، وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك، واستحكام السلطان لغيرهم، ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطرة، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به.

حالفتهم القوة، واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها، وخلطوا فيها. فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصح معه، فى العقل، وأن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس.

على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول، والباطل لابقاء له إلا فى الغفلة عنه، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها، فإذا لامستها عناية الزراع غلبه الخصب وذهب به الزكاء.

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الإنسانى ما شاء الله مما قدر لها، مُقام سائر قواه مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أساسها الكذب ودعامتها الحيلة. وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحَقَ بها المبتدعون، أما بقية الرسل، ممن يجب علينا الإيمان بهم، فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أخبرنا برسالتهم، وهو الصادق فيما بلغ به. وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى باب على حدته إن شاء الله.

وظيفة الرُّسل عليهمُ السَّلامُ

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه. ولكنها حاجة روحية، وكل ما لا مس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكتها، أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين. أما تفصيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجهة العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله ألا يُحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما، متصفا بما أوجبَ الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له، وصنع قدرته. وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال، وشرطه ألا ينال شىء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشَرٍّ فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شرِيعتها.

* * *

يرشدون العقل إلى معرفة الله، وما يَعْرِفُ من صفاته، ويبينون الحد الذى يجب أن يَقفَ عنده فى طلب ذلك العرفان، علىَ وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفعَ ثقته بما آتاه الله من القوة.

يجمعون كلمة الخلق على إله واحد، لا فُرْقةَ معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكرة لمن ينسى، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تُقَوِّى ما ضعف منهم، وتَزِيدُ المستيقن يقينا.

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم

ولذاتهم، فَيَفْصِلُون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تَقُومُ به المصالِح العامة، ولا تفوت به المنافع الخاصة. يعودون بالناس إلى الألفة، ويكشفون لهم سر المحبة، ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم. يعلمونهم لذلك أن يرعى كُلٌّ حقَّ الآخر وإن كان لا يغفل حقه، وألا يتجاوز فى الطلب حده، وأن يعين قويهم ضعيفهم، ويمد غنيهم فقيرهم، ويهدى راشدهم ضالهم، ويعلم عالمهم جاهلهم.

يضعون لهم، بأمر الله، حدوداً عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق، مع بيان الحق الذى تهدر له، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يُقَوِّمُوا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، والرحمة بالضعفاء، والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية، آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير، حسبما أمرهم الله جلَّ شأنه.

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبإ الدار الآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره، وتجنب الوقوع فى محاظيره. يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده.

بهذا تطمئن النفوس، وتثلج الصُدور، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر، أو إرضاء لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم.

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات . فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها . وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هَدَى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك ، يزيد فى سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين . ولكن كانت سنة الله فى ذلك ، أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ، فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه . ولغتهم ، عليهم الصلاة والسلام ، فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون ، وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم . ولهذا ، قد يأتى التعبير الذى سيق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة . وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم .

* * *

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان ، بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان ، مطالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

اعتراضٌ مَشهورٌ

قال قائل: إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمالاً لنظام اجتماعهم، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء؟! يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون؟! كل يستعد للوثبة ولا ينتظر إلا مجيء النوبة. حَشْرُ جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع. عدَّ أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع. بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم، وتختلف مذاهبهم فى فهمه، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم، إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين.. فها هو ذا الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة، كان سببا فى الشقاق، ومُضْرِما للضغينة، فما هذه الدعوى؟! وما هذا الأثر؟!

نقول فى جوابه: نعم.. كل ذلك قد كان، ولكن بَعْدَ زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه، أو يفهمه ويغلو فيه، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم. وإلا فقل لنا: أى نبى لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم؟ ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجملتها؟!

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس، بل الكل - إلا قليلاً - لا يفهمون فلسفة «**أفلاطون**»، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق «أرسطو». بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها مُعَبِّرٌ، لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له فى تقويم النفس، ولا فى إصلاح العمل. فاعتبر هذه

الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها، فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتهم وردها إلى الاعتدال فى رغائبها.

من البديهى، أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان مضار الإسراف فى الرَّغَب، وفوائد القصد فى الطلب، وما ينحو نحو ذلك، مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر. وإنما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه، المحيط بما فى نفسه، الآخذ بأزمَّة هممه، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتَقد به من مواعظ وعبر، ومن سيَر السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، وتنعَش روحه بذكر رضا الله إذا استقام، وسخطه عليه إذا تقحم. عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخذى الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يُرْضى الله وأولياءه إذا أطاع، ويُسْخطُهُمْ إذا عصى. ذلك هو المشهود من حال البشر، غابرهم وحاضرهم. ومُنْكِرُهُ يَسِمُ نَفْسَهُ أنه ليس منهم.

كم سمعنا أن عيونا بكت، وزفرات صعدت، وقلوبا خشعت لواعظ الدين؟ لكن هل سَمِعْت بمثل ذلك بين أيدى نُصَّاحِ الأدب وزعماء السياسة؟!

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر، ولا ينطبق على فطرهم. وإنما قوام الملكات، هو العقائد والتقاليد، ولا قيام للأمرين إلا بالدين. فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة، بل والخاصة، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم.

سوء الاستعمال

قلنا: إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص، أومنزلة العَلَمِ المنصوب على الطريق المسلوك، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول: منزلة السمع والبصر.

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر؟ وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره، فيتردى فى هاوية يهلك فيها، وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه. يقع ذلك لطيش، أو إهمال، أو غفلة أو لجاج وعناد.

وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أونحوها.

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله، كذلك الرسل، عليهم السلام، أعْلاُم هداية نصبها الله على سبيل النجاة. فمن الناس من اهتدى بها، فانتهى إلى غايات السعادة. ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها، فانكب فى مهاوى الشقاء. فالدين هاد، والنقص يعرض لمن دُعُوا إلى الاهتداء به، ولا يطعن نَقْصُهُم فى كماله، واشْتداد حَاجَتهم إليه: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

ألاَ إن الدين مستقر السكينة، ولجأ[٢٧٢] الطمأنينة. به يرضى كُلٌّ بما قُسمَ له. وبه يدأب عامل، حتى يبلغ الغاية من عمله. وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون. وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة، وإلى من دونه فى المال والجاه، واتباعًا لما وردت به الأوامر الإلهية.

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية. الدين قوة من أعظم قوى البشر، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى.

وكل ما وُجِّه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده، فتبعته فى أعناق القائمين عليه، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه. وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به إلى أصوله الطاهرة الأولى، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع إليه قوته، وتظهر للأعمى حكمته.

ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين، وبأن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أُودِعَهُ من معارف وأحكام.

فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين عَلَماً يُهتدى به. وإنما الذى سبق تقريره، هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى، كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما مُنِحَتْ لأجله، والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال. كيف ينكر علىَ العقل حقه فى ذلك؟ وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وأنها آتية من قبل الله؟ وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضع واحد فى آن واحد، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به، فإن جاء ما يوهم ظاهرُهُ ذلك فى شىء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مرادٍ، وله الخيار بعد ذلك: فى **التأويل**، مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه، وفى **التفويض** إلى الله فى علمه، وفى سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى.

ليس من غرضنا، فى هذه الوريقات، أن نلم بتاريخ الأمم عامة، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء إلى دونهم من رعاياهم الضعفاء، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم[٢٧٣] الأنفس البشرية، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين، وتنبه المرءوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين، والقادة الغارّين، وبالجملة تئوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنها الله له: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ (الإنسان : ٣)، ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها إلى ما أعدّ فى الدارين له.

ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف: كانت دولتا العالم، دولة الفرس فى الشرق، ودولة الرومان فى الغرب، فى تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، وأموال هالكة، وظُلَمٌ من الإحن حالكة. ومع ذلك، فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة. وكان شَرَهُ هذه الطبقة من الأمم لايقف عند حد، فزادوا فى الضرائب، وبالغوا فى فرض الإتاوات، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها. وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل. وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر، والذل والاستكانة، والخوف والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم، فعاد هؤلاء كأشباح، اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب، ففُقِد بذلك الاستقلال

الشخصى، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها.

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها. ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى، الذى يخالط الفطر الإنسانية، قد يفتق الغُلف التى أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول، فتهتدى العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل. ولذلك، لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام، ويهيئوا كِسَفا من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا بها فى عقول العامة، فيغلظ الحجاب، ويَعظم الرَّيْن، ويختنق بذلك نور الفطرة، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم.

وصرح الدين، بلسان رؤسائه، أنه عدو العقل، وعدو كل ما يثمره النظر، إلا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس. وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب، ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم. وذلك كان شأنهم فى معايشهم. عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية، والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم بالغابر. ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها، بما انقلب من الوضع، وانعكس مع الطبع، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والدعارة حيث ترجى السلامة، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه لأول وهلة إلى أن كل ذلك هو الدين. فاستولى الاضطراب على المدارك، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معا، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة، وكان ذلك ويلاً عليها، فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات، خاضعة للشهوات. فخر كل قبيلة فى قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبى نسائها، وسلب أموالها. تسوقها

المطامع إلى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات. وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى، ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها!! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصًا من عار حياتهن، أو تنصلاً من نفقات معيشتهن. وبلغ الفحش بهم مبلغًا لم يعد معه للعفاف قيمة. وبالجملة: كانت رُبُط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة.

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام، أن يؤدبهم برجل منهم، يوحى إليه رسالته، ويمنحه عنايته؟ ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التى أظلت رءوس جميع الأمم؟!

نعم.. كان ذلك، وله الأمر من قبل ومن بعد.

فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، عام الفيل- (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد **المسيح** عليه السلام)- ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، **بمكة**. ولد يتيما، توفى والده قبل أن يولد، ولم يترك له من المال إلا خمسة جمال وبعض نعاج، وجارية. ويروى أقل من ذلك. وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا، فاحتضنه جده **عبد المطلب** وبعد سنتين من كفالته، توفى جده، فكفله من بعده عمه **أبو طالب**. وكان شهما كريما، غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله.

وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم، على ما به من يُتْمٍ فقد فيه الأبوين معًا، وفَقْرٍ لم يسلم منه الكافل والمكفول. ولم يقم على تربيته مهذِّب، ولم يعن بتثقيفه مؤدبٌ، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة الأصنام. غير أنه مع ذلك، كان ينمو ويتكامل، بدنا وعقلاً وفضيلة وأدبا، حتى عرف بين أهل مكة، وهو فى ريعان شبابه، بالأمين.

أدب إلهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصًا مع فقر

القُوَّام. فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون، رفيعا والناس منحطون، موحدا وهم وثنيون، سلّما وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أميا مثله، تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوى قرابته وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده. فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن، لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده. ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بُغِّضت إليه الوثنية من مبدإ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة وما جاء فى الكتاب من قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧)، لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله. إن ذلك لهو الإفك المبين. وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين. وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته، باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

* * *

وجد شيئا من المال يسد حاجته ـ (وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته) ـ بما عمل لخديجة، رضى الله عنها، فى تجارتها، وبما اختارته بعد ذلك زوجها. وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه. لكنه لم ترقه الدنيا، ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها. بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر، والمراقبة والتحنث(٢٧٤) بمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم

فى تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه. إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى، وتجلى عليه النور المقدس، وهبط عليه الوحى من المقام العلى، فى تفصيل ليس هذا موضعه.

لم يكن من آبائه ملك، فيطالب بما سُلب من ملكه. وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، وفى قناعة بما وجده من شرف النسبة إلى المكان، دل عليهما ما فعل جده **عبد المطلب** عند زحف «**أبرهة**» الحبشى(٢٧٥) على ديارهم. جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومنتجع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم. وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير. وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك، فاستدناه وسأله حاجته، فقال: هى أن ترد إلىَّ مائتى بعير أصبتها. فلامه الملك على المطلب الحقير، وقت الخطب الخطير. فأجابه: أنا رب الإبل، أما البيت فله رب يحميه.

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام، وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش. فأين من تلك المكانة **محمد** - صلى الله عليه وسلم - فى حاله من الفقر، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع مُلكا أو يطلب سلطانًا؟!.. لا مال. لا جاه. لا جند. لا أعوان. لا سليقة فى الشعر. لا براعة فى الكتاب. لا شهرة فى الخطاب. لا شىء كان عنده مما يُكْسب المكانة فى نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة.

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس؟! ما الذى أعلى رأسه على الرءوس؟! ما الذى سما بهمته على الهمم، حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم، وكفالته لهم كشف الغمم، بل وإحياء الرمم؟!

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مُقَوِّم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم. ما كان ذلك إلا وِجدانه ريح العناية الإلهية، ينصره فى عمله، ويمده فى الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله. ما هو

إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه، يضىء له السبيل، ويكفيه مُؤْنَةَ الدليل. ما هو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى!!

أرأيت كيف نهض وحيداً فريدا يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلى المجيد، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة؟!.. نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم، ونبذ معبوداتهم، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم، وفى الثنوية بإفراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان، ورد كل شىء فى الوجود إليه. أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة، فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به. صاح بذوى الزعامة، ليهبطوا إلى مصاف العامة فى الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السماوات والأرض، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم. تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين به، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد، يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه، لا يتفاوتون إلا فيما فَضَّل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة.

وَخَزَ بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التى أَخَذَتْ بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الأمل. مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعَتْه من الشرائع الإلهية، فبَكَّتَ الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قُصد من وحيها، اتباعا لشهواتهم. ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يَكونوا على نور من ربهم.

واستلفت كل إنسان إلى ما أودعَ فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثًا، عامة وسادات، إلَى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشد إليه عقله وفكره،

وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين، إنما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه، وليست فى الاعتقاد بوجوده. وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين مختلفين، وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق. دعا الناس كافة إلى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل، هو الإخلاص لله فى العبادة والإخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولا حول له ولا قوة. كل هذا كان منه والناس أحبّاء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة. كل هذا، والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهوتهم، لا يفقهون دعوته، ولا يعقلون رسالته. عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحُجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه فى فقره وضعفه، كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعبر، ويحوطهم مع ذلك، بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه، عادل فى أمره ونهيه، أو أب حكيم

فى تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم فى شدته، رحيم فى سلطته.

ما هذه القوة فى ذلك الضعف؟! ما هذا السلطان فى مظنة العجز؟! ما هذا العلم فى تلك الأمية؟! ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية؟! إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا. ذلك خطاب الله القادر على كل شىء، الذى وسع كل شىء رحمة وعلما. وذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف(٢٧٦)، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة، بريئا من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أى برهان على النبوة أعظم من هذا؟!.. أمى قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء، ليمحصوا ما كانوا يعلمون؟! فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء؟! ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء؟! غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقًا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها؟!

ما هذا الخطاب المفحم؟! ما ذلك الدليل الملجم؟!.. أأقول: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾؟! (يوسف: ٣١) لا، لا أقول. ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه: إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه. نبى صدق الأنبياء، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر. ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له. واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب. وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

* * *

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة أن **النبى** - صلى الله عليه وسلم - كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه، وإن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم. كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها. ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم. آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرفوا، بالتأويل، فى كتبهم. وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم. ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم.

نزل القرآن فى عصر، اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب، وأغزرها مادة فى الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب. وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب فى القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول. وتفانيهم فى المفاخرة بذلك، لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى - صلى الله عليه وسلم - والتماسهم الوسائل، قريبها وبعيدها، لإبطال دعواه، وتكذيبه فى الإخبار عن الله، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم. وكان فيهم الملوك الذين تحملهم

عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته، والخطباء والشعراء والكُتّاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته. وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه، استكباراً عن الخضوع له، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم. وهو مع ذلك يخطّئ آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم. ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، أو بعشر سور من مثله. وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا، ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة؟

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام. أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب، على لسان أمى، أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر؟! وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى، والحكم الصادر عن المقام الربانى، على لسان الرسول الأمى، صلوات الله عليه؟!

* * *

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون، كالخبر فى قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم٢ ـ ٤) وكالوعد الصريح فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥)، الآية. وقد تحقق جميع ذلك. وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته.

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة البلاد العربية، ووفرة سكانها، وتباعد أطرافها، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها، ومع أنه

لم يسبق له، صلى الله عليه وسلم، السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها، وقصور العلم البشرى، عادة، عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا، ومن الصعب، بل من المتعذر، أن يصدر عن عاقل التزامٌ كالذى التزمه، وشرطٌ كالذى شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته. وإنما ذلك هو الله المتكلم، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط عِلمهُ بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه.

يقول واهم: إن العجز حجة على من عجز، فإن العجز هو حجة الإفحام وإلزام الخصم. وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيُفحَمُ ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن ألا يسلم غيره بما سلمه، فلا يفحمه الدليل، بل يجد إلى إبْطَاله أقرب سبيل.

وهو وَهمٌ يضمحل بما قدمناه من البيان، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز، وشتان بين العجزين، وبَعُدَ ما بين وجهتى الاستدلال فيهما. فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة. وقلنا: القوى البشرية، لأنه جاء بلسان عربى، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى العناد كما بينا، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم. فلا يعقل أن فارسيا أوهنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم. وتَقَاصُرُ القوى جميعها عن ذلك، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه.

ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة، مما يدل على الثقة بأمره، مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا

يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف، مع طول الزمن وانفساح الأجل. كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة.

فثبت بهذه المعجزة العظمى، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير، ولا يتناوله التبديل، أن نبينا **محمداً** - صلى الله عليه وسلم - رسول الله إلى خلقه؛ فيجب التصديق برسالته، والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة. وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك.



الدين الإسلامى

أو

الإسلام(٢٧٧)

بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامى، وما دعا إليه، على وجه الإجمال، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة، والسر فى كون النبى - صلى الله عليه وسلم - خاتم المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

هو الدين الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وَعَقَلَهُ مَنْ وَعَاهُ عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم لا خوف ولا اعتساف فى التأويل، ولا ميل مع الشيع، وأتى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه. وما سندى فيما أقول إلا الكتاب، والسنة القوية، وهدي الراشدين.

* * *

التَّوْحِيدُ

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا، متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية، كالعلم، والقدرة، والإرادة، وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (الإخلاص: ١ : ٤)

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشتبهوا فى شىء منها. وإن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو رُوح أحَد من العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى، الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير. وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك، إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح. بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً. وقضى على هؤلاء، كغيرهم، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص، وبتيسير خاص، فى موضع خاص، لحكمة خاصة، ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا إلا ببرهان، كما تقدم.

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨). والشكر عند العرب معروف أنه: تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله، دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس، وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه، بمحض تلك الموهبة، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أوعليها. وأما ما تتحير فيه مداركنا، وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها، وكان لا بد من الخضوع له، والرجوع إليه، والاستعانة به، فذلك إنما يردُّ إلى الله وحده، فلا يجوز أن تخشع إلا له، ولا أن تطمئن إلا إليه، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات، فهو وحده مالك يوم الدين.

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة. تبع هذا طهارة العقول من

الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة فى الاختلاف فى المعبودين وعليهم. وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السماوات والأرض وقاهر الناس أجمعين. وأبيح لكل أحد، بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩). وكما أمر رسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تقعدها بإرادة غيره، سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى، كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال، كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها. وافتكت عزيمته من أسر الوسائط، والشفعاء، والمتكهنة والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار، ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد.

وبالجملة، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، وصار الإنسان بالتوحيد، عبد الله خاصة، حرا من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر لا عَلِيّ فى الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء. ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته.

* * *

مكانة العمل

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩). وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشربا ولباسًا وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه، أو بمن يدخل فى ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره. وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، إلا حقًا محترما تصطدم به.

* * *

حرية الفكر... والتجديد

أنحى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم. صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نوْمة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة(٢٧٨) من سدنة هياكل الوهم: «نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة والغاية بعيدة، والراحة كليلة والأزواد قليلة»!!

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليُقاد بالزمام، ولكنه فُطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودَلائل الحوادث، وإنما المعلَمون منبهون ومرشدون، وإلى طرق البحث هادون. صرح فى وصف أهل الحق بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨)، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال، من فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون،

ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مُسميا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان. وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان. بل للاحق منْ علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه. وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر، ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام: ١١). وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب. عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير أسلافهم، وقولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (لقمان: ٢١) - ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢).

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قَيَّده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع مع ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر. وبهما كملت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها. وقد قال بعض حكماء الغربيين، من متأخريهم: إن نشأة المدنية فى أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين. فلم تنهض النفوس للعمل، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم، وإن لهم حقّا فى تصريف اختيارهم، وفى طلب الحقائق بعقولهم. ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من

ميلاد **المسيح**، وقرر ذلك الحكيم: إنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان(٢٧٩).

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة ففرضوا على العامة أوأباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب، لكن على شريطة ألا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى إليه. ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضًا مزية الفهم إلا قليلاً، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف، فذهبوا بحكمة الإرسال.

فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا، فقال: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ (البقرة ٧٨) ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الجمعة ٥). أما الأمانى ففسرت بالقراءات والتلاوات، أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا. وإذا عَنَّ لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده، لشهوة دفعته إلى ذلك، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف فى التأويل، وقال: هذا من عند الله: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ (البقرة: ٧٩). أما الذين قالوا: إنهم لم يحملوا التوراة، وهى بين أيديهم بعدما حُمِّلوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسمُ عقولهم إلى درك ما أودعَته من الشرائع والأحكام. فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإنزالها. فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثَلُ الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهور به، وانبهار النفس. وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سببا فى إسعادهم، وهو التنزيل والشريعة، أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة..

وبهذا التفريع ونحوه، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين، مما هو منتشر فى القرآن العزيز، فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه، وما قرر من شرعه، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات.

* * *

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين، وإن كانوا، إلا قليلاً، فى جانب عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون. فرقة وتخالُف وشغبٌ يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب. أنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد. قال الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٩) - ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧) - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ (الشورى: ١٣) - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤). وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات.

والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة، مع ظهور الحجة، واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه، مَعْرُوفَةٌ لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته. نص الكتاب على أن دين الله فى جميع

الأزمان هو إفرادهُ بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، طاعته فيما أمر به، ونهى عنه، مما هو مصلحة للبشر، وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة. وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول إلى فهمه منها، والعزائم إلى العمل به. وإن هذا المعنى من الدين، هو الأصل الذى يُرْجَع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف. وإن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين، وبعد عن سنته. ومتى روعيت حكمته، ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها، وسار الكافة فى مراشدهم إخوانا، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين.

* * *

اختِلافُ الأديان فى العِبادات

أما صور العبادات، وضروب الاحتفالات، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان. وكما جرت سنته ـ وهو رب العالمين ـ بالتدريج فى تربية الأشخاص، من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، إلى راشد فى عقله، كامل فى نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره؛ كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم. فلم يكن من شأن الإنسان، فى جملته ونوعه، أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده. وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيه، وإن اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة، فلا نطيل الكلام فيه هنا.

* * *

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه، وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يُعْطفهُ على غيره من عَشيره أو ابن جنسه؛ فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يُلقَىَ إلَيه فيما يصله بغيره، اللهم إلا يدا تصل إلى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام.

فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن يخاطب الناس بما يَلْطفُ فى الوجدان، أو يرقى إليه بسلم البرهان. بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام - وهم عيال الله - سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن، لا يأتيه إلا منْ قبل ما يحسه بسَمعه أو ببصره. فأخذتهم بالأوامر الصادعة، والزواجر الرَادعَة، وطالبتهم بالطَاعَة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة[٢٨٠]. كلفتهم بمعقول المعنى، جلى الغاية، وإن لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم إلى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه.

ثم مضت على ذلك أزمان، علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاقت من الأيام آلاما، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما، ووجدت الأنفس بنَفْث[٢٨١] الحوادث، ولقَن[٢٨٢] الكوارث شعورًا أدق من الحس، وأدخل فى الوجدان، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء، أو تذهب معه نزعات الغلمان. فجاء دين يخاطب العواطف، ويناجى المراحم، ويستعطف الأهواء، ويحادث خطرات القلوب. فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى، ويقتضى من صاحب الحق ألا يطالب به ولو بحق، ويغلق

أبواب السماء فى وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف(٢٨٣)، وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، وما دعاهم إليه، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها، وداوى من أمراضها.

ثم لم يمض عليه بضعة أجيال، حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، ووقر فى الظنون أن اتِّباع وصاياه ضرب من المحال. فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل.

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته. أما فى العقائد فتفرقوا شيعا، وأحدثوا بدعا، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل وفى غيره من دقائق الأكوان، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة. فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم. ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة. وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنسانى، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الأصل، وتخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام. وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام.

* * *

الإسلامُ

كان سنُّ الاجتماع البشرى قد بلغ بالإنسان أشده وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية. وبيَّن للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه. وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد، ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح، وأن الله لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى القلوب.

وطالب المكلّف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهرا مطلوبا، وجعل روح العبادة الإخلاص، وأن ما فرَض من الأعمال إنما هو لما أوجَب من التطبع بصالح الملكات: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥). ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج ١٩ - ٢٢).

ورفع الغنى الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعى فى صلاح الدنيا.

التفت إلى أهل العناد فقال لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ١١١). وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين. ونصَّ على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين. ولم يقف فى ذلك

عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق، وقررها فى العمل. فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن. ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة، وعقد الألفة. والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف.

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيدا يقدمونه من مالهم، ونهى بعد ذلك عن كل إكراه فى الدين، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥) فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الإسلام، فإن نوره جدير بأن يخترق القلوب. وليست الآيات فى الأمر بالمعروف بين المسلمين، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به، ولو أريد ذلك لكان التعبير: «على كل واحد منكم بنفسه» لا ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، كما هو ظاهر لكل عربى. كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهديهم إلى الخير فى جميع نواحيه.

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة، وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى بالجنس[٢٨٤] والفصل[٢٨٥] والخاصة[٢٨٦]، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حُرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا.

هذه عبادات الإسلام، على ما فى الكتاب وصحيح السنة، تتفق على ما يليق بجلال الله، وسمو وجوده عن الأشباه، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة. . .

فالصلاة: ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء وتضرع، وتسبيح وتعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب، وتستخذى له النفوس. وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات، أو رمى الجمرات(٢٨٧)، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير.

أما الصوم: فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

أما أعمال الحج، فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهدٌ له بتمثيل المساواة بين أفراده، ولو فى العمر مرة. يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان، متجردين عن آثار الصنعة، وَحّدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى **إبراهيم عليه السلام**، وهو أبو الدين، وهو الذى سماهم المسلمين، واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع، وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل: «الله أكبر».

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين؟ يضل فيها العقل، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد؟!

كشف الإسلام عن العقل غُمَّة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان)، فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى، لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية. غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفَان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا

الله». وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد، لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها.

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التى يرزءون بها، ففصَلَ بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التى يُمتعُ الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه، فكثير منها - كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد - قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان. وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا. وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه. وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦). فلا غضبُ زيد، ولا رضا عمرو، ولا إخلاص سريرة، ولا فساد عمل، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبَّب بالسبب على جارى العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر.

أما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح فى الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل. ذلك الروح، هو مصدر حياة الأمم، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ (آل عمران: ١٤٥). ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها. يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم

بالعناء، وسلط عليهم الظالمين، أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (الإسراء: ١٦). أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١). ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٢). وما أجل ما قاله **العباس بن عبد المطلب** فى استسقائه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة».

على هذه السنن جرى سلف الأمة. فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماض فى غلوائه، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا.

* * *

التّعليم

حث القرآن على التعليم، وإرشاد العامة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة ١٢٢). ثم فرض ذلك فى قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (آل عمران ١٠٤ ـ ١٠٩).

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين، أبرز حال الآمارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فقدم ذكرالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان، فى هذه الآية، مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير، تشريفا لتلك الفريضة، وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض، بل تبنيها على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره. ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها، وأهل دين أهملوها، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن

مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩). فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه.

الزكاة

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقًا معلومًا، يفيض به الآخرون على الأولين؛ سدا لحاجة المعدم، وتفريجا لكُرْبة الغارم، وتحريرًا لرقاب المستعبَدين، وتسييرا لأبناء السبيل. ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير. وكثيرا ما جعله عنوان الإيمان ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومَحَّص[٢٨٨] صدورهم من الأحقاد على من فضَّلهم الله عليهم فى الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين. وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا؟ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١).

* * *

أغلق الإسلام بابى الشر، وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريمًا باتا لا هوادة فيه.

لم يدع الإسلام، بعد ما قررنا، أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أمّا من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده ـ كما ذكرنا ـ حرية الفكر، واستقلال العقل فى النظر، وما به صلاح السجايا وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبيل السعى. ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى.

هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟!.. كلا قد تبين الرشد من الغى، ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من

السعادتين. لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وانتهت الرسالات، كما صرح بذلك الكتاب، وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده(٢٨٩)، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يُحَدَّثُ عن الله بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر. هكذا يصدق نبأ الغيب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب: ٤٠).

انتشار الإسلام

بسرعة لم يُعْهَدْ لها نظيرٌ في التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك. لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار **الصين** فى أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب.

ابتدأ هذا الدين بالدعوة، كغيره من الأديان، ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل. أوذىَ الداعى، صلى الله عليه وسلم، بضروب الإيذاء، وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب، لولا عناية الله. وعُذِّبَ المستجيبون له وحُرِمُوا الرزق، وطُرِدُوا من الدار، وسُفِكتْ منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صَخور الصبر يُثَبِّتُ الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذَوْبُ ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطباء الحاذقين: **﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** (الأنفال: ٣٧).

تألبت الملل المختلفة، ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام، ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء،

والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشدُ فى ظلمات الأضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة، وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر، كانت تدعو إليها، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحًا، ولا أنالهم القهر فلاحًا.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يُعهد لها نظير فى ماضيهم. وكان **النبى** - صلى الله عليه وسلم - قد أبْلغ رسالته، بأمر ربه، إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزئوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر. فبعث إليهم البعوث فى حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته؛ طلبا للأمن، وإبلاغًا للدعوة، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم فى قوتها ومنعتها، وكثرة عدَدها، واستكمال أهَبها وعُددها، فظفروا منها بما هو معلوم.

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم، وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم، يمنعونهم ما يمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءًا قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة.

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة، أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها، يلجون على الناس بيوتهم ويَغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة، وحجتهم القوة. ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين. بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحسانا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعةً وضعفا.

رفع الإسلام ما ثَقُل من الإتاوات(٢٩٠)، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها،

وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم. بلغ أمر المسلمين فيما بعد ألا يُقْبَل إسْلامٌ منْ داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولَا رغبةً فى دنيا. وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية، وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة[٢٩١]. عرف خلفاء المسلمين وملوكهم، فى كل زمن، ما لبعض أهل الكتاب، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال، فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا. اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام، حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها.

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم. لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة. وما كان من الجزية، لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه؛ فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق، دون ما كان لديهم، حتى دخلوا فيه أفواجا، وبذلوا فى خدمته ما لم يَبذل له العرب أنفسهم؟!

ظهور الإسلام، على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال، وسيره بسكانها على الجادة القويمة، حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه **إبراهيم وإسماعيل**، وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدهما، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً إلى البقاء على العناد فى مجاحدته، فتلقوه شاكرين، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين.

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه، فوجدوا لطفا ورحمة، وخيرا ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل، وهو رائد الإيمان الصادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية، وهى القاضية فى قبول المصالح

والمرافق. رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى، ويلحقها بالملكوت الأعلى، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم. وهو مع ذلك، لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه، متى حسنت النية وخلصت السريرة. فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة. تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن، ونظروا فى سيرة الظاهرين من حامليه إليهم. وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل إلى فهمه، وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه، فتراموا إليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه.

كانت الأمم تطلب عقلاً فى دين. فوافاها، وتتطلع إلى عدل فى إيمان، فأتاها، فما الذى يحجم بها عن المسارعة فى طُلبتها والمبادرة إلى رغبتها؟! كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها ألا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويُسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأى قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير. وما كان يريده لنفسه، ولكن ليوسع به مسجداً. فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته، رفعت الشكوى إلى الخليفة، فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه(٢٩٢)!! عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل **على بن أبى طالب** أمام القاضى، وهو من نعلم من هو، ويستوقفه معه للتقاضى، إلى أن قضى الحق بينهما.

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام، هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام، فكان من خُلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار. فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم، ثم لا يكون إلا طائفا يحل ثم

يرتحل. فإذا انقطعت أسباب الشغب، تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة.

ومع ذلك - بل ومع غفلة المسلمين عن الإسلام، وخذلانهم له، وسعى كثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم - لم يقف الإسلام فى انتشاره عند حد، خصوصًا فى **الصين** وفى إفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده، على بصيرة فيما تنزع إليه، لا سيف وراءها، ولا داعى أمامها، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه.

ومن هذا، تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كانا لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته. وبالجملة، لأن فطرَ البشر تطلب دينا، وترتاد منه ما هو أمسُّ بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشَاعرها، وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة. ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذًا، وإلى العقول مخلصا، بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه. هذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم.

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه، ولم يرد أن يفهمه: إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف. فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى، يعرضون القرآن على المغلوب، فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته. سبحانك ربى هذا بهتان عظيم!! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواترًا صحيحًا، لا يقبل الريبة فى جملته، وإن وقع اختلاف فى تفصيله. وإنما شَهرَ المسلمون سيوفهم دفاعًا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك. ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم. فكان الجوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه.

لو كان السيف ينشر دينًا فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به، مهددًا كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، ومع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن. هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تتدفق من الألسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين. إن فى ذلك لآيات للمستيقنين.

جَلَّتْ حكمة الله فى أمر هذا الدين. سلسبيل حياة نَبَع فى القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، فاض حتى شَمَلها، فأحياها حياة شعبية ملِّيّة. علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها، وتعلو أهلَ الأرض بمدنيتها. زلزل هديره - على لينه - ما كان استحجر من الأرواح، فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها.

قالوا: كان لا يخلو من غلب (بالتحريك). قلنا: تلك سنة الله فى الخلق. لا تزال المصارعة بين الحق والباطل، والرُّشد والغيِّ قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه. إذا ساق الله ربيعا إلى أرَض جدبة ليحيى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فَعلاهَا، أو بيت رفيع العماد فهوى به؟!

سطع الإسلام على الديار التى بلغها أهله، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه. اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا، وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار، وكاد يتزحزح إلى ما وراء. لكن الله بَالغُ أمْره. فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها «جنكيز خان»، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل(٢٩٣). وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب. ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام دينا وحملوه إلى أقوامهم، فَعَمَّهُمْ منه ما عَمَّ غيرهم. جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة، لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة(٢٩٤)، جُمعَ فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل. وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم، وزحفوا على ديار المسلمين. وكانت فيهم بقية من روح الدين. فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها، لِمَ جاءوا؟ وبماذا رجعوا؟!

ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق، أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية. جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غفير، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين. واستقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب، وتثوب العقول إلى سكينتها، تنظر فى أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع. فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية فى دين، وعلما وشرعا وصنعة، مع كمال فى يقين. وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادى عليه. ثم جمعت من الآداب ما شاء الله، وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها. هذا ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا. وأخذت الأفكار فى ذلك العهد تتراسل، والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا فى معناه. ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن، حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته. وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وإن ما هم عليه إنما هو دينه، يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى، إلا فى صورة العبادة لا غير.

ثم أخذت أمم أوروبا تفتكُّ من أسرها، وتصلح من شئونها، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الإسلام، غافلة عن قائدها، لاهية عن مرشدها. وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة. هذا طَلٌّ مِنْ وَابله، أصاب أرضًا قابلةً فاهتزت وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج.

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا، وعادوا ليفيدوا. ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم، وتقوية ركنهم، فباءوا بوضوح شأنهم، وضعضعة سلطانهم. وما بينَّاه فى شأن الإسلام، ويعرفه كل من تفقَّه فيه، قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب، فعرفوا له حقه واعترفوا بأنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم. وإلى الله عاقبة الأمور(٢٩٥).

* * *

إيرادٌ سهلُ الإيراد

يقول قائلون: إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق، وقال كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟!

إذا كان الإسلام مُوَحِّدًا، فما بال المسلمين عَدَّدُوا؟ إذا كان مُولِّيا وَجْه العبد وجْهَةَ الذى خلق السماوات والأرض، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا؟! وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد؟! إذا كان أول دين خاطب العقل، ودعاه إلى النظر فى الأكوان، وأطلق له العنان يجول فى ضمائرهم بما يسعه الإمكان، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يُرْضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟!

ما بالهم، وقد كانوا رسل المحبة، أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل، أصبحوا مثلاً فى القعود والكسل؟ ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم إليه فتركوه؟!

إذا كان الإسلام فى قُرْبة من العقول والقلوب، على ما بينتَ، فما باله اليوم - على رأى القوم - تقْصر دونَّ الوصول إليه يد المتناول؟ إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه، فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنيا، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنيا؟!

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال، فما بالهم شَدُّوهما إلى

أغلال، أيَّ أغلال؟! إذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يُضرَبُ به المثل في الظلم؟! إذا كان الدين في تَشوُّف إلى حرية الأرقاء، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الأحرار؟! إذا كان الإسلامُ يَعدُّ من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟! إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟! إذا كان قد حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن والنفس والبدن؟!

إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، خاصتهم وعامتهم. ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** ﴾ (العصر: ٢، ٣) وإنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارَهمْ، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم، وَشَدَّدَ في ذلك بما لم يُشدِّدْ في غيره، فما بالهم لا يتناصَحون ولا يتواصَون بحق، ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولا شر؟! بل ترك كل صاحبهُ وألقى حبله على غاربه، فعاشوا أفذاذا[٢٩٦]، وصاروا في أعمالهم أفرادا، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه، وكأنْ لم تجمعه معه صلة، ولم تضمهُ إليه وشيجة؟!

ما بال الأبناء يقتلون الآباء؟! وما بال البنات يعققن الأمهات؟! أين وشائج الرحمة؟! أين عاطفة الرحم على القريب؟! أين الحق الذي فُرضَ في أموال الأغنياء للفقراء، وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء؟!

قبس من الإسلام أضاء الغرب، كما تقول، وضوءُه الأعظم وشمسه الكبرى في الشرق، وأهلُه في ظلمات لا يبُصرون. . أصحَّ هذا في عقل، أو عهدَ في نقل؟! ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئا، وهم من أهل هذا الدين، أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات، وقواعده وأحكامه ترهات، يجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار؟ وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه، ووسموا أنفسهم بأنهم حُفاظ أحكامه

والقوّام على شرائعه، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها، ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها، كأنه فى ذلك قد هجر منكرا، أو ترفع عن دنيئة؟!

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخلق، يستحى أن يظهر به بين الناس. ومن غَرتهُ نفسه بأنه على شيء من الدين، وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنَّة(٢٩٧) والعلم ظنة!! أليس فى هذا ما يُشهدُ الله وملائكته والناس على أن لا وفاقَ بين العلم والعقَل وهذا الدين؟!

* * *

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم، بل من عدة أجيال. وربما كان ما جاء فى الإيراد قليلاً من كثير. وقد وصف الشيخ **الغزالى** - رحمه الله - **وابن الحجاج**، وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم، عامتهم وخاصتهم، بما حوته مجلدات. ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الإسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن، مع التدقيق فى فهم معانيه، وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعُمل به بينهم. ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخَ على ما كتبه محققو ومصنفو سائر الأمم، فذلك هو الإسلام.

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه. وقد جُرب علاج الاجتماع الإنسانى بهذا الدواء، فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الأعمىَ إنكارا، والأصم إعراضا. وغاية ما قيل فى الإيراد: أن أعطى الطبيبُ إلى المريض دواء، فصح المريض، وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته.وهو لا يتناوله، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون

لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيُعَافُون من مثل مرضه، وهو فى يأس من حياته، ينتظر الموت، أو تبَدَّل سنَّة الله فى شفاء أمثاله.

كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على ما بينا. أما المسلمون، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن، وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر (٢٩٨) إن شاء الله.

التصديق

بما جاءَ به محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته، عليه السلام، بالدليل القاطع، على ما بينا، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى، فلا ريب فى أنه يجب تصديق خبره، والإيمان بما جاء به، ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز، وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه، وهو: «ما أخبرَ به جماعة يستحيل تواطؤهُم على الكذب عادة فى أمر محسوس».

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت، من بعث، ونعيم فى جنة وعذاب فى نار، وحساب على حسنات وسيئات، وغير ذلك مما هو معروف. ويجب أن يُقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنِّى. وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين، فإن ورد ما يوهمُ ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر، إما بتسليم لله فى العلم بمعناه، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة.

أما أخبار الآحاد، فإنه يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدَّق بصحة روايتها. أما من لم يبَلغه الخبر، أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته، وهو ليس من المتواتر، فلا يطعنُ فى إيمانه عدم التصديق به. والأصل فى جميع ذلك: أن من أنكر شيئًا وهو يعلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدَّث به، أو قررهُ، فقد طعن فى

صدق الرسالة، وكذب بها. ويُلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر، وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل.

من اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشرائع العملية، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف، كان مؤمنًا حقًا(٢٩٩)، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة. والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل.

* * *

بقيت علينا مسألتان، وضعتا فى هذا العلم فى مكان من الاهتمام، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه:

الأولى: جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة.

والأخرى: جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات، من غير الأنبياء، من الأولياء والصديقين.

* * *

رؤية الله

أما الأولى، فقد اشتد فيها النزاع، ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع. فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة، بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد. ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا، وهو ما لا يمكننا معرفته، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر. والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى، فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم(٣٠٠). ولكن منى الإسلام بقوم يحبون الخلاف، والله فوق ما يظنون.

* * *

الكرامات

أما الثانية، فأنكر جواز وقوع الكرامات **أبو إسحاق الإسفراييني**، من أكابر أصحاب **أبي الحسن الأشعري**، وعلى ذلك **المعتزلة إلا أبا الحسين البصري**(٣٠١)، فقال بجواز وقوعها، وعليه جمهور **الأشاعرة**.

واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم الكتاب الواردة فى خبر **بلقيس**، من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطَّرْف(٣٠٢)، وقصة مريم عليها السلام، وحضور الرزق عندها(٣٠٣)، وقصة أصحاب الكهف(٣٠٤).

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، وأولوا ما جاء فى الآيات. أما إن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، فليس بصحيح؛ لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى، ولا بدّ أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها. وأما ما احتجَ به المجوزون من الآيات، فلا دليل فيه، لأن ما فى قصة مريم وآصف[٣٠٥] قد يكون بتخصيص من الله تعالى، لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلاً. وأما قصة أهل الكهف فقد عَدَّها الله من آياته فى خلقه، وذَكَّرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز.

فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير، وفى مكان الأعمال الصالحة، وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر[٣٠٦].

أما مجرد الجواز العقلى، وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء. وإنما الذى يجب الالتفات إليه، هو أن **أهل السنة** وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين، بعد ظهور الإسلام، فيجوز لكل مسلم، بإجماع الأمة، أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين، ولا مائلاً عن سنة صحيحة، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم.

أين هذا الأصل المُجْمعُ عليه، مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام؟! حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء؟!.. وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون.

* * *

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

وقد فُسِّر الكفُر في هذه الآية بكفر النعمة: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (الجن ١٣ - ٢٨).

صدق الله العظيم، وبلغ رسوله الكريم وخسىء الشيطانُ الرجيم، وحق الشكر لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.

* * *

أفعال الإنسان(٣٠٧)

كان بعض القوم بطراً جاهلاً إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك. وأصدره من لدنه، وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته. وإذا وصل إليه شر - وهو المراد من السيئة - يزعم أن منبع هذا الشر هو النبى - صلى الله عليه وسلم. وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور. فهؤلاء الجاهلون، الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبى وبعده، كانوا يفرقون بينهما فى السبب الأول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة إلى الله تعالى على أنه مصدرها الأول ومعطيها الحقيقى. يشيرون بذلك إلى أنه لا يد للنبى فيه. وينسبون الشر أو السيئة إلى النبى على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقى كذلك، وأن شؤمه هو الذى رماهم بها. وهذا هو معنى ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ و﴿مِنْ عِندِكَ﴾ أى من لدنه ومن خزائن عطائه، ومن لدنك ومن رزاياك التى ترمى بها الناس.

فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أى أن السبب الأول، وواضع أسباب الخير والشر، المنعم بالنعم والرامى بالنقم، إنما هو الله وحده، وليس ليُمن ولا لشؤم مدخل فى ذلك. فهو بيان للفاعل الأول الذى يرد إليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر، ولا يقع عليه كسبهم. وهو الذى كان يعنيه أولئك المشاقون عندما يقولون: الحسنة من الله والسيئة من محمد، أى أنه لا دخل لاختيارهم فى الأولى ولا فى الثانية، وأن الأولى من غناية الله بهم، والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا. ولو عقلوا، لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل الخير والشر فى ذلك سواء.

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى فى الخير والشر والنعم والنقم. أما ما

يتعلق بسنة الله فى طريق كسب الخير والتوقى من الشر والتمسك بأسباب ذلك، فالأمر على خلاف ما يزعمون كذلك. فإن الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا فى توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء. فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله، وصرفنا حواسنا وعقولنا فى الوجوه التى نال منها الخير - وذلك إنما يكون بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لأحكامه، وفهم شرائع الله حق الفهم، والتزام ما حدده فيها - فلا ريب فى أننا ننال الخير والسعادة، ونبعد عن الشقاء والتعاسة. وهذه النعم، إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية، فهى من الله تعالى. فما أصابك من حسنة فمن الله؛ لأن قواك التى كسبت بها الخير، واستغزرت بها الحسنات، بل واستعمالك لتلك القوى، إنما هو من الله، لأنك لم تأت بشىء سوى استعمال ما وهب الله. فاتصال الحسنة بالله ظاهر، ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن.

وأما إذا أسأنا التصرف فى أعمالنا، وفرطنا فى النظر فى شئوننا، وأهملنا العقل، وانصرفنا عن سر ما أودع الله فى شرائعه، وغفلنا عن فهمه، فاتبعنا الهوى فى أفعالنا، وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا، كان ما أصابنا من ذلك صادراً عن سوء اختيارنا، وإن كان الله تعالى هو الذى يسوقه إلينا جزاء على ما فرطنا، ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه. ونسبة الشر والسيئات إلينا فى هذه الحالة ظاهرة الصحة. فأما المواهب الإلهية بطبيعتها، فهى متصلة بالخير والحسنات، وإنما يبطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها. وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله، وهو من كسب المهملين وسيئى الاستعمال، فحق أن ينسب إليهم ما أصيبوا به، وهم الكاسبون لسببه. فقد حالوا بكسبهم بين القوى التى غرزها الله فيهم لتؤدى إلى الخير والسعادة، وبين ما حقها أن تؤدى إليه من ذلك، وبعدوا بها عن حكمة الله فيها، وصاروا بها إلى ضد ما خلقت لأجله. فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد، فأجدر به ألا ينسب إلا إلى كاسبه.

وحاصل الكلام فى المقامين، أنه إذا نظر إلى السبب الأول الذى يعطى ويمنع، ويمنح ويسلب، وينعم وينتقم، فذلك هو الله وحده. ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك. ومن زعم غير هذا، فهو لا يكاد يفقه كلاما، لأن نسبة الخير إلى الله ونسبة الشر إلى شخص من الأشخاص بهذا المعنى، مما لا يكاد يعقل؛ فإن

الذى يأتى بالخير ويقدر على سوقه، هو الذى يأتى بالشر ويقدر عليه، فالتفريق ضرب من الخبل فى العقل.

وإذا نظرنا إلى الأسباب المسنونة، التى دعا الله الخلق إلى استعمالها ليكونوا سعداء ولايكونوا أشقياء، فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله، فذلك من فضل الله؛ لأنه أحسن استعمال الآلات التى من الله عليه بها، فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه. ومن فرط أو أفرط فى استعمال شىء من ذلك، فلا يلومن إلا نفسه، فهو الذى أساء إليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب، وليس بسائغ له أن ينسب شيئا فى ذلك إلى النبى ولا إلى غيره، فإن النبى أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على إتيان ما كان سببا فى الانتقام منه.

فلو عقل هؤلاء القوم، لحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير، فإن الله هو مانحهم ما وصلوا به إلى الخير، وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله، وفى التزامها سعادتهم. ثم إذا أصابهم شر، كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم فى أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله، فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان، فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نقمته إلى نعمته، لأن الكل من عنده، وإنما ينعم على من أحسن الاختيار، ويسلب نعمته عمن أساءه.

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم، وأن عصيانه من مجالب النقم. وطاعة الله، إنما تكون باتباع سننه، وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله.

ولهذا النوع من التعبير نظائر فى عرف التخاطب. فإنك لو كنت فقيرًا، وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتنميته، والاستفادة منه مع حسن فى التصرف وقصد فى الإنفاق، وصرت بذلك غنيا فإنه يحق لك أن تقول: إن غناك إنما كان من ذلك الذى أعطاك رأس المال، وأعدك به للغنى. أما لو أسأت التصرف فيه، وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه، واطلع على ذلك منك، فاسترد ما بقى منه وحرمك نعمة التمتع به، فلا ريب فى أن يقال: إن سبب ذلك إنما هو نفسك، وسوء اختيارها، مع أن المعطى والمسترد فى الحالين واحد، وهو والدك. غير أن

الأمـر ينسب إلى مصـدره الأول، إذا انتـهى على حسـب مـا يريده، وينسب إلى السبب القريب، إذا جاء على غير ما يحب، لأن تحويل الوسائل عن الطريق التى كان ينبغى أن تجرى فيها إلى مقاصدها، إنما ينسب إلى ما حوّلها وعدل بها عما كان يجب أن تسير إليه.

وهناك للآية معنى أدق، يشعر به ذو وجدان أرق مما يجده الغافلون من سائر الخلق، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة، وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية، فهو الخير الذى ساقه الله إليك واختاره لك. وما خلقت إلا لتكون سعيداً بما وهبك. أما ما تجده من حزن وكدر، فهو من نفسك. ولو نفذت بصيرتك إلى سر الحكمة فيما سيق إليك، لفرحت بالمحزن فرحك بالسار. وإنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار ما لم يختره لك العليم بك، المدبر لشأنك. ولو نظرت إلى العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة، وأخذته كما هو عليه، لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريفة يضيفها طاهيك على ما يهيىء لك الطعام، لتزيده حسن طعم، وتشحذ منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل ما اختاره الله لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده، والتعرض لنعمه، والتحول عن مصاب نقمه؛ فإن اللذة التى تجدها فى النقمة إنما هى لذة التأديب، ومتاع التعليم والتهذيب. وهو متاع تجتنى فائدته، وتلتزم طريقته. فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة فى تحصيله، وأن يلتذ بما يلاقيه من تعب فيه، يسره كذلك أن يرتقى فوق ذلك المقام إلى مستوى يجد نفسه فيه متمتعا بما حصل، بالغا ما أمل، وفى هذا كفاية لمن يريد أن يكتفى.

القضاء والقدر[٣٠٨]

جرى فى كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر، والاتكال على الله فى نيل الأرزاق، وأن الحيلة فى ترك الحيلة، والتدبير فى ترك التدبير، ونحو هذه الكلمات، مما عساه أن يؤثر فى النفوس الأثر الذى يجدونه دائما فى التماس العذر للكسل، وترك العمل، والإمساك عن البذل، ونحو ذلك، تعللاً بالمقادير.

ولكن ترون أن التلامذة من وجهة أخرى، كما ذكروا ذلك، ذكروا الحزم والعزم والجد والنشاط فى الأعمال ونحو ذلك.

عقيدة الإذعان للقدر، حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموما، وعند المسلمين خصوصا؛ لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إلى الكسل، انتظارا لما يأتيهم من الغيب، وبسطت أيدى أغنيائهم فى الإسراف، اتكالاً على ما يسوقه عالم الغيب. ولكن ذلك سوء فهم، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة.

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل، ويذلل لك إلى ما ستعمل. خلق الإنسان وخلق معه عدو يلازمه، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها، ويكافح عزائمه حتى يمحقها. فعلى الإنسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع، ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ما قدر، فإن غفل عنه طرفة عين أحل به الحَيْن. ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب.

ذلك العدو الطبيعى هو الكسل وحب الراحة. ومن عادة الأنفس أن تلتمس الوسائل، وتمهد الأعذار لمساعدة هذا العدو الخداع. فكلما وجدت وسيلة للانتصار له، أخذت بها وهى لا تعلم أن فى نصرته هلكتها.

فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للإيمان بقضائه وقدره؛

ليكون مخففا لجزعها إذا نزلت النوائب، مثبِّتا لها عند ملاقاة المصائب. وتجشم المصاعب، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدو المحبوب. فإذا هاجم اليأس قلب امرئ من مطلوب يطلبه، أو قامت العقبات دون مرغوب يرغبه، قام الإيمان بالقضاء والقدر، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة، يفتح له الأبواب المغلقة، ويذلل المصاعب الشديدة، فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها.

فالتاجر الذى يخشى الخسران، أو تلف البضائع فى البحار، أو يخاف الخطر فى الأسفار، أو ما أشبه ذلك، إذا تصور أن كل شىء بقضاء وقدر، وأن الرزق مقسوم، والأجل محتوم، نهض إلى العمل، بعد أن يهيئ وسائله، ويسأل عما يجهل منها من له بها علم، ويتبع سنة الله سبحانه وتعالى فى استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل، وينزع إلى العمل.

وكذلك من يخوفه الشيطان من البذل فى سبيل الخير، ويعده الفقر، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيرا على الشيطان، يلهمه أن الأرزاق محدودة، وأنه لا ينقص مال من صدقة، ونحو ذلك، فتفيض يداه بالعطاء مع مراعاة ما يثمره الجود من الفوائد وما يعود به على العامة من العوائد.

الإنسان عامل بالطبع، فإنه ما دامت له حياة فهو فى حاجة إلى تقويمها، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره، فإنه لا يستقل بما يكفى لحفظ بقائه، ولا بد له من الاستعانة بغيره، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله ما يعود عليه بمنفعة ما. وإنما يخرجه عن سلطان هذه الفطرة ذلك العدو الذى أشرنا إليه، فهو فى حاجة إلى ما يعينه عليه ويرجع به إلى فطرته. ولا معين له أفضل من الاتكال على الله والاعتماد على قوته بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته.

فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثرها فى أنفس المعتقدين بها إلى فساد عظيم. وليس العيب فيها، ولكن العيب فى الأذهان التى تلقتها. كما قال جلال الدين الرومى: كل ما يتناوله العليل يتحول إلى علة، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه

وتقويته لبنية المتغذى به، لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلاً يقتله. ولا عيب فى اللحم، ولكن العيب فى معدة المريض الآكل.

فإن كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا إليه، من أثر المقال الذى جاء على ألسنة التلامذة، فأرجو أن ينفى عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الأول فى مقالهم أيضا. ومن شرع ليسلى نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول، رجوت أن ينشط بها إلى البذل فى سبيل الخير بما تحققه من القول الآخر. وأسأل الله أن يوفقنا جميعا لأعمال الخير، وكل عام وأنتم بخير.

* * *

رسالة فى الجبر والاختيار[٣٠٩]

حضرة الفاضل الأديب . .

وصل إلى رقيمك . إن كنتُ لم أعرفك ، فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك . والحمد لله على أن فى المسلمين من يميل إلى منهج الحق من دينه ، مثلك . كثر الله من أمثالك ، ووفقك إلى العمل بما تعلم ، والدعوة إلى ما تفهم .

لم يتخالف العقل والوجدان فى مسألة «القدر» ، فإن كليهما يتفقان على صحة «الاختيار» ونفى «الاضطرار» فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان فى حكم من أحكام هذا الاختيار . ثم هما يتفقان كذلك فى الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علما . وهاتان العقيدتان هما ركنا الإيمان بالله ورسله وشرائعه . ولم يبق إلا نزعة من نزعات الوهم ، تستفز العقل إلى اكتناه حقيقة العلم الإلهى ، وليس مما يصل إليه من طريق الفكر ، فإذا كبح العقل جماح الوهم وقف عند حده ، وذاق حلاوة الإيمان الصحيح ، وإلا وقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك .

أما اختلاف الأمم بل الأشخاص فى الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التى بها الإنسان إنسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم ، والفكر مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه فى العقل ، ولكن ذلك لا يرفع التبعة عمن كان خلافه إلى باطل ، لمكان الاختيار والهداية إلى النجدين ، بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها ، فترى الاختيار فى عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر ، كتوارث الأخلاق السيئة ، وليس الوارث مختارا فيما يرث . ولكنه ما دام

شاعرا بفعله، وأنه يريد أن يفعله، فاختياره هو صاحب السلطة عليه، وتبعته لازمة له، ولو أنه طلب الأدب لتأدب. والكلام يطول فى تفصيل ذلك، ولكن يكفى **أن العقل والوجدان لا يختلفان فى الحكم بصحة الاختيار، وشمول العلم الإلهى، ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه، وفى هبة قوة الاختيار نفسها.** ولعل ذلك يكفيك. ولو كان عندى سعة فى الوقت لكتبت رسالة فى هذه المسألة خاصة، ولكن الإجمال فيها خير من التفصيل، على كل حال، والسلام.

فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

الدين والفطرة الإنسانية(٣١٠)

إن الشعور بوجود إله يتصرف فى الأكوان تصرفًا غيبيا فوق تصرف المخلوقات، بما يكون من إفضاء الأسباب إلى المسببات، قد عرف فى جميع البشر، من أدنى القبائل الهمجية إلى أرقى شعوب المدنية. فهو شعور يستوى فيه الحفاة العراة فى صحارى إفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان فى الماضى وفلاسفة الإفرنج الآن. وقد عرف فى الفريقين عن قدماء الأمم، كالمصريين والكلدانيين والهنود، كما هو معروف فى هذا العصر. ومثل هذا الاتفاق بين الشرقى والغربى والشمالى والجنوبى فى جميع الأزمان، من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم، لا يعقل إلا أنه فطرى فى البشر.

فإن قيل: إن فى الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب، كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم، ولو كان ذلك الشعور فطريا لكان عاما ولم يَعْرُ منه هؤلاء، فإننا نقول: إن من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جدا. والقاعدة لا تنقض بالنادر، بل تبقى صحتها الثابتة بالدليل. ويُبْحَثُ عن سبب شذوذ النادر، كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذى يعبرون عنه بفلتات الطبيعة، ولا يعدون هذه الفلتات دليلاً على بطلان السنن والنواميس العامة فى الكون.

فالحقيقة أن الإلحاد مرض من الأمراض الاجتماعية...

إن البشر فى طور الهمجية كانوا يذهبون فى ذلك الشعور الفطرى بأساس الدين مذاهب من الوهم. فكلما أشكل عليهم فهم شىء من أسرار الخليقة، توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التى كانوا يشعرون بوجودها، فعظموه لهذا

التوهم، فكان ذلك عبادة له. لأن العبادة هى تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب. لا معنى لها إلا هذا.

رأى بعضهم الثعبان الصغير يميت الإنسان، أو نحو الثور والجمل، من غير أن يذبحه أو يدق عنقه أو يهشم رأسه، وذلك لم يكونوا يعهدونه ولا يفهمون سببه، فعبدوه. وعلى هذه المرتبة، عبدوا كثيرا من الحيوانات، ثم وضعوا لها التماثيل، فكانت موضوع عبادتهم. ولما ارتقوا عن هذه المرتبة، عبدوا السحاب، فالكواكب. وهكذا. كانوا يحصرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما تصل إليه عقولهم، حتى استعدوا، بالارتقاء، إلى فهم الحقيقة، وهى أن كل ما فى الكون، ما عرف سببه وما لم يعرف، مخلوق خاضع للسنن العامة فى الأسباب والمسببات، وأن الخالق الواضع لهذه السنن لا يحل فى شىء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به. حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين. فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين.

. . . إن الإنسان حيوان ناطق متدين بالطبع . . إن روح التدين الغريزى فى الإنسان، هو شعور فطرى بأن فوق العالم - الذى يعرفه بأعيانه وخواصه ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه - موجودا غيبيا له السلطان والتصرف فيما ذكر كله، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبى كل ما يجهل سببه فى هذا العالم المشهود.

وإنما وقعت الجماعة البشرية فى الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الأجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الموجود الغيبى وما يجب له من الصفات الوجودية والتنزيه، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم فى هذه الأعيان المشهودة من خواص وأفعال، هل هى مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الأسباب والمسببات كأفعالهم هم؟ أم هى فوق عالم الأسباب، فهى مظهر لذلك السلطان الذى هو فوق تصرف الإنسان أو عينه؟ ولما رجحوا الاحتمال الثانى، بجهلهم، وجهوا عبادتهم إلى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهر فيه؛ لأنه يخشى ضرره ويرجى نفعه. ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم

والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلطان هو فوق الأسباب التى يملكها البشر.

مثل ذلك أن الإنسان الساذج الجاهل كان يرى الثعبان الصغير يقتل الإنسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أويبقر بطنه مثلاً، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب فى هذا العالم؛ لأنه لا يعلم أن فى هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم، هى سبب هذا التأثير فى دم الحيوان، فيرجع به إلى ما فى غريزته من الإحالة على القدرة الغيبية التى هى فوق الأسباب.

بسمارك والدين[311]

رأيت فى وقائع «بسمارك» ، التى نشرت بعد موته ، بقلم كاتم أسراره **موسيو «بوش»** ، كلاما جاء به البرنس وهو جالس إلى مائدة الطعام مع جلسائه ، يتعلق بالدين ، فاستحسنت ترجمته ، ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة إلى دينهم سُبة ، والظهور بالمحافظة عليه معرة ، وليعلموا أن الإيمان بالله وبالوحى الإلهى إلى أنبيائه ليس نقصا فى الفكر ، ولا ضلَّة عن صحيح العلم ، ولا عيبا فى الرياسة ، ولا ضعفا فى السياسة .

جلس البرنس «بسمارك» إلى مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة ، فقال لأصحابه : «كما تنتشر هذه البقعة فى النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت فى سبيل الدفاع عن الوطن فى أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هناك أمل فى الأجر والمكافأة . ذلك لما استكن فى الضمائر من بقايا الإيمان ، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا مهيمنا يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت ، وإن لم يكن قائده يراه» .

فقال بعض المرتابين : أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون فى أعمالهم تلك الملاحظة؟ فأجابه البرنس :

«ليس هذا من قبيل الملاحظات ، وإنما هو شعور ووجدان . هو بوادر تسبق الفكر . هو ميل فى النفس وهوى فيها غريزة لها . ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون أننى لا أفهم كيف يعيش قوم ،

وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليهم، إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحى سماوى، واعتقاد بإله يحب الخير، وحاكم ينتهى إليه الفصل فى الأعمال فى حياة بعد هذه الحياة؟!».

ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر، فقال:

«لو نقضت عقيدتى بدينى، لم أخدم بعد ذلك سلطانى(٣١٢) ساعة من زمان، إذا لم أضع ثقتى بالله، لم أضعها فى سيد من أهل الأرض قاطبة. لكن انظروا إلىّ تجدونى قد ملكت من موارد الرزق ما يكفينى، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده، فلماذا أشتغل؟ ولمَ أجهد نفسى فى العمل؟ ولم أعَرضها للهموم والآلام؟! لا يبعثنى على شىء من هَذا، إلا شعورى بأننى فى جميع ذلك أعمل عملى لوجه الله. لو لم يكن لى إيمان بالعناية الإلهية، التى قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير، وأثر فى الخير عظيم، لطرحت لساعتى ما حملته من أثقال وظائف الحكومة. ماذا أقول؟ بل لولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئا من هذه الوظائف؛ لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها فى نظرى. لولا يقينى بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية، لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريا. نعم، أنا جمهورى بالفطرة. يتبين ذلك من الغارات التى أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين. من هذا يظهر أن إيمانى قد بلغ من القوة أعلاها، حتى حملنى بقوته على أن أكون ملكيا. اسلبونى هذا الإيمان تسلبونى محبتى لوطنى.

اعلموا أننى لو لم أكن مسيحيا مخلصا، لم يكن لكم وزير كبير مثلى يدبر أمر الاتحاد الألمانى. لو لم أكن مخلصا فى دينى، لوليت ظهرى جميع الحاشية. ولو وجدتم لى فى الغد خلفا يكون أخلص منى فى يقينه، لانفلت من المنصب فى الحال. ما أعظم مسرتى بهجر الوظائف لو تعلمون. إنى أحب المعيشة فى القرى والحقول. أحب الآجام ومناظر الخليقة. انزعوا منى هذه الرابطة التى تصلنى بالله،

تجدونى من الغد رجلاً يأخذ أهبته للسفر إلى «**وارزين**»؛ ليشتغل بحراثة أرضه، وتنمية غرسه. إن لم أكن خاضعا لأمر إلهى، فلم أضع نفسى تحت طاعة هذه العائلة المالكة، مع أنها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبل من الأصل الذى تتصل به عشيرتى».

هذا كلام **بسمارك**، وهو يدلنا على أن هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه، وأن الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى ما لم يدركه فيه مفاخر، ولم يكثره مكاثر.



حديث...

بين الفيلسوف الإنجليزى «سبنسر» وبين الأستاذ الإمام[313]

سبنسر: هل زرت إنكلترا قبل هذه المرة؟

الإمام: نعم . . . زرتها منذ عشرين سنة .

سبنسر: كيف وجدت الفرق بين الإنكليز اليوم والإنكليز منذ عشرين سنة؟

الإمام: إننى زرت هذه البلاد فى المرة الأولى لغرض سياسى خاص، وهو البحث مع رجال السياسة فى مسألة **مصر** و **السودان** عقب الاحتلال البريطانى، وأقمت أياما قليلة لم يتعد عملى فيها ما جئت لأجله[314] . وقد ألممت بها الآن منذ أيام، فلم أدرس حالة الناس . . . وإنما يجب أن آخذ عنك ذلك .

سبنسر: إن الإنجليز يرجعون القهقرى، فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة .

الإمام: فيم هذه القهقرى؟ وما سببها؟

سبنسر: يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة . وسببه تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا، ثم سرت إلينا عدواها، فهى تفسد أخلاق قومنا، وهكذا سائر شعوب أوروبا .

الإمام: الرجاء فى حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم، أن ينصروا الحق والفضيلة على الأفكار المادية .

سبنسر : إنه لا أمل فى ذلك؛ لأن هذا التيار المادى لا بد أن يأخذ مَدَّهُ غاية حده فى أوروبا. إن الحق عند أهل أوروبا الآن للقوة.

الإمام : هكذا يعتقد الشرقيون. مظاهر القوة، هى التى حملت الشرقيين على تقليد الأوروبيين فيما لا يفيد، من غير تدقيق فى معرفة منابعها.

سبنسر : مُحِيَ الحقُّ من عقول أهل أوروبا بالمرة. وسترى الأمم يختبط بعضها ببعَض، ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم. أو ليكون سلطان العالم... ما يقول علماء الإسلام فى الخالق؟ هل هو داخل العالم، أو خارجه؟

الإمام : إن علماء الأثر يقولون: إن الله تعالى فوق كل شىء، بائن من العالم، والمتكلمين يقولون: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون: إن كل شىء فى العالم مظهر من مظاهر وجوده. إننا نعتقد بأن الله موجود غير مشخص.

سبنسر : (بعد أن ظهر عليه السرور) إن الفكرة صعبة الفهم..! إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين فى التفكير تعمقنا نحن معاشر الأوروبيين(٣١٥).

* * *

بلنت(٣١٦) : هل تعتقد أن لله قوة العلم والإدراك، وأنه يعلم أنك موجود وأنى موجود؟

الشيخ عبده : نعم إنه يعلم.

بلنت : إذا كان يعلم ذلك، فإنه يعلم أنك طيب وأنى خبيث؟

الشيخ عبده: نعم.

بلنت: وهو مسرور منك وغير مسرور منى؟

الشيخ عبده: إنه يقر ولا يقر.

بلنت : وهو يقرك اليوم لأن أعمالك طيبة، ولا يقرك غدا لأن أعمالك أصبحت خبيثة. أفلا ترى أن هذا التغيير أو التحول من الإقرار إلى عدم الإقرار خاص بالشخصية (الذاتية)؟

الشيخ عبده : إن الله يعلم كل شيء فى كل وقت، فليس عنده اليوم ولا عنده الغد. ومن أجل ذلك فهو لا يتغير. فعلمه بجميع الأشياء علم سرمدى لا يتغير. وإنى أسمى هذا وجودا لا شخصية.

بلنت : والمادة؟ أليست هى أزلية أيضا؟ أم أن الله هو الذى خلقها؟ إذا كان هو خالقها فيكون قد أحدث تغييرا!! أليس كذلك؟!

الشيخ عبده : إن المادة أزلية أيضا، كما أن الله أزلى.

تعليق

الأستاذ الإمام على حديث الفيلسوف سبنسر إليه[٣١٧]

ماذا حركت منى كلمة الفيلسوف : «الحق للقوة» إلخ؟ . .

جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل، فأثارت حرارة وهاجت فكرا . لوجاءت من ثرثار غيره، كانت تأتى مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك إلا اشمئزازا وغثيانا .

هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الإنسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته، (أعجزهم) أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها . هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضىء، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحى؟! . . .

حار الفيلسوف فى حال أوروبا، وأظهر عجزه مع قوة العلم، فأين الدواء؟! . . الرجوع إلى الدين . . الدين هو الذى كشف الطبيعة الإنسانية، وعرفها إلى أربابها فى كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها .

فلسفة ابن رشد(۳۱۸)

قرأت ما نشرت «الجامعة» من ترجمة ابن رشد. مررت على ما نقَلتْ من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق؛ لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل. ولم يكن لى قصد إلى النقد، وإنما أريد أن أستفيد جديدا. لهذا لم يقف نظرى لأول وهلة إلا على ما حوته تلك الجملة: «الاضطهاد فى النصرانية والإسلام». . قرأتها بتَروٍّ، وانتهيت منها إلى حكم من «الجامعة» يخالف ما أعْتَقدُ، ولا يلتئم مع ما أَعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية. عند ذلك تحركَت نفسى إلى كتابة سطور أشير فيها إلى كشف مستور، أو إعادة ذكر مشهور على أسماع الجمهور.

* * *

لاقانى بعض قراء تلك الترجمة، فرأيت الأثر فى نفسه أشد، ولسانه فى العَتْب أحَدَّ. وذكر أشياء فى غير هذا الفصل من الترجمة، واستلفتنى إلى إعادة النظر فيها. رجعت إلى الترجمة، فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان منى الكلام عليهما، وبأن أحادث «الجامعة» فيهما.

* * *

لو كانت منزلة غيرها من المجلات التى لا يُعْنى كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم، من دون عناية بتقرير الحقيقة، ولا رعاية لمعتقدات القراء، لوجدت من شواغل عملى ما يصرفنى عن ذكر ما عرض فيها. ولكنها من المجلات التى لو أهملْتُ مباحثها من إنْعامِ النظر، وجعلْتُها فى جانب عما تستحقه من النقد، لبخستها حقها، ونبوْتُ بها عن موضعها.

ولهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت فى ذينك الموضعين، وأبيِّن حقيقة الأمر فى الثالث[٣١٩]. أما الموضعان فهما:

«فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود»، و«فلسفة ابن رشد وآراؤه فى خلق العالم واتصال الكون بالخالق، وطريق اتصال الإنسان به، والخلود». وهما موضوع كلامى اليوم.

فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود

قالت «الجامعة»: «فلسفة المتكلمين هذه (أى فى وجود العالم) مبنِيةٌ على أمرين:

الأول: حدوث المادة فى الكون، أى وجودها بخلق خالق. والثانى: وجود خالق مطلق التصرف فى الكون، ومنفصل عنه، ومُدبِّر له. وبما أن الخالق مطلق التصرف فى كونه، فلا تسأل إذن عن السبب إذا حدث فىً الكون شىء؛ لأن الخالق نفسه هو السبب، وليس من سبب سواه. إذن فلا يلزم عن ذلك قطعيا أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق، كأن ينتج بعضها عن بعض، لأن هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده. وفى الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصوَّر بها الآن، بقدرة هذا الخالق».

* * *

حدوث المادة عند المتكلمين، ليس معناه أن تكون بخلق خالق. فإن الخلق فى اصطلاحهم هو الإيجاد. وكون المادة صادرة عن موجد، لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الإلهى[٣٢٠]. **فأرسطو** يقول: إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب، وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال، على ما سيأتى بيانه، وإن كان لا أول لوجودها. وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة، بحيث يُفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى إليها سلسلتها من جانب الماضى. ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله

وحده، وصفاته عند القائلين بأنها وجودية[٣٢١]. وقبل هذه البداية التى لا يمكن تحديدها، لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون. ثم إنه أراد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت[٣٢٢].

هذا هو بناء مذهب المتكلمين، وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضا، فلم يخالف فيه مِلىٌّ من أهل المِلَلِ الثلاث.

أما كون هذا المذهب وحده هو الذى يصح أخذه من القرآن، أو أنه يجوز أن يتفق مع معانى القرآن، رأى آخر، بل هو الذى يظهر منه، فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن، فإن كلامنا فى تصوير مذهب المتكلمين[٣٢٣].

الأصل الثانى - وهو وجود خالق مطلق التصرف - لازم للأصل الأول، لأن هذا العالم إذا كان موجودا بعَقْلِ مُوجِد، فَمُوجِدُهُ هو خالقه، وهو مطلق التصرف، بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجهَ ٱلذى يخلَق.

والمتكلمون إن اتفقوا على أن خالق العالم مختار، انقسموا إلى فريقين عظيمين: فالقدرية منهم ويُسَمَّوْن بالمعتزلة أيضا، قالوا إن الخالق وضع للكون نظاما تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين، وأودع فى المخلوقين قُوى أو قُدَرًا تصدر عنها آثارها بطريق التوليد[٣٢٤] والسببية، أو بطريق الإرادة والاختيار. فهذا الفريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة فى قولهم بلزوم الآثار لمصادرها، أو تأثير قُدَر المخلوقين فى أفعالهم. وقد بقى من أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الإماميةَ والزيدية[٣٢٥] فإنهم لا يخالفون المعتزلة فى هذه الأصول: فإذا حدث فى الكون حادث، سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له. وإن كانت جميع الأسباب تنتهى إلى مصدرها الأول، وهو الخالق، كما يسأل الفيلسوف، بلا فرق.

والفريق الآخر، الذى عَنَتْهُ «الجامعة»، وهو الذى يرى إسناد الآثار إلى الخالق مباشرة. لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومُسَبّبَاتها، بل قال إن الله يُصدرُ وجود المُسَبّب عند وجود السبب، فلا يقال إن الأكل (مثلاً) هو الذى يُحدثُ الشبع، بل الشَبع شىء يحدثه الله عند الأكل، ولكنه لايحدثه عند الخوى إلاَ إذا أراد أن يخرق النظام الذى جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه.

وحمل هذا الفريق على هذا القول إنكارهُ نسبة الإيجاد ومنح الوجود إلى شيء سوى واجب الوجود. وقالوا فى الأفعال الاختيارية إن الله يوجدها عند تعلُّق كسب العبد بها. ولهم فى تصوير معنى الكسب كلام طويل لايليق بهذا المقام استيفاؤه. وقالوا إن الأسباب والآلات لا بد منها فى صدور الأثر إلا أن الذى يعطيه الوجود، عند استكمالها، هو الخالق.

ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام الشرعية يعتمد التمكن من الإتيان بالمُكلَّف به، من حيث حال المُكلَّف، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه. غير أنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادية لأنه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها، مع اعتقادهم بأنه قَرَّرها وجرت سنته بها. ولقبوا ما يحدث فى العالم مخالفًا لها بخارق العادة. وليس كل غريب عندهم بخارق للعادة، بل الخارق هو ما لا يدخل فى مُكنة قوة حادثة، ولا يقدرُ على إحداثه إلا القادر على مخالفة النظام الذى سنه، وهو الله.

هذا الفريق من المتكلمين يستند فى إثبات صفة العلم لله تعالى إلى ما فى هذا العالم من النظام، وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم. وهل يتأتى ذلك الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها؟!

كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيرا من الفنون كالطب، وعلوم المواليد الثلاثة: الحيوان، النبات، والمعدن. منهم الأئمة الرازيون، **كفخر الدين الرازى**(٣٢٦). و**أبى بكر الرازى** (٣٢٧) و**محمود الرازى**(٣٢٨) وأمثالهم. ومنهم مثل الإمام **أبى بكر الباقلانى**(٣٢٩).

وكيف يتيسر لقائل إنه لا علاقة بين الأسباب والمُسبَّبات أن يبرع فى فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها فى العادة مما هو مصدر لها فى بادئ النظر.

فإذا حدث فى الكون حادث، سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذى جرت سُنَّةُ الله بأن يكون معه، وإن شئت قلت: سأل عن السبب الذى أصدر الله وجوده عنده.

وهل يمكن أن يقول المتكلم إنه لا علاقة بين وجود الولد ووجود والديه؟!.. أو

بين جودة العمل وعلم العامل؟! . . أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر؟! . . هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط، وإلا لما قرأ واحد منهم كتابا ولا خط فى صحيفة سطرا، لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والإفهام.

فإن شئت أن تقول: إنه مذهب مع ذلك غامض، يكد الذهن فى فهمه، فلك أن تقول[٣٣٠]، وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله، وأن تناقش بالدليل. وعلى الله قصد السبيل.

* * *

القول بنفى الرابطة بين الأسباب ومُسَبَّبَاتها جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوَّلْ عن مكانك، فيتحول الجبل[٣٣١]. يليق بأهل دين يَعدُّ الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى[٣٣٢]، وليس هذا الدين هو دين الإسلام. دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ (التوبة (٩): ١٠٥). ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ إلخ (الأنفال (٨): ٦٠). ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب(٣٣): ٦٢) وأمثالها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآيات (من سورة البقرة (٢) ١٦٤)[٣٣٣]. فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب فى هذا العالم والمُسَبَّبات، ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على وعث[٣٣٤] من الخوارق لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل، وإنما وُضِع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل. وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية، إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله.

نعم.. طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب، وأساءوا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الأسباب فى أقوالهم، وإن كان أشد الناس تمسكًا بها فى رذائل أعمالهم، وتعلقوا فى الخوارق بحبل واهن، ميلاً إلى أهواء من

جاورهم من الملل، فظن الناظرون فى قذائف أفواههم أن هذه الأوهام مما بُنى عليه اعتقاد أسلافهم. فلا يَغترَّنَّ بعد ذلك مُغترٌّ بما يظن أولئك الناظرون، ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات (٣٧): ١٨٠).

هذا ما يتعلق برأى «الجامعة» فى مذهب المتكلمين أو فلسفتهم، وننتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه:

فلسفة ابن رشد ورأيه فى المادة وخلق العالم

المادة وخلق العالم: قالت «الجامعة»: إن المادة «ضرب من الافتراض لابد منه».

الافتراض: يراد به عند الإطلاق: الفرض، وهو فى اصطلاح الفلاسفة ما لا وجود له، والمادة عندهم موجودة، كما قالت «الجامعة» فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده. ثم قالت: «وبناء عليه، فالعامل الأول الذى هو مصدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى فعله». وقالت بعد هذا بسطرين: «وهو (أى مذهب ابن رشد) مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى». ثم ذكرت» أن الفيلسوف يشبِّه حكومة الكون بحكومة المدينة، وأن المباشر للتصرف فى الكون هو العقل الأول وحده، وأن السماء كون حى مركب من عدة دوائر، والعقل الأول فى قلب هذه الدوائر، ولكل دائرة عقل أى قوة تعرفُ بها طريقها» إلخ.

أما مسألة نفى الاختيار فقد ذُكرتْ على إبهامها، وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب مَن مذهب الماديين، وليس الأمر فى حقيقته كذلك.

يعلم كل ناظر فى مذاهب فلاسفة اليونان، أنهم كانوا فريقين: إلهيين، وماديين والأولون فريقان: **مشاءون وإشراقيون**(٣٣٥). واشتهر أتباع **أرسطو** باسم المشائين، وأتباع **أفلاطون** باسم الإشراقيين. وأول مميز للإلهيين عن الماديين أن الأولين يقولون بوجود واجب برىء من المادة والماديات، وبوجود عقول مجردة عن المادة

وغواشيها، وبأن للواجب علما بذاته وبجميع ما يصدر عنه وعن آثاره، وأن للعقول المجردة عقلاً وعلماً بذواتها وبمبدئها وبما يصدر عنها. والماديون لا يقولون بشيء من ذلك البتة، فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين. وابن رشد من مقررى مذهب أرسطو فهو من الإلهيين.

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة أكبر دليل على مفارقة الماديين كما يفارق المجرد المادة. وقد شرطوا فى هذا التشبيه أن المدبِّر خارج عن المدبَّر، مفارق له، منزه عن مخالطته.

أما العقل الأول، فليس كما تقول «الجامعة»، فإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة، وهو أول صادر عن الواجب. وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلس، ونفسٌ لذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية، وعقل آخر هو العقل الثانى. وعن هذا الثانى صدر الفلك الثامن المسمى عندهم فلك الثواب، ونَفسُهُ، والعقل الثالث، وهكذا إلى أن أصدر عن العقل التاسع فلك القمر، ونفسه، والعقل العاشر، وهو المُسمَّى عندهم بالعقل الفعَّال أو العقل الفياض. وعن هذا العقل الفياض، صدرت المادة العنصرية، وإليه يرجع ما يحدث فى عالمها.

ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول فى قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين، بل هو مفارق لها، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضا، ولها تعلُّقٌ بأجسادها كتعلُّق أنفسنا بأبداننا.

والذى حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم فى تنزيه الواجب، وقولهم إنه واحد من جميع الوجوه، وزعمهم أن الواحد من كل وجه لايصدر عنه إلا الواحد، فلزم ألا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الأول[٣٣٦].

قال الفلاسفة الإلهيون: ولا يجوز أن يكون لأفعال الله غايات وأغراض تبعثه على إصدارها، وأن ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الجود المطلق عن غنى مطلق. وقد صرح ابن رشد فى تهذيبه لإلهيات **أرسطو** بذلك. وهذا مبالغة منهم فى نسبة الكمال إلى الله. على أن ما يصدر عنه، إنما يصدر عن علم. فالذى ينُفى عنه إنما هو الاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها، أما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون إكراه عليه فذلك لا ينفيه أحد منهم.

والمِلّيُّون من متكلمين ولاهوتيين[٣٣٧]، وإن لم يصرحوا بذلك، قالوا بما يؤول إليه والتزموه. فقد ذهب جمهورهم والمُعوَّلُ على رأيه عند قومه منهم أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلاً وأبدا، وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه، وعلمُهُ لازم لذاته: أزلى بأزلية ذاته، وكل ما يكون فى الكون لا بد أن يقع على وفاق مع علمه الأزلى جل شأنه، فلا تردُّد عنده بين الغايات، بل ما يصدر عنه اليوم كان لابد أن يصدر عنه. والأسباب والمُسبّباتُ وارتباط بعضها ببعض مما انتظم فى علمه، فهى تصدرُ عنه حسب ترتيبها فى العلم.

وسواء كان القول غامضًا أو غير غامض، وسواء توجّه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجّه، كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفى الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس، وإن ثبت الاختيار بالمعنى الذى يليق بكمال الله تعالى.

فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق فى حقيقة المسألة، وإن اختلفت العبارات. **فابن رشد ـ رحمه الله ـ لم يخرج فى آرائه عن المِلّيِّين، فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريبا منه.**

طريق الاتصال

يتوهم الناظر فى هذا العنوان فى «الجامعة»، مع مراعاة الفصل الذى تقدمه فيها، أنه عنوان لرأى ابن رشد فى طريق اتصال الكون بالخالق. فإذا استمر فى قراءة ما بعد العنوان إلى آخر الفصل، علم أن المراد طريق اتصال الإنسان وحده بخالقه، وعثر فى آخر البحث على هذه العبارة: «وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى قاعدته العلم».

أما ما بين العنوان وهذه العبارة، فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم فى مذهب الفيلسوف. وإنى ذاكر لك رأيه فى اتصال الإنسان بالله، أى قربه منه وسعادته به، وفى طريقة تكميله لنفسه حتى يستعد لذلك القرب. وبذلك تعرف أن

ما جاء فى «الجامعة» ليس بالذى تصح نسبته إليه، خصوصا بعد قولها إنه أخذ مذهبه فى ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه «النفس» وما قاله أرسطو فى ذلك الكتاب معروف مشهور.

أثبت أرسطو، وتبعه ابن رشد وجُلُّ فلاسفة الإسلام، أن نفس الإنسان، التى هو بها إنسان - وهى ما يلقبونها بالنفس الناطقة - جوهر مجرد عن المادة، لا هو جسم ولا حالٌّ فى جسم، وإنما له علاقة بالجسم يُدبِّره ويُصرِّفه، وشبَّهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها. ولهذه النفس آلة فى الجسم بها يكون التدبير.

وجعلوا مراتب النفس فى استحصالها كمالها العلمى أربع:

(الأولى): العقل الهيولانى[٣٣٨].

(والثانية): العقل بالملكة[٣٣٩].

(والثالثة): العقل المستفاد[٣٤٠].

(والرابعة): العقل بالفعل[٣٤١].

قالوا: والذى يرقى بالنفس فى هذه المراقى هو العقل الفعَّال، وهو ذلك العقل العاشر المصرِّف للمادة العنصرية، لا عقل الإنسانية العام، كما تقول «الجامعة». فإن **أرسطو وابن رشد** لا يقولان بعقل يُسمَّى عقل الإنسانية العام، بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون، التى عُنى أرسطو بإبطالها، وتبعه ابن رشد وغيره فى نفيها. فالعقل الفعال هو الذى يخرج النفس من العقل الهيولانى إلى العقل بالملكة، ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد، ومنه إلى العقل بالفعل.

قالوا: وهذا الاتصال الذى يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المقولات له علة، وعليه قوة بعيدة هى العقل الهيولانى، وقوة كاسبة هى العقل الملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهى المسماة بالعقل بالفعل.

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب **أرسطو** ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يُعتدُّ بقولهم، وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة **لابن رشد**، منها أن الجوهر العاقل إذا

عقل صورة عقلية صار هو إياها، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس إليه، وهو محال وخلاف الفرض.

ونقلوا عن «**فرفوريوس**» أنه قال: إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئا، فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال، وهو حق فى رأيهم. ولكنه قال: إن معنى اتصالها بالعقل الفعال، أن تصير هى نفس العقل الفعال، لأنها تصير العقل المستفاد. وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل متجزئا قد يتصل منه شيء دون شيء، وهو مجرد لا يتجزأ، أو تتصل به النفس اتصالاً واحدا تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول، وهو ليس بحاصل فى جميع الأحوال. وقالوا: إن دعوى اتحاد شيء بشيء آخر على معنى استحالة الأول إلى الثانى، قضية شعرية غير معقولة، فلا يصح النظر فيها. أما استحالة النفس إلى العقل الفعال، فلم يقل به أحد.

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفتهُ «الجامعة»، بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد، وتنجذب نحو العالم الأعلى فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطلع ذلك النور الأجلى. فهل مع هذا يصح أن ينسبَ إلى الفيلسوف ما عدهُ غير معقول؟!

قال الفيلسوف وشيعته: إن النفس الناطقة، التى هى موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة فى جسم تقوم به، بل هى جوهر عاقل ذو آلة بالجسم، فإذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها، وحافظًا للعلاقة معها بالموت، لم يضرّ ذلك جوهرها، بل تكون باقية بما هى مُستفيدة الوجود من الجواهر العقلية. فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء فى شيء سواها، لا عقل فعال على ولا وجود واجب، وهى تسعد بكمالها العلمى والأدبى الذى حصلته مدة تعلقها بالبدن. وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذة لها، وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها. فالنفس

عند الفيلسوف باقية خالدة، خُلودها خلودٌ لشخصها المتميز من كل شيء سواها، سواء كان عقلاً فعالاً أو غيره.

فهل بعد هذا يعدُّ الفيلسوف ماديا ومذهَبه مذهبا ماديا قاعدته العلم؟! . . لا . . **بل إلهى ومذهبه مذهب إلهى قاعدته العلم**، قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها، كما رأيت.

* * *

بقى علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوروبا عن الفيلسوف الجليل **ابن رشد** فى مبدإ العالم ومصدر وجوده. . قالوا: لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الأوروبيين إلا فى مدارس المسلمين فى **إسبانيا**، فكان يقصد تلك المدارس طلاب العلم من كل ناحية، كان يجلس فى درس الفيلسوف عدد عظيم. لم تأت نهاية القرن الثانى عشر (الميلادى) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشىء من العلم رأى زعزع طمأنينة الكنيسة وأفزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت، الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاءوا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاءوا. ذلك الرأى الذى أخذ يتسرب إلى القلوب برغم حجابها، هو أن الكون أجمع يرجع فى وجوده إلى واحد هو حياة الكل، وهو روح يقوم به كل جزء منه.

وقالوا: إن الذى نشر هذا المذهب بين الناس هم تلامذة ابن رشد. ففهم بعض علمائهم من ذلك أن ابن رشد كان يقول إن مبدأ العلم هو أصل عرضت له صور العالم، أو روح ظهر فى مظاهر الكائنات، كما يقول الصوفية، أو نحو ذلك.

واستَتبعَ هذا رأيا آخر، وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطلت، فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق. وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام إلى مشرقها العام وتفقد امتيازها فيه. وذلك كله، وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوروبيين، غير ما يقول ابن رشد.

على أن الصوفية، وهم المصرحون بوحدة الوجود، المعبرون بالشهود أولاً والفناء آخراً، الناطقون فى ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم، لم يقولوا بزوال

هُويّات(٣٤٢) النفوس زوالاً حقيقيا، بل قالوا إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان، ولكَنها تسعد فى خلودها باستغراقها فى شهودها، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها. فهى غنية بعرْفانه عن معرفتها بنفسها. وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذَّته، والمحو وبهجته. وهوَ معنى تقْصُرُ دون إيضاحه العبارات، وإن كفى فى تعريفَه لأهله أخفى الإشارات.

* * *

ولعل «الجامعة» لا تعتب على كاتب فيما كتب، وفيما أجاب به من طلب. فقد وفّى حقّا لها لو أغفله، مع علمها بالقدرة عليه، لحق لها أن توجه العَتب إليه.

هذا ما أردنا إيجاز القول فيه متعلقًا بفلسفة المتكلمين ورأى الفيلسوف . . . (٣٤٣)
. . . وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام على الاضطهاد فى النصرانية والإسلام، إن شاء الله تعالى.

طوفان نوح... هل عمّ الأرض كلها[٣٤٤]؟

. . . وصلنا مكتوبكم المؤرخ فى ٤ شوال ١٣١٧[٣٤٥]، الذى أنهيتم به أنه ظهر قبَلكُم نشء جديد من الطلبة وديدنهم البحث فى العلوم والرياضة والخوض فى توهين الأدلة القرآنية. وقد سمع من مقالتهم الآن أن الطوفان لم يكن عاما لأنحاء الأرض، بل هو خاص بالأرض التى كان بها قوم نوح عليه السلام، وأنه بقى ناس فى أرض الصين لم يصبهم الغرق، وأن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما، بل هو خاص بكفار قومه؛ لأنه لم يكن مرسلاً إلا إلى قومه، بدليل ما صح: «وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة».

فإذا قيل لهم: إن الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى، حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦). وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصافات: ٧٧). وقوله تعالى: ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣).

وإذا قيل لهم: إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح فى أحاديث الشفاعة أن نوحًا، عليه السلام، أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وأنه يتعين أن يكون قومه أهل الأرض، ويكون عموم بعثته أمرا اتفاقيا لعدم وجود أحد غير قومه، ولو وجد غيره لم يكن مرسلاً إليهم. . سخروا من المحدثين، ويستندون إلى حكايات منسوبة، إلى أهل الصين.

ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم، والإفادة بمايقتضيه الحق ويطمئن إليه القلب.

* * *

والجواب عن ذلك والحمد لله :

أما القرآن الكريم، فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان، ولا على عموم رسالة نوح، عليه السلام. وما ورد من الأحاديث، على فرض صحة سنده، فهو آحاد لا يوجب اليقين، والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن، إذا عد اعتقادها من عقائد الدين.

أما المؤرخ ومريد الاطلاع، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ أو صاحب الرأى. وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها، ولا تتخذ دليلاً قطعيا على معتقد دينى.

وأما مسألة عموم الطوفان فى نفسها، فهى موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر فى طبقات الأرض، وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم. أما أهل الكتاب وعلماء الملة الإسلامية، فعلى أن الطوفان كان عاما لكل الأرض، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر. واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال، لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا فى البحر، فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة ومرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض. ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاما. ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها. غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفى شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد، والوصول إليه فى مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل، وعناء شديد، وعلم غزير فى طبقات الأرض وما تحتوى عليه، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية. ومن هذى برأيه بدون علم يقينى، فهو مجازف لا يسمع له قول، ولا يسمح له ببث جهالاته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

التوسل بالأنبياء والأولياء[٣٤٦]

(السؤال)

فضيلتو أفندم مفتى الديار **المصرية**، متعنا الله بوجوده، آمين.

أبدى أنه قد بلغنى أن بعض الناس كتب إلى فضيلتكم سؤالاً يدعى فيه أنى أنكرت جاه النبى، والتوسل به إلى الله تعالى وبأوليائه رضوان الله عليهم أجمعين.

والحقيقة أنى لم أنكر شيئا من ذلك ولم أتكلم به. بل الحقيقة أنه سألنى جمع من الناس عن حقيقة ما يعتقدونه ويقولونه بألسنتهم من التوسل بجاه النبى - صلى الله عليه وسلم - والتوسل بأوليائه، معتقدين أن النبى أو الولى يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه - كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام، وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام.

فلما رأيت منهم ذلك، وأن هذا أمر مخل بالعقيدة، كما تعلمون، وأن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال، فأجبتهم بما أعتقده وأدين به من تقرير عقيدة التوحيد، وهى أنه لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى، وأنه لا يدعى معه أحد سواه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ١٨)، وأن النبى صلى الله عليه وسلم، وإن كان أعظم منزلة عند الله من جميع البشر، وأعظم الناس جاها ومحبة، وأقربهم إليه، ليس له من الأمر شىء، ولا يملك للناس ضرا ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره كما فى نص القرآن، وإنما هو مبلغ عن الله تعالى. ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل كما جاء على لسانه - صلى الله عليه وسلم - واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته.

وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضار إلا ما هدى الله الناس إليه، ولا معنى للتوسل بنبى أو ولى إلا باتباعه والاقتداء به. . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة فى القرآن العظيم، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (آل عمران: ٣١) - ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ (الأنعام: ١٥٣). إلى غير ذلك من الآيات.

هذا هو اعتقادى، وهو الذى قلته للناس، فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه. وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة لأدافع بذلك من أساء بى الظن لا زلتم هادين مهديين.

محمد موسى - من محلة فرنوى، بحيرة

(الجواب)

بسم الله الرحمن الرحيم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح، ولا يشوبه شوب من الخطإ، وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يعتقده. فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة **النبى محمد** - صلى الله عليه وسلم - هو هذا المعنى من التوحيد، كما قال الله له: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ (الإخلاص: ١ - ٢). والصمد هو الذى يقصد فى الحاجات ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد(٣٤٧)، كما هو معروف عند أهل اللغة، فلا صمد إلا هو.

وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده، بأصرح عبارة فى قوله: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (البقرة: ١٨٦). وقد قال الشيخ **محيى الدين بن العربى**، شيخ الصوفية فى صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته، عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه، بل

لله الحجة البالغة، فلا يتوسل إليه بغيره، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه، وقد أخبرنا الله بأنه قريب وخبره صدق. أهـ ملخصا.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات ويسلكون طرقا من التأويل لا تنطبق على ما في نفوس الناس، ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له في مخيلات المعتقدين.. فأي حالة تدعوهم إلى ذلك، وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه؟! وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك. فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة من الدين، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك بالله وسوء الظن به، كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها. وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيما لقدر النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الأنبياء والأولياء، مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عندما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم، وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم، وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم واختراع شئون لهم مع الله لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح.. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن؛ لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت. وليس يخطر بالبال أن جبارا لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله، فكيف بالأنبياء والصديقين؟!

إن لفظ الجاه الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفي هو السلطة، وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه. فيقال: فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال: فلان خلص فلانا من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلاً.

فزعم زاعم أن لفلان جاها عند الله، بهذا المعنى، إشراك جليّ لا خفيّ، وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي، وهو المنزلة والقدرة. على أنه

لامعنى للتوسل بالقدرة والمنزلة فى نفسها؛ لأنها ليست شيئا ينفع. وإنما يكون لذلك معنى لو أولت بصفة من صفات الله كالاجتباء والاصطفاء. ولا علاقة لها بالدعاء، ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها فى دعائه، وإن كان «**الألوسى**» المسكين بنى تجويز التوسل بجاه النبى خاصة على ذلك التأويل، وما حمله على هذا إلا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهال، وهو ما لا قيمة له عند العارفين. فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة، وفيه شبهة الشرك، والعياذ بالله، وشبهة العدول عما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم الإصرار على تحسين هذه البدعة؟!

يقول بعض الناس: إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها، وهى ما رواه الترمذى بسنده إلى **عثمان بن حنيف** رضى الله عنه، قال: إن رجلاً ضرير البصر أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال: ادع الله أن يعافينى، فقال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خيرلك». قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك **محمد نبى الرحمة**، إنى توجهت بك إلى ربى ليقضى لى فى حاجتى هذه، اللهم فشفعه فى. قال الترمذى: وهو حديث حسن صحيح غريب.

ونقول: أولاً قد وصف الحديث بالغريب، وهو ما رواه واحد، ثم يكفى فى لزوم التحرز عن الأخذ به أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك، ولا وجه لابتعادهم عن العمل به إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك فى الدعاء من الحى، كما قال **عمر** رضى الله عنه، فى حديث الاستسقاء: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا - صلى الله عليه وسلم - فتسقينا، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا العباس فاسقنا. قال ذلك، رضى الله عنه، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى. ولو كان التوسل ما يزعم هؤلاء الزاعمون، لكان **عمر** يستسقى ويتوسل بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يقول: كنا نستسقى بنبينا، والآن نستسقى بعم نبينا.

وطلب الاشتراك فى الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه، بل ويكون من الأعلى للأدنى، كما ورد فى الحديث، وليس فيه ما يخشى منه، فإن الداعى ومن يشركه فى الدعاء وهو حى كلاهما عبد يسأل الله تعالى، والشريك فى الدعاء شريك فى

العبودية، ولا وزير يتصرف فى إرادة الأمير كما يظنون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٨٠).

ثم.. المسألة داخلة فى باب العقائد لا فى باب الأعمال، ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال: «هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله فى قضاء حاجاتنا، أو لا يجوز؟».

أما الكتاب فصريح فى أن تلك العقيدة من عقائد المشركين، وقد نعاها عليهم فى قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).. وقد جاء فى السورة التى نقرؤها كل يوم فى الصلاة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فلا استعانة إلا به، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرا، وهذا هو التوحيد الذى كان أساس الرسالة المصطفوية، كما بينا.

ثم البرهان العقلى يرشد إلى أن الله فى أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم فى التحول عن إرادتهم بما يتخذه أهل الجاه عندهم، لتنزهه، جل شأنه، عن ذلك. ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة، ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلاً على العقيدة مهما قوى سنده، فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨). والله أعلم.

فى ٢٧ جمادى الثانية ١٣٢٢[٣٤٨]

محمد عبده

* * *

حوار

فى التصوف والولاية (٣٤٩)

الشيخ رشيد رضا : يقولون إن للأولياء ديوانا يجتمع فيه الأحياء والميتون، فما أقروا عليه فهو الذى يقع فى الكون. وإننا نرى حوادث الكون فى جملتها وتفصيلها منافية لمصلحة المسلمين، حتى علت عليهم الملل كلها، فاستولت الدول المسيحية على معظم بلادهم، وسبقتهم فى العزة والمكانة الشعوب الوثنية. فإذا كان أولياء المسلمين وأنصار الدين هم المتصرفين فى الأكوان، لا يجرى فيها إلا ما يجرونه، ولا يستقر إلا ما يقرونه، فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين؟! وكيف اعتز الإسلام بطائفة من سلفهم، ثم هو يخذل الآن باتفاق الأحياء منهم والميتين؟!

الأستاذ الإمام : قد يقال إن الأولياء يرون أن المسلمين صاروا أبعد عن دينهم من سائر الأمم، فهم ينتقمون منهم حتى يرجعوا إلى دينهم. والحق أن مسألة الديوان والتصرف الباطنى عند الصوفية المتأخرين هى رمز إلى ما كان عليه سلفهم عندما كانت هذه الطائفة حية عاملة. ذلك أن الفقهاء كانوا يكفرون الصوفية، وكان الحكام أنصاراً للفقهاء فكان جميع أمر الصوفية مبنيا على الكتمان - فوضعوا الرموز لعقائدهم واصطلاحاتهم وأعمالهم، وبالغوا فى التستر كما هو شأن

الجمعيات السرية العاملة. وكان لهم اجتماع خفى يتباحثون فيه وينظرون فى أمرهم وحمايتهم من أعدائهم. وكل ما يتفقون عليه فى الباطن، يسعون بتنفيذه بوسائله فى الظاهر. فإذا اتفقوا على عزل حاكم، أو قتل ظالم، لا يكفون عن السعى حتى ينفذ ذلك. فهذا هو الديوان. ومعنى كون ما يجرى فى الظاهر محكوما به فى الباطن. وكذلك كان شأن الباطنية (والصوفية فرقة منهم معتدلة) كما هو معلوم فى التاريخ.

* * *

الشيخ محمد الدلاصى : الناس إمام ومأموم. فالأول متبوع، والثانى تابع لا يعدو حده. فأنا قد اتخذت **الشافعى** إماما، فإذا وجدت فى مذهبه شيئا، ورأيت فى كتاب الله شيئا يناقضه، أرانى مرتاحا للعمل بقول الشافعى دون قول الله تعالى. مثلا: إن الشافعى يقول بحل الذبيحة بدون تسمية، ولكن الله تعالى يقول: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ (الأنعام: ١٢١)، وأنا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه. ألست معذوراً بذلك؟!

س ٢ : إن الله فضل بعض الناس على بعض فى الرزق وغيره، فإذا أعطى الله عبدا جنيها، ألا يجوز لى أن أقول له أعطنى ريالاً من الجنيه الذى أعطاك الله؟ . . . وقد علمنا من مشايخنا أن الله تعالى أعطى سيدى **أبا الحسن الشاذلى** و**أبا العباس المرسى** وفلانا وفلانا سرا لم يعطه لغيرهم، فأى مانع من أن يطلب الإنسان منهم شيئا من هذا السر الذى أعطاهم الله، كما يطلب الريال من صاحب الجنيه؟

الأستاذ الإمام : أما قولك الأول، فهو خطأ كبير، وفيه خطر عظيم. فإن الذين أجازوا لك تقليد الإمام الشافعى أو غيره من الأئمة

رضى الله عنهم، يشترطون فى ذلك ألا تعرض لك شبهة فى كتاب الله تعالى، فترى أنك تعمل بنقيضه. فإن عرضت لك الشبهة، وجب عليك حالاً السعى فى كشفها وإزالتها، وإلا زال الإيمان. فإن الشك فى كتاب الله تعالى كفر صريح بإجماع المسلمين، وكذلك نبذه وراء الظهر وتقديم غيره عليه. .

نعم إن الناس إمام ومأموم. ولكن إمام هذه الأمة واحد وهو **رسول الله** ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعصوم، وإنما العلماء ناقلون ومبينون عنه. فمتى تعارض كلامهم مع ما جاء عنه، رجعنا إليه كما أمرونا، إلا أن يظهر لنا عدم التعارض والتناقض.

الشيخ الدلاصى : إننى لا أشك فى كتاب الله، ولكن أعلم أن إمامى قد اطلع على الآية وفهمها أحسن مما أفهمها، ولذلك لا أرانى مخالفا لكتاب الله ولا شاكا فيه.

الأستاذ الإمام : إن الله تعالى يحاسبك على ما تفهم وتعتقد، لا على ما فهم الشافعى. وأنت قلت الآن إنك ترى الآية مناقضة لقول الشافعى، فترجيحك قول الشافعى حينئذ يقتضى أن يكون قول الله تعالى مرجوحًا، فهو عندك دون المشكوك فيه حقيقة، لأن الشك استواء الطرفين، وترجيح أحدهما يقتضى بطلان الثانى ولو ظنًا. فإن كنت تقلد الشافعى وترى الآية موافقة لقوله، فلا إشكال ولا محل للسؤال.

الشيخ الدلاصى : **إن أبا حنيفة** والشافعى يختلفان فى الحكم، ونتبع أحدهما ولا نرى فى ذلك مخالفة للقرآن.

الأستاذ الإمام : إذا كان الخلاف بين أبى حنيفة والشافعى، ولم يكن هناك قرآن تقرؤه وتفهم منه أنه مؤيد لقول أحدهما. فلا حرج عليك فى الأخذ بقول من شئت منهما، لأنك لم تنحرف عن كتاب الله تعالى، ولم تلقه وراء ظهرك. وليس هذا من

السؤال الأول فى شىء، لأن الترجيح هناك بين قول الشافعى وقول الله عز وجل الذى تراه يناقضه. على أن المثال هناك غير صحيح، فإن الآية لا تناقض قول الشافعى، إذ النهى فيها عن متروك التسمية مقيد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١). وقد فسروه بقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

وأما الجواب عن السؤال الثانى، فهو أننا نسلم أن الله تعالى فضل بعض الناس على بعض فى الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة. ولكن فضل الله على عباده قسمان: قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه، وقسم ليس فى استطاعة البشر بذله أو البذل منه كالإيمان والمعارف الوجدانية، ومنها ما يسميه الصوفية بالأسرار، فإنهم قالوا إنها أمور ذوقية لا يعرفها إلا من ذاقها، فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب(٣٥٠) . . .

إن الناس يسألون الأموات الذين يعتقدون فيهم الولاية ما قطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها، وما لا يبذل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية وما يبذل، فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى والانتقام من الأعداء، وأمثال ذلك مما لو كان فى أيديهم وصح لهم بذله كما يبذل صاحب الجنيه ريالاً منه لكان لهم فى أمر الآخرة التى هم فى شاغل عنه.

الشيخ الدلاصى : إننا تلقينا عن مشايخنا كما تلقوا عن مشايخهم أن سيدى أبا الحسن الشاذلى وسيدى **أبا العباس المرسى** من أولياء الله تعالى ومن أصحاب السر والمدد، وأن تلامذتهم، فى حياتهم، وأتباعهم، بعد مماتهم، يتوسلون بهم إلى الله تعالى ويطلبون منهم المدد والسر، كما نرى ذلك فى كتبهم

ككتب **ابن عطاء الله السكندرى وسيدى مصطفى البكرى** . . . فهل تقول إن هؤلاء كانوا على ضلال أم كانوا مهتدين؟

الأستاذ الإمام : هل جاء مثل هذا الذى تنقله عن هؤلاء الأولياء فى كتاب الله تعالى؟

الشيخ الدلاصى : لا . . .

الأستاذ الإمام : هل جاء فى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم؟

الشيخ الدلاصى : لا . . .

الأستاذ الإمام : هل نقل مثله عن **أبى بكر** و**عمر** و**عثمان** و**على** وسائر الصحابة؟

الشيخ الدلاصى : لا . . .

الأستاذ الإمام : هل نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفية؟

الشيخ الدلاصى : لا . . .

الأستاذ الإمام : فخذ هؤلاء كلهم . . . رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، والتابعين والأئمة الأربعة، وقدماء الصوفية **كالخراز** و**الجنيد** رئيس الطائفة، وسائر أهل القرنين الأول والثانى، وضَعْهُم فى كفة ميزان وضع فى الكفة الأخرى من ذكرت من المشايخ المتأخرين واتبع الراجح.

الشيخ الدلاصى : ولكن . . هل نقول: **إن أبا الحسن الشاذلى وأبا العباس المرسى وياقوت العرش وابن عطاء السكندرى** و **مصطفى البكرى** كانوا ضالين مخالفين لهدى الله ورسوله وأصحابه؟ أم كانوا مهتدين؟

الأستاذ الأمام : إنك بعد بيان الحق تكرر هذا السؤال. تتسقطنى لأقول إن كل ما يخالف هدى السلف فهو ضلال، فتخرج فتقول للعامة إن المفتى أو فلانا يضلل كبار أولياء الله

تعالى. ولكننى لا أقول لك ذلك، بل أقول: إن الله تعالى ما كلفك باتباع هؤلاء، حتى لو مت ولم تعلم بوجودهم فى الدنيا لما سألك الله تعالى يوم الحساب عنهم. ولكن كلفك باتباع كتابه ونبيه وهدى أصحاب نبيه الذين أخذوا الدين عنه مباشرة وكانوا به خير العاملين. فهل تقول: إنهم كانوا ضالين؟!.. ثم إننى أقول لك: إننى أنا أحترم أبا الحسن الشاذلى، وأنا من أهل طريقته، لم أسلك غيرها. ولكن ليس كل ما ينسب إليه يصح عنه، بل قال لى شيخى الذى سلكت عليه الطريقة: إن هذه الأحزاب المنسوبة إلى سيدى أبى الحسن لم تصح عنه...

الشيخ الدلاصى : لكنها متواترة...

الأستاذ الإمام : كيف.. وفريق من الشاذلية ينكرها؟!...

أولاً: إن الكتاب والسنة العملية منقولان بالتواتر القطعى، وما عداهما من سيرة النبى وأصحابه وسلف الأمة منقول بأسانيد معروفة يمكن بها تمييز الصحيح من غيره.. وما نقل عن الشاذلى وغيره من الأولياء لا سند له يحتج به شرعا؛ فإذا فرضنا أن كلامهم فى مرتبة كلام الله ورسوله ـ ولا يقول بهذا مسلم» ـ وجب ترجيح كلام الله ورسوله وكلام السلف على كلامهم، لصحة النقل، كما يرجح بين الحديثين..

وكيف... وقد اشتهر الكذب عليهم، ودس الزيادات فى كتبهم، كما صرح بذلك الشعرانى الذى كانوا يدسون عليه فى حياته، ويزيدون فى كتبه ما يخالف الكتاب والسنة ولا تزال كتبه مملوءة بهذه الدسائس... ولو صح عنه كل ما نسب إليه، لما كان مؤمنا بل ملبسا يريد إفساد عقائد المؤمنين(٣٥١)...

ثانيا: إذا فرضنا أن النقل عنهم صحيح، وأنه لا دسائس فيما ينقل عنهم، فإننا نرجح هدى الكتاب والسنة لعصمة كتاب الله وعصمة رسوله دون غيرهما.. على أن مبحثنا يتعلق بالعقائد والتوحيد، وهى لا تؤخذ فيها بأحاديث الآحاد وإن صحت فكيف بما لا يصح من قول الناس؟...

ثالثا : إذا فرضنا أن هؤلاء الأولياء معصومون كالأنبياء، ولم يقل بهذا مسلم. فالأولى لنا أن نؤول كلامهم، حتى ينطبق على هدى الكتاب والسنة والسلف، لأنه الأصل باتفاقهم وإقرارهم.

رابعا : إذا فرضنا أن الكل فى مرتبة واحدة، وأنه لا أصل ولا فرع - (ولا يقول بهذا مسلم) - فعلينا أن نعمل بالكتاب، لأنه واضح مبين كما وصفه الله تعالى فى مواضع منه، وبالسنة لأنها بيضاء واضحة كما وصفها صاحبها، وقال: ليلها كنهارها، وبسيرة السلف، لأنهم أعلم الناس بهما. . وأما كلام الصوفية فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتها. وصرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل. وهذا ظاهر؛ فإن كتب محيى الدين بن عربى مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله. وهذا كتاب «الإنسان الكامل» للشيخ عبد الكريم الجيلى، هو فى الظاهر أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام. ولكن هذا الظاهر غير مراد، وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها. فإن كنت تدعى ذلك، فإن لى معك كلاما آخر، وإلا حرم عليك أن تنظر فى كلام القوم لئلا تفتن فى دينك(٣٥٢) . . .

. . إننى لما كنت رئيس المطبوعات، أمرت بمنع طبع كتاب «الفتوحات المكية» وأمثالها؛ لأن أمثال هذه الكتب لا يحل النظر فيها إلا لأهلها . .

* * *

أبوزيد أفندى موسى : إذا كنتُ أنا جاهلاً بما يجب علىّ لله تعالى، وعاصيا، مقصرا فيما أعرفه من الواجب، ألا ينبغى لى أن أطلب شيخا مرشدًا، أضع يدى فى يده وأعاهده على السمع والطاعة ليدلنى على الله؟

الأستاذ الإمام : ينبغى لك أن تطلب المرشد. وأنا أدلك على طريقة الطلب، وهى أن تعمل أولاً بجد وإخلاص بما تعرفه من أمور الدين الظاهرة التى لا خلاف فيها، حتى إذا استقمت إلى ذلك وظهرت لك أمور أخرى دقيقة يشتبه عليك الحق فيها، فاطلب من هو أشد منك محافظة على

العمل بما تعَلَّم، وأعلم منك بتلك الدقائق ليرشدك على مسلك الحق فيها بالشرط الآتى. . .

. . . أتعرف أن أكل أموال الناس بالباطل حرام؟ . . وأن إيذاء الناس حرام. . . وأن التعاون على الشر حرام؟ وأن الكذب والخيانة حرام. . وأن الصلاة والزكاة. . من الفرائض؟ . . . وأن الصدق والأمانة والتعاون على الخير ومواساة المحتاج من الفضائل المحمودة. . ؟

أبوزيد أفندى موسى : نعم. . نعم. . ولا أحتاج فيه إلى مرشد ولا أستاذ.

الأستاذ الإمام : إذا عملت بهذا كله بإخلاص، فأنا أضمن لك على فضل الله تعالى القبول والرضوان، وأن يهديك إلى الدقائق وكشف الشبهات، فإنه قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩). . وفى الحديث: «من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم». . . وتستغنى عن المرشد إذا لم تجده لقلته فى هذا الزمن، وإذا وجدت من تراه سابقا لك فى العلم والعمل وحسن الخلق، وأردت أن تسترشد به، فانظر وراء هذا شرطا واحدا وهو ألا يكون دين هذا الرجل دكانه، أى ألا يقبل منك جزاء على الإرشاد. فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فامدد إليه يدك، وعاهده على الاسترشاد بعلمه وعرفانه. وإذا كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك إلى يده إلا بالسكين فإنه لص قد اتخذ الدين حرفة. واكتف بالعمل بما تعلم والله يهديك ويسددك. . .

* * *

التصوف والصوفية(٣٥٣)

إنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصوفية فى علم الأخلاق وتربية النفوس. . وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين. . . وإن سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الأمر بقول الفقهاء فيهم. فأولئك يُكفرون، وهؤلاء يعذبون ويقتلون، حتى إنه قتل فى هذا البلد (القاهرة) فى يوم واحد خمسمائة صوفى. . . وإن هذا «هو» سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم، إن ظهروا، ولجوئهم إلى الاختفاء، وكلامهم فى الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة. . .

ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين إلى الظهور به، وهو ليس من التصوف، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلاً. وهكذا كان البعد عن التصوف رويدا حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضا تاما إلا ما لا نعلم.

وإن الفقهاء لبعدهم عن التصوف (الذى هو الدين)، جهلوا سياسة وقتهم وحاله. ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الأحكام الشرعية. . . إذا عرفوا أن الحكم كذا، لا يعرفون كيف يجعلون الأمراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه، ولهذا ضاع الدين والسياسة.

احتقرهم الأمراء والسلاطين فى أنفسهم، واستخدموهم لأغراضهم التى تؤيد سلطتهم ونفوذهم، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم، ولا يوافق الشرع، فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون، وأفتوهم بما يشاءون. وقررت فتاويهم فى كتب الفقه على أنها أحكام شرعية (أى أن هذا هو حكم الله فى هذه المسألة). . .

نعم. . صدر عن «الصوفية» كلام، ما كان ينبغى أن يظهر ولا أن يكتب، ومنه

ما يوهم «الحلول»(٣٥٤) . ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وأنا لا أنكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا، بل ربما حصل فى شىء من ذلك وقتًا ما، لكن هذا خاص بمن يحصل له، لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة، ولا أن يكتبه ويدونه علما.

إن هذا «الذوق»(٣٥٥) يحصل للإنسان فى حالة غير طبيعية. ولكونه خروجا عن الحالة الطبيعية، لا ينبغى أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية.

كل ما أنا فيه من نعمة فى دينى، أحمد الله تعالى، فسببها التصوف.

كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجدانا فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة.

* * *

إذا يئست من إصلاح الأزهر فإننى أنتقى عشرة من طلبة العلم، وأجعل لهم مكانا عندى فى عين شمس، أربيهم فيه تربية صوفية، مع إكمال تعليمهم، وأستعين بك(٣٥٦) على ذلك ليكونوا خلفا لى فى خدمة الإسلام. ذلك أننى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى، بل أترك الحكومة، ثم أؤلف كتابا فى بيان حقيقة الأزهر، أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم فى الوجود، وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية حتى يعلم المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التى يجهلها الناس حتى من أهله. إن بقاء الأزهر متداعيًا على حاله فى هذا العصر محال، فهو إما أن يعمر، وإما أن يتم خرابه.

* * *

زيارة الأضرحة

إن أحد وجهاء المصريين كان عندى فى أثناء مولد **السيدة زينب** من هذا الشهر «رجب» مع جماعة آخرين، فقام الوجيه، وقال: إنه ذاهب لزيارة السيدة. . . فقلت له: لم خصصت الزيارة بهذا اليوم؟ فقال: لأنه يوم المولد، وأن هذه الليلة هى الليلة الكبيرة. فقلت: ما هذا المولد؟! أنا لا أفهم معنى لهذا اللفظ. هل يوم المولد أو الليلة الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين؟!. ونهيته عن الذهاب، فلم ينته، وهمّ بالخروج، فقلت له: إننى لست مازحا، وإنما أتكلم بالجد، وأقول: إن هذا العمل من أعمال الوثنيين، وإن الإسلام يأباه. كل آيات القرآن فى التوحيد تنهى عن هذا وتذمه. إن الفاتحة التى تقرءونها كل يوم فى صلاتكم مرارا تنهاكم عن هذا العمل. تخاطبون الله تعالى فيها بقوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ كذبا، فإنكم تستعينون بغيره، وتعبدون غيره، ثم إن عملكم هذا متناقض، حيث تهدون الفاتحة إلى من تزورونه، إذ معناه أنه محتاج إليكم وينتفع بفاتحتكم، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم. . . إلخ. .

* * *

حوار حول البابية والبهائية

بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد رضا

الشيخ رشيد : ما رأيكم فى البابية؟

الأستاذ الإمام : إن هذه الطائفة هى الطائفة الوحيدة التى تجتهد فى تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين . وفيها العلماء والعقلاء . ولا أعلم حقيقة مذهبهم . ولا أدرى هل ما يقال عنهم من الحلول ونحوه صحيح أم لا؟ بل أستغربه جدّا .

الشيخ رشيد : . . . وماذا تعرفون عن ميرزا فضل الله الإيرانى(٣٥٧)؟

الأستاذ الأمام : سمعت به منذ عهد قريب ، وأنه مؤرخ وفاضل ، ولم أره .

الشيخ رشيد : وماذا عن **عباس أفندى**؟ . . (٣٥٨) أسمع أنه بارع فى العلم والسياسة ، وأنه عاقل يرضى كل مُجَالس ! !

الأستاذ الإمام : نعم . . إن عباس أفندى فوق هذا إنه رجل كبير ، هو الرجل الذى يصح إطلاق هذا اللقب ـ (كبير) عليه .

الشيخ رشيد : إننى اجتمعت بميرزا فضل الله مرارا ، وناظرته ، فألفيته يستدل على صحة تعاليمه بثباتها هذه المدة ، وانتشارها ونموها ، ويحتج بآيات من القرآن على أنه لا يدوم ولا يثبت إلا الحق ، كقوله : ﴿**إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ (الإسراء : ٨١) . وقوله : ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ (الرعد : ١٤) . . إلخ . .

الأستاذ الإمام : وأنا أقول إنه لا يثبت ويدوم إلا الحق والخير . وإن الشر والباطل لا يدومان وإن انتشرا ونموا . ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الأمد بحيث يصح الاحتجاج بهذا . . لا أقول : إن كل ثابت حق وخير ، وإنما كلامى فى الشىء الذى له حياة ونمو معنويان فإن من الأشياء المعنوية ما هو ثابت كثبات الحجر الذى تلقيه فى مكان ولا يحركه أحد ، أو كالجبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم المحرك ، لابقوة حيوية تمسكه أن يزول .

وأما ما له حياة كالدعوة إلى دين أو مذهب ، فلا يثبت ويدوم إلا إذا كانت الدعوة حقًّا فى نفسها . وإن احتف بها فى بعض أطوارها شىء من الباطل ، فهو عرض لا يمنع دوامها وبقاءها ، بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين ادعوا النبوة بعد **نبينا** ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه خاتم النبيين ، وكونه خاتم النبيين لو لم يرد فى القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه . .

إن مثل النوع الإنسانى كله ، كمثل شخص منه يخاطبه أبوه ومربيه فى كل طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الإنسانى ، فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية فى زمانهم ، وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى هو دين سن الرشد لنوع الإنسان[٣٥٩] . .

الشيخ رشيد : إن أتباع **الباب والبهاء** قد فتنوا لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة . . . مع أن هذا أمر طبيعى ، فإنه قد عهد فى الطبيعة أن أفرادا من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة . . .

الأستاذ الإمام : أنا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شىء خيرى ، ونجح فيه ، فلا بد أن يكون مؤيدا بروح من الله تعالى ، وأن هذه القوة العقلية لا يوجدها الله تعالى عبثًا .

الشيخ رشيد : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ، أم عن دليل عقلى؟

الأستاذ الإمام : بل هو معقول ، والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه ، فإن الأنبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل . .

الشيخ رشيد : إن كلامكم السابق واللاحق عين ما يحتج به البابية ، ولم يخالفوهم إلا فى شىء واحد (هو كل شىء فى المعنى) ، وهو أنكم حققتم أنه لا يمكن تغيير شىء من أصول الإسلام وشريعته لأنها هى التى خاطب بها الله النوع الإنسانى عند بلوغه سن الرشد وطور الكمال العقلى . . والذى يفهم من كلام هؤلاء هو أن «بهاء الله» : إما أن يكون مجددا فى الشريعة الإسلامية ، وإما أن يكون آتيا بشريعة جديدة ، وأن لكل وجها يحتجون له بالقرآن والأحاديث . وإن قولهم باحتمال أن يكون مجددا هو الدرجة الأولى فى دعوة المسلمين إلى دينهم فإذا قبلها المدعو نقلوه إلى الثانية . . ويقولون إن غرضهم توحيد الأديان . . . وإن كتاب كل أمة فيه بيان لكل ما يطرأ على تلك الأمة ، وإن الإنجيل فيه بيان لحالة أوروبا الآن ، وإن

الأوروبيين سيمحقون محقا . . . واستدل **ميرزا فضل الله** بما فى الإصحاح الثانى من رسالة **بطرس** الثانية من ظهور معلمين كذبة يبثون بدع هلاك، ويجلبون على أنفسهم هلاكا سريعا، واعدين إياهم بالحرية وهم عبيد الفساد . . إلخ . . .

الأستاذ الإمام : لو كان **بطرس** يعلم ما سيطرأ على المسيحية وأخبر به، لأخبر عما هو أهم من ظهور **البروتستانتية** ومن كل شىء طرأ عليها، وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية. فإن النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد **قسطنطين** بعد **المسيح** بثلاثة قرون. فقسطنطين كان ملكا وثنيا وادعى التدين بالنصرانية سياسة لأجل الاستعانة بمنتحليها على خصمه . . ونجح فى ذلك . . . إن لفظ الحرية فى رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن . . .

الشيخ رشيد : إن **ميرزا فضل الله** يتحدث عن الحاجة إلى شريعة جديدة، وقد سلك فى التعبير عنها طريق الإبهام، كقوله : إن فهمها يتوقف على فهم معنى «القيامة وطى سماوات الأديان»، فالسماوات عندهم هى الأديان، والسبع منها هى : البرهمية، والبوذية، و الكنفشيوسية، والزردشتية، واليهودية، والنصرانية، والإسلام . . .

الأستاذ الإمام : أى حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب، وإلى هذا الكلام الذى لا يعقل؟! أنا لم أفهم من **عباس أفندى** شيئا من هذا وإنما صرح لى بأن قيامهم لإصلاح مذهب **الشيعة** وتقريبه إلى مذهب **أهل السنة**. وفى الحقيقة إن مذهب الشيعة . . .(٣٦٠) هم أحوج الفرق إلى الإصلاح، ولكن من الأسف العظيم ألاّ يقوم فينا

مصلحون إلا ويخرجون عن الاعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة . . .

الوهابية قاموا للإصلاح، ومذهبهم حسن، لولا الغلو والإفراط، أى حاجة إلى قولهم بهدم قبة النبى - صلى الله عليه وسلم؟! والقول بكفر جميع المسلمين؟! والعمل على إخضاعهم بالسيف أو إبادتهم؟! نعم . . لا بأس بالمبالغة فى القول والخطابة لأجل التأثير بالترغيب أو الترهيب والتنفير، ولكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل . . إننى كثيرا ما أتكلم بكلام فى مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عنى، وإنما فائدته التأثير فى نفس المخاطب . . .

ماذا تنكر من رسالة **ميرزا فضل**(٣٦١)؟

الشيخ رشيد : أولاً مسألة تعدد الزوجات، والتسرى، وإن شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط . . .

الأستاذ الإمام : (إن هناك مفاسد كثيرة للتعدد والتسرى) ولقد خرج المسلمون بهما عن هداية الشرع إلى الإسراف فى استفراغ الشهوة بدون ملاحظة الغرض الدينى . وهذه العادة نشأت فى زمن العباسيين، وامتدت إلى هذا العصر، حتى إنك تجد عند **سلطان الأتراك** وغيره المئات من هؤلاء السرارى، وقد ترتب على ذلك مفاسد كان لها الأثر الكبير فى ضعف الأمة وسقوطها إلى الدرك التى هى فيها . دع ما فيها من بيع المسلمات من الجركس والسودان بدون أدنى شبهة شرعية . . . إلى ما فى التعدد من فساد البيوت بانتقال التعادى من الزوجتين أو الزوجات إلى أولادهن فيتعذر معها تهذيبهم . . . أما السلاطين والأمراء، فإذا كان فى قصر أحدهم هذا العدد الكثير من

النسـاء، فمتى يصفو فكره للإصلاح والنظر فى شئون الأمة؟!

الشـيخ رشـيـد : إن البـهـائيـة يقـولـون بصـحـة جـمـيع الأديان والكتب الدينية . . . ويدعـون جميع أهل الملل إلى دينهم لتوحيد كلمة البشرية . .

الأستاذ الإمام : إن التقريب بين الأديان مما جاء به الدين الإسلامى . . . ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤). الآية.

المنطق والشجاعة الأدبية (٣٦٢)

سعادة الناس فى دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل، فإن الله خلق الإنسان وناط جميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه، والذين حَصَّلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعى هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحدهم، لا يشاركهم فى هذا أحد من البشر مطلقا. والكسب مهما تعددت وجوهه فإنها ترجع إلى كسب العلم؛ لأن أعمال الإنسان إنما تصدر عن إرادته، وإرادته إنما تنبعث عن آرائه، وآراؤه هى نتائج علمه. فالعلم مصدر الأعمال كلها دنيوية وأخروية. فكما لا يسعد الناس فى الدنيا إلا بأعمالهم، كذلك لا يسعدون فى الآخرة إلا بأعمالهم، وحيث كان للعمل هذا الشأن، فلا شك فى أن الخطأ فيه خطأ فى طريق السير إلى السعادة، عائق أو مانع من الوصول إليها. فلا جرم أن الناس فى أشد الحاجة إلى ما يحفظ من هذا الخطإ، ويسير بالعلم فى طريقه القويم، حتى يصل السائل إلى الغاية. وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار، والذى يضبط الفكر ويعصم الذهن عن الخطإ فيه. ولهذا كانت العناية به من أهم ما يتوجه إليه طلاب السعادة.

اعتنى العلماء فى كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطإ فى الكلام، ووضعوا لذلك علوما كثيرة. وما كان للسان هذا الشأن، إلا لأنه مجْلى للفكر وترجمان له، وآلة لإيصال معارفه من ذهن إلى آخر. فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم، كما أن اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضا، فإن الإنسان لا يقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفى الفكر.

إنما ينتفع بالميزان الذى هو علم الفكر من كان له فكر. والفكر إنما يكون فكرا له وجود صحيح إذا كان مطلقا مستقلا يجري فى مجراه الذى وضعه الله تعالى عليه

إلى أن يصل إلى غايته، وأما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد، فهو المرذول الذى لا شأن له، وكأنه لا وجود له.

وقد جاء الإسلام ليعتق الأفكار من رقها ويحلها من عقالها، ويخرجها من ذل الأسر والعبودية. فنرى القرآن ناعيًا على المقلدين، ذاكرا لهم بأسوأ ما يذكر به المجرم، ولذلك بنى على اليقين الذى علمتم معناه موضحا فى درس سابق.

لا ينبغى للإنسان أن يذل فكره لشىء سوى الحق، والذليل للحق عزيز. نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتا، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم، فإن وجده صحيحا أخذ به، وإن وجده فاسدا تركه. وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨). وإلا فهو كالحيوان، والكلام كاللجام له أو الزمام، يمنع به من كل ما يريد صاحب الكلام منعه منه، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد إليه من غير عقل ولا فهم.

ما الذى يعتق الأفكار من رقها، وينزع عنها السلاسل والأغلال لتكون حرة مطلقة؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور، ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع إليها كل ما يقال وهى: «الشجاعة».

الشجاع هو الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم. فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وإن خالف فى ذلك الأولين والآخرين. ومن الناس من يلوح له نور الحق فيبقى متمسكا بما عليه الناس، ويجتهد فى إطفاء نور الفطرة، ولكن ضميره لا يستريح فهو يوبخه إذا خلا بنفسه ولو فى فراشه.

لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس، إلا الذى لم يأخذ إلا بما قال الناس، ولا يمكن أن يأتى هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة.

إن استعمال الفكر والبصيرة فى الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان، وأن يكون طالب الحق صابرا ثابتا لا تزعزعه المخاوف. فإن فكر الإنسان لا يستعبده إلا

الخوف من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم، أو الخوف من الضلال إذا هو بحث بنفسه. وإذا كان لا بصيرة له ولا فهم، فما يدريه لعل الذى هو فيه عين الضلال. إذن «إن الخوف من الضلال هو عين الضلال» فعلى طالب الحق أن يتشجع حتى يكون شجاعا، والله تعالى قد هيأ الهداية لكل شجاع فى هذه السبيل ولم نسمع بشجاع فى فكره، ضل ولم يظفر بمطلوبه.

وههنا شىء يحسبه بعضهم شجاعة، وما هو بشجاعة وإنما هو وقاحة. وذلك كالاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بالمحق. فترى صاحب هذه الخلة يخوض فى الأئمة، يعرض بتنقيص أكابر العلماء غرورا وحماقة. والسبب فى ذلك أنه ليس عنده من صبر واحتمال وقوة الفكر ما يسبر به أغوار كلامهم، ويمحص به حججهم وبراهينهم، ليقبل ما يقبل عن بيِّنة، ويترك ما يترك عن بَيِّنة. وهذا لا شك أجبن من المقلد؛ لأن المقلد تحمل ثقل التقليد على ما فيه، وربما تنبع فى عقله خواطر ترشده إلى البصيرة، أو تلمع فى ذهنه بوارق من الاستدلال، لو مشى فى نورها لاهتدى وخرج من الحيرة. وأما المستهزئ، فهو أقل احتمالاً من المقلد، فإن الهوس الذى (يتلبس) لفكره إنما يأتيه من عدم صبره وثباته على الأمور وعدم التأمل فيها.

والحاصل أن الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا ـ (وهى التى يسميها بعض الكُتَّاب العصريين الشجاعة الأدبية) ـ **قسمان**: شجاعة فى رفع القيد الذى هو التقليد الأعمى، وشجاعة فى وضع القيد الذى هو الميزان الصحيح الذى لا ينبغى أن يقرر رأى ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه، وبهذا يكون الإنسان حرا خالصا من رق الأغيار، عبدا للحق وحده.

وهذه الطريقة، طريقة معرفة الشىء بدليله وبرهانه، جاءتنا من علم المنطق، وإنما هى طريقة القرآن الكريم، ما قرر شيئا إلا واستدل عليه وأرشد متبعيه إلى الاستدلال. وإنما المنطق آلة لضبط الاستدلال، كما أن النحو آلة لضبط الألفاظ فى الإعراب والبناء، كما قلنا. ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا إذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغى أن تراعى، فالذى يحفظ العلم حفظا حقيقيا هو العمل به، وإلا فهو منسى لا محالة.

وإننا نرى «المجاور» يقضى السنين الطويلة فى الأزهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولاً وكتابة، وإنما ذلك لعدم الاستعمال. فأنصح لكل من يسمع كلامى أن يستعمل ما يحصله من العلم، وأن يحصل لنفسه ملكة الشجاعة. وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل، ويكون الاشتغال بالدروس فى حقه من اللغو المنهى عنه المذموم صاحبه شرعا. بل يقضى حياته كسائر الحيوانات العجم، وربما كان أتعس منها.

وأحب أن يكون كل منكم إنسانًا كاملاً. والإنسان يطلب الجميل النافع؛ لأنه حسن فى نفسه، لا لأن غيره يطلبه، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين. وهذا هو الإسلام الصحيح.

* * *

الهوامش

(١) الأهرام. العدد الخامس، السنة الأولى فى ٢ من سبتمبر سنة ١٨٧٦، (١٤ من شعبان سنة ١٢٩٣هـ). وكان الأستاذ الإمام يومئذ لا يزال طالبا بالأزهر ولقد وجه مقاله هذا «إلى حضرة الهمام الكامل سليم أفندى محرر جريدة الأهرام».

(٢) سوداء اللب وسويداؤه بمعنى حبته.

(٣) اسم فعل يذكر للمدح والتعبير عن الرضا، وتكراره يدل على المبالغة فى هذا المعنى.

(٤) الأهرام - السنة الأولى. العدد الثامن. وكان الأستاذ الإمام لا يزال طالبا بالأزهر، وعلى حد تعبير «الأهرام» فى تقديمه للمقال: «أحد المجاورين بالأزهر».

(٥) مصطلح يختلف معناه، باختلاف المقام الذى يرد فيه. والمراد هنا الشيء فى حالة الاستعداد للوجود، وعندما يكون مجرد إمكان للوجود بالعقل.

(٦) درجة الوجود بالفعل أرقى من درجة الوجود بالقوة فى مراتب الوجود. والخلق عند الفلاسفة يعنى تحويل الوجود بالقوة إلى وجود بالفعل. وهذا المعنى يتردد كثيرا فى «تهافت التهافت» لابن رشد.

(٧) القمن: الخليق والجدير.

(٨) التأخير والتأجيل.

(٩) جرح.

(١٠) عيى عن النطق والإفصاح.

(١١) لم ينبسط فى الحديث.

(١٢) الأهرام. العدد ٣٦ من السنة الأولى - (سنة ١٨٧٧م).

(١٣) الإشارة إلى الفئة المقلدة المحافظة فى جمود، وبخاصة رجالات الأزهر يومئذ.

(١٤) هنا بمعنى الرياح.

(١٥) الأهرام العدد ٤١ من السنة الأولى - (١٨٧٧م).

(١٦) وهنا ينتهى تقديم الأستاذ الإمام لكلام أستاذه، ويبدأ كلام جمال الدين، وبالطبع ليس مكانه هنا.

(١٧) الوقائع المصرية عدد ٩٣٢ فى ٣ أكتوبر ١٨٨٠م - (٢٨ شوال ١٢٩٧هـ).

(١٨) الوقائع المصرية، العدد ٩٥٧ فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨٠م - (٣ ذى الحجة ١٢٩٧هـ).

(١٩) المراد أسوة.

(٢٠) الوقائع المصرية، العدد ٩٩٠ فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٠م - ١٨ المحرم ١٢٩٨هـ.

(٢١) الوقائع المصرية . العدد ٩٩٣ فى ديسمبر سنة ١٨٨٠م ـ (٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ هـ) .
(٢٢) الألمانية البروسية .
(٢٣) الوقائع المصرية ، العدد ٩٩٧ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٠م ـ (٢٦ المحرم ١٢٩٨هـ) .
(٢٤) الوقائع المصرية ، العدد ١٠٧٣ فى ٢٨ مارس ١٨٨١م ـ (٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ) .
(٢٥) الإشارة إلى مقال «حكومتنا والجمعيات الخيرية» . انظره فى جـ٢ .
(٢٦) وهذا الجواب منشور بالعدد ١٠٧٦ فى ٣١ من مارس سنة ١٨٨١ ـ (غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٨هـ) .
(٢٧) غير القائمة على أسس المدنية والتمدن .
(٢٨) الوقائع المصرية ، العدد ١١٠٩ فى ١١ مايو سنة ١٨٨٠م ـ (١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ) .
(٢٩) الوقائع المصرية ، العدد ١١٨٦ فى ٩ أغسطس سنة ١٨٨١م ـ (١٤ رمضان سنة ١٢٩٨هـ) .
(٣٠) الوقائع المصرية ، العدد ١١٩٧ فى ٢٩ رمضان ١٢٩٨هـ ـ (٢٤ أغسطس ١٨٨١م) .
(٣١) الوقائع المصرية ، العدد ١٤٠٠ فى ٤ من مايو سنة ١٨٨٢م ـ (١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩هـ) .
(٣٢) من معانيه : الفقير جداً ، والنكتة فى ظهر النواة ، وهى المراد هنا .
(٣٣) القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة .
(٣٤) كتبها فى منفاه ببيروت ، ورفعها إلى شيخ الإسلام بالآستانة فى ٢٦ جمادى الآخرة (١٣٠٤هـ) ـ (١٨٨٧م) . وذلك بعد أن وقَّع عليها معه بعض وجهاء المسلمين ومثقفيهم بالشام .
(٣٥) المدارس ، وكانت المدرسة تسمى عند العثمانيين مكاتب .
(٣٦) المخالف للجمهور ، الخارج عن القياس .
(٣٧) نافر شارد .
(٣٨) هم القائلون بالجبر ، وبأن أفعال الإنسان مخلوقة لله لا للإنسان . وهم خصوم المعتزلة القائلين بالحرية والاختيار فى حق الإنسان فيما يتعلق بفعله . وأشهر فرق الجبرية الخلص الذين قالوا بالجبر المحض هم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان (المتوفى ١٢٨ هـ) .
(٣٩) هم الذين لا يرون المعاصى ضارة بالإيمان . وعندهم أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . . . وهم يرجئون الحكم على العقائد ليوم القيامة . ولقد استفاد من موقف المرجئة مثل الجبرية خصوم المعتزلة فى الفكر والسلوك .
(٤٠) أى الجبر والإرجاء .
(٤١) أى الجبر والإرجاء .
(٤٢) يلاحظ أن مطلب تعليم العرب العثمانيين بلغتهم العربية ظل هدفا تسعى إليه الحركة القومية العربية فى الولايات العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ، ولم يسلم به العثمانيون إلا بعد المؤتمر العربى الذى عقدته الجمعيات القومية العربية بباريس ١٩١٣م . ومن ثم فإن مطلب الأستاذ الإمام هذا فى عام ١٨٨٧م يستحق الاهتمام . أما بالنسبة إلى مصر ، فلقد كانت ـ عمليا ـ خارج هذا الإطار .

(٤٣) ذباب السيف طرفه الذى يضرب به .
(٤٤) جمع كفة .
(٤٥) الإشارة إلى الموقعين مع الأستاذ الإمام على اللائحة ، ووصفهم بالعجز للتواضع .
(٤٦) مفردها الطبع ، بفتح الباء ، ومن معانيها الدنس والعيب وما يشين .
(٤٧) كتبها وهو فى منفاه ببيروت ، ورفعها إلى الوالى التركى على بيروت ، فى شأن إصلاح سوريا .
(٤٨) الإشارة إلى الأحداث الطائفية التى وقعت بين الموارنة والدروز فى سنة ١٨٦٠م، وهى التى أذكى نارها الفرنساويون من وراء الموارنة ، والإنجليز من وراء الدروز . وهى الأحداث التى ذهب ضحيتها ألوف من الفريقين .
(٤٩) أى النظام الإدارى الخاص ، الذى منحته الدولة العثمانية لجبل لبنان .
(٥٠) حاكمه المحلى .
(٥١) من معانيها : الغيوم والشهوات والغث من الأشياء .
(٥٢) أهل البادية .
(٥٣) مدرسة .
(٥٤) هى لائحة إصلاح التعليم العثمانى ، التى رفعها الأستاذ الإمام إلى شيخ الإسلام بالآستانة . انظرها فى ص ٧٢ من هذا الجزء .
(٥٥) ضد القيصرية الروسية .
(٥٦) ومن هذا التاريخ ، يأتى الضوء على الزمن الذى كتب فيه الأستاذ الإمام اقتراحاته هذه ، قبل أن يرجع إلى مصر فى العام التالى .
(٥٧) المدارس .
(٥٨) مدرسة داخلية .
(٥٩) مدارس .
(٦٠) انظر فى هذا الشأن كتابنا «العروبة فى العصر الحديث»، ص ٢١٦ - ٢٢٢ . وفيه حديث عن مراسلات الشيخ صالح الخازن مع المستر «وود» كبير جواسيس إنجلترا فى الشام سنتى ١٨٤٠ - ١٨٤١م . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ .
(٦١) كتبه الأستاذ الإمام قبل عودته إلى مصر من المنفى سنة ١٨٨٩م ، كما سيتضح من إشارات له فى أثناء الكلام فيه ، وليس بعد عودته ، كما يقول الشيخ رشيد رضا فى ص ٢٦٤ من «المنشآت»، وإن كنا نعتقد أن بعض فقراته قد كتبت بعد العودة إلى مصر ، وهى تدل على ذلك بنفسها .
(٦٢) الإشارة إلى عهد الخديو إسماعيل .
(٦٣) العقود والصكوك .
(٦٤) يكتب الأستاذ الإمام هذا بعد الاحتلال البريطانى، وبعد عودته من المنفى .
(٦٥) دار العلوم أنشأها على باشا مبارك سنة ١٨٧١ . فإذا أضفنا إلى هذا التاريخ خمس عشرة سنة ، علمنا أن الأستاذ الإمام قد كتب مشروعه هذا حوالى سنة ١٨٨٦م، وكان مقامه فى ذلك التاريخ

(١٨٨٥ - ١٨٨٩م) بيروت، وفيها كتب لائحة إصلاح التعليم العثمانى، ولائحة إصلاح القطر السورى، وهذا المشروع لإصلاح التعليم فى مصر.

(٦٦) (١٨١٧ - ١٨٩٨م) مصلح دينى هندى، كان حسن العلاقة بسلطات الاحتلال الإنجليزى هناك، حظى بتقدير الأستاذ الإمام، وكان محل غضب جمال الدين الأفغانى وهجومه. انظر ترجمته فى «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» لأحمد أمين، ص ١٢١ - ١٣٨. طبعة القاهرة ١٩٤٩م.

(٦٧) نشرت مجلة الجامعة، هذا المقال للأستاذ الإمام بدون توقيع، وذلك جوابا منه عن استفتائها حول النهضة الأدبية فى مصر والشام، الذى حددت موضوعه فى:

١ - ما رأيكم فى الصحافة الحاضرة من مجلات وجرائد؟ وكم واحدة تطالعون منها؟

٢ - ما الواجب صنعه فى رأيكم لتحسين حالتها؟ وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟

٣ - هل تعتقدون بوجود نهضة أدبية حقيقية فى الشرق؟ وهل هى جارية على قاعدة طبيعية مقتضاها الارتقاء تدريجيا؟

٤ - هل لديكم نصيحة خصوصية للشرق والشرقيين، وخصوصا المصريين والعثمانيين، كالدعوة إلى إدخال شىء جديد ونبذ شىء قديم؟

٥ - ما رأيكم فى مجلة الجامعة بنوع خصوصى؟ وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟

ولقد أجاب الأستاذ الإمام عن السؤال الأخير فى عدد يناير سنة ١٩٠٢ من «الجامعة».. ونشرت مقاله هذا فى العدد السابع من السنة الثالثة الصادر فى مارس سنة ١٩٠٢م (ذو الحجة سنة ١٣١٩هـ). وقالت فى التعريف بكاتبه: «.. ولو أرادت مصر أن تنيب عنها رجلاً من أبنائها فى عكاظ العلم والأدب، لما وجدت خيرا من جناب الإمام صاحب الرأى...».

(٦٨) أى «ملاحق»، بلغة الصحافة اليوم.

(٦٩) يذكر الشيخ رشيد أن الأستاذ الإمام ضرب عندئذ الأمثلة «بالمؤيد» وبمصطفى كامل، ووصفه بالشاب المتحمس أو المتهور، ووصف مقالاته بأنها مجموعة نوبات عصبية ببعضها شديد وبعضها خفيف.

(٧٠) يذكر الشيخ رشيد أن الأستاذ الإمام قال فى حديث آخر: «إن الحرية التى كانت بمصر كافية للنهوض بإصلاحها، وإنما كان العائق فساد الأخلاق».

(٧١) ذكر الأستاذ الإمام ذلك لجماعة أرادوا النيل من إخلاص الشيخ رشيد للأستاذ الإمام. وكان من بينهم الشيخ عبد الكريم سليمان، الذى أرسل إليه الأستاذ الإمام قائلاً: «إما أن تكف عن السيد رشيد، وإما أن أستغنى أنا عن صحبة أربعين سنة».

(٧٢) ذكر الأستاذ الإمام هذه العبارة ردا على بعض أهل بيته، عندما ذكروا قول القائلين: إن الشيخ رشيد جاسوس على الأستاذ الإمام.

(٧٣) خاطب الأستاذ الإمام بهذه العبارة بطرس باشا غالى، عندما سعى إليه برغبة الخديو النيل من الشيخ رشيد رضا.

(٧٤) هذه أولى رسائل الأستاذ الإمام إلى فرح أنطون، وهى رسالة جوابية، يرد بها على رسالة لصاحب

«الجامعة»، يشكر فيها ثناء الإمام على «الجامعة» أول صدورها. وعدد الرسائل التى بعث بها الإمام لفرح أنطون «تبلغ العشرين» كما يقول فرح أنطون. (الجامعة، الجزء الأول من السنة الخامسة، الصادر فى ١ يوليو سنة ١٩٠٦م- ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٢٤هـ). ولم يحدث لقاء مباشر بين الإمام وفرح أنطون، على الرغم مما دار بينهما من مراسلات ومناظرات.

(٧٥) فى الجزء السادس من السنة الثالثة لمجلة «الجامعة»، الصادر فى يناير سنة ١٩٠٢م. (شوال سنة ١٣١٩هـ). نشر هذا الخطاب من الأستاذ الإمام إلى «فرح أنطون» يتضمن رأى الإمام فى «الجامعة».. وكانت المجلة قد توجهت باستفتاء من خمسة أسئلة عن النهضة الأدبية الحديثة فى مصر والشام.. والسؤال الخامس من هذا الاستفتاء كان موضوعه: «ما رأيكم فى مجلة الجامعة بنوع خصوصى؟ وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟».. ولقد قامت الجامعة لهذا الخطاب بقولها: «إمام تسجد له الأقلام».. أما الكتاب التالى، فهو من إمام فى القاهرة تسجد لذكره الأقلام فى المحابر، وتتشرف الجامعة بصداقته.

(٧٦) عندما سافر الأستاذ الإمام إلى الجزائر وتونس، نشرت الصحف المصرية أن هناك وشايات خرجت من مصر إلى الجزائر ضده، وأنها توعز إلى سلطات الاحتلال الفرنسى بسوء معاملته؛ لعلاقاته الوثيقة بالإنجليز، وسعيه كى «ينفر الجزائريين والتونسيين من الحكم الفرنساوى، ويدعو إلى عصبة عربية لمقاومتهم». ولقد نشر الشيخ رشيد رضا أن إحدى الوشايتين قد خرجت من الإسكندرية، فظن فرح أنطون، صاحب «الجامعة» -وكانت رئاسة غرفة حاكم الجزائر الفرنسى مشتركة فى مجلته- أن رشيد يعرض به، فبعث للأستاذ الإمام بعد عودته يحدثه فى هذا الأمر، ويبرأ إليه من هذا الاتهام. ويطلب إليه أن تنشر الجامعة بعض المواد المتعلقة برحلته هذه. وكان خطاب فرح أنطون هذا أول خطاب منه للأستاذ الإمام عقب المناظرة الخاصة بابن رشد، والاضطهاد فى النصرانية والإسلام. فأجابه الأستاذ الإمام بهذا الخطاب الذى نثبته هنا. انظر نص خطاب فرح أنطون فى «الجامعة»، العدد الثالث من السنة الخامسة، الصادر فى أول أغسطس سنة ١٩٠٦ - ١١ جمادى الآخرة ١٣٢٤هـ. ص ١٣٣، ١٣٤.

(٧٧) يشير إليه فرح أنطون بـ «فلان»، فى عدد الجامعة الذى سبقت الإشارة إليه.

(٧٨) يشير الإمام إلى منشور كان فرح أنطون أعده لتوزيعه على الجمهور فى أثناء المناظرة حول ابن رشد، واشترط لوقف توزيعه توقف رشيد رضا عن سب الجامعة وصاحبها، فأوقف الإمام الجدل فى هذا الموضوع، وعدل فرح أنطون عن توزيع المنشور.

(٧٩) عندما وصلت رسالة الإمام السابقة إلى فرح أنطون، أجاب برسالة للإمام، قال فيها إنه يعتقد أن الأستاذ الإمام «يحتقر» مجلة الجامعة حقيقة... فكانت هذه الرسالة التوضيحية من الأستاذ الإمام إلى فرح أنطون. انظر نص رسالة فرح أنطون فى «الجامعة»، فى العدد الثالث من السنة الخامسة ص ١٣٥، ١٣٦.

(٨٠) ألقاه الأستاذ الإمام فى تونس، وهذا النص هو تلخيص جريدة «الحاضرة التونسية»، نقلته عنها «المنار» بعد عرضه على الأستاذ الإمام. ولقد أشار الأستاذ الإمام فى رسالته إلى فرح أنطون عقب

عودته من رحلته إلى الجزائر وتونس إلى أن أسلوب هذه المحاضرة إنما هو من عمل جريدة «الحاضرة» التونسية ، و«أنه بعبارة صاحبها ، وفيها ما لا يصدر عن قلمي العربي عادة . . . » انظر هذا الخطاب في مكانه من هذا الجزء .

(٨١) رواه الترمذي ، وابن ماجه .

(٨٢) رواه الطبراني .

(٨٣) من معانيه : الشر ، والمكروه ، والمهلكة ، والشدة ، وما عثر به .

(٨٤) الأستاذ الإمام يعني هنا نفسه ، فهو المتكلم في الدرس .

(٨٥) السياق يرشح أنه اسم لطبيب ، كان من حضور درس الأستاذ الإمام بتونس .

(٨٦) رواه أحمد والنسائي والترمذي .

(٨٧) ملخص خطاب للأستاذ الإمام ، في احتفال الجمعية الخيرية الإسلامية ، سنة ١٣١٤هـ (سنة ١٨٩٦م) . نشرته «المنار» بالمجلد ٢٦ ، جـ١ ص ٧٥٦-٧٥٩ ، في ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٤هـ - ١٤ مارس سنة ١٩٢٦م .

(٨٨) روى الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن الرجل يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار» . . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قول الرسول : «إن الرجل : يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يضحك القوم ، وإنه ليقع بها أبعد من السماء . » - انظر هامش ص ٧٥٩ ، من «المنار» ، مجلد جـ ١ .

(٨٩) كلمة الأستاذ الإمام في احتفال مدرسة مصر القاهرة ، إحدى مدارس «الجمعية الخيرية الإسلامية» ، بامتحان تلامذتها ، وكان الأستاذ الإمام رئيسا للاحتفال ، كما كان رئيسا للجمعية . وكان هذا الاحتفال سنة ١٣١٨هـ - سنة ١٩٠٠م .

(٩٠) وهذا خطاب الأستاذ الإمام في الاحتفال الثاني بامتحان تلامذة مدرسة الجمعية هذه في سنة ١٣١٩هـ - ١٩٠١م .

(٩١) وهذا خطاب الأستاذ الإمام في الاحتفال الثالث بامتحان مدرسة القاهرة التابعة للجمعية الخيرية في سنة ١٣٢٠هـ - سنة ١٩٠٢م .

(٩٢) أي علم الجغرافيا .

(٩٣) قليلاً .

(٩٤) وهذه الخطبة ، ألقاها الأستاذ الإمام في حفل افتتاح المدرسة الابتدائية بالمحلة الكبرى ، وكانت تابعة للجمعية الخيرية التي يرأسها الأستاذ الإمام ، ولكن هذه المدرسة لم تكن خاصة بأبناء الفقراء ، إذ كانت منشأة بواسطة أغنياء المحلة لأبنائهم أولاً ولأبناء الفقراء بالتبعية . . . ومن هنا ، جاء اختلاف منهجها واشتماله على اللغة الأجنبية ، على عكس مدارس الجمعية ، وهو ما أشار إليه الأستاذ الإمام في كلمته هذه . ولقد تم حفل الافتتاح هذا في سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م .

(٩٥) في يوم السبت ١١ من أكتوبر سنة ١٩٠٢م ، افتتح الأستاذ الإمام ، في بني مزار ، بمديرية (محافظة) المنيا ، مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وألقى في حفل الافتتاح هذه الكلمة التي نشرتها «المنار» في

الجزء الرابع عشر من سنتها الخامسة (١٦ رجب سنة ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م) ص ٥٥٤، ٥٥٥.

(٩٦) أشارت «المنار» إلى بعض أغراض خطاب الأستاذ الإمام دون ذكر لفظه، والموضوع من تلخيص وعرض «حسن أفندى عبد الرزاق». وهنا كان حديث الإمام عن أسباب اقتصار المدرسة هذا العام على فصول السنة الأولى فقط . . . وعدد لذلك أسبابا منها ما سيذكر . . .

(٩٧) فى حفل لمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة، فى أول يوليو سنة ١٩٠٣م، بتوزيع جوائز على باشا مبارك، ألقى الإمام كلمة أشار فيها إلى مآثر على مبارك على التعليم، ونشرت «المنار» الكلمة فى الجزء الثامن من سنتها السادسة (١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٢١هـ ـ ١٢ يوليو سنة ١٩٠٣م، ص ٣١١، ٣١٢). (وكانت قيمة هذه الجوائز ألف قرش، تبرع بها الشيخ عبد الرحيم الدمرداش).

(٩٨) ذكر الأستاذ الإمام فى افتتاح كلمته أثر على باشا مبارك فى تعميم التعليم فى المديريات. . وأشارت «المنار» فى تقديمها لكلمة الإمام، إلى أن هذا الأمر هو أول الأمور الثلاثة التى ذكرها الإمام لعلى مبارك، ولكنها لم تورد لفظه فيه.

(٩٩) من رسالة كتبها الأستاذ الإمام إلى «الكونت دى جريفل» ـ «ميسو جورفيل» ـ باللغة الفرنسية، فى صورة «وصية». . ونشرها «جريفل» فى كتابه «مصر الحديثة». . وتاريخ كتابة الإمام لوصيته هذه هو ٦ يونيو سنة ١٩٠٥م، أى قبل وفاته بما يزيد قليلاً على شهر. انظر «المنار»: مجلد ٢٣، جـ٨، ص ٥٩٦، فى ٢٩ صفر ١٣٤١هـ ـ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢م (محاضرة منصور فهمى باشا فى ذكرى الأستاذ الإمام). . وكذلك «المنار»: مجلد ١١، جـ٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٩، فى ٢٩ صفر سنة ١٣٢٦هـ ـ أول إبريل سنة ١٩٠٨م.

(١٠٠) هذه الرسائل القصيرة الثلاث، تتعلق بطلب الأستاذ الإمام من الشيخ رشيد رضا أن يضع كتابين فى الفقه والعقائد، يدرسان لتلاميذ مدارس «الجمعية الخيرية الإسلامية».

(١٠١) هو حسن باشا عاصم وكيل «الجمعية الخيرية الإسلامية»، التى كان الأستاذ الإمام يرأسها.

(١٠٢) حوار بين الشيخ رشيد رضا، والأستاذ الإمام.

(١٠٣) قال الأستاذ الإمام هذه العبارة جوابا لرسول الخديو، الذى طلب منه عدم التعرض لأطماع الخديو فى الأوقاف، نظير إطلاق يد الإمام فى إصلاح الأزهر.

(١٠٤) حوار دار بين الأستاذ الإمام، والشيخ البحيرى عضو مجلس إدارة الأزهر، فى اجتماع المجلس.

(١٠٥) حوار دار بين الأستاذ الإمام، والشيخ رشيد رضا.

(١٠٦) هذه العبارة نقلتها عن الأستاذ الإمام جريدة إنجليزية، وترجمت «اللواء» مقالها، وأسقطت هذه العبارة، وذكرها الشيخ رشيد رضا.

(١٠٧) هذه عبارة جديدة قيلت فى مناسبة مختلفة، ولكنها مرتبطة بنفس الموضوع.

(١٠٨) مقدمة، ومذكرة كتبها الأستاذ الإمام يثبت بها أن الشيخ سليم البشري، شيخ الأزهر، لا يطبق قانونه، وأن بالإمكان مقاضاته لذلك.

(١٠٩) خاطب الإمام بهذه الكلمات بعض زواره، من مفكري الغرب، عندما التقوا به في حجرة صغيرة بالأزهر. وسجل هذه الكلمات الكاتب الإنجليزي «هارولد سبندر» في مقاله عن الإمام، بعد وفاته،

في «الديلي كرونيكل» اللندنية، في ٣١ يوليو سنة ١٩٠٥م. انظر الجزء الثالث من «تاريخ الأستاذ الإمام»، ص ١٨٤.

(١١٠) هنا قال الكاتب: إن الإمام أشار إلى عمود من الكتب الضخمة مستند إلى جدار الغرفة.

(١١١) نشر الأستاذ الإمام هذا المقال في (المقطم) في ١٨ مارس سنة ١٩٠٤م، منسوبا «إلى أحد علماء الأزهر الأعلام»، وذلك ردا على حديث لشيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربيني، أدلى به لجريدة «الجوائب المصرية» في ١٢ مارس، ونقله عنها «المؤيد» في ١٤ مارس سنة ١٩٠٤م. وكان شيخ الأزهر قد هاجم الدعوة إلى إصلاح الأزهر، ووصفها بأنها ترمي إلى أن يحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب، تحارب الدين وتطفئ نوره.

(١١٢) لعضد الدين الأيجي.

(١١٣) ١٨٩٥-١٨٩٦.

(١١٤) الإشارة إلى الأستاذ أحمد الحسيني، المحامي.

(١١٥) كان الشيخ الشربيني قد هاجم في حديثه «بعض الطلبة المخدوعين، الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته، فهرفوا بما لم يعرفوا، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله، عما وجدوا في الأزهر من أجله، وهو طلب علوم الدين لا غير».

(١١٦) تولى الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر، بعد أيام من نشر هذا المقال، وذلك في ٢٢ مارس سنة ١٩٠٤.

(١١٧) أي لائحة الدول الاستعمارية، التي قدمها القناصل الأجانب، طالبين فيها نفي عرابي وكبار الضباط.

(١١٨) الإشارة إلى صاحب «المؤيد»، الشيخ علي يوسف، الذي نقل حديث الشربيني عن «الجوائب المصرية»، لصاحبها خليل مطران.

(١١٩) ألقى الأستاذ الإمام بكلماته هذه متحديا خصومه من رجال الأزهر، الذين قال بعضهم عن رسالته في التوحيد: إنها «إنشاء» وليست «بعلم»... وعندما هابوا قبول تحديه، أوعزوا إلى من نشر أنه قد أنكر إمكانية إقامة الدليل على عقيدة التوحيد. فرفع الأستاذ الأمر إلى القضاء، فنسبت الجريدة التي نشرت الخبر معلوماتها إلى الشيخ سليمان العبد، أحد المشايخ وأحد مدرسي دار العلوم. وبعد وساطات، تنازل الأستاذ عن حقه ودعواه، واعتذر إليه الشيخ سليمان العبد، فقال له الأستاذ الإمام: «أما تخاف يا شيخ سليمان، أن أتقرب إلى الله تعالى، بإخراجك من وظيفة التدريس في دار العلوم، بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان؟! ولكن يغرك مني أني أعلم أن عندك أولادا كثيرين تغلب على قلبي الشفقة عليهم!!». ولقد نشر الشيخ سليمان العبد في «المنار» مقالاً يبرئ فيه الأستاذ الإمام من هذا الافتراء.

(١٢٠) كان الإمام لا يزال طالبا بالأزهر، وكان يلقي دروسا في مسجد محمد بك أبو الذهب، فاستدعاه الشيخ عليش، ودار بينهما هذا الحوار الذي انتهى بمشادة، انسحب بعدها الأستاذ الإمام ليواصل دروسه، مستعدا لرد اعتداء الشيخ عليش بواسطة عصا، وضعها إلى جواره، وهو يلقي درسه على الطلاب.

(١٢١) كان ذلك في رمضان، سنة ١٣١٥هـ - سنة ١٨٩٨م. وهذا الحديث أفضى به الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا، إيضاحا لسبب نومه بالنهار، على خلاف العادة.

(١٢٢) جرى ذلك الحديث بين الأستاذ الإمام، والشيخ رشيد رضا، في منزل الأول بعين شمس، سنة ١٣٢١هـ، سنة ١٩٠٣م.

(١٢٣) ضابط بحري بريطاني، أدهشته أوصاف البحر في القرآن. فلما علم من بعض الهنود أن الرسول لم يركب البحر ويعاين أمواجه وظلماته، آمن بأن هذا ليس كلاما من عنده، فاعتنق الإسلام.

(١٢٤) حديث الأستاذ الإمام في هذه الفقرة، جواب عن سؤال للشيخ رشيد حول الطريقة المفيدة في تهذيب فقه الحنفية.

(١٢٥) أرسلها الأستاذ الإمام من مصر، كما يتضح من تاريخها، هي جواب على طلب ذلك العالم الهندي أن يجيزه.

(١٢٦) هجرية وهي توافق سنة ١٩٠٤م.

(١٢٧) كتب الأستاذ الإمام رده على هانوتو في ست مقالات، بجريدة المؤيد، سنة ١٩٠٠م-سنة ١٣١٨هـ. وجاءت مقالاته الثلاث الأولى ردا على مقالين لهانوتو نشرا، بجريدة «الجورنال» الفرنسية، وترجما ونشرا بالمؤيد. ومقالاته الثلاث الأخيرة رد على حديث أجراه صاحب «الأهرام» مع «هانوتو»، ونشر بالأهرام.

(١٢٨) المحضاء هو العود الذي تحرك به النار كي يزداد اشتعالها.

(١٢٩) الإشارة إلى الراهب «بطرس السائح»، الذي تزعم الأساطير الصليبية أنه سمع صوت المسيح بجوار قبره في فلسطين يدعوه كي يطلب من ملوك أوروبا وأمرائها وجمهورها شن الحرب الصليبية ضد العرب والمسلمين!! فقابل لذلك البابا «أوربانس الثاني»، وأخذ يجوب أنحاء أوروبا محرضا على القتال. انظر الفصل الخاص به في المجلد الأول من تاريخ الحروب المقدسة في المدعوة حرب الصليب، طبعة القدس سنة ١٨٦٥م. ص ١ ومابعدها.

(١٣٠) يقرر الأستاذ الإمام منذ البداية تجنبه للسياسة وللجوانب التي هي غاية «هانوتو» من بحثه، ويعلن أن هدفه هو مناقشة الجوانب الإسلامية الدينية.. وإن كنا نعتقد أن عملية الفصل هذه من الصعب الالتزام الدقيق بها.

(١٣١) الساكع: من يمشي على غير هداية، والمتمادي في الباطل، والمتحير في الأمر.

(١٣٢) كان «هانوتو» وزيرا لخارجية فرنسا.

(١٣٣) هو القديس توما الأكويني (حوالي ١٢٢٥ - ١٢٧٤م). ولد في صقلية، ودرس في نابولي. ومن أساتذته ألبرت الكبير. ولقد أعلن قديسا سنة ١٣٢٣م. وهو معدود ضمن كبار رجال اللاهوت (المتكلمين) المسيحيين. ولقد ترك ثمانية وتسعين كتابا، من أهمها «المجموعة الفلسفية»، و«المجموعة اللاهوتية». انظر: «الموسوعة الفلسفية المختصرة»، الطبعة العربية. القاهرة، سنة ١٩٦٣.

(١٣٤) في الفكر الإسلامي، تطلق أحيانا كلمة «قدرية» على الجبرية، باعتبارهم هم الذين ينفون «القدر» عن الإنسان، وينسبونه إلى الله وحده. وهذا هو رأي المعتزلة ومن وافقهم. وتطلق أحيانا على القائلين بالحرية والاختيار، باعتبارهم الذين ينفون «القدر» الخاص بالفعل الإنساني عن الله،

ويجعلونه من نصيب الإنسان الخالق لأفعاله، وهذا هو رأي الجبرية. انظر «المغني في أبواب التوحيد والعدل» للقاضي عبد الجبار بن أحمد، جـ٨، ص٣٢٦-٣٢٨. طبعة القاهرة.

(١٣٥) يتذوقوا بأطراف ألسنتهم.

(١٣٦) الفتات والرديء من كل شيء.

(١٣٧) الإشارة إلى مذهب «الأشعرية»، المنسوب إلى أبي الحسن الأشعري، (المتوفى ٣٢٤هـ). انظر تفاصيل مواقف هذه الفرق في كتابنا: «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية»، ص ٢٧- ٤٢ طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٨٨م.

(١٣٨) وهؤلاء الدراويش، كانوا من ركائز الاستعمار الفرنسي لبلاد الشمال الإفريقي. ولقد حاربتهم الحركة الوطنية الجزائرية، وفي مقدمتها مؤسسها عبد الحميد بن باديس: انظر كتابنا «مسلمون ثوار».

(١٣٩) أي آخر القول في الرد على مقالي «هانوتو» في «الجورنال» الباريسية. فسيأتي للأستاذ الإمام ثلاث مقالات أخرى، ردا على حديث هانوتو مع صاحب جريدة «الأهرام».

(١٤٠) تبلى.

(١٤١) ولذلك يسمى المعتزلة -وهم أهل التوحيد والتنزيه- خصومهم المشبهة: «الحشوية»، أي الذين جاء كلامهم حشوا ولغوا، وقصرت بهم مداركهم عن بلوغ التصورات التنزيهية والتجريدية للذات الخالقة.

(١٤٢) الإشارة إلى حركة الإصلاح البروتستانتى التي بدأها مارتن لوثر.

(١٤٣) صاحب كتاب «باثولوجا الإسلام»، نقل عنه هانوتو في مقاله الثانى مجموعة من الشتائم في الإسلام ونبيه والمسلمين، ووصفه للإسلام بأنه مرض وشلل وجنون وجذام، ووصفه للمسلمين بأنهم وحوش ضارية، ومطالبته بإبادة خمسهم والحكم على الأربعة أخماس الباقية بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر الرسول في متحف اللوفر [؟!!] انظر آراءه هذه ضمن مقال هانوتو في «الإسلام والرد على منتقديه»، ص٢٢، ٢٣.

(١٤٤) انظر رسائل الأستاذ الأمام إلى هذا القس الإنجليزى، فى مكانها من هذه الأعمال.

(١٤٥) (جريدة المؤيد)، الأربعاء ٢٥ يوليو ١٩٠٠م-(٢٨ ربيع الأول ١٣١٨هـ). العدد ٣١٢٠.

(١٤٦) الإشارة إلى (الأهرام)، والحديث مع "هانوتو، أجراه صاحب «الأهرام»، «بشارة باشا تقلا»، ونشرته الجريدة في العدد٦٧٨٥، الصادر في ١٦ يوليو ١٩٠٠م.

(١٤٧) أثناء الحروب الشهيرة بحروب الردة. ويوم اليمامة هذا من أشهرها، وفيه قُتل مسيلمة الكذاب.

(١٤٨) المنافع، والمزايا، والمراكز الثابتة القوية.

(١٤٩) جمعية كاثوليكية متعصبة.

(١٥٠) الإشارة إلى «الأهرام» وبشارة باشا تقلا.

(١٥١) المؤيد، الخميس ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣١٨هـ - ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠م، العدد ٣١٢١. وهو المقال الثاني في الرد على حديث «هانوتو» للأهرام، والخامس في سلسلة الرد عليه في كل ما أثاره من قضايا وموضوعات. وهذا المقال، شأن سابقه يتناول السياسة العليا للبلاد الإسلامية.

(١٥٢) هذا هو عنوان المقال، كما أورده في المؤيد.

(١٥٣) الإشارة إلى بشارة باشا تقلا، صاحب «الأهرام».

(١٥٤) الإشارة إلى الحركة السياسة الإسلامية، التي بعثها جمال الدين الأفغاني، (١٨٣٩-١٨٩٧م).

(١٥٥) السخلة: ولد الشاة.

(١٥٦) المؤيد، السبت ١ ربيع الآخر سنة ١٣١٨ هـ، ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٠م. العدد ٣١٢٢.

(١٥٧) عنوان المقال كما أورده «المؤيد».

(١٥٨) الإشارة إلى بشارة باشا تقلا، صاحب «الأهرام».

(١٥٩) كانت مصر - من الناحيتين «القانونية» و«الشكلية» - لا تزال عثمانية، ولم تزل عنها هذه الصفة إلا بإعلان الحماية البريطانية عليها غداة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م.

(١٦٠) بشارة باشا تقلا، صاحب «الأهرام».

(١٦١) الإشارة إلى صدام الدولة العثمانية مع رعاياها الأرمن، بولاية أرمينيا بآسيا العثمانية. وهو الصدام الذي حدث خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وبالذات في سنوات ١٨٩٠، ١٨٩٥، ١٨٩٦م.. ولقد ظل هذا الصدام في تصاعد، حتى بلغ قمته فى أثناء الحرب العالمية الأولى بواسطة رجال الحركة الطورانية (تركيا الفتاة ١٩١٥م). ومما يذكر أن المصالح الفرنسية الاستعمارية كانت تقف خلف النشاط الأرمني في كثير من الأحيان، مستترة بجامعة المذهب الكاثوليكي التي تجمعهما. انظر دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية الثانية.

(١٦٢) الغث من الكلام رديئه، ومعنى «لا يغث على أن أقول:» أي لا أجد هذا الكلام رديئا مستوجبا الترك.

(١٦٣) الأهرام.

(١٦٤) قالها الأستاذ الإمام بمناسبة سماعه بطعن أحد الطاعنين الأوروبيين في الإسلام، بدعوى أن الرسول لم يعلم أتباعه من صفات الخالق سوى أنه حاكم قاهر، ولم يطلب منهم سوى الفتح لقهر الأمم الأخرى.

(١٦٥) هذه المراسلات تتعلق بكتابة ردود الأستاذ الإمام على «فرح أنطون» صاحب «الجامعة» المتعلقة بالنقاش حول «الاضطهاد فى النصرانية والإسلام». ونحن نقدمها بين يدى مقالات الأستاذ الإمام حول هذا الموضوع، كى تلقى الضوء على الظروف والملابسات والأماكن، التى شهدت كتابة الأستاذ الإمام لهذه المقالات.

(١٦٦) هو حافظ إبراهيم، وكان مرافقا للأستاذ الإمام فى سفره هذا.

(١٦٧) هذه حاشية ذيل بها الأستاذ الإمام خطابه هذا.

(١٦٨) الشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» وكان الشيخ رشيد رضا قد كلف بعض العاملين فى «المؤيد» - مسعود أفندى وحافظ أفندى عوض - بنشر مقال الأستاذ الإمام - الذى وردت الإشارة إليه فى الخطاب - فتأخر النشر فى «المؤيد»، ثم نشر به بدون أن ينسب إلى مصدره.

(١٦٩) أى «المنار» المنقول عنه المقال.

(١٧٠) أي الخديو عباس حلمى الثانى.

(١٧١) فى سنة ١٩٠٢م، كتب فرح أنطون فى مجلته «الجامعة» بحثا عن ابن رشد وفلسفته.. رد عليه

الأستاذ الإمام بمقال تجده ضمن الجزء الخاص بالفلسفة والمنطق من هذه الأعمال . . أما هذه المقالات التى نوردها هنا، فهى التى ناقش فيها الأستاذ الإمام قضية الحرية والاضطهاد للعلم والعلماء فى كل من النصرانية والإسلام، والتى ضمنها رده على دعوى فرح أنطون أن ازدهار العلم فى الغرب المسيحى يشهد على تسامح المسيحية معه، وذلك على العكس من موقف الإسلام.

(١٧٢) أى لبنان . ، ولم يذكر الأستاذ الإمام من يعنيهم هنا، وإن تكن هذه الأوصاف صالحة للانطباق على «اليزيدية»، و«الدروز».

(١٧٣) هم الذين جعلوا النص سبيلهم الوحيد فى الاستدلال، ورفضوا التأويل لأى من النصوص التى جاءت فى القرآن وأحاديث الرسول. وينطبق هذا الوصف على «الحنابلة»، ومدرسة أهل الظاهر.

(١٧٤) تسلبت لحدوثها البشرية، أى لبست «السلاب»، وهى ثياب المأتم السود.

(١٧٥) إحدى الكنائس المسيحية التى تنتسب إلى طائفة مسيحية فرت من الغرب هربا من الاضطهاد، وسكنت مشرق العالم العربى منذ ما قبل الإسلام. والعداء بينهم، وبين الكنيسة اليعقوبية شديد. . وكان بطريركهم يسمى «الجاثليق»، وكانت السريانية لغتهم، وإليها كانوا يترجمون النصوص اليونانية، ثم ينقلونها من السريانية إلى العربية.

(١٧٦) توفى سنة ٧٧١م. ويعد أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعى الشهرة من أسرته نفسها. . . ويقال إنه أول من ترجم كتبا طبية إلى العربية. انظر «العلم عند العرب» لألدوميلى. ص ١٢٧ ترجمة د. عبد الحليم النجار، ومحمد يوسف موسى. طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٢م.

(١٧٧) وإلى جانب عملهم فى التنجيم، كانت لهم ترجمات من الفارسية إلى العربية خصوصا أبا سهل الفضل بن نوبخت. انظر الفهرست، لابن النديم، ص ٢٧٤، طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.

(١٧٨) هو ثيوفيل بن توما الرهاوى، توفى سنة ٧٨٥م، وهو ممن ترجم فى الطب لجالينوس، وكان فلكى المهدى. . انظر ص ١٢٧ من «العلم عند العرب».

(١٧٩) وكان بختيشوع هذا رئيسا لأطباء بيمارستان بغداد، وتوفى سنة ٨٠١م. أما ابنه جبريل، فلقد توفى سنة ٨٣٠م. بعد أن أصبح الطبيب الخاص للرشيد منذ سنة ٨٠٥م. انظر «تاريخ العرب» (مطول) لفيليب حتى، ص ٣٨٤، طبعة بيروت، سنة ١٩٥٣م.

(١٨٠) وهو تلميذ جبريل بن بختيشوع، توفى سنة ٨٥٧م. وله فى الطب مؤلفات ومترجمات. . . انظر ص ١٣١ من «العلم عند العرب». ومن آثاره كتاب «دغل العين» الذى يعد أقدم نص تناول أمراض العين بشكل منظم «تاريخ العرب»، ص ٤٤٥.

(١٨١) هو يوحنا بن يوسف بن الحارث البطريق. كان قسا، ويلقب أحيانا بيوحنا القس. قال عنه ابن النديم: إنه كان «ممن يقرأ عليه كتاب إقليدس وغيره من كتب الهندسة. وله نقل من اليونانى». انظر الفهرست، ص ٢٨٢.

(١٨٢) هو سلامويه بن بنان، من تلاميذ مدرسة «جنديسابور»، ومن أعوان حنين بن إسحاق. وأصبح طبيب بلاد المعتصم العباسى، سنة ٨٣٢م.

(١٨٣) ولد سنة ٨٠٩م، وفى تاريخ وفاته خلاف بين سنة ٨٧٣ وسنة ٨٧٧م. رأس مدرسة «دار الحكمة»

ببغداد. وكتاب «التعريفات» الذى ترجمه «الهيبوقريط الكوسى» يعد أقدم متن فى الطب. درس فى شبابه على ابن ماسويه، وتعلم العربية على يد الخليل بن أحمد فى البصرة. وذهب إلى بغداد سنة ٨٢٦. انظر ص ٥٠، ٩٩ وما بعدها من «مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب» لأوليرى ترجمة د. تمام حسان، طبعة القاهرة، مكتبة الأنجلو، بدون تاريخ.

(١٨٤) هو أبو بشر متى بن يونس المتوفى سنة ٩٤٠م. يونانى من أهل «ديرقنى». يقول عنه ابن النديم: إنه «ممن نشأ فى أسكول مرمارى»، وله تفسير من السريانى إلى العربى، أى ترجمة.. وإليه انتهت رياسة المنطقيين فى عصره. كما كان مسئولاً عن ترجمة كتاب الشعر لأرسطو. انظر الفهرست ص ٢٦٣.

(١٨٥) لُقب بالمعلم الثانى؛ لأنه جمع وهذب ما ترجم قبله من آثار أرسطو، بينما لُقب أرسطو بالمعلم الأول؛ لأنه ذهب وجمع ما تفرق من مباحث المنطق ومسائله، كما يقول ابن خلدون. وكانت وفاة الفارابى بدمشق سنة ٩٥٠م عن ثمانين عاما. انظر «الموسوعة الفلسفية المختصرة»، الطبعة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

(١٨٦) هو قسطا بن لوقا البعلبكى، مسيحى سورى، ترجم مؤلف «هيبسيقليس» الإسكندرى، (حوالى ١٨٠ ق.م). وهو المعروف الآن بالكتاب الرابع عشر من كتب إقليدس.. كما راجع ترجمة الحجاج ابن يوسف بن مطر الحاسب لإقليدس. وترجم أيضا لثيودوسيوس، وأرسطو.. وتوفى سنة ٩٢٣م. انظر ص ٤٥ من «مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب». وانظر كذلك الفهرست ص ٢٩٥.

(١٨٧) وُلد فى «تكريت» سنة ٨٩٣م، وتوفى ببغداد سنة ٩٧٤م. مسيحى يعقوبى، من مترجماته التقديم الذى وضعه «أمونيوس» على كتاب «إيساغوجى» لفورفوريوس.

(١٨٨) فيلسوف وطبيب، وُلد سنة ٩٨٠ م وتُوفى سنة ١٠٣٧م.

(١٨٩) هو أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت. وُلد سنة ٢٢١هـ وتُوفى سنة ٢٨٨ هـ (سنة ٩٠١م) كان صيرفيا بحران من قبل أن يستصحبه معه محمد بن موسى بن شاكر عندما توسم فيه الذكاء، وأيقن فصاحته. انظر الفهرست، ص ٢٧٢.

(١٩٠) توفى سنة ٢٥٩هـ، فى شهر ربيع الأول، وهو مع أخويه: أحمد، والحسن، يؤلفون أسرة علمية يقول عنهم ابن النديم: «وهؤلاء القوم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة، وبذل فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السنى، فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم، وهو الأقل». انظر الفهرست ص ٢٧١.

(١٩١) طليعة الفلاسفة العرب، وُلد سنة ٨٠٣م، كما تقول الموسوعة الفلسفية المختصرة، ويقول فيليب حتى، فى «تاريخ العرب»، ص ٤٥٢: إنه وُلد فى منتصف القرن التاسع الميلادى.. والكندى ممن قال بقول المعتزلة فى العدل والتوحيد.

(١٩٢) فيلسوف شهير، وشاعر أشهر. ولد سنة ٩٧٣م وتُوفى سنة ١٠٥٧م.

(١٩٣) الذى تولى على الأندلس من ٩٦١م حتى ٩٧٦م.

(١٩٤) «درابر» الذى سبقت إشارة الأستاذ الإمام إليه.

(١٩٥) زعيم الإصلاح البروتستانتى، بعد مارتن لوثر.
(١٩٦) والمعتزلة خصوصا، والقائلون بالعدل والتوحيد عموما، هم فى مقدمة من رأى هذا الرأى.
(١٩٧) أى يتغير.
(١٩٨) أى يضلون.
(١٩٩) الشجاع، الماضى العزيمة.
(٢٠٠) غيابها.
(٢٠١) أسرعوا.
(٢٠٢) هو الإمام أبو حامد الغزالى.
(٢٠٣) هو «درابر» الأميركانى، الذى سبقت الإشارة إليه.
(٢٠٤) هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازنى، ويسمى الخازن، من علماء النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى. انظر ص ٣٥٠-٣٥٥ من «تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك» لقدرى حافظ طوقان. طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
(٢٠٥) الإشارة إلى مقال الأستاذ الإمام عن فلسفة ابن رشد، وهو المقال الذى رد به على فرح أنطون. انظره فى الجزء الخاص بالفلسفة والمنطق من هذه الأعمال.
(٢٠٦) هو أبو محمد عبد الحق بن سبعين- «حوالى ١٢١٧-١٢٦٩م»- من أقطاب التصوف الأندلسيين.
(٢٠٧) ولد فى صعيد مصر، سنة ١١٧٢م، وعاش فى حلب حيث تولى الوزارة فى عصرها الأيوبى، وتوفى بها سنة ١٢٤٨م، وهو مشهور بكتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء».
(٢٠٨) شهيد التصوف. صلب ببغداد لأسباب سياسية، غلفت يومئذ بآرائه فى وحدة الوجود، وكان ذلك
سنة ٩١٢م.
(٢٠٩) صاحب واصل بن عطاء فى بلورة فكر العدل والتوحيد فى مدرسة المعتزلة. وُلد سنة ٦٩٩م. وكان سياسيا وعالما ونموذجا فى الزهد والتقوى.
(٢١٠) الإشارة هنا إلى صاحب «الجامعة» فرح أنطون.
(٢١١) الإشارة هنا إلى المفكر والمناضل العربى عبد الحميد الزهراوى. وكان قد نشر رأيه هذا فى المنار فأُعتقل فى الشام.. ويقول الشيخ رشيد رضا إن السبب الحقيقى لاعتقال الزهراوى كان راجعا إلى أفكاره حول الخلافة التى ضمنها إحدى مقالاته فى جريدة (المقطم).. ولقد أعدم الأتراك هذا المناضل مع زملاء آخرين له فى سنة ١٩١٦م؛ لاشتراكه فى الجمعيات القومية الرامية إلى استقلال العرب عن حكم الأتراك العثمانيين.
(٢١٢) الإشارة هنا إلى الشيخ «عليش».
(٢١٣) كان الأستاذ الإمام هو الداعى لإدخال الجغرافيا ضمن علوم الأزهر، وهو الذى توجهت نحوه الألسنة والأقلام بالاتهامات.
(٢١٤) العطن، من معانيها مبرك الإبل، ومربض الغنم.

(٢١٥) الإشارة إلى دعاة الحركة الوهابية.

(٢١٦) الخشارة الردىء من كل شيء، وفضالة المائدة، وسفلة الناس، وهو المراد هنا.

(٢١٧) هو الخليفة العباسي المعتصم، حكم من سنة ٨٣٣م، حتى سنة ٨٤٢م.

(٢١٨) أي أعادهم إلى حالتهم الأولى في الضلالة قبل أن يهتدوا.

(٢١٩) أي الأحاديث الموضوعة، والضعيفة السند.

(٢٢٠) الإشارة إلى اقتراحات الأستاذ الإمام في تقريره عن إصلاح المحاكم الشرعية. انظره في مكانه من هذا الكتاب.

(٢٢١) امتناع وإباء.

(٢٢٢) أي تعقبهم.

(٢٢٣) كان ذلك في عصر المرابطين (١٠٩٠ - ١١٤٧م)، عندما ساد فكر الفقهاء.

(٢٢٤) الإشارة هنا إلى مقالات «هانوتو». انظر رد الأستاذ الإمام عليها في مكانها من هذا الجزء.

(٢٢٥) ١٩٠٢م.

(٢٢٦) الإشارة إلى حوادث الثورة العرابية، سنة ١٨٨٢م.

(٢٢٧) الموافقة لسنة ١٨٨٦م.

(٢٢٨) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه اللّه عن مشابهة الحوادث، وعن الاتصاف بالصفات الزائدة على الذات، إلى الحد الذى يصبح فيه تصور الذات الإلهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم في التنزيه، وبالذات عند الفلاسفة الإلهيين... فابن رشد مثلاً يتصور الذات الإلهية عقلاً للعالم، وعلما محضا، ونظاما هو أشبه بالقوانين التي تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه.. انظر تصوره للذات الإلهية في دراستنا «المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد».. أما التحديد، فإننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد.

(٢٢٩) يمتحنونها ويمحصونها.

(٢٣٠) من الباحثين من يشكك في وجود شخصية عبد اللّه بن سبأ أصلاً، أو على الأقل يرى أن الناس قد اتخذوا منها مشجبا يعلقون عليه الأخطاء، حتى لا تلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول اللّه، وحتى لا ترد المسببات إلى أسبابها الحقيقية، تلك الأسباب التي أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان. انظر في ذلك د. طه حسين (الفتنة الكبرى)جـ١، ٢.

(٢٣١) هو مروان بن الحكم الأموي، حكم بعد معاوية الثاني، (٦٨٣- ٦٨٥م).

(٢٣٢) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفي، تمكن من هزيمة الخوارج الأزارقة بقيادة قطري بن الفجاءة، الذين كانوا قد امتلكوا «كرمان». وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨م، أو سنة ٦٩٩م.

(٢٣٣) هو الحسن بن أبي الحسن (٢١-١١٠هـ، ٦٤٢- ٧٢٨م) واسم أبيه يسار، وكان أبوه من سبى «ميسان»، وهي «كورة» بين «البصرة» و«واسط». وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت تعطيه ثديها في غياب أمه وهو رضيع. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر

العسقلاني، جـ٢، ص ٢٧٠. طبعة حيدر أباد بالهند، سنة ١٣٢٥هـ.

(٢٣٤) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠- ١٣١هـ، ٦٩٩- ٧٤٩م) الملقب بالغزال، من الموالي. ولد بالمدينة، ثم ذهب إلى البصرة. أخذ القول بحرية الإنسان واختياره عن معبد الجهني، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان. وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التي ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد. انظر: المنية والأمل، لابن المرتضى، ص ١٧- ٢٠، طبعة الهند، سنة ١٣١٦هـ.

(٢٣٥) تشهد بذلك رسالة له في «القدر»، بعث بها إلى عبد الملك بن مروان. ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الأول من «رسائل العدل والتوحيد» طبعة دار الشروق، في القاهرة. وفي الخلاف حول موقفه من هذه القضية، انظر «تهذيب التهذيب»، جـ٢، ص ٢٧٠؛ و(المعارف) لابن قتيبة، ص ٤٤٢، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

(٢٣٦)الإشارة إلى "الظاهرية" ومدرسة "أهل الحديث"، الذين أنكروا التأويل وإعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص.

(٢٣٧)ويقال لهم الثنوية، وهم القائلون بالنور والظلمة، وبقدمهما، واستقلالهما. ونبيهم «ماني» الذي ظهر في عهد «سابور بن أردشير بن بابك». وهم فرق متعددة. انظر: القاضى عبد الجبار: «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، جـ٥ ص٩ـ ٧٠.

(٢٣٨) لعلها: المزدقية، وهي فرقة من فرق الثنوية. انظر المصدر السابق، نفس الجزء والصفحات.

(٢٣٩) المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، حكم من سنة ٧٥٤م، حتى سنة ٧٧٥م.

(٢٤٠) كان ذلك في عهد المأمون العباسي، سنة ٢١٨ هـ.

(٢٤١) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه.

(٢٤٢) يمكن أن تقرأ التحاقهم، بالقاف، والتحافهم، بالفاء، على معنى أنهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الإيمان.

(٢٤٣) (٢٦٠- ٣٢٤ هـ، ٨٧٣- ٩٣٥م)، وُلد بالبصرة، وتُوفي ببغداد، وكان شافعيا فى المذهب الفقهي، وفي الكلام كان معتزليا ثم خرج على المعتزلة. ومن أهم كتبه «الإبانة عن أصول الديانة»، و«مقالات الإسلاميين». انظر دائرة المعارف الإسلامية.

(٢٤٤) هو أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد اللّه بن يوسف الجويني، الفقيه الشافعي. وهو أستاذ الغزالي، ونسبته إلى «جوين» إحدى نواحي «نيسابور»، تُوفي سنة ٤٧٨هـ.

(٢٤٥) المتوفى سنة ٤١٨هـ- (١٠٢٧م).

(٢٤٦) المتوفى سنة ٤٠٣هـ- (١٠١٣م).

(٢٤٧) (١٠٥٩- ١١١٢م) أشهر من أن يعرف.

(٢٤٨) المراد فخر الدين الرازي، وهو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين، المعروف بابن الخطيب، وُلد بمدينة الري، سنة ٥٤٤هـ، أو سنة ٥٤٣هـ، وتوفي سنة ٦٠٦هـ.

(٢٤٩) الإشارة إلى أخذ الرسول برأي بعض الصحابة في مكان النزول ببدر، وعدوله عن رأيه هو في المنزل الذي كان قد اختاره للنزول.

(٢٥٠) أي روح العصر وطابعه.

(٢٥١) الإشارة هنا إلى كتابه: «تهافت الفلاسفة».
(٢٥٢) هو أبو سعيد عبد اللّٰه بن عمر بن محمد الشيرازي، المتوفى سنة ٧٩١هـ.
(٢٥٣) هو العضد الإيجي، صاحب الموسوعة الشهيرة (المواقف)، تُوفي سنة ٧٥٦هـ (سنة ١٣٥٥م).
(٢٥٤) مفردها طُبيٌ، بضم الطاء وكسرها مع سكون الباء، وهو حلمة المرضع. والمراد هنا كثرة حلمات الكلبة كي ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد.
(٢٥٥) أي أن الحروف المكتوبة، والأصوات المسموعة والمقروءة من فعل الإنسان الكاتب والقارئ. أما المصدر الذي تعبر عنه هذه الحروف والأصوات، والذي يعبر هو في ذات الوقت عن مراد اللّٰه، فهو قديم.. وكثيرون من الأشعرية يرون هذا الرأي، انظر في ذلك فتوى للعز بن عبد السلام في «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي. جـ٥، ص٨٦، ٩٤، ٨٩، طبعة القاهرة الأولى.
(٢٥٦) الانقطاع هنا بمعنى العجز.
(٢٥٧) وهو ما يعرف عند المعتزلة من أن الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والأصلح لعباده.
(٢٥٨) وهو أحد الأصول الخمسة عند المعتزلة، سموه صدق الوعد والوعيد. وأحالوا عليه أن يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين. انظر الفصل الذى كتبناه عن هذه الأصول الخمسة فى بحثنا «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية».
(٢٥٩) هم المعتزلة، ومن رأى رأيهم.
(٢٦٠) وهم الجبرية الخلص، وأول فرقهم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان، المتوفى سنة ١٢٨هـ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة. انظر الفصل الذى كتبناه عن الجبرية فى بحثنا «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية».
(٢٦١) هم الأشعرية الذين لا يغنى عنهم قولهم بالكسب شيئا من الاتفاق فى نهاية المطاف مع الجبرية. انظر فى ذلك بحثنا السابق أيضا.
(٢٦٢) من معانيه ارتفاع الصوت والغبار، وشق الجيوب.
(٢٦٣) نظرية قديمة، قال بها فيثاغورس، أخذا عن الفلسفة الهندية. وهى تعنى انتقال النفس بعد الموت إلى جسم آخر، سواء أكان نباتا أو حيوانا أو إنسانا. ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ما تنتقل إليه النفس، فإذا انتقلت من إنسان إلى إنسان سمى «نسخا» وإذا انتقلت من إنسان إلى حيوان سمى «مسخا»، وإذا انتقلت من إنسان إلى نبات سمى «فسخا»، وإذا انتقلت من إنسان إلى جماد سمى «رسخا».. انظر «المعجم الفلسفى» مادة «تناسخ».
(٢٦٤) المراد هنا «بالإلهامات»: الشعور العام الموجود من أصل الفطرة، وليس «الإلهامات» بمعنى ما يقابل «المعقولات». وسيأتى الحديث عن هذا الأخير فيما بعد.
(٢٦٥) الإشارة إلى مذهب «اللاأدرية» الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة.
(٢٦٦) يلصق ويطبق.
(٢٦٧) الدّبر، بفتح الدال المشددة وسكون الباء: جماعة النحل والزنابير.
(٢٦٨) أى ما هو بواسطة.
(٢٦٩) أى أن الفرق بين الوحى والإلهام: أن متلقى الوحى يستيقن أنه من الله، وليس ذلك شرطا فى متلقى الإلهام.

(٢٧٠) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما.

(٢٧١) مثل ألا يكون الخبر ممتنعا عقلاً، وأن يكون المخبر به محسوسا.

(٢٧٢) اللجأ مصدر معناه: الحصن والملاذ.

(٢٧٣) من معانيه السمرة والسواد.

(٢٧٤) أي التعبد بمناجاة الله.

(٢٧٥) الملقب بالأشرم، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة. وكان فى الأصل عبدًا لرجل رومانى. واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن، وكان مسيحيا. بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١م. انظر دائرة المعارف الإسلامية.

(٢٧٦) مفردها غلاف.

(٢٧٧) من هنا حتى ما قبل موضوع «التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم» من رسالة التوحيد هذه، نشر أيضًا فى كتاب «الإسلام والرد على منتقديه» ص ٩١ ـ ١١٨. ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص.

(٢٧٨) الهينمة: الصوت الخفى.

(٢٧٩) الإشارة إلى أثر التعاليم الإسلامية التى اقتبسها الغرب من الأندلس، وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية.. إلخ فى حركة الإصلاح فى أوروبا. وسيأتى لنا تعليق خاص بهذا الأمر فى الفصل الخاص بانتشار الإسلام من رسالة التوحيد هذه.

(٢٨٠) الإشارة هنا إلى الديانة الموسوية.

(٢٨١) إلقاء الحوادث وإلهامها.

(٢٨٢) لقن الكوارث: كلامها المباشر ودلالاتها.

(٢٨٣) الإشارة هنا إلى المسيحية.

(٢٨٤) الجنس، فى المنطق، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ما هو. انظر «المعجم الفلسفى».

(٢٨٥) الفصل فى المنطق، هو جملة الموضوعات التى تربط بينها صفات مشتركة، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع كالناطق بالنسبة إلى الإنسان. وإذا ميز النوع عن مشاركيه فى الجنس القريب، سمى «بالفصل القريب». وإذا ميزه عن مشاركيه فى الجنس البعيد سمى «بالفصل البعيد». انظر المرجع السابق.

(٢٨٦) هى الكلى الدال على نوع واحد فى جواب أى شيء هو، لا بالذات، بل بالعرض.. وتطلق على ما ليس داخلاً فى الماهية ولكنه يميز الشيء، كما تطلق على ما هو ملازم للشيء على الدوام، إلخ.. إلخ.. انظر المرجع السابق.

(٢٨٧) فى مناسك الحج.

(٢٨٨) أى خلصها.

(٢٨٩) الإشارة إلى المتنبئين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشهرهم مسيلمة الكذاب.

(٢٩٠) عند فتح العرب لمصر، كان الفلاح المصرى يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة، اختصرها العرب إلى ضريبتين اثنتين، معلومتى المقدار وميعاد السداد، متناسبتين مع الوضع الاقتصادى الذى يعيش فيه. انظر دراستنا عن «أرض مصر وفلاحها من الفتح العربى إلى الإقطاع الحربى». مجلة «الهلال»، عدد سبتمبر سنة ١٩٧٠م.

(٢٩١) انظر: فان فلوتن: «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية». ص ٥٢ وما بعدها. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، محمد زكى إبراهيم. الطبعة الثانية، القاهرة.

(٢٩٢) الأمير هو عمرو بن العاص، والى مصر، والمرأة قبطية مسيحية.

(٢٩٣) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

(٢٩٤) فى الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦-١١٩٢م).

(٢٩٥) فى الفصل الخاص بالقرآن، أشرنا إلى تبنى الإمام لرأى ذلك الحكيم الغربى الذى أرجع الإصلاح الدينى فى أوروبا المسيحية إلى تعاليم الإسلام المقتبسة من أهله.. وهنا يعود الأستاذ الإمام للحديث عن هذا الأمر، مشيرا إلى «الآداب التى جمعها الصليبيون المحاربون فى المشرق، والمكاسب العلمية التى اكتسبها «سفراء» أوروبا من الأندلس، وثمرة كل ذلك التى تجسدت فى حركة الإصلاح الدينى المسيحية، وكيف جاء المذهب الجديد «البروتستانتية» قاب قوسين أو أدنى من الإسلام».. وللمرحوم الأستاذ أمين الخولى بحث نفيس فى هذا المقام عنوانه «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية»، (سنة ١٩٣٥م)، قدم فيه دراسة علمية تثبت بالأدلة والبراهين ما أشار إليه فى إجمال هنا الأستاذ الإمام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأستاذ الخولى قد عاب فى نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه فى الطبعة السابعة من رسالة التوحيد سنة ١٣٥٣هـ سنة ١٩٣٤م، وضعه لهذه الفقرة عنوانا فرعيا هو «اقتباس الإصلاح الدينى فى أوروبا من الإسلام» بحجة أن كلام الأستاذ الإمام لا يشير إلى الاقتباس. ولكننا نرى وبين أيدينا الطبعة الثالثة من «رسالة التوحيد» أن نص الأستاذ الإمام فيها يشهد بسبقه بالإشارة إلى ما أبدع فى دراسته بعد ذلك الأستاذ الخولى، عليهم جميعا رحمة الله.

(٢٩٦) أفرادا مغرقين فى الفردية، ضد التضامن والجماعية.

(٢٩٧) الجنة، بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة: من معانيها: الجنون، وهو المراد هنا.

(٢٩٨) تعد كتابات الأستاذ الإمام، التى تتناول علاقة الإسلام بالحضارة، ووضع المسلمين إزاءها، وفاء بوعده هذا. وهى مقالات وأبحاث جمعناها فى أعماله الكاملة، أما فى حياته، فلم يخرج كتابا متكاملاً فى هذا الموضوع.

(٢٩٩) هذه المسألة من المسائل التى أثارت جدلاً قديما بين المفكرين. فالغزالى، مثلاً، يرى تكفير من ينكر الأوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص، بما فى ذلك حشر الأجساد والعقوبات الحسية. بينما يرى ابن رشد أن هذه الأوصاف الحسية «تمثيل» يهدف إلى الإقناع للجمهور؛ لأن «تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية».. والأستاذ الإمام هنا يميل إلى رأى ابن رشد فى هذا الموضوع. انظر «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» للغزالى، ص ٤، طبعة القاهرة، سنة ١٩٠٧م. و«تهافت التهافت»، لابن رشد، ص ١٣٤، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

(٣٠٠) انظر فى رأى المعتزلة حول هذه القضية كتابنا: «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية» الفقرة الخاصة بالرؤية من فصل «الأصول الخمسة لأهل العدل والتوحيد». ومنه نعلم أن هذا اللقاء بين الفريقين الذى يتحدث عنه الأستاذ الإمام لم يحدث، ويصعب أن يحدث.

(٣٠١) هو عبد الله الحسين بن على البصرى (٣٠٨-٣٩٩ هـ). كان تلميذاً لأبى هاشم عبد السلام ابن محمد الجبائى، وهو معدود فى الطبقة العاشرة، من طبقات المعتزلة. انظر المنية والأمل، ص ٦٢ - ٦٦ .

(٣٠٢) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ (النمل: ٤٠).

(٣٠٣) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (آل عمران: ٣٧).

(٣٠٤) الإشارة إلى قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم. انظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها).

(٣٠٥) أى زكريا.

(٣٠٦) هو التصوف.

(٣٠٧) وهى مقالة أجاب بها الأستاذ الإمام عن سؤال سأل صاحبه عن كيفية الجمع فى القرآن بين الآية القائلة: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا﴾ (النساء: ٧٨). وبين الآية التى تقول: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾. (النساء: ٧٩).

(٣٠٨) فى حفل أقامته مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، بالإسكندرية، بمناسبة امتحانات تلامذتها، جاء ذكر القضاء والقدر على لسان أحد التلاميذ، فعلق الأستاذ الإمام على الموضوع فى خطابه، ونشرت «المؤيد» تلخيص هذا التعليق فى العدد ٣٣٩٧، الصادر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣١٩هـ (سنة ١٩٠٠م).

(٣٠٩) هى رسالة جوابية توجز رأى الأستاذ الإمام فى قضية الجبر والاختيار، وهو يقف به إلى جانب القائلين بالحرية الإنسانية فى تراثنا العربى الإسلامى.

(٣١٠) لخص الشيخ رشيد رضا هذه السطور من حديث للأستاذ الإمام فى أحد دروسه.

(٣١١) جريدة «المنار» العدد ٤٤ السنة الأولى، وهى فى الأساس ترجمة قام بها الأستاذ الإمام لكلمات «بسمارك». وإثباتنا لها فى أعمال الأستاذ الإمام، يرجع إلى عامل اختياره لها؛ كى تعبر عن فكره وموقفه من الإيمان بالدين.

(٣١٢) أى الإمبراطور الألمانى.

(٣١٣) فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣م، التقى الأستاذ الإمام بالفيلسوف الإنكليزى «سبنسر»، فى مصيفه فى «برايتون» بجنوبى إنجلترا. وانتهز الفيلسوف الفرصة، برغم مرضه وشيخوخته وأوامر الأطباء بألا يزيد حديثه للزائر على عشر دقائق، فدعا الأستاذ الإمام إلى الغداء. ودار بينهما حديث طويل، هذا موجزه الذى سجله الشيخ رشيد رضا عن الأستاذ الإمام، أضفنا إليه ما جاء فى مذكرات «بلنت» الذى رتب هذه الزيارة وحضرها.

(٣١٤) كان ذلك سنة ١٨٨٣م، عندما بعث جمال الدين الأفغانى بالأستاذ الإمام من باريس إلى إنجلترا

ممثلاً لجمعية «العروة الوثقى» السرية.

(٣١٥) مذكرات «بلنت». ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣، «لندن» كوكب الشرق ١٠ سبتمبر ١٩٣٢م.

(٣١٦) بعد انتهاء زيارة الإمام لسبنسر، انصرف مع «بلنت» ودار بينهما هذا الحوار حول الموضوع الأخير الذى تحدث فيه سبنسر إلى الأستاذ الإمام. مذكرات «بلنت» عن يوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣م فى لندن، «كوكب الشرق» فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢.

(٣١٧) وجد الشيخ رشيد رضا هذا التعليق فى «مذكرة جيب» خاصة بالأستاذ الإمام، عقب تلخيصه لحديثه مع «سبنسر» فيها.

(٣١٨) رد الأستاذ الإمام بمقاله هذا على فرح أنطون، عندما كتب فى «الجامعة»، سنة ١٩٠٣م، دراسته الشهيرة عن «ابن رشد وفلسفته». انظر كتاب فرح أنطون بهذا العنوان. طبعة الإسكندرية ١٩٠٣م.

(٣١٩) وهو موضوع الاضطهاد فى النصرانية والإسلام.

(٣٢٠) أى الذى يرى للكون والوجود علة فاعلة، وهو فى مقابل الفيلسوف المادى.

(٣٢١) وهم غير المعتزلة، إذ المعتزلة ينزهون الخالق عن الصفات الوجودية، حتى لا تكون هناك صفات قديمة معه، وهم أصحاب موقف تنزيهى يجرد الذات الفاعلة القديمة من كل الصفات مخافة شبهات الإشراك بالله.

(٣٢٢) والإيجاد من العدم البحت هو موقف الأشاعرة. أما المعتزلة، فلهم فى ذلك نظرية تسمى بنظرية «المعدوم» الذى كانت عليه الأشياء قبل وجودها. والأشياء فى حالة «المعدوم»، هى ما يسميها ابن رشد الأشياء فى حالة «الوجود بالقوة» وقبل أن تنتقل إلى مرحلة «الوجود بالفعل». راجع الفصل الذى قدمناه عن هذا فى كتابنا: «المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد»، طبعة دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٧١.

(٣٢٣) أى أن الأستاذ الإمام يفرق بين الجدل الكثير الذى أثاره المتكلمون حول هذا الموضوع، وبين ما يمكن أن يفهمه المجتهد فى القرآن فى هذا المقام. وذلك لأن القرآن قد اكتفى فى مثل هذه المواقف بالكليات والعموميات التى أراحت العقل الإنسانى من التفاصيل، وأطلقت له العنان، دونما حرج أو قيود. راجع حديث الأستاذ أمين الخولى عن «التطور»، فى مقدمة كتابه: «المجددون فى الإسلام»، الجزء الأول. دار المعرفة. القاهرة، سنة ١٩٦٥م.

(٣٢٤) والتوليد هو فعل الإنسان غير المباشر، المتولد عن فعله المباشر، أو عن فعل متولد عن فعل مباشر.. إلخ.. وذلك مثل الوفاة الناشئة عن رمى حجر من فوقِ جبل. فرمى الحجر فعل مباشر، وإصابة الحجر، دون قصد الرامى، إنسانا وإماتته، فعل متولد عن الفعل المباشر (راجع الجزء التاسع من المغنى فى أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار الهمدانى).

(٣٢٥) الشيعة الإمامية ورأسهم الإمام جعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥ م). ولقد كان يرى رأى المعتزلة فيما عدا موضوع الإمامة. ومثلهم الشيعة الزيدية الذين ينتسبون إلى الإمام زيد بن على المتوفى سنة ٧٣٤م. راجع «باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل» لأحمد بن يحيى المرتضى، ص ١١ - ١٥.

(٣٢٦) هو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازى المعروف بابن الخطيب، والمولود بمدينة الرى سنة ٥٤٤. أو سنة ٥٤٣ هـ والمتوفى ٦٠٦ هـ.

(٣٢٧) وهو المولود بالرى سنة ٢٤٠ هـ سنة ٨٥٤م، والمتوفى ببغداد سنة ٣٢٠ هـ ـ سنة ٩٣٢ م . ولعل فى ذكر الأستاذ الإمام لمحمد بن زكريا الرازى هذا بين علماء «أهل السنة» نظرا، لأن آراءه فى الهيئات والنبوات لا أعتقد أنها تضعه فى هذا الموضع (راجع رسائل فلسفية» جمع وتصحيح ب. كراوس. جـ ١ . طبعة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٩م، و«طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل. تحقيق فؤاد سيد، ص ٧٧ ، ٧٨، وكذلك «مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود، ومعه فلسفة محمد بن زكريا الرازى» للدكتور س. بينيس (D. R. S Qpines) ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٤٦م). وهناك بهذا الاسم «أبو بكر الرازى» من يذكره ابن المرتضى فى الطبقة التاسعة للمعتزلة وهو أبو بكر محمد بن إبراهيم المقانعى الرازى، ومن يذكره فى طبقات المعتزلة «الطبقة الثانية عشرة» باسم «أبو بكر الرازى». راجع «الباب الرابع من كتاب المنية والأمل فى شرح الملل والنحل. لابن المرتضى» وراجع كذلك قدرى حافظ طوقان «تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك»، ص ٢١٠ ـ ٢٢٢، طبعة دار القلم. الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣م.

(٣٢٨) لم أستطع الوصول إلى تحقيق هذا الاسم، إذ إن هناك تسعة أعلام يلقبون بالرازى، هم: أبو حاتم محمد بن إدريس، وابن سلم عبد الرحمن بن محمد، وأبو بكر محمد بن زكريا، والإسماعيلى أحمد ابن حمدان، وأبو الفتح سليم بن أيوب، والفخر محمد بن عمر، والحنفى محمد بن إبراهيم، واللغوى محمد بن أبى بكر ، والقطب محمد بن محمد، وليس من بينهم محمود الرازى، راجع «الأعلام» لخير الدين الزركلى، جـ٣، الطبعة الثانية ص ٣٢ .

(٣٢٩) هو المتكلم الأشعرى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.

(٣٣٠) وبرغم إيثار الأستاذ الإمام عدم إبداء الرأى الخاص فى هذا الموضوع، فإن إشارته هذه كافية فى الدلالة على أنه إنما يقف إلى جانب وجهة النظر الأخرى. . ونحن نعلم أنه كان يرى رأى معتدلة أهل الاعتزال فى هذا المقام.

(٣٣١) والإشارة هنا إلى الدين المسيحى، وإلى الإنجيل الذى يبشر المؤمنين به بهذه القدرة إذا ما توافر لهم الإيمان.

(٣٣٢) والإشارة هنا للمسيحية كذلك.

(٣٣٣) فى سورة البقرة (٢) الآية ١٦٤ : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.
وفى سورة آل عمران (٣) الآية ١٩٠ : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾.

(٣٣٤) تخليط ومشقة وعسر.

(٣٣٥) الفيلسوف المشائى، لقب أطلق على أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة محصلى الحكمة المشائية القائمة على البحث والحجج المنطقية. ولقد جاهد ابن رشد ليعيد للفكر الفلسفى المشائى، لدى

العرب المسلمين، نقاءه بعد أن خلطه الفارابي وابن سينا بكثير من آراء المدرسة الإشراقية الفلسفية . . أما المدرسة الإشراقية في الفلسفة، فهي التي تقوم معارفها على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية، وتسمى بالعلم الحضوري، وهي عكس المشائية . وعلى حد تعبير قطب الدين الشيرازي، فإن الإشراقيين لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورية، أي لوامع نورية عقلية تكون مبنى الأصول الصحيحة التي هي القواعد الإشراقية . راجع في ذلك : د. محمد على أبوريان «أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي»، ص ٥٨-٦٣ . الطبعة الأولى . مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩م . وكذلك «المعجم الفلسفي» : يوسف كرم، ود. مراد وهبه، ويوسف شلاله، طبعة مكتب يوليو . القاهرة ١٩٦٦م .

(٣٣٦) والإشارة هنا إلى النظرية المعروفة بنظرية الفيض، التي تعتمد الفيض سبيلاً لتصور صدور الموجودات عن الواحد الأول . وهي نظرية إشراقية رفض ابن رشد أن تكون ما يرضاه الفلاسفة المشاءون . ولقد سبقت إشارتنا إلى هجومه على الفارابي وابن سينا لقولهما بهذه النظرية . وهناك من يرى أن الفارابي «أول من أدخل مذهب الصدور في الفلسفة الإسلامية» . وقبل ذلك، نجد هذه النظرية، وأصولها وجوهرياتها، لدى البراهمة والأفلاطونية المحدثة . راجع في ذلك «المعجم الفلسفي» : مادة «صدور» (Emanation)، ود. محمد على أبو ريان : «أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي» ص ١٤٦ - ١٧٤ . ود. محمود قاسم : «نظرية المعرفة عند ابن رشد، وتأويلها لدى توماس الأكويني» ص ٨٢-١٢٣ . طبعة مكتبة الأنجلو المصرية . بدون تاريخ .

(٣٣٧) أي متكلمي الأديان الأخرى، غير الإسلام .

(٣٣٨) ويسمى العقل المنفعل كذلك، وهو عبارة عن الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال . وإنما نسب إلى الهيولى ؛ لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها . راجع «المعجم الفلسفي»، مادتي : «عقل هيولاني» . و«عقل منفعل» .

(٣٣٩) هو عبارة عن العقل الهيولاني، «وقد حصل فيه المقولات الأولى» . المرجع السابق، نقلاً عن «نجاة» ابن سينا .

(٣٤٠) والتعريفات التي يذكرها «المعجم الفلسفي» للعقل المستفاد، نقلاً عن ابن سينا، هي أنه : «ماهية مجردة عن المادة، مرتسمة في النفس على سبيل أصول من الخارج» . . . وأيضا : «هو أن تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه وهو يطالعها ويعقلها بالفعل، ويعقل أنه يعقلها بالفعل» . . وأيضًا : «هو العقل الكائن بين العقل الفعال والعقل المنفعل» .

(٣٤١) والمرجع السابق ينقل عن رسائل ابن سينا وحدوده، تعريفا للعقل بالفعل أنه «استكمال النفس في صورة ما، أو صورة معقولة، حتى متى شاء عقلها وأحضرها بالفعل» .

(٣٤٢) الهوية هي «الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الأغيار»، كما أنها «تقال بالترادف عن المعنى الذي ينطلق عليه اسم الموجود» . راجع . «المعجم الفلسفي» .

(٣٤٣) ورد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هذا على فرح أنطون قد كتبه الأستاذ الإمام بالإسكندرية في

٦ أغسطس سنة ١٩٠٢م. ثم نشر بالمنار، ثم بكتاب فرح أنطون «ابن رشد وفلسفته» وشغل فيه الصفحات ٨٨-٩٧ . راجع كذلك محمد رشيد رضا، «تاريخ الأستاذ الإمام»، جـ١، ص ٨٠٦ . الطبعة الأولى. مطبعة المنار القاهرة ١٣٥٠ هـ. سنة ١٩٣١م.

(٣٤٤) فتوى للأستاذ الإمام، متضمنة السؤال الذى ورد إليه بخصوص موضوعها، من الشيخ عبد الله قدومى، خادم العلم الشريف بمدينة نابلس، بفلسطين.

(٣٤٥) هجرية: سنة ١٩٠٠م.

(٣٤٦) نشرت «المنار» فى الجزء الثالث عشر من السنة السابعة - (غرة رجب سنة ١٣٢٢هـ - ١١ سبتمبر سنة ١٩٠٤م) - نص السؤال الموجه للأستاذ الإمام من «محمد موسى» من «محلة فرنوى» بحيرة - بخصوص التوسل بالأنبياء والأولياء، وجواب المفتى عن هذا السؤال. ونحن نورد هنا نص السؤال قبل إيراد فتوى الأستاذ الإمام حتى تكون ملابسات الجواب حاضرة للقارئ فينتفى مجال التأويل أو التزيد فى الموضوع.

(٣٤٧) أى يفيد الحصر... ولعل كلمة «الحصر» قد سقطت من الأصل.

(٣٤٨) هجرية - سنة ١٩٠٤م.

(٣٤٩) فى يوليو سنة ١٩٠٤م، زار الأستاذ الإمام قرية «بهادة» بجهة «فم البحر»، وشهد منزل عمدتها الشيخ عبد المؤمن موسى حوارا خصبا شارك فيه الأستاذ الإمام، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الدلاصى من المتصوفة، ووالد العمدة «أبو زيد أفندى موسى». وحضر هذا المجلس جمع من العلماء، من بينهم شيخ الجامع الأزهر: الشيخ على الببلاوى، والشيخ أبو الفضل الجيزاوى، والشيخ سليمان العبد. وكان غرض عمدة القرية أن يجرى الحوار عن الصوفية والتصوف بين الأستاذ الإمام، والشيخ محمد الدلاصى.

(٣٥٠) علق الشيخ رشيد رضا هنا بقوله: «إننى لا أجزم بأن الأستاذ ساق التقسيم على هذه الصورة من التمثيل، ولكننى أعلم أنه ذكر قسمين: منهما ما يدخل فى الكسب ويعاون فيه الناس بعضهم بعضا، كالمال، ومنهما ما ليس كذلك، وقال: إنه لايصح قياس أحدهما على الآخر، فالمعنى واحد وإن اختلف التمثيل أوجاء بزيادة كلمة أو نقص كلمة». «المنار» المجلد السابع ص ٤٣٦ .

(٣٥١) عند هذا المكان من الحوار، علق أحد الشيوخ العلماء بقوله: «إن فى مصر نسخة من العهود بخط الشعرانى تنقص عن النسخة المطبوعة بنحو الثلث. فلا شك فى أن كل هذه الأمور المنكرة شرعا فى كتب الشعرانى من الدسائس عليه»... فقال الأستاذ الإمام: «وهذا الذى يغلب على ظنى، وأنا أعتقد أن الطبقات والمنن ليستا من تأليفه بالمرة».

(٣٥٢) وخطاب الأستاذ الإمام هنا هو للشيخ الدلاصى..

(٣٥٣) هذا الحديث للأستاذ الإمام، مستخلص من حوار دار بينه وبين الشيخ رشيد رضا، يوم الخميس ٦ شعبان سنة ١٣١٥ هـ - سنة ١٨٩٨م.

(٣٥٤) هو الاعتقاد بحلول الذات الإلهية فى موجود من مخلوقاته، وظهوره فى صورته. ويكون الحلول فى كل أو فى بعض أجزاء ذلك المخلوق.

(٣٥٥) قوة حاكمة على القيم الجمالية، يجعل منها الصوفية بديلاً للعقل، تحكم عندهم فيما لا يستطيع العقل بلوغ كنهه من عالم الإلهيات.

(٣٥٦) الخطاب موجه للشيخ رشيد رضا .

(٣٥٧) هو ميرزا أبو الفضال الجوزقانى، إيرانى الأصل. أقام بعكا زمن الحكم العثمانى، وألف فى الدعوة إلى البهائية .

(٣٥٨) هو نجل «البهاء» ومنظم الدعوة البهائية . أقام علاقات بالأستاذ الإمام عندما كان ببيروت، وكان من حضور مجالسه ودروسه، وظل يراسله بعد عودته إلى مصر .

(٣٥٩) للأستاذ الإمام فى هذا المعنى قوله عن المذاهب والأديان القديمة الباطلة : «إن أصول تلك الأديان والمذاهب حق، ثم طرأ عليها الباطل، فبعضها ثابت بما فيه من الحق، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع . فالنظام حق، وهو ثابت باق بذاته وما فى الجمعية أو المذهب من الباطل تابع له باق به، مع عدم معارضة أهل الحق لما فيه من الباطل» .

(٣٦٠) يقول الشيخ رشيد إن الإمام ذكر فى نقد الشيعة «ما لم يأذن بنقله عنه فى حياته، وأرى الحكمة فى ترك التصريح به بعد وفاته، وإنما أقول: إن حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية» .

(٣٦١) وكان الشيخ رشيد قد أعطى الأستاذ الإمام رسالة بخط ميرزا فضل الله فيها بيان مذهبهم، فقرأها الإمام واستحسنها .

(٣٦٢) تلخيص للدرس الذى ختم به الأستاذ الإمام دروس المنطق التى ألقاها على طلابه بالأزهر، سنة ١٣١٨هـ. سنة ١٩٠٠م.

فهرس تفصيلى للموضوعات

رقم الإيداع ٢١٥٨٥ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 09 - 1449 - 2



